المركز القومى للترجمة



الثورة والتمرد والمقاومة

قوة الحكاية

تأليف: إيريك سيلبين
ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى

المشروع القومى للترجمة

1940

يزعم البعض أنه مع الانتصارات المفترضة لليبرالية والرأسمالية - قد بلغت حكاية ثورات الحرية والتحرر نهايتها، ويبدو هذا غير محتمل؛ إذ إن عجز السياسات الاقتصادية النيوليبرالية والديمقراطية النيوليبرالية عن إحداث تحول جذرى إلى الأفضل فى حياة الناس يعني أن حكاية ثورة الحرية والتحرر سوف تبقى حكاية ذات مغزى، ورغم أن الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية ما زالت مهيمنة على كل تصور لما هو ممكن، فيجب ألا نتركها تحجب مصالح أو رغائب من تهمشهم وتقصيهم، أو تحيطها بالضباب.

كتاب على درجة كبيرة من الأهمية يناقش فكرة الثورات فى العصر الحديث وتطورها ومآلاتها واستمرار حكايتها على مر التاريخ.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

الثورة والتمرد والمقاومة
قــوة الحكـــاية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1940
- الثورة والتمرد والمقاومة: قوة الحكاية
- ايريك سيلبين
- أسامة الغزولى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

Revolution, Rebellion, Resistance: The Power of Story
By: Eric Selbin

First published in English in 2010 by Zed Books Ltd.
7 Cynthia Street, London N1 9JF, UK AND Room 400, 175 Fifth Avenue, New York NY 10010, USA

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

الثورة والتمرد والمقاومة
قوة الحكاية

تـــــــــــــأليف: إيريك سيلبين

تــرجمــة وتقــديم: أسامة الغزولى

2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سلبين ، ايريك
الثورة والتمرد والمقاومة: قوة الحكاية / تأليـف: إيريك سيلبين؛
ترجمة وتقديم: أسامة الغزولى.
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢
٤٢٠ ص، ٢٤ سم
١ - الثورات - أخلاقيات
(أ) الغزولى ، أسامة (مُترجم ومقدم)
(ب) العنوان ١٧٢,١
رقم الإيداع: ١٦٨١٤ /٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 778 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقـديم

هذا كتاب عن الدور المهم الذى تلعبه الحكايات فـى صـنع أشـكال المقاومـة واستدامتها، وفى تفجير التمردات والثورات. ولهذا فالمؤلف معنىّ بـالوعى الجمعـى، بالحكايات التى يصنع بها الناس ماضيهم بهدف امتلاك حواضرهم وتقريـر مـساراتها إلى المستقبل. لكن الماضى غالبًا ما يصاغ لنا. تصوغه حكايات المنتصرين الأقويـاء. التى تبقى ويتوارثها عنهم الناس جيلاً بعد جيل. وفى لحظـة فارقـة تعجـز الحكايـا المهيمنة عن مواصلة أداء دورها فى الهيمنة على العقل الجمعى وفى إضفاء الـشرعية على العلاقات الاجتماعية - السياسية، ويتعين عندئـذ ظهـور حكايـا جديـدة تـزيح الحكايات القديمة أو تكتفى بإعادة صياغتها، حسب درجة نضج الظرف الثورى.

هكذا تولد معرفة جديدة يمكن أن نسميها "المعرفة المضادة". وفـى ورشـة عمل نظمها مركز دعم التنمية بالقاهرة واستمرت من الرابع والعشرين حتى الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١ تحت عنوان "معًا: التخطيط للحمـلات" ظـل الناشـط البرازيلى آرماندو دى نيغرى، الذى مثل "حركة صحة الـشعب" البرازيليـة فـى الورشة، يتحدث طوال أيام العمل الخمسة عن ضرورة خلق "معرفة مضادة" تحـل محل "المعرفة المهيمنة" كشرط للتخلص من الأوضاع التى تحرم الفقراء ومتوسطى الدخل فى أى بلد من بلدان العالم من حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتـصادية. وكمثال على المعرفة المهيمنة والمعرفة المضادة يمكن أن نشير إلى مسألة الحـق فى العلاج؛ فالعلاج، شأنه شأن التعليم، هو "سلعة" لا يجب أن تقدم إلا لمـن يقـدر على دفع ثمنها. هذه هى المعرفة المهيمنة، عالميًا، منذ ثورة اليمين التى أطلقها فى ثمانينيات القرن الماضى رونالد ريغان فى الولايات المتحدة ومارغريت تاتشر فى

المملكة المتحدة. وفى إطار البرامج التى تولدت عن هذه الرؤية تدار الخدمات الصحية على أساس تجاري. أما المعرفة المضادة التى لابد من تكريسها، كمدخل إلى إصلاح سياسات العلاج، فهى تقوم على أن العلاج والتعليم "حق" تكفله الدولة لكل مواطن/ مواطنة، ولهذا فيتعين أن تدار الخدمات الصحية وفق قواعد سياسية.

لا يتعلق الأمر هنا بوضع شعار مثل "العلاج حق" محل شعار آخر مثل "العلاج سلعة" ولكن الذى يطلبه آرماندو هو خلق منظومة معرفية جديدة تقتلع القديمة. هنا تتخلق حكاية جديدة عن أباطرة الطب الذين يبيعون الدماء والكلى وفصوص الأكباد، وعن المرضى الذين تلفظهم المستشفيات الخاصة لأنهم عاجزون عن دفع الفاتورة الباهظة وعن شباب الأطباء من التنظيمات الأهلية الذين يفعلون ويتفاعلون. وتحل كل حكاية من هذه الحكايا محل حكايا قديمة مجدت المبادرات الخاصة لأشخاص هم الآن وراء القضبان متهمين بأبشع التهم. وتحشد هذه الحكايا حتى تتيسر تعبئة الناس من أجل إرساء قواعد جديدة للحياة الاجتماعية، أو لتغيير بعض القواعد أو لمقاومة القواعد المهيمنة. هذه المستويات النازلة رأسيا، فى عرضنا للخيارات الممكنة أو المتصورة لحملة من أجل مقاومة تحسين نظام الخدمات الصحية أو هدمه وإقامة نظام بديل له، هى المشار إليها عادة باسم الثورة، والتمرد، والمقاومة؛ أو التغيير الشامل، التغيير الجزئى، الرفض والممانعة.

فوفقا لما يدفع به إيريك سيلبين فى كتابه هذا، فعندما تمضى الأنشطة التحويلية باتجاه "تغيير الشروط المادية والأيديولوجية" لجماعة وطنية، تغييرا شاملاً، نكون بإزاء ثورة. وعندما تستهدف بعض قوى النظام أو بعض سياساته، نكون بإزاء تمرد، وعندما تقف الجهود عند تعطيل بعض النشاطات أو إظهار السخط عليها نكون أمام حالة مقاومة. وقد شعر بعض المشاركين فى ورشة العمل يوم الخامس والعشرين من يناير، عندما كان آرماندو دى نيغرى وهالة شكر الله وعلاء شكر الله ومدحت الزاهد وموبما ماريا وغيرهم يتكلمون عن إستراتيجيات مختلفة

للتغيير، داخل قاعة مغلقة بأحد الفنادق، فيما الشارع المصرى يمور بحركة غير مسبوقة، بأنه ربما كان ما نتحدث عنه قد تجاوزه الزمن المصرى المتجمد الذى سال فجأة وهدد بتسييل الزمن العربى كله. وعندما صاحت هالة شكر الله معلنة استحالة البقاء داخل جدران فندق فيما العالم يتغير ومنادية بضرورة الخروج إلى الشارع لمعانقة اللحظة التاريخية. ركض البعض إلى الميادين، وركضت أنا إلى بيتى لأشاهد قناة البى بى سى العربية. وطوال الثمانية عشر يوما من أيام الانتفاضة كنت أترك الشاشة لعدة ساعات أحوم فيها حول الميدان وفى الشوارع المفضية إليه – دون أن أسمح لنفسى باقتحامه بوهم أنى جزء من العملية الثورية – للحديث إلى بعض المشاركين فيما يجرى.

وثبت لى أن هناك مستحيلات فى هذه اللحظة: مستحيلاً أن تقنع بحكايات شاشة واحدة، مستحيلاً أن تستغنى بحكايا الشاشة / الشاشات عن حضور الحدث، مستحيلاً أن تستغنى بشهادة الحدث عن متابعة الشاشات والوكالات والمدونات والصحف، مستحيلاً أن تلم بكل ما يجرى. كنت أراقب الحدث واقفا على حافته. رأيت شيئا يفعله جيل لا أنتمى إليه لكنى أتعاطف معه بكل قوة – مع الجيل ومع خياراته – لأنه أحدث تجليات الروح المصرية؛ رأيت شيئا بدا مبهجا فى صورته العامة، اقتربنا من طابعه المبهج عبر الدم والغازات والحرائق والرعب؛ شيئا مبهجا حقا، لكنى لم أطمئن إليه إلا بعد قرابة شهر على انبثاقه. ربما لأنى دربت نفسى منذ سنوات طويلة على أن أتوجس من اللحظات التاريخية الفاتنة، وربما لأنى أرى أن أهم العوامل التى فجرت اللحظة الثورية هى الديموغرافيا والتكنولوجيا، وكلاهما يدفع بمثلى إلى موقف المراقب المتعاطف أو المناصر الذى قد يقدم المشورة.

وأهم ما وضح لي، أو ما تخيلت أنه حقيقة تتضح لي، هو أن الشعارات المطلبية المطروحة تؤسس لمعرفة جديدة، ليست بالضرورة متصادمة مع المعرفة

المهيمنة، لكنها تتملص نوعا ما من هيمنتها: معرفة بالوطن وبطريقه إلى الأمام خارج السرديات القومية والإسلاموية.

قد يكون من التهور أن نمضي إلى تسجيل هذه الرؤية الآن، لكن الواقع يلح علينا. وكما ضعفت السرديات القومية والإسلاموية المناهضة للحداثة في خضم أحداث شتاء الاحتجاجات المصري فقد تهاوت الطبعة المصرية من خرافة النيوليبرالية، باعتبارها ليبرالية بدون ليبراليين، كما تهاوت قبل أربعين سنة، خرافة الطبعة المصرية من الاشتراكية، لأنها كانت اشتراكية بلا اشتراكيين.

ولهذا كان من الطبيعي، وهو ما لم يدركه الكثيرون حتى كتابة هذه السطور، أن يسقط التاريخ خرافة ثالثة هي أن فرادة مصر – التي لا ينكرها أحد - تضعها في سياق يجعل ما يجرى فيها استثناء من كل ما يجرى في الإقليم. صحيح أن كثيرين قبل ٢٥ يناير حذروا من أن ما جرى في ثورة الياسمين التونسية قد يجرى عندنا، لكن عندما تحققت النبوءة تناساها الجميع ووقعوا أسرى الافتتان بما يجرى، وقد كان فاتنا حقا، لدرجة تصوروا معها أنه مختلف عما جرى أو يجرى في أى بلد آخر. ولم يعترف أحد، في حدود علمي، بقوة النموذج التونسي في تفعيل عنصر من العناصر التي تصنع اللحظة الثورية: عنصر المحاكاة.

وبعد أن بدا للجميع أن ما يجرى قد يكون تحركًا باتجاه نقطة فارقة في التاريخ الوطني، بدأت المقارنة بلحظات سابقة واختارت الذاكرة الجمعية هبّة ١٩١٩ باعتبارها الأصل التاريخي للهبة الراهنة، ولي رأى يخالف هذا الرأى لكن هذا ليس محل التعبير عنه. ولم يكن دور الذاكرة إنعاش النفوس بعاطفة ماضوية، ولكنه كان حشدا للقوى للمضي نحو ليبرالية حقيقية مناقضة لما اعتبره صناع التغيير ليبرالية زائفة؛ لأنها ليبرالية بلا ليبراليين. هذا هو السبب في اختيار ١٩١٩ كنقطة بداية – بأثر رجعي - لأن يوليو ١٩٥٢ أسست لاشتراكية بلا اشتراكيين، وهو ما يرفضه الناس اليوم.

بـــ "الخرافة والذاكرة والمحاكاة" يصنع الناس اللحظات الفارقة. فماذا يصنع المصريون منذ الخامس والعشرين من ينـــاير ٢٠١١؟ إذا طبقنـــا المعـــايير التـــى يقترحها الكتاب لتحديد طبيعة اللحظة الثورية فسوف يتبين لنا أننـــا شـــهدنا حالـــة مقاومة، صعّدتها الإدارة السيئة من جانب الرئيس مبارك وحكومته إلى حالة تمرد، ولا يشير أى شيء إلى احتمال أن يتواصل التصعيد ليبلغ حالـــة الثـــورة. لكننـــا، وباستخدام تعبيرات ستجدها فى هذا الكتاب، نشهد "حالة ثورية" قـــد تـــسفر عـــن "محصلة ثورية".

ننتقل إلى نقطة أخرى لنسأل: هل هناك جدوى من دراسة الثـــورة إلا فـــى إطار الدولة القومية؟ يقول جيمس بيالينغتون فى كتابه الضرورى لكل باحث فـــى موضوع الثورة "نار فى عقول الرجال .. أصول العقيدة الثورية" إن المدينة هـــى بوتقة الثورة المعاصرة. ولو نظرنا إلى التراث الثورى من أسفل لوجدنا أنه سردية الاضطرابات الحضرية التى هيمنت عليها باريس ثم بطرسبورغ، علـــى التـــوالى. "وأضيف أنا أن المدينة الثورية هى عاصمة الدولة القومية التى تصبح فى لحظـــة فارقة مسرحًا". صراع عنيف تسعى القوى المنخرطة فيه إلى فتح طريـــق لأزمـــة وطنيه جائحة تهدد الكيان الوطنى بالانفجار من الداخل. هذه اللحظة الفارقـــة هـــى لحظة الثورة التى قد تفضى إلى فجر جديد أو إلى كابوس مخيف. وكل هذا علـــى مستوى قومى يتجاوز الطبقة والطائفة والحزب والتيار والعصبة والجماعة والقبيلة والأسرة والفرد. لقد كان ثوار فرنسا فى ١٨٧٩ أبناء لحظة لم يعد فيهـــا النظـــام القديم قادرًا على تلبية احتياجات التنمية التى لم تكن لتتحقق ما لم تتبـــوأ الطبقـــات الوسطى والشعبية فى فرنسا المكانة اللائقة بها على حساب الأرستقراطية ورجـــال الكهنوت. وكان الاقتصاد الفرنسى يعانى من أزمة وضعته على حافـــة الإفـــلاس بسبب ما أنفقه النظام على زعزعة نفوذ بريطانيا فى أمريكا الشمالية، ولـــم يكـــن

الخروج من الأزمة ممكناً مع بقاء الامتيازات الأرستقراطية والكنسية ومع تقييد مبادرات الطبقات الوسطى والشعبية. كل هذه اعتبارات وطنية خالصة.

صحيح أن شعارات الثورة تشير إلى رغبة فى تغيير فرنسا وتغيير العالم، ولكن ذكر أن ثورة الحرية والإخاء والمساواة بعثت بجيوشها وأساطيلها، بعد الثورة بسنتين، لتحاول إنشاء إمبراطورية مشرقية مركزها مصر. وهذا ما لا يتفق مع الحرية ولا مع الإخاء ولا مع المساواة. وقد كان أشياخنا يدركون هذه الحقيقة ويرمون بشعار الثورة الفرنسى على الأرض، بعد أن أجبرهم نابليون على تعليقه فوق ثيابهم. وبوسعك أن تقول الأمر ذاته عن الثورة الروسية فى ١٩١٧ وقمعها لشعبها وشعوب آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية. الثورة عمل تحويلى شامل فى إطار دولة قومية، وإن صدرت شعارات الثورة فلتأمين المصالح القومية.

قد يكون مفهوم الدولة القومية المتعارف عليه عالميا اليوم أوروبيا، وبهذا المعنى تكون الدولة القومية من نتاجات القرن التاسع عشر، وقد يدفع كثير منا بأن الدولة القومية موجودة فى مصر قبل ظهور هذا النمط من الدول فى أوروبا بآلاف السنين، ولكن الحقيقة أن الوطنية المصرية لم تكن حقيقة متعالية على تقلبات التاريخ، والأسلم أن نقول إن الدولة القومية فى مصر بدأت تتجسد منذ خرج الفرنسيون مهزومين من مصر بقوة المقاومة التى أحبطت حلم نابليون بتأسيس نقطة قوية عند ملتقى القارتين الآسيوية والأفريقية وبقوة العوامل الدولية التى سمحت بقيام تحالف عسكرى عثمانى – بريطانى مناهض للاحتلال الفرنسى لمصر.

ويهمنا فى هذا المجال أن ميلاد الدولة القومية فى مصر تعمد بدماء التمرد الذى خاضه المصريون بعد خروج الفرنسيين، فى نضالات مطولة استمرت من ١٨٠٥ وحتى ١٨١١ قوضت النظام المملوكى – العثمانى، وسمحت بوضع أسس لدولة حديثة.

وهكذا يتوثق الرباط بين الحركة الشعبية المسيسة والمسلحة وبين الدولة القومية خاصة بالنسبة لمن يحاول أن يدرسها فى إطار التاريخ المصرى.

وبالتالى فلا تبدو إشارات سيلبين المتكررة، فى كتابه هذا، إلى ثورة العبيد فى روما القديمة أو حتى الجمهورية السوداء فى هاييتي، وما شابههما من أحداث سبقت ظهور الدولة القومية، أمرا مفيدا لمن يدرس تاريخ الثورة الذى نوافق مؤلف كتاب "الثورة والتمرد والمقاومة – قوة الحكاية" على أنه يبدأ بالثورة الفرنسية، ولكننا نختلف معه فيما ذهب إليه من أن هذا التاريخ ينحصر، بكامله، بين قوسين كبيرين هما الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ والثورة الروسية فى ١٩١٧ ونرى أن زعمه هذا ليس إلا تعبيرا عن المركزية الأوروبية التى يسعى عبر صفحات هذا الكتاب إلى غسل يديه منها، دون نجاح.

وهناك أكثر من مشكلة حقيقية يواجهها قارئ هذا الكتاب؛ فالمؤلف يعطى انطباعًا بأنه يقف موقفا موضوعيا من الثورة الروسية فى ١٩١٧ لكنه، فى الحقيقة، يعالج فكرة الثورة من بداية الكتاب حتى نهايته وفق مفهوم لينينى خالص، وهو بالمناسبة مفهوم صحيح تماما، لكن مفهومه اللينينى لا ينبنى عليه موقف موضوعى من الثورة الروسية!!

يرى المؤلف أن الثورة هى المجهود المنظم الذى تبذله مجموعة منظمة تحظى بسند جماهيرى واسع للاستيلاء على السلطة بهدف إحداث تحول إلى الأفضل فى "الشروط المادية والأيديولوجية" لحياتهم. يظهر هذا المفهوم للثورة من الصفحة الرابعة عشرة ويبقى طوال الكتاب، وهو ما يذكرنا بالإجابة المقتضبة التى بدرت عن زعيم الثورة الروسية السوفييتية فلاديمير لينين عندما سئل عن هدف ثورة البلاشفة فقال: الكهرباء (الشروط المادية) ثم إنشاء السوفييتات (الشروط الأيديولوجية) المجالس العمالية – الفلاحية التى تسمح للشعب بأن يدير شؤونه بنفسه.

ورغم هذا لا يقف المؤلف طويلا أمام أهم الأسئلة التي تتصل بالثورة السوفييتية وبمستقبل الثورة في العالم ومنها: لماذا تحولت هذه الثورة إلى وحش يلتهم الحريات الفردية وحريات الجماعات المختلفة في الاتحاد السوفييتي، ثم بعد ذلك يلتهم حريات الشعوب الأوروبية والآسيوية المجاورة ويقضم أراضيها؟ لم تحولت دولة الثورة إلى كيان بيروقراطي ذي دروع أصبحت ثقيلة لدرجة جعلته يعجز حتى عن الحرب فاستسلم دون استخدام السلاح؟ (ولله الحمد على ذلك).

لماذا أصبحت الدولة السوفييتية قوة "استعمارية" وضعت أبناء "المستعمرات" خاصة في وسط آسيا (الجمهوريات المسلمة) وفي شمالها (منغوليا) على حافة العصور الحديثة، من الناحية الأقرب للعصور الوسطى؟

عند الإجابة عن هذه التساؤلات لابد أن نستدعي قوة الحكايا والحكايا المضادة منذ نهاية الحرب العالمية وحتى سقوط الاتحاد السوفييتي في مطلع هذا القرن، وقد كانت الحكايا بأسلحتها القوية المقروءة والمسموعة والمرئية (والمهموسة) من أقوى الأدوات التي ساعدت في جعل التجربة السوفييتية تقف عند تبرير ما تفعل ومحاولة الاستمرار على قيد البقاء، فكان الجمود الذي هو أول مقدمات الموت. لكن المؤلف لم يعن بتوضيح ذلك، على نحو كاف، إلا في الهوامش. ويمكننا هنا أن نقول إن المؤلف نفسه وقع أسير الحكاية الغربية عن الثورة السوفييتية، وأسير الحكاية الغربية عن الثورة بشكل عام.

والموقف الدولي الذي حاصر الثورة السوفييتية وكان له هذا التأثير السلبي عليها يضيف عنصرًا آخر لابد من مراعاته عند دراسة الثورات، وهو البعد الدولي. فالثورة لا تدرس إلا: في إطار الدولة القومية، كما ظهرت في القرن التاسع عشر، وفي ضوء الموقف الدولي المحيط بهذه الدولة. وهذه حقيقة واضحة منذ تحالفت القوى الملكية ضد الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر وإلى اليوم. وتتزايد قوة البعد الدولي مع تزايد قوة العولمة، لدرجة أن كل إنسان على

وجه الأرض، يكاد يعلن بوضوح، أن الثورات الملونة فى شرق أوروبا وصراعات الشعوب والجماعات العرقية المختلفة هى نتاج مباشر لجهود "مديرى العولمة" فى العواصم الغربية، فى واشنطن ولندن وأمستردام، ثم فى باريس وبرلين، تحديدا. فماذا عن دور "مديرى العولمة" فى تفجير اللحظات الثورية فى العالم العربى وشمال أفريقيا فى ٢٠١٠-٢٠١١؟

ولابد من الإشارة إلى موقف المؤلف من الثورة الصينية التى يميل إلى اعتبارها نسخة من الثورة الروسية، رغم أنه يضعها فى نطاق الثورات العظمى، التى يرى أنها هى: الإنجليزية فى ١٦٨٨ والفرنسية فى ١٧٨٩ والأمريكية فى ١٧٧٦ - ومن الطبيعى أن تأتى الأمريكية بعد الفرنسية رغم أسبقية الأمريكية زمنيا. ولكن الحقيقة المعروفة هى أن الثوريين الفرنسيين فجروا الثورة فى أمريكا قبل تفجيرها فى بلادهم، وهكذا، وكما قلت فى موضع آخر، فهذه هى أول مرة تولد فيها الأم قبل البنت - والمكسيكية فى ١٩١٠ والروسية فى ١٩١٧ والكوبية فى ١٩٥٩.

لكنه يرى أن التاريخ الثورى يقع بين قوسى الفرنسية والروسية، وهذه مركزية أوروبية بامتياز، ليس لأنه يستبعد الثورة الأمريكية التى وصفها، بحق، بأنها "ثورة لا ثورية" ولكن لأنه يعجز عن رؤية عظمة وخطورة الثورة الصينية التى ينقل، على نحو عابر، رأيا يقول إنها قد تكون أخطر حدث سياسى فى التاريخ كله، دون أن يدفعه هذا إلى الوقوف بقوة ضد الرأى القائل بأنها صورة مكررة للثورة الروسية.

ولعل السبب الرئيسى فى وقوع المؤلف فى هذا الموقف الذى نراه خاطئًا هو أنه يتكلم عن ذلك الفصل الحاسم من تاريخ الثورة الصينية بقيادة ماتسى تونغ وكأن ذلك الفصل هو الثورة الصينية، وقد يكون الأقرب للحقيقة أن الثورة الصينية بدأت فى ١٩١١ وظلت تمر بتحولات قد يكون أحدثها تمكن دينغ هسياو

بينغ من السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد فى ١٩٧٨ ولا يعلم أحد إلى أين ستمضى فى قادم الأيام.

والعجيب حقا أن المؤلف يبدو أكثر جرأة على التعبير عن تعاطفه مع الثورتين الاجتماعيتين فى روسيا السوفييتية والصين، فى الهوامش الواردة فى آخر الكتاب عنه فى المتن، وكأنه وجد الأمان فى كواليس مسرحه الذى يتألف من ٢١٩ صفحة، فقال فى الكواليس ما لم يجرؤ على قوله فى المسرح. لماذا؟ هل هى حدود الحرية الأكاديمية فى الولايات المتحدة بلد الثورة التى تريد إنهاء كل الثورات؟ ربما. لكن المؤلف لا يخفى حماسه للثورة الكوبية التى يراها صانعة مستقبل الثورة فى العالم. وهذا قد يكون صحيحا ولسبب حدده هو بأنها ثورة فى "خاصرة الوحش" الرأسمالى العالمى.

ويبقى أن المؤلف لا يرى فى الشرق الأوسط سوى إيران. أما ثورتنا المصرية فى ١٩٥٢ فيشير إليها، فى أربع كلمات بأنها ثورة "من فوق" وعندما يتكلم عن "هبة" ١٩١٩ فهو يعتبر أن قائديها هما مصطفى كامل ومحمد فريد، وهناك رأى مصرى واسع الانتشار يرى أن الأحداث الثورية، أو الحالة الثورية فى ١٩١٩ قامت على بنية تحتية للتمرد أنشأها محمد فريد. وقد يكون هذا الرأى عين الصواب. لكن خطأ المؤلف يعود لجهله بتاريخنا، وليس لوجهة نظر فيه.

أما أهم ما يساهم به هذا الكتاب فهو تأكيده على الدور الفعال للوعى الإنسانى، واضعا هذا الوعى ليس قبل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولكن فى قلبها؛ لأنه يتصل بفهم الإنسان لها وتجاوبه معها، وهو تصور ينتشل الإنسان من هوة التصورات الميكانيكية التى ألقت به إليها مدارس قد تكون الماركسية فى صدارتها.

أسامة الغزولى

تنويهات

اشتغل على هذا الكتاب جيش صغير، ولا أطمح إلى أكثر من أن يكون انعكاسًا جيدًا للمعرفة وللمواهب التى تميز بها كل هؤلاء الأشخاص المدهشين. وأى خطأ فى هذا الكتاب هو منى أنا، وفى بعض الأحوال فقد كان هناك من حاولوا مساعدتى على تجنب هذه الأخطاء أو حاولوا أن يبينوا لى ما شاب أساليبى من عوار وتجاهلتهم بكل رعونة، وأنا أطلب العفو منهم ومنكم.

ولم يتأت لأحد أن تكون له أسرة تسانده كما ساندتنى أسرتى، وشعورى بالعرفان إزاء والدى وإخوتى وزوجاتهم وأزواجهن، وأبنائهم وبناتهم هو شعور عميق. ورغم حذرى إزاء النماذج التى تصور العلاقات بصورة الأشجار، فإنى أعرب هنا عن شكر واجب منذ فترة طويلة لمسز غويرين التى شجعتنى صبيا فى الصف الخامس فى لويزيانا فى ١٩٦٩ على الاهتمام بالثورة الكوبية ولمارى فرانسيس راغلند كينغ التى آمنت بى قبل أن يتولد لدىّ الإيمان بنفسى، بزمن طويل. وقد ساعدنى هنرى دييتز من تكساس وغريغ غاليكون وبروكس كلاب والسناتور جورج ماكغفرن من واشنطن العاصمة على تبين اهتماماتى الحقيقية. كما ساعدنى كل من سيسيل يوبانكس وكال جيلسون على تنمية هذه الاهتمامات وأنا أدرس فى جامعة الولاية بلويزيانا. أما فى منيسوتا فإنى مدين بأكثر قدر من العرفان لكل من كاثرين سيكنك وبرايان جوب ومارى دييتز ورون أمينزاده فقد كانوا جماعة من طلاب الدراسات العليا الممتازين، وتبقى كاثرين هوكستلر أعز من انتقدنى. ولم يبخل علىّ توم ووكر وجون دونى وجاك غولدستون بوقتهم، وفى نيكاراغوا أشركنى أناس رائعون فى حكاياهم. وكان من حسن حظى أن قابلت، فى

مرحلة مبكرة من مسيرتي المهنية، تيم ويكام - كراولي ومن خلاله جون فوران وجيف غودوين، ومن خلالهما سيد تارو وتشاك تيلي و(مرة أخرى) جاك غوان ستون، وفي مرحلة ما انضمت إلينا كارين كامبويرث - إنهم زملاء ملهمون ويؤسفني أن تشاك لم يعش حتى يرى هذا الكتاب. وخلال صيف في كورنيل، أجبرتني سيد على أن آخذ الثورة الفرنسية مأخذ الجد وفعل ميساغ بارسا الأمر ذاته بالنسبة لإيران. وأتاحت لي أصياف قضيتها في غرينادا وتشيواوا بالمكسيك أن أعرف المزيد من حكايا المقاومة والتمرد والثورة.

وأظهرت جامعة ساوثريسترن كرما بالغا في مساندتها لي من خلال صندوق كالن للتنمية الجامعية وبرنامج براون للأستاذ الباحث المتميز ومركز الباحث الجامعي، وأتوجه بالشكر إلى الرئيسين روي شيلنغ وجيك شروم وإلى وكيلي الشؤون الجامعية مايكل روزنتال وديل نوبيل وجيم هانت وقد كان العمل الموازي في قسم دراسات السلام والصراع في جامعة أوميا تجربة استثنائية. والشكر واجب لسندي كايت وتور بجورن بيرغمان وكان تيرينا إيكر بيرغ وسوزان ألدين وسفانيتي إيدسون ومالني ويميليوس. وأشكر زملائي في ساوثريسترن الذين ناقشوا أجزاء متفرقة في هذا الكتاب: كريستينا ألكالدي وشانابين نشتاين ودانييل كاسترو وسوزان تشامبير وستيف دافيدسون وتينا غابريلسون ودافيد غينز وأليسا غوندر وتداسي غوليانو وجور جيان هيويت ولورا هو بغود - أوستر وميليسا جونسون وجيم كيلفون وليساليف وإيديك لوميس وماريا لاوي وتوم ماكليندون وهيلين مايدز وجاكلين موير - بدوداس وجيمي سميث وبوب سنيدر، وقد كان النصح والتشجيع في شانون ماريوتي يفوقان التقدير. أما شانون وينبياست وجنيفر سانتشلند فهما أهل لا زملاء وما قدماه من نصح ومساندة وتشجيع هو جوهر الحب والصداقة والشكر لبعض الطلاب النابهين أيضا (بعضهم الآن أساتذة)! الدكتورة مارغريت دورس

وجنيفر ماثيوز وإيمى ماكى والدكتورة جنيفر سانشلند والدكتورة ميغانا نويباك والدكتورة أنى ريتشارد. جينى كارلسون وأسلاى ديسوتو، راخى كيوادا ومارى كيرست وأليسون كيوو وبدايان غينغريتش، ميغان إليوت. وقد صنع تونى نيتفيلد وكالى بيج أعظم فيلم مدته خمس دقائق وشخصياته اثنتا عشرة فى العالم عن كوميونة باريس وقدما تشجيعا هائلاً.

ومطبوعات زد مكان متميز. أنا مدين بالعرفان لإيلين هولسوورث التى عملت على إخراج هذا الكتاب إلى النور، وكين بارلو التي حلت محل إيلين بعد رحيلها وقرأت المخطوطة بعناية. وقد ساعد التحرير الدقيق الذى قامت به روبين غيبل والصف المتقن الذى أنجزته لوسى مورتون على تحسين الكتاب وكانت القراءة الدقيقة والمتأنية والمتدبرة التى أنجزها البروفيسور هارالد ويدرا هى جل ما يتمناه مؤلف.

وخبرة العمل فى مشروع طويل ينتهى باكتشاف عمل يغطى منطقة مماثلة ويبدو أنه يتحاشى العمل الذى تم إنجازه هى خبرة صعبة وإذا كان المرء محظوظًا فإن القراءة الأكثر دقة تؤمن العون والمساندة لمشروعه. فالمجتمع العلمى لا يقف على أكتاف من سبقونا فحسب بل ويجد العون من أولئك الذين يعملون بجانبنا سعيًا وراء تراكم المعرفة ووراء كأس المعرفة المقدسة. وكتاب نوبل باركر المحفز "الثورات والتاريخ: مقال فى التفسير" (١٩٩٩)، وكتاب توماس بنجامين الممتع "لا ريفوليثيون **La Revolucion** ثورة المكسيك الكبرى كذكرى وخرافة وتاريخ" (٢٠٠٠)، وكتاب فرانسيسكا بوليتا المبهر "كانت كأنها الحمى: القص فى الاحتجاج وفى السياسة" (٢٠٠٦) هى الأعمال المهمة على هذا النحو.

أهدى هذا الكتاب، مع كل المودة والإعجاب والتقدير وما يفوق ذلك إلى أسرتى. إلى المخلوقين الأكثر قربا من الكمال الإنسانى فى العالم جيسى وزوى كورديس سيلبين، فهما قصتا حب وكلاهما، بطريقتين مختلفتين، من الحكائين

الموهوبين الذين يريدون دائمًا أن يحكوا، وقد لعبا دورًا بالغ الأهمية فيما تجده هنا ويجعلان من الأمور الصغيرة مصدر مسرة خاصة. وقد قامت الرقيقة الموهوبة هيلين كورديس، مرة أخرى، بأكثر من الواجب فى رعاية الأطفال وعمل البيت والتدريس فى المنزل والكدح فى أكثر من موضع والعمل أكثر من وقت كامل، وقرأت كل العمل وساعدتنى على البقاء فى الاتجاه السليم وهى تقص أعظم الحكايا التى نحبها جميعًا وأنا أشعر بالإجلال لما تبديه من حب وإخلاص.

الفصل الأول

كلمة تمهيدية وتبرير وافتتاحية

لا شك أنها حكاية منحولة. ينظر إليها عادة باعتبارها إشارة إلى نهاية القديم وبداية الجديد تلك التي تروى أن الملك الفرنسي لويس السادس عشر عندما أبلغه مستشاره دوق دولارو شفوكو بسقوط الباستيل تساءل: **C'est une Révolte?** [هذا تمرد؟](*) فرد عليه الدوق الواعي البصير! **Non, Sire, c'est une révolution** [لا يا مولاي، هذه ثورة] **(Cumberlege, 1953: 407)**. هذه واحدة من أشهر الإشارات الدالة على ما لدى الدوق من حدس جدير بالإعجاب. ورغم ذلك فجدير بالملاحظة أن قاموس أكسفورد للأقوال المأثورة الذى يعد مجمعًا لـ "الحقائق" أظهر، على مر السنين، عجزا عن مقاومة الميل إلى تهذيب الحكاية، قليلا. وهكذا نجد الملك، في الطبعة الرابعة، بعد حوالى أربعين عاما من ظهور الطبعة الأولى، ربما مع شعوره بالمسؤولية التاريخية ولأن الذكرى المئوية الثانية على قيام الثورة لم يكن قد مر عليها زمن طويل فاستيقظت حواسه وراح يتساءل: **C'est une grande révolte?** [هذا تمرد كبير؟] أما الدوق، الذى هو الآن "مصلح اجتماعى فرنسى" فيؤكد لمولاه أن هذه الأحداث ليست مجرد تمرد، بل فى الحقيقة **Une grande revolution** [ثورة كبرى] **(Parrington, 1992: 411)** وربما كانت فى ذهن الدوق عندئذ عبارته الشهيرة "هناك نوع من الثورات التى تكون طبيعتها شاملة لدرجة أنها تغير الأذواق كما تغير مقدرات هذا العالم" **(La Roche fou cauld, 1896: 143)** فقد حرص على هذا التوضيح وربما اتخذ صوته نبرة كئيبة وحادة وهو يعلن حدث سقوط الباستيل باعتباره نذير ثورة.(1) **C'est vrai** [هذا صحيح] – ومعظم الأفكار المعاصرة عن الثورة تبقى مدينة له.

(*) الكلام بين [ ] زيادة من المترجم على النص الأصلى.

وإليكم قصة أقرب إلى زماننا، وهى فى الحقيقة لا تزيد عن كونها صورة موجزة ولا شك أنها منحولة أيضًا. فقد حضر طالب يدرس فى مكسيكو سيتى اجتماعا تنظيميا حاول أثناءه أحد المتحدثين أن ينقل فكرة الالتزام بالنضال من خلال حكاية. سأل أحد الصحفيين الراحلة كومندانتى رامونا من جيش زاباتيستا المكسيكى للتحرير الوطنى (EZLN) لدى انصرافها من اجتماع مع مسؤولين مكسيكيين إلى أى مدى زمنى كان مقاتلو زاباتيستا مستعدين لمواصلة القتال. وهزت المرأة الضئيلة كتفيها وقالت ما معناه "بما أنهم يناضلون منذ حوالى خمسمائة سنة فإذا تعين عليهم أن يناضلوا لخمسمائة سنة أخرى فلن يكون هذا بالأمر الخطير"، هل الحكاية حقيقية؟ إنها تذكرنا بتعليق ستيفين على ما قيل عن حوار بين رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج والدوتشى الإيطالى موسولينى: "صحيح؟ لا أدرى... مثل شائعات كثيرة فهى أصدق من الوثائق... لكن شخصًا ما قالها، شخصًا أدرك حقيقة الأمر كاملة" (٨٠٩: ١٩٣١). وما تبلغنا به هذه القصة هو أن نضالهم، "ال" نضال، كان يمضى وفقًا لجدول زمنى مختلف فى عالم مختلف تمامًا.

ويحكى بيركهاردت أنه فى زمن النهضة، فى المكان الذى أصبح فيما بعد إيطاليا، كان فى مدينة يعتقد أنها سيينا قائد عسكرى شجاع وموهوب على نحو خاص "حررهم من الاعتداء الخارجى. ولأنهم كانوا حريصين على مكافأة قائدهم وراغبين فى أن يكونوا كرماء قدر الإمكان، عقد أهل المدينة اجتماعات يومية لتقرير المكافأة اللائقة برجل عظيم كهذا. وبعد أن قرروا أن جعله "سيد المدينة" لا يكفى فقد قرروا أن يقتلوه حتى يتيسر لهم أن يعبدوه باعتباره "القديس الحامى" وفعلوا ذلك، اقتداء بما فعله مجلس الشيوخ الرومانى مع رومولوس". واللافت هنا، حسب بيركهاردت، هو أنها قصة قديمة ــ من تلك القصص التى هى حقيقية وغير حقيقية، فى كل مكان وفى اللا مكان[٢] .(Burckhardt, 1958: 40). أى أن هناك

حالات يمكن أن ندرك حقيقتها الكبرى أو العمقى سواء أكانت الحكاية تصور بإخلاص "ما جرى بالفعل" أم لا.

هذه الحكايا الموجزة مختلفة وبعيدة، تتنوع من حيث اتساع المجال والمدى والنغمة والنبرة والكثافة والرهافة. ويمكن تركيزها كلها فيما يزيد قليلاً عن جوهر نقدى يقصد به أن يحتوى على مغزى أكبر وأن ينقل رسالة قد لا تكون هى المقصودة فى كل الحالات: أى أن ما تنتهى إليه الحكاية عندما تسمع وتفهم هو خارج سيطرة الراوى. وحكايا كهذه تحدد لحظة لا تنتهى وتوحى بوجود مفهومات وأمور تتجاوز الزمن، وتذكرنا بأننا، إن لم يكن لدينا شىء آخر، ففى النهاية لدينا حكايانا وبالتالى فنحن موجودون ليعتمد بعضنا على بعض.

ما هى الحكاية؟

إذا كانت "كان ياما كان" كلمات سحرية بالنسبة للطفل أيًا كان عمره، تبدأ بها متوالية من الأحداث المألوفة بالنسبة إليه، بشكل عام، فمرجع ذلك أن الحكاية التى تبدأ بها هذه الكلمات هى توضيح، على نحو موجز، لمن نكون، وما نحن عليه، ولماذا، ومتى، وكيف كنا وأصبحنا وما سنؤول إليه. وفى بعض الأحيان لا تزيد هذه الحكايا إلا قليلاً عن كونها وصفًا لتفصيلات الحياة اليومية، والهدف منها هو أن نقتسم مع غيرنا، أو ببساطة مع أنفسنا، ما يمثل الشروط المادية والأيديولوجية لحيواتنا اليومية. ولكننا غالبًا ما نستخدمها لمجرد سرد حياتنا - والسردية والحكاية ليستا متماثلتين - ولكن بغرض الإبلاغ، لإشراك الآخرين فى الأخبار والمعلومات وأكثر من ذلك بكثير: للإرشاد والتحذير والإلهام ولكى نجعل ما هو غير حقيقى وما هو مستحيل حقيقيا وممكنًا. فالحكايا تسمح لنا بأن نتخيل تحول حيواتنا وعالمنا.

وغالبًا ما نصور تحول الشروط المادية والأيديولوجية لحيواتنا اليومية، ناهيك عن المجالات العظمى لعالمنا التى غالبا ما تبدو خارج مدارنا، فى أطر المقاومة والتمرد والثورة، والثورة بالتحديد هى التى تنطوى على ما نقصد، ما نسعى إليه عندما نتحدث عن التحول. ورغم أن تعريفات وتحليلات الثورة تأتى وتذهب فإن عقودًا من أبحاث العلوم الاجتماعية لم تساعدنا كثيرًا على الاقتراب من فهم السبب فى حدوث الثورات هنا وليس هناك، الآن وليس فى وقت آخر، بين هؤلاء الناس لا أولئك. والفرضية المطروحة هنا هى أن العامل الرئيسى فى تفسير كيفية إلحاح فكرة الثورة وسببها هو حكايا الثورة والتمرد والمقاومة، التى نحكيها. وبالتحديد، فعندما نستخدم مفهومات الخرافة والذاكرة والمحاكاة يمكن أن نستخلص ونوضح أربع حكايا أساسية عن الثورة تظهر فى عدد مدهش من الأماكن والثقافات عن حقب زمنية معتبرة. وليست هذه هى الحكايا الوحيدة عن الثورة، ولا شك أن هناك عاملاً ضاع فى غمار السعى إلى الجمع بينها على هذا النحو. ورغم ذلك فهناك مردود عال فى تبيان ما تخبرنا به هذه الحكايا، عمن نكون وكيف نتصرف وما نحن مستعدون لأن نفعله وفى أية ظروف.

وهكذا فمن الضرورى التشجيع على عودة الحكايا، وفق نظام معين، إلى منهجية العلوم الاجتماعية، الدفاع عن الأدوار القوية والواسعة التأثير للخرافة والذاكرة والمحاكاة، وتحديد الحكايا الأساسية التى تقوم عليها الجهود الواعية التى يبذلها الناس فى المقاومة والتمرد والثورة. وهنا يكتسب التعرف على الخرافة والذاكرة فى الثورة وعلى قوة المحاكاة لتعبئة الجهود الثورية واستمرارها أهمية مركزية وهذا ينعكس فى أربع حكايا أساسية عن الثورة هى حكايا مقروءة ومعمرة تتواصل مع الحالة الإنسانية، حكايا وجدت لا "لمجرد" وصف تلك الحالة ولكن لتكون محفزة لتغييرها. وما نزعمه هنا هو أنه لتعميق فهمنا للثورة وللحفاظ على جدوى مفهوم كهذا لابد لنا من مقترب جديد يركز على أفكار الناس المنخرطين فى

العملية الثورية ومشاعرهم، منظور يسعى ليربط الحكايا التى يتداولونها (ويعيدون صياغتها دون توقف) حول ما سلف من مظالم وظلامات بالنضال من أجل مستقبل أفضل.

هذه الحكايا الأربع هى حكاية ثورة التحضر والمقرطة، وحكاية الثورة الاجتماعية وحكاية الحرية والتحرر، وحكاية الضائعين والمنسيين. وتمثل كل واحدة من هذه الحكايا محاولة للتأليف بين شعاب متناثرة وإن كان بينها من العناصر المشتركة ما يكفى لقراءتها على نحو مفيد، كطريقة تساعد الناس على إضفاء معنى على الماضى، وعلى تفسير الحاضر ووضع تصور عن المستقبل والتمكين له. ولا يقصد بهذه التوليفات أن تكون أنماطاً مثالية ولا تتناسب حالة ثورية بعينها أو عملية ثورية بعينها مع هذه الأنماط، فكثير من العمليات الثورية تجد نفسها فى عديد من الحكايا، ويتوقف ذلك على من يروى الحكاية، وأين يرويها، ومتى، ولمن. والمهم، كما أوضحت فى موضع آخر (Selbin, 2003: 84) هو أنه بالتوازى مع الظروف المادية والبنيوية التى استرشدنا بها فى دراستنا للمقاومة والتمرد والثورة الشعبية يتعين أن نجد مكاناً للدور الذى تلعبه الحكايا (والسرديات) التى حمست وشجعت أجيالاً من الثوريين عبر الحقب وعبر الثقافات.

ويبدو أن الوقت حان، منذ زمن، لعودة الحكاية إلى الجهود الاستكشافية التى تبذلها العلوم الاجتماعية لفهم أفعال إنسانية أساسية مثل المقاومة والتمرد والثورة. ولهذا فقد تكون اللحظة قد نضجت لحدوث "تحول إلى الحكاية" فى العلوم الاجتماعية وقد كان رفض السرديات المحبوكة والحكايا التبريرية، خلال معظم سنوات القرن العشرين، بحثاً عن فهم أعمق جديراً بالإعجاب، من حيث المبدأ، وقد كشف عن مساحة فى الحيوات الفعلية للناس. وبالتالى فإن الحكاية والحكى ينعمان، فى العصر الصناعى / بعد الصناعى المتأخر، بنوع من الانبعاث، ربما كان نتيجة لتكنولوجيات جديدة تسمح للمزيد من الناس بأن يرووا حكاياهم أكثر من أى زمن مضى، وتخاطب، فى الوقت ذاته، الحاجة الإنسانية الأصيلة للتواصل مع الآخر ومع الذات.

تتحدى أعمال متنوعة لباحثين كبار مثل بيات (2001: 166) وماكينل (9 :2000) وهوايت ما يمكن اعتباره هوسًا حداثيًا وبعد حداثي بالأمور المتصلة بالوعي والقصدية وتسعى هذه الأعمال إلى تأكيد رغبة الإنسان فى الحكايا. ولا نقصد بذلك أن الناس "ببساطة" يحتاجون الوصف؛ فالحكايا فيها ما هو أكثر من ذلك بكثير. ذلك أنها تكشف لنا عن مواقف الناس وتقديراتهم وتصوراتهم للكيفية التى تسير بها أمور الحياة والدوافع الكامنة وراءها، كما تكشف لنا عن فهمهم للقوة وللإمكانية.

هذا وأكثر تعرضه أعمال مثل كتاب بوليتا المبهر "كانت كأنها الحمى: القص فى الاحتجاج وفى السياسة" (٢٠٠٦) والبكائية المتحدية والممتعة عند تيللى "مشكلة الحكايا" (٢٠٠٢) أو عمله الفاتن "لماذا؟" (٢٠٠٧) وكتاب سميث الذى يتسم بالعمق "حكايا ميلاد شعب" (٢٠٠٣) والمجلدات التى تضم مجموعة أعمال مثل ذلك الذى حرره بيرغى وكوينى بعنوان "سوسيولوجيا القص: السردية كبحث اجتماعى" (٢٠٠٥) أو ذلك الذى حرره دافيس بعنوان "حكايا التحول: السردية والحركات الاجتماعية" (٢٠٠٢) وأيًا كانت الاختلافات بين هذه الأعمال فهى تدعو إلى فحص الموارد الغنية التى تمثلها الحكايا رغم الحذر عند استخدامها والوعى بتركيبها وبأوجه النقص فيها. وهذه المجلدات ساعدت فى التأسيس لكثير مما سيلى، فى هذا الكتاب.

وقد أبدينا قدرًا من الاهتمام، وإن كان محدودًا، بالثورة فى إطار الدراسة. وعلى سبيل المثال فإن مؤرخين مثل سيويل (٢٠٠٥) وفيوريه (١٩٨١) ومن عملوا معه، والأهم أوزوف (١٩٩١) وبيكر (١٩٩٠) أوسعوا مساحة للحكايا. وكذلك فإن كبار دارسى الثورة لم يهملوا الحكاية كليا؛ فكتاب غولد ستون الرائع

"الثورة والتمرد فى بدايات العالم الحديث" (١٩٩١) يخصص فصلاً لبعض العوامل التى تتأسس عليها الحكايا، ويقدم كتاب باركر المحفز للفكر "الثورات والتاريخ: مقالة فى التفسير" (١٩٩٩) دفاعًا مقنعًا عن مكانة السردية. والحكاية والسردية هما ضمن تشكيلة العوامل الرائعة التى يعرضها فورًا ببراعة القاضى ليحشد أحدث ما تم التوصل إليه بخصوص الشؤون الثورية فى تولى السلطة: "حول أصول ثورات العالم الثالث" (٢٠٠٥) وبدرجة أقل من الوضوح؛ فإن الأعمال الأقرب إلينا التى أنجزها هولواى (٢٠٠٢) وخاسنابيش (٢٠٠٧) تؤكد بدورها على أهمية إنجاز سرديات وحكايا مؤثرة ضمن أى محاولة ذات مغزى للتغيير.

ويقوم هذا الجهد على عديد من الفرضيات المركزية وأهم هذه الفرضيات أن الناس حكاؤون وأن الحكايا التى نرويها تحدد من نكون كشعب (سواء كنا شعبًا أو كنا "ال" شعب)، فنحن نخلق العالم ونفهمه ونديره فيما نرويه من حكايا. وإذا كانت حقيقتنا البيولوجية هى التى تجعلنا آدميين، فإن حكايانا هى التى تقرر من نكون كشعب، خاصة الحكايا الشائعة والبسيطة التى تنجح فى أن تبدو غير مقيدة بقيود الزمان والمكان، حتى عندما نشير إليها باعتبارها تخص ظروفنا المعينة، الحكايا ذات القدرة المذهلة على التخلل وباستحضارها للماضى ولأسلافنا ونحن نستدعيهم لخدمة الحاضر وعيوننا على المستقبل. والفرضية المطروحة هنا هى أنه لا يمكن الفصل بين من نحن ولا ما نحن عن الحكايا التى نرويها. أى، بالنهاية، الحكايا هى كل شيء، وكل شيء هو، بشكل أو بآخر، حكاية. وحكايانا يجرى ترتيبها وحشدها لأغراض تفوق الحصر، وتوجه لآخرين ربما لم نتبين من هم، بعد. إن حكايانا هى طريقتنا فى تفسير العالم لأنفسنا كما هو وكما نأمل أن يكون. وقد تكون حكايانا هى أقوى ما نملك من برهان على صحة المعتقدات والقيم المهمة بالنسبة لنا، الحكايا هى جزء حرج من الأحجية لا يمكن لنا أن نتوصل بدونه إلى الإجابة الكاملة.

ويقال إن العلماء لا يطرحون فرضيات يملكون إجابات عليها بالفعل – رغم أنى أرى أن الفهم الأدق للمشروع العلمى قد يقر بالبديهية التى اشتهر المحامون بالتسليم بها وهى أنه ما من أحد يسأل سؤالاً لا تكون لديه الإجابة عليه، بالفعل. والإجابة المقترحة هنا ليست سوى واحدة بين إجابات كثيرة؛ إذ أن الإجابات، على اختلاف مستويات الجودة والإقناع، يبدو أنها تأتى وتروح، والسؤال هو الذى يبقى. وهذا العمل حركته التساؤلات التى دفعت بالكثيرين إلى دراسة الثورات: لماذا تحدث الثورات هنا، وليس هناك، الآن وليس فى وقت آخر، بين هؤلاء الناس لا بين أولئك؟ وحبك الحكايا المؤثرة، كما سوف نفصل على نحو مطول فيما يلى من الصفحات، هو الذى يسمح للناس بحشدها بطرق تلقى التجاوب من آخرين وتمكنهم من السعى وراء تغيير الشروط المادية والعقائدية لحيواتهم اليومية. وأفترض أنه من خلال المحاورات المعمقة وجمع أدوات الثقافة الشعبية مثل الحكايا الشعبية، والأغنيات، والمسرحيات، والعروض المتلفزة، وما إلى ذلك، قد يتيسر التيقن من المدى الذى يمكن أن نمضى إليه فى الجزم بإمكانية توفر الطابع الجمعى للمقاومة أو التمرد أو الثورة، فى أى مجتمع وزمان محددين.

ما الذى يتعين عمله؟ أن تعود الحكايا

فى بدايات العلوم الاجتماعية كان هناك مشروعان رئيسيان أحدهما تمثل فى المحاولات فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لترقية العلوم الاجتماعية والإفلات من عبودية "عظماء الرجال" والملاحم الإمبراطورية والخرافات والأساطير المرتبطة بالمفهومين. أما المشروع الثانى فكان يعكس الهيمنة المتزايدة للتصورات البورجوازية الليبرالية الشمالية / الغربية التى كان الفرد النووى وحدتها التحليلية. نتيجة لذلك، رؤى من الضرورى ترتيب فهمنا للعالم فى شكل حزمات يمكن التصرف بها تؤخر الشؤون الاجتماعية (السوسيولوجيا) والسياسية (علم

السياسة) والاقتصادية (الاقتصاد) والسيكولوجية (علم النفس) بل والثقافية (الأنثروبولوجية) كوحدات منفصلة، أيضًا وكانت الحكاية أو الضحايا إذ دفع بهما إلى الهامش وصارت موضع شك وهذا يستدعي ثلاثة تعليقات.

أولاً: إن "التاريخ" هو المصطلح الذي يشار به، عادة، إلى مخزون المعرفة لدينا، وكان يشار إلى هذا المخزون، من قبل، بمصطلحات مثل "المعارف التقليدية Lore أو الحكايا أو المرويات". ورغم أن التاريخ شاعت فيه حكايا اختلطت فيهما الحقيقة بالفرية فقد أصبح ينظر إلى كل هذا، فجأة، بكثير من الفزع، أثناء عملية التنظيف التي شهدها عصر التنوير، وبعد ذلك في زمن العقلانية الذي بدأ مع القرن التاسع عشر. وبذل كثير من الجهد في ترسيخ فكرة مؤداها أن المؤرخين هم أصحاب حرفة لا يتعاملون إلا مع الحقائق. وفي حين بقيت لرواة الحكايا حرية اختراع ما يشاؤون فإن المؤرخين صاروا ملزمين بتحري الحقيقة، وهي عقيدة استخدمت، بعد ذلك، في السعي وراء تأسيس "المنهج العلمي" المهيمن على العلوم الاجتماعية ليومنا هذا (Selbin, 2008: 132). لكننا لا نحتاج إلى مهارات البحث العلمي المعاصرة فحسب، بل وإلى الأدوات التقليدية للباحثين وكذلك الثوريين والمتمردين والمقاومين، وبالتحديد: الحكايا القوية الواضحة الهدف.

وثانيًا: إن من تعلموا وعاشوا في مناطق الشمال/ الغرب من عالمنا يكرسون جانبًا هائلاً من مقدراتهم لفكرة أن هناك ما نسميه حقيقة وما نصفه بأنه خرافة. ويشيع الافتراض بأن الحكايا هي منطقة الخرافة. لكن القدرة على فرز الحقيقة من الخرافة في فيض الحكايا التي نرويها هو وهم حديث نسبيًا، حيث ينظر إلى الأولى باعتبارها نافعة ومهمة وتحتقر الثانية باعتبارها نوعا من التسلية أو الهذر، وبالتأكيد فهي ليست المؤشر الموثوق إلى شيء ذي خطر. ورغم ذلك فغالبًا ما تتكشف الحكايا عن حقائق كبرى أو تواريخ مخفية، وأخيرًا بدأت الأمور تتغير. وبعد الاعتراف على مضض، منذ خمسينيات القرن العشرين، باحتمال أن

يكون لدى المصادر من "السكان الأصليين" ما يمكن أن يكون مفيدًا إخبارنا به بدأت عملية يمثلها رد الاعتبار مؤخرًا، إلى هيرودوت (Strassler, 2007, Rom, 1988, Thompson, 1996). فعلى الرغم من أن هيرودوت اشتهر بأنه "أبو التاريخ"، فقد ظل ينظر إليه طويلاً باعتباره ناقل خرافات وتم التنديد به بسبب "أكاذيبه"، لكن هناك إحساسًا متناميًا، الآن، بأننا قد نكون تخلصنا من الطفل ونحن نتخلص من ماء الغسيل. وصاحب ذلك تنامى التقدير لما أراد أن ينبئنا به. ويكفى هنا أن نشير إلى أنه وإن كانت المقابلة بين ثنائيات مثل "حقيقة" و"خرافة" أمرًا نافعًا، فهى قليلة الجدوى عند محاولة التوصل إلى إجابة على التساؤلات المطروحة هنا. ولا يعنى هذا أن بوسعنا اختراع الحقائق. ويذهب هوبزبوم فى منطوقه المقنع إلى أنه إما أن إلفيس بريسلى ميت أو هو ليس كذلك. فيمكن التوصل إلى إجابة غير ملتبسة بالاستناد إلى برهان، فى حدود إمكانية توفر البرهان، وهو ما يحدث أحيانًا. وإما أن الحكومة التركية الراهنة، التى حاولت إجراء تطهير عرقى للأرمن فى ١٩١٥ على حق أو ليست كذلك (٦٣: ١٩٩٣). لكن الأمور نادرًا ما تكون بهذه البساطة، وأحيانًا ما لا تكون الأسئلة، هى الأخرى، على هذا القدر من البساطة.

فكثير مما "تعرفه" بدرجات متفاوتة من اليقين وجانب كبير من رغبتنا فى التحقيق لا يقابلهما إلا القليل من "البراهين الموثوقة". وحتى عندما يتوفر البرهان فقد يكون الأمر أننا سنحصل من سعينا إلى فهم أولئك الذين يعتبرون أن إلفيس لم يمت ولماذا هو لم يمت ما يساوى ما نحصله من التيقن من أن إلفيس، فى الحقيقة، خرج من المبنى ولم يعد. وهناك قيمة حقيقية لما فعله الناس بالبرهان وبالمعلومات، بما فى ذلك اللحظة التى يختارون فيها أن يصدقوا ما يقدم إليهم باعتباره "حقيقة". هذا أمر معقد ومشوش وحقيقى. والحقيقة المربكة هى أنه برغم ما نبذله من جهود علمية، اجتماعية راقية بهدف التصنيف والتحليل، فالناس بالنهاية غير منهجيين (معقدون ومتناقضون) ويستقرون على خيارات قد تبدو مناقضة

لمصالحهم هم، ويتصرفون على نحو قد نعتبره "غير عقلانى". ومما يزيد الطين بلة فليس واضحًا، على الإطلاق، أن آراءهم، وفهمهم للعالم وموقعهم والإمكانيات التى تنتظرهم فيه، هى دائمًا ظاهرة لهم، والأقل احتمالاً أن تكون ظاهرة للآخرين، خصوصًا الغرباء.

وقد شكا غليانو من أن "التاريخ المسكين توقف عن التنفس: خانته النصوص الأكاديمية، أحاطت به الأكاذيب فى غرف الدرس، أغرقوه فى التواريخ ثم سجنوه فى المتاحف ودفنوه، مع باقات الزهور، تحت التماثيل البرونزية والنصب الرخامية" (XV: ١٩٨٥).[٣]

وأعرب ماركوس عن قلقه من أن "فهمنا للتاريخ، وهو يتشكل فى الثقافة اليومية، هو فهم متصلب، مدقع، ومحبط. والافتراض الشائع بأن التاريخ هو الماضى فقط هو تضليل يقاوم، بكل قوة، أى فحص نقدى يمكن أن يكشف عن أن هذا الافتراض هو خدعة أو سجن. والمحتمل هو أننا ربما كنا نعيش تاريخنا، نصنعه ونهدمه – بنسيانه وإنكاره – طوال الوقت، فى أشكال تفوق كل ما تعلمناه، بكثير". (٤– ٣: ١٩٩٥). ورغم ذلك فالإمساك بالتاريخ ليس بالمهمة اليسيرة، وشكا ستيفنز، وقد أعيته تغطية أحداث الثورة التى كانت تتخلق فى روسيا، كيف يتأتى للمرء أن يمسك بالتاريخ وهو يتشكل، فى ذات اللحظة، وهو يحدث؟ كانت هناك تواريخ عديدة تمضى على التوازى، لا يربط بينها رابط، وغالبًا ما كانت السرديات المتناقضة تتقابل وتتقاطع وكلها كانت "تاريخًا". سمعنا الكثير منها، ولابد أنه فاتنا أكثر. فلم يكن بوسع أحد، ولن يكون، أن يسمعها كلها. التاريخ مستحيل (٧٤٩: ١٩٣١). ورغم ذلك فإن الكشف عنها والتمويه عليها كانا مصدر تشويق للناس، والدليل على ذلك الجهود البطولية لنقل أخبارها.

وتقليديا فالتاريخ يبنى من فوق، يؤلفه المنتصر، وينغمه القوى، ويعزفه ويرقص على ألحانه الجمهور. وهناك تاريخ آخر، متجذر في إدراك الناس لما تواصل الحياة الكشف عنه ولموقعهم من هذه العملية. هذا تاريخ صاغته أيديولوجيات الناس، والآراء التى يعتنقونها، وهو يعكس السياق المادى والأيديولوجى للحياة اليومية للناس، تاريخ يجرى استلهامه وصياغته بالأدوات المختلفة للثقافة السياسية الشعبية. وما نفترضه هنا هو أن هذا التاريخ متاح لنا في السرديات التى تتناول حياة الناس وفى الثقافة السياسية الشعبية لمجتمعهم وأن هذا كله يخلق إمكانية – أو استحالة – التحول الجوهرى.

ومن المفترض أن العودة إلى دور الحكايا وما يمكن أن تنبئنا به يساعد علماء الاجتماع على تقديم تفسير أفضل للأفعال الإنسانية الأساسية مثل السلوك الجمعى الذى نجده عادة تحت مانشيتات مثل المقاومة والتمرد والثورة. ونحن بحاجة إلى العثور على طريقة تساعدنا على أن نركز على أفكار ومشاعر الناس المنخرطين في العمليات الثورية، على منظور يربط بين الحكايا التى يروونها عن المظالم السالفة وهم يحاربون من أجل المستقبل. وإلى جانب ما هو متوفر من شروط مادية أو بنيوية – وهى العوامل التى نستخدمها عادة لتوجيه دراساتنا – فمن الضرورى الاعتراف بالدور الذى تلعبه الحكايا والسرديات عن المقاومة والتمرد والثورة الشعبية التى حفزت وشجعت أجيالاً من الثوريين. ومن قبيل الاستشهاد بعبارة قديمة:

Hic Sunt Refragatio, Rebellio, et Revolutio -

لتكن هنا مقاومة، وتمرد، وثورة.(٤)

"المقاومة" و"التمرد" و"الثورة"

مداخلة ضرورية وإن كانت عابرة

تبقى الثورة وصفًا مؤاتيًا لعدد مدهش، إلى حد ما، من الأحداث والعمليات التى تلم بالمجتمع وبالثقافة. وإن كانت المصطلحات "مقاومة" و"تمرد" و"ثورة"، من جهتها، وثيقة الارتباط بالأمور الاجتماعية – السياسية والسلوك الجمعى ومن هنا نجد نقاط الانطلاق لهذه المداخلة فما الذى نعنيه بالثورة والمصطلحات المتصلة بها مثل "مقاومة" و"تمرد" ؟

أنفق كثيرون منا قدرًا كبيرًا من الوقت والجهد فى محاولة تحديد الفروق بين المقاومة والتمرد والثورة، وهى فروق ذات بال، حتى وإن رجح البعض أن معظم أشكال العمل السياسى الصراعى بينها قدر كبير من التشابك. انظر (**Mcadam et al., 2001**). ومن المهم أن نوضح، من البداية أن المقاومة والتمرد ليسا ثوريين بالضرورة ولا فى معظم الأحوال. لكن كلاً منهما يساهم فى الثورة بأكثر مما يفترض عادة، وبدرجة كبيرة للغاية، وعلى الأقل من خلال حكايا المقاومة و/ أو التمرد التى تساهم فى خلق جو ثورى تبدأ الثورة فيه تلوح كأمر محتمل. وهكذا فإن "المتخيل" **imaginary** الثورى، إذا كان لنا أن نستعير مصطلح باركر الذكى، ببعض التحويرات (٤٦: ٢٠٠٣)[٥]، يؤمن فضاء مشتركًا تعمره هذه الأشكال المختلفة ويصبح بوسعنا أن نأخذ منه بحسب أغراضنا.

المقاومة

وشأنها شأن الثورة، فالمقاومة[٦] يتناقل الناس أخبارها ويعترفون بها ويظهرون تفهمهم لها، بشكل عام، بدون إمعان النظر فى التفاصيل. والمفهوم ذاته إشكالى إلى حد ما. ويظهر هولندر وأينووهنر أسفهما لأن المقاومة غالبًا ما يشار

إليها "على نحو يفتقد التركيز"، وفى معظم الأحوال يكون الأمر "موقفا سياسيا... (أكثر مما هو) مفهوم تحليلى". ورغم ذلك، فإن الفيض الغامر من التعريفات والمعالجات ليس فيه سوى "عنصرين جوهريين: الفعل والتصدى" (Hollander and Einwohner, 2004: 547, 538).[٧] ويشير لاهيرى – دوت (٢٠٠٣:١٣) إلى أربعة معايير تميز المقاومة الحقة فى "التيار الرئيسى للأدبيات ذات الصلة" فيجب أن تكون جمعية ومنظمة أكثر منها خاصة وغير منظمة، يجب أن تكون مبدئية ومنكرة للذات أكثر منها انتهازية وأنانية، يجب أن تترتب عليها نتائج ثورية، ويجب أن تميل إلى إنكار أسس السيادة أكثر من قبولها بها. لكن سكوت (١٩٨٥) يدفع بدفوع مقنعة قائلاً إن المقاومة غالبًا ما تستمد جذورها من الأهداف المادية اليومية بأكثر مما تستمدها من الوعى الثورى. لكنه يحذر من المبالغة فيما يمكن أن تقدر عليه "المقاومة اليومية" ويدعو للاعتراف بالصعوبات التى تكشف حياة معظم الناس. وهكذا فقد يكون تمييز فعل المقاومة أمرًا غير يسير.

ويمكن أن تشير المقاومة أيضا إلى نوع من العصيان الذى ينشأ عن رفض الناس للتعاون الفعال مع النظام القائم أو شخصيات السلطة أو مساندتهم، وحتى عندما يتخذ ذلك مظهرا سلبيا فإنه يبقى نشاطًا، يبقى "فعلاً". ولذا فمن الضرورى أن ندرك أن هناك ما يسميه كامبورث (١١: ٢٠٠٢) "تراث مقاومة" وأنه "يغرس بذورًا... تنمو بعد سنوات عديدة، عندما تتهيأ الشروط البنيوية والأيديولوجية والسياسية المناسبة".[٨] وعلى نحو قريب من الأفكار ذات الصلة مثل "الثقافات السياسية للمعارضة" و"العلاقة بين الثقافة والفاعلية فى السياسة الثورية"، وإن بقيت منفصلة عنها، فإن بؤرة التركيز وفقًا لكامبورث هى فى الدور الذى تلعبه الأسرة فى "التنشئة الاجتماعية" لأطفالها. والفرضية المطروحة هنا هى أن الآلية الأوسع انتشارًا والأكثر أهمية فى هذا الأمر هى الحكايا.

وغالبا ما تلعب النساء دورا مهما هنا. خذ مثلا شهرزاد، المرأة التى تجمع شتات "ألف ليلة وليلة" ليلة بعد أخرى، ناسجة ألف حكاية وحكاية وهى تناضل من أجل تأجيل موتها على الأقل، وربما بأمل أن تعيش حياة من أى نوع كان – وما حدث هو أنها عاشت حياة أطول بكثير مما كان يمكن لها أو لرواتها أن يتخيلوا، على الإطلاق. أو خذ مثلاً ما يصفه باريللى (٥-١٩٨٩:١٠٤) باعتباره "مقاومة أشبه بمقاومة النمل، تقوم على الصبر، والكلمات، والإيماءات، وتتميز على نحو خاص بغياب الصمت. فالنساء يتكلمن، وينتقدن، ويعترضن، كما كن يفعلن دائمًا، وكما يفعلن حتى الآن" هذا دور مقبول للنساء وهو دور يمكن أن يؤمن بؤرة للمقاومة. وكلا الشكلين يعكس الصلابة، يعكس جسارة تولدت، جزئيًا عن عشرات القرون من إسار الثقافات الأبوية وانعكست فيما يمكن التفكير فيه باعتباره "الهوة بين الطاعة التكتيكية والمراوغة البراغماتية" **Obedezco Pero no Cumplo** (أطيع ولا أمتثل). (**Rowe and Schelling, 1991: 23**) مقرونة بالاستعداد للكلام، لملء فراغات الصمت، ولسرد الحكايا. هذه الأفكار والمفاهيم التخريبية بطبيعتها – الصبر، العثور على طريقة للالتزام بنص القانون وليس بروحه، والاستعداد للكلام – غالبا ما تمثل أساس المقاومة.

وتعكس المقاومة، فى معظم الحالات، تصورات الناشطين لما يقومون به من فعل كجزء من سياق نضالى طويل وما "يحتفظ به معظم المجتمعات فى ذاكرته" الجمعية. وإذا كانت تلك الذاكرة الجمعية تعود، عادة، إلى فترات بعيدة فيما يتصل بالعظمة والمجد، فهى غالبًا ما تحفل بالضمنى وغير الرسمى، أيضًا، وتعكس هذه "الذاكرة المشتركة تصورات المجتمع عن أصوله وأهدافه وتطوره وحياته الجماعية" (**K, Meyer, 1996: 219**). ومن الصعب تحديد ما تقوم عليه إستراتيجية المقاومة، لكننا غالبًا ما نتعرف عليها عندما نراها، ويتمثل التحدى الأكبر فى كيفية التعرف عليها عندما لا نراها. ومهما كانت المقاومة مراوغة فهى قوية.

التمـرد

كتب توماس جيفرسون (٩٣: ١٩٥٥) يقول: فى اعتقادى أن تمردا صغيرا، بين الحين والحين، هو أمر طيب، وضرورى للحياة السياسية بقدر ما أن العواصف ضرورية للنظام الطبيعى... إنه علاج ضرورى لإسباغ العافية على الحكومة. وبغض النظر عن الأبعاد القدرية المبالغ فيها فى عبارة جيفرسون، فهى مفحمة. وهى أيضا تعكس أن التمرد كلى الحضور،[٩] التمرد من النوع الذى يمثل عصيانا أو انتفاضا نادرا ما يسعى لتغيير النظام بكامله. بقدر ما يهدف إلى الضرب على مواضع معينة داخل النظام الراسخ للحكم أو إلى إعادة تنظيم الحكم ليعالج اختلالات بعينها أو لتغيير حالات محدودة.

ومع اختلاف التمرد **rébellion** عن جهود مشابهة، مثل الهبة **révolt** أو الانقلاب أو الثورة السياسية، فإنه غالبا ما يكون انتفاضة عفوية تستهدف تغيير التيارات أو السياسات أو حتى المؤسسات السياسية، لكنه نادرا ما يشتمل على جهود تسعى للتأثير على البنى والمعايير/ القيم المجتمعية الكبرى، على نحو مباشر، وما يمكن التدليل على كونه أحد الأمثلة الكلاسيكية للتمرد غالبا ما يوصف، على نحو مضلل، بأنه ثورة، حتى وإن كان غيابه عن قوائم "الثورات العظمى" أمرا ملحوظا. ويمكن أن توصف "الثورة الأمريكية" وصفا أكثر دقة باعتبارها تمردا ناجحا (وربما ثورة سياسية، إذا شئنا أن نكون كرماء) فى المستعمرات الأمريكية الشمالية لبريطانيا العظمى. وليس فى هذا ما يقلل من خطر واحدة من أكثر الفترات اضطرابا فى تاريخ الولايات المتحدة، لكنها لم تكن ثورة حقيقية بأى معنى يعتد به للمصطلح. وبالأحرى، فالصراع الذى نتحدث عنه كان تمردا لأنه كان إظهارا للتحدى إزاء السلطة، التى هى الحكومة البريطانية. وإضافة إلى ذلك، فقد كان الهدف هو معالجة خلل معين بتغيير الهيئة السياسية وليس بالضرورة

بتغيير البنية السياسية. وهذا المثال البسيط يوضح، أيضا، أن المقاومة من قبيل تلك التى أبداها أهل المستعمرات لسادتهم البريطانيين يمكن أن تكون المدخل إلى التمرد أو العنصر الذى يخدم أغراضه.

ويمكن للتمردات ذاتها أن تكون تمهيدًا أو لحظات شبه ثورية يمكن أن تفضى إلى ثورات،/ بل وتفضى إليها بالفعل.[١٠] ويدفع د. إ. ه. راسل بأن "التمرد يعرف بأنه صراع عنيف على السلطة يجرى فيه التهديد بإسقاط النظام بوسائل تشمل العنف" (Russell, 1974: 6) ويبين والتون (١٩٨٤) كيف أن التمردات فى الفلبين (٥٣: ١٩٤٦) وكينيا (٥٦: ١٩٥٢) وكولومبيا (٥٨: ١٩٤٦) أسفرت عن إصلاحات اقتصادية ذات مغزى، وإن كانت محدودة، ويدفع بأن مصطلح "الثورة" لم يعد نافعًا ويقترح مصطلح "هبّة"، بدلاً منه. وأنا أوافق بيل (٥ : ١٩٧٦) على أن "الهبّة" أمر مختلف تمامًا، وأقل تعقيدًا بكثير. الهبة أضيق من الثورة وعلى أية حال، فالتمرد قرار متطرف عادة ما يتخذ فى شروط قاسية من قبل أناس يعتبرون أن خياراتهم محدودة.

الثورة

وللناس فى مختلف أنحاء العالم وعبر الأزمان فهمهم للثورة المتجذر فى حكايا الثورة التى نرويها – جميعًا. وقليلة هى المفهومات التى تمددت فى الزمان والمكان وعبر الثقافات مثل "الثورة". ولا يقف الأمر ببساطة عند حد بعينه مؤداه: أن الناس عندما يرون الثورة يعرفونها، فالناس يعيشون وفى رؤوسهم مجموعة على قدر مقبول من التماسك من المفاهيم عما هو ثورة وما هو ليس بثورة. الثورة ليست شيئًا يأخذه الناس بدون مبالاة، وليس بالضرورة بالخوف والارتعاش، فهو يرتبط، أيضا، بالنسبة للكثيرين بالنضالات من أجل الغذاء، والأرض، والسلام، والعدالة، والوصول إلى الموارد وإلى الفرص – من أجل بيت، ورعاية صحية،

وتعليم. وبالنسبة لكثيرين، فالثورة توحي بأن "الأفضل لابد أن يأتي".(١١) وفي إطار هذه الشروط يتم التعرف عليها، في الحال، كتحول دراماتيكي تنخرط فيه جماعة من الناس الذين اتحدوا ليسقطوا حكومتهم، وإذا نجحوا فإنهم يحدثون تحولات عميقة وخطيرة في مجتمعهم. وتشمل النقاط المرجعية المختلفة الثورات في أمريكا (١٧٧٦) وفرنسا (١٧٨٩) والمكسيك (١٩٢٠) وروسيا (١٩١٦) والصين (١٩٤٩) وكوبا (١٩٥٩).

ولا غرو أن تكون "الثورة" موضوعا ملحا بالنظر إلى المجموعة المبهرة من العوامل التي ترتبط بالمصطلح. وتبقى "الثورة" حية، إذ تعني اليوم ما يتجاوز المفهومات التقليدية (لأننا لا نجد وصفا أفضل) حيث يكون الهدف النهائي هو الاستيلاء على سلطة الدولة بغرض إحداث تحول جوهري في المجتمع، إلى الحالات الأكثر تعقيدا والتي ظهرت في العقدين الأخيرين: التعقدات التي ميزت "الثورات الملونة" في أوروبا الشرقية بين ١٩٨٩ و ١٩٩١ (انظر Goldstone ٢٠٠٩) وملحمة التشاباس(*) المستمرة منذ ١٩٩٤ (Khasnabish ٢٠٠٧) والنضالات التي لم تعرف تعريفا جيدا وإن بقيت نضالات فعالة في كولومبيا، والظلال المتباينة لما أصبح يفهم، بشكل عام، على أنه ثورات "إسلامية" (سواء كان ذلك صحيحًا أم لا) وكذلك الحركات المتباينة المعادية للعولمة (Holloway ٢٠٠٢) وقد يكون مصطلح "معادية للعولمة" مصطلحا يفي بغرض ما، لكنه، أيضًا، تسمية غير صحيحة.

وكما بينت في موضع آخر، فالثورات هي من أجل الناس، بالأساس: "خلقها الناس، يقودها الناس، ويحارب الناس ويموتون من أجلها، وينشئها الناس بوعي وعن قصد" (Selbin ٢٠٠٨ :١٣٠) وليس المقصود بذلك تجاهل التأثير العميق للبنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (Selbin, 1997 b :١٣٣)، ودور الأيديولوجيات، والظرف الدولي، وما وراء السرديات مثل التنوير والرأسمالية

(*) Chiapas إقليم مضطرب في أقصى جنوب المكسيك – المترجم)

الكونية التى تشكل البيئة، والمجازات من قبل الحداثة أو التقدم. أو ريـــاح التـــاريخ المكتسحة. ومع ذلك، فإذا كان السؤال هو: لماذا تحدث الثورات هنـــا ولا تحـــدث هناك؟، الآن وليس فى وقت آخر؟، وبين هؤلاء الناس وليس أولئـــك؟، فيجـــب أن نركز على هؤلاء الناس، دون غيرهم، وعلى العوالم الخاصة بهم.

ومن حيث الدراسات الأكاديمية فـــإن "الجيـــل الثالـــث" (Skocpol, 1979, Goodwin, 2001) من نظريات الثورة، الذى امتدت هيمنته زمناً طويلاً، يبدو أنـــه يخلـــى مكانـــه، الآن، للجيـــل "الرابـــع" (Goldstone, 2001, Foran 2005, Goldstone,[١٢] 2009, biand Foran et al., Forthcowing) رغـــم أن رؤاه لا زالت قوية ومجدية، كما جرى بالنسبة للأجيال التى سبقته. إذ يبنى كل جيل علـــى أساس من أفضل ما لدى الأجيال التى سبقته. وأنا أستفيد فى هذا العمل من مصادر عديدة: مثل صياغة سكوكبول التى لا تزال لها سطوتها والتـــى تعتبـــر الثـــورات "تحولات سريعة وأساسية فى البنى الطبقية والدولتية لمجتمـــع مـــا... تـــصحبهـــا وتســـاهم جزئيًا فى إنجازها هبات ذات أساس طبقى تأتى من أسفل" (٤: ١٩٦٩)، ومثل أعمال غولد ستون (٢٠٠١) وكومـــار (٢٠٠١) وبـــشكل خـــاص فـــوران (٢٠٠٥) وكذلك عملى السابق، لأدفع بأننا نحتاج إلى تعميق الجوانـــب الإنـــسانية والثقافية فى تفكيرنا المتصل بالثورة، ومثل أعمال تيلى (١٩٧٨) التى تركز علـــى تعبئة الناس وعلى ما يصفه بيج (٢٤: ٢٠٠٣) بأنـــه افتراضـــاتهم الميتافيزيقيـــة. وهكذا فإن الثورة هى جهد واع تقوم به جماعة من الناشطين المتمتعـــين بقاعـــدة عريضة، يتم حشدها، بشكل رسمى أو غير رسمى، بهدف إحداث تحول عميق فى المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تحكم حياة هـــؤلاء الناشـــطين، والهدف هو التغيير الجوهرى للشروط المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية. وهذا يعكس عملية التأسيس وما يترتب عليها من نضال، ويعكس نتيجة ما بذل من جهد لإنجاز التحول الجوهرى. وعندما يتحقق العنصران نكون أميل إلى اعتبارها ثورة

"عظيمة" أو "اجتماعية"، أما الأحداث الأقل خطرا فغالبا ما توصف بأنها ثورات سياسية، أو تمردات، أو هبات، أو مقاومة، أو غير ذلك من الفعل الجمعي (Selbin, 2008: 131).

ومن حيث المفهومات الأكاديمية والشعبية معًا فإن هناك سردية واضحة على نحو مدهش منذ حوالى ٢٣٠ عامًا،[١٣] وسوف نوضح فى الفصول التالية أن الأمر قد يستدعى أن نعود فى الزمن إلى أبعد من ذلك. وعلى الرغم من التوبيخ الذى بدر عن تيللى، إذ قال "لا يمكن إنجاز تاريخ طبيعى لكل الثورات يعين الشروط الضرورية أو الكافية التى هى بحكم التعريف غير حقيقية" (١٥٩: ٢٠٠٦) وهو هنا يسترشد بـ "هيغونيت" (الذى يعيد ما قاله بار بألفاظ مختلفة) والذى يصف الثورات بأنها قابلة للتدوين (يمكن أن تكتب) بخاصية سردية، فبعد المقابلة بين هذه الشعوب وتضفيرها معًا يقوى بعضها بعضًا، ثم تصبح أشد تأثيرًا "ولكن" نحن نكتب وقائع التاريخ الثورى ونعيد كتابتها، مثل سيزيف، رغم أننا نعلم أننا لن نتمكن من الإلمام بها على نحو كامل أبدًا. ثم يضيف "إن بعض الأطر تساعدنا على الفهم، بقدر ما أن بعضها الآخر يحول دون ذلك، على نحو يدعو لليأس" (٣٢٩: ١٩٩٨). والهدف أن نمسك بما نستطيع الإمساك به باسم فهم أفضل قليلاً.

ويبقى المجاز الأكثر شيوعًا، والذى نسميه هنا حكاية الثورة الاجتماعية (الفصل السادس)، مجسدًا فى ثورة ١٧٨٩ الفرنسية: إنها ثورة كبيرة وملحمية وشاملة، وفشلها (الوحشى) تغيبه سجف الزمن كما تغيب عناصرها الأكثر راديكالية. وتشق هذه الملحمة طريقها عبر القرن التاسع عشر إلى روسيا ١٩١٧، التى لم تحقق أبدًا أفضل ما تطلعت إليه والتى أصبح ينظر إليها، وبسرعة تضاهى سرعة ما جرى فى فرنسا، باعتبارها الفشل الكبير أو الخيانة الكبرى – فمن ذا الذى كان يظهر الولاء لروسيا عندما اقتربت الثورة من نهايتها المهينة (أو حتى بحلول عام ١٩٣٩)؟

وبعد الحرب العالمية الثانية كانت هناك بوارق لما هو محتمل(١٤): فغواتيمالا ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤، بوليفيا ١٩٥٢ – ١٩٥٤، غيانا البريطانية ١٩٥٣ – ١٩٦٤، فيتنام والجزائر فى خمسينيات القرن العشرين كانت ضمن تلك الإمكانات التى عذبت النفوس بالأمل. لكن الصين وكوبا تمثلان الشرعية التى تخص منتصف القرن من هذه الحكاية التى تنتهى، غالبًا، عند إيران ونيكاراغوا ١٩٧٩.

ملاحظة أخيرة حول أفضل السبل لفهم الثورة. والناس لا تحارب ولا تخاطر بحياتها وحياة ذويها أو تغامر بآمالها وأحلامها عبثًا، والتصورات الجافة والبعيدة والنظرية قد لا تفلح وحدها فى تحريكهم. ووفقًا للعبارة التحذيرية الآسرة التى صدرت عن تروتسكى فإن الناس لا يتجهون إلى الثورة إلا عندما "لا يعود هناك مخرج آخر" (١٦٧: ١٩٥٧). وحتى إن كان المرء غير مستعد لأن يجارى تروتسكى، فمن البديهى أن الثورات تتطلب التزامًا عميقًا وعاطفة قوية. وبعكس المقاومة التى تتخذ موقفًا دفاعيًا، أو التمرد، الذى يركز عادة على إصلاح خلل بعينه، فالثورة تحركها الأحلام والرغائب، على نحو جذرى، واليأس وحده لا يكفى وهذه الأحلام والرغائب ليست مساحة ينفرد بها اليسارى أو الشعبى، فالملكيون والمحافظون يعتبرون بخيالات الماضى، وقد تقوم دعاوى الفاشيست، أيضًا، على ما هو شعبى أو على رؤى المستقبل.(١٥)

والثورات ثقافية، بقدر مساو على الأقل، لكونها اجتماعية أو اقتصادية من جهة "أصولها" وتتعلق بالفرد بقدر ما تتعلق بالجماعة أو بالمجتمع.(١٦) وإذ يواجه الناس مطالب الحياة اليومية وبالشروط التى لا تحتمل، وإذ يشعل حماسهم الاحتياج إلى العدل، وتدفعه ديناميات الأمل، فإنهم يسعون إلى تغيير عالمهم وتغيير الشروط المادية والثقافية لحياتهم اليومية. ومن هنا فالحافز إلى الثورة يتغذى على الظلم والإملاق وحرمان الناس من حقوقهم، ومن الحكايا التى يرويها الناس عن الحرية،

والانعتاق، والعدالة الاجتماعية التي يستحقونها والتي تمنيهم بأن يكون لهم صوت في تقرير حياتهم، حاضرا ومستقبلا، في حياة أطفالهم وأحفادهم، في حاضر ومستقبل ثقافتهم ومجتمعهم.

حكايا الثورة(١٧)

كيف تبدأ العوامل المتباينة – الآمال، والأحلام، والرغائب، والغضب، والسخط، والشعور بالمهانة، والمخاوف، والالتزامات، والعواطف – في التفاعل؟ وكيف تشتعل الخيالات الثورية على تباينها (Billington, 1980, Parker, 2003, Saldanu – Portillo, 2003, Khasnabish, 2007)

وكيف تتعمق المشاعر الثورية التي تتولد عنها (Firchow, 2008) وكيف تفضي إلى حالات ثورية (Tilly, 1978)؟ وكيف تمضي رحلة سيزيف من المستحيل إلى الممكن إلى المحبذ إلى المحتمل؟ وأيا كانت المراحل المختلفة للعملية الثورية – ويبدو أنها ثلاث. على الأقل (النضال، النصر، التحول. انظر Selbin, 1999) وقد ترتفع إلى خمس (من التخيل والشعور إلى الحالة التي تلي النصر والتحول) – فيمكن، في أي مرحلة من مراحل تطورها، أن نميز حكايا المقاومة، والتمرد، والثورة، التي تدعو الناس للحذر وتلهمهم، وترشدهم، على امتداد العملية. وإذا كان هذا كله يبدو وكأنه يسير على امتداد خطي و"تقدمي" (كما تجده في فرضية التقدم عبر مراحل) بدرجة أقل احتمالاً في العالم الحقيقي، فهذا إلى حد كبير، انعكاس للكيفية التي نروي بها الحكاية.

والثورات بالنهاية تتمحور حول التزام مشبوب واستعداد هائل للتضحية فما هو العامل الذي تجاهلناه أو لم نوفه حقه والذي كان يمكن أن يسمح لنا بإدراك ذلك؟ والمقصود بذلك هو ما يمكن تصوره كمكون شعري – أسطوري يساعدنا

على أن نقرأ قلوب الرجال وعقولهم؟ لقد مضت "العولمة" بملايين منا إلى نقطة في الزمان والمكان حافلة بالروايات الواقعية – السحرية: فالسبل التي تتفرق، وصوفية السوق، والديمقراطية الليبرالية ليست ما كانت تبدو عليه، بالمرة. إلى أين نمضي وماذا نحن فاعلون؟

فالخرافي والأسطوري والسحري تبدو من الأمور الشائعة، ولا يبدو من الصعب أن نصدق "المستحيلات الستة قبل الإفطار" (Carroll, 1946: 76)(*) ولهذا يجد الناس أنه من المحبذ أن نناقش عودة الثوريين من منطقة الأنديز في القرن الثامن عشر "التوباك آمارو" و"التوباك كاتاري" في مختلف المسوح في ضبابات الأحراج، كشخص مختلف أو أشخاص مختلفين يشغلون الفضاء ذاته. ويرى (أو يشعر) آخرون بحضور الحصان الأسطوري الأبيض للثوري إيميليانو زاباتا في المكسيك في بداية القرن العشرين. في بعض الأحيان، بجوار نار المخيم الخاص به كما أن الشخص الثوري الكلي الحضور أكثر من غيره، تشي غيفارا، قد شوهد بعد موته بوقت طويل في مختلف أنحاء أفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا، ونيبال، وفلسطين، وهو صدى لادعاء الزعيم الزاباتيستي المعاصر القائمقام Subcomandante ماركوس بأن وراء أقنعة التزلج التي يفضلها أناس آخرون منخرطون في النضال، وكلهم ماركوس، والحقيقة، فكما أشار هو وكما هتف الناس في سياتل وجنوا وديفوس وفي الانتفاضات التي حدثت في أماكن أخرى، "نحن جميعا ماركوس" كلنا زاباتيستا، في كل مكان وفي كل زمان.(٨)

(*) هذه إشارة إلى الحوار بين "أليس" و"الملكة البيضاء" في حكاية "النظر في المرآة" التي كتبها لويس كارول، عندما كانت "الملكة البيضاء" تحث "أليس" على أن تدرب نفسها على الإيمان بوجود ما يستحيل وجوده، قائلة: بوسعي القول إني لم أتدرب كثيرا. وعندما كنت في مثل سنك، كنت أتدرب لنصف ساعة يوميا. بل إني، في بعض الأحيان، كنت أنجح في الاعتقاد بستة أمور مستحيلة قبل الإفطار – المترجم.

ومن الواضح أن هناك حكايا ثورية لا تحصى، يمكن العثور عليهـا، أكثـر بكثير مما يمكن أن نعرف. وبرغم التنوعات الكثيرة، يمكن أن نميز حكاية أفلتت من الزمن، على نحو مدهش، لتروى وتعاد رواياتها، على النـاس الـشجعان، ذوى الجرأة، الملتزمين، والذين هم غالبا شباب، يدركون المظالم الفظـة التـى تكتنـف أحوالهم فيهبون للمطالبة بالحرية أو بالمساواة أو بالعدل. إنها حكاية معمرة يبـدو أنها تمتد إلى أبعد ما يمكننا أن نعرفه من الماضى وإلى أبعد ما يمكن أن نتخيله من الزمن الآتى. ورغم أن أناسًا متباينين قد يروون الحكاية، فالنقطة الحرجـة هـى أن الناس يسمعون حكاية يعرفونها بالفعل بالمعنى العميق، فالشخصيات مألوفة – خاصة الأبطال – والأحداث متوقعة (بقدر من الخوف أو الفرحة، انظر **Bates 1996 : 72**). إنها حكاية تعاد كتابتها من جيل لجيل بشكل أو بآخر، عبر الثقافـات وفـى تـشكيلة مدهشة من الأماكن المبعثرة عبر مسافات زمنية مذهلة وبين بـشر[١٩] متنـوعين بدرجة أكثر إثارة للدهشة. هذه الحكايا لا يقررها شخص واحد،[٢٠] ويكتبها الجميع، وتتصب خيمتها داخل الزمن وخارجه، فى آن معًـا، وتـضبط بنيتهـا الـضوابط الاجتماعية – الثقافية القائمة، ولكن ليس بالضرورة الضوابط السياسية الأضيق. إن هذه الحكايا تؤمن "واقعا" يمكن أن يستخدمه الناس فى الأغنيـات، والمـسرحيات، والقصص، وصياغتها الأسرة هى ما يدفع بالناس إلى الدخول فى العملية الثوريـة، وإن لم يكن بالضرورة، حتى تمامها.

وهنا أمر آخر يجدر بنا أن نذكره، فى عجالة: موقفى من كل هـذا. ولـيس من حسن الفطنة أن أزعم أن ما تقرأه هنا لا يتأثر بمن أكون وما أكون، وأنا شديد الوعى بالخطورة التى ينطوى عليها قيام عالم اجتماع ذكر أبـيض مـن أمريكـا الشمالية بدور مرشد السفر للإنسانية. ولا أنا ممن يعتنقـون فكـرة أن المـؤرخين وعلماء الاجتماع قادرون، على نحو ما، على البقاء خارج ما يدرسـون، ليؤمنـوا تحليلاً "موضوعيا"، ويبدو لى أن أفضل ما يمكن لنا أن نسعى إلى تحقيقه هـو أن

نقدم كل ما لدينا حتى ونحن عالمون بما حدث بعد ذلك فى تحرير ثقافى وغير ثقافى للنص، باعتباره أمرًا حتمى الحدوث. ورغم أن هذا كله ينسحب أثره على ما سيلى، فأنا متفائل بأن ذلك التأثير سيكون طفيفًا.

بقية الحكاية

يفترض أن قلة من الناس هم الذين يدفعون بأن العالم يتكشف لنا، على نحو مريح، فى شكل "حكايا متماسكة تتمتع بموضوعات مركزية، بشكل طبيعى، وحبكة ذات بنية محكمة، وتكامل ثيماتى **Thematic**، وخلاصات ذات دلالات أخلاقية" (**Graziano, 1992: 2**). ويقدم الفصل التالى حكاية عن الحكاية المنتظرة، وإن كانت قابلة للتأويل. وما يعنيه هذا فى الممارسة هو أن بعض المكونات النقدية فى مشروعنا هذا سوف تتم مناقشتها، لكن الطريقة التى يقدم بها هنا لا تحتاج أن يتبناها القارئ لتفعيل الأجزاء التالية من الكتاب.[٢١] فبعد مزيد من التمحيص الأولى للحكاية بهدف تعزيز ما ناقشناه وتعميقه حتى الآن، فسوف نعالج المحاذير التى تكتنف استخدام الحكايا كمنهج وكناقلة، وستشمل المعالجة القضايا المركبة للبث والترجمة. ودور السردية باعتبارها عنصرًا متميزًا داخل الحكاية ومكونًا ينغرس عميقًا فيها سوف تتم معالجته أيضًا، كما سنتعرض للرواة الذين ينسجون السحر، ففى حين أن الناس يجيئون ويذهبون فالحكايا تبقى.

ويطرح الفصل الثالث ثلاث مقولات تساعد على الفهم: الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة. وهذه المقولات تساعد على تموضع الحكاية، عمومًا، ولها فائدة خاصة لجهة تأطير النقاش التالى فيما يتعلق بحكايا الثورة الأربع. فالخرافة، والذاكرة، والمحاكاة هى المؤشرات القوية والواسعة الدلالة إلى العناصر التى تقوم عليها الجهود الواعية والقصدية التى يبذلها الناس فى المقاومة والتمرد والثورة. واستكشاف الخرافات والذكريات والتعرف على قوة المحاكاة (ومكان التاريخ فيها)

من أجل الحشد والاستمرارية فى الثورة وما يتصل بهما من ظواهر يسمح لنا هذا الاستكشاف بتبين الحكايا الأربع. وهذه حكايا معمرة قابلة للقراءة، تخاطب الحالة الإنسانية، حكايا لا توجد ببساطة للتعبير عن هذه الحالة ولكن توجد باعتبارها محفزًا للتحول.

ويدافع الفصل الرابع عما يمكن أن نسميه، مقتفين أثر بنجامين (٨٤٦: ١٩٩٩)، "هبة الحواديت". فلا سبيل إلى إنكار أن كل حالة من حالات "المقاومة، والتمرد، والثورة" قائمة بذاتها، على نحو بالغ الدلالة. ورغم ذلك فقد نرى فى كل حالة ما تشترك فيه مع كل الحالات الأخرى، وإن كان ذلك مراوغًا وهامشيًا. فالعلوم الاجتماعية لا تتمتع بحصانة تفوق حصانة العلوم الطبيعية من حيث رغبتها الأكيدة فى اكتشاف "قوانين شاملة" كنوع من النظرية الحقلية الموحدة التى تغطى سلسلة هائلة من الأحداث والعمليات، ودراسة أنماط السلوك الجمعى التى بين أيدينا ليست استثناء من ذلك.[٢٢] وفى الوقت ذاته، فنحن نقاسم كثيرًا من المؤرخين الشهية الجائعة إلى التفصيلات والدقائق. وهذه الأمنيات المتعددة يمكن تحقيقها بإنجاز مخطط إرشادى به عديد من الحكايا القاعدية التى تغطى كثيرًا من حالات المقاومة، والتمرد، والثورة، إن لم يكن معظمها. وقد يبدأ البعض، ممن يبتغون العمق والاتساع معًا، من الحكايا العلوية النخبوية التى تصور مشاهير "الأبطال"، وتعكس عمليات ضخمة، وتتميز عادة بأحداث كبرى. ولكن الحكايا ذات الجذور الشعبية تأتى من أسفل وتصور القصص الثانوية، والأشخاص المحليين (أو عامة الناس) وتعنى كثيرا بالأحداث الصغيرة والعمليات المستمرة. وتسعى الحكايا الأربع إلى تغطية هذا كله وأكثر منه بكثير.

وبعد أن طرحنا قضية الحكاية، وفحصنا الكيفية التى يمكن بها للخرافة والذاكرة والمحاكاة أن تساعدنا، وتأملنا كيف نقوم معا بتصنيع المعنى وحشد الناس، فإن القسم التالى من الكتاب يشمل أربعة فصول تتعمق فى تفحص حكايا

الثورة الأربع ويدرس الفصل الخامس ثورة التحضر والمقرطة التى تقوم على أفكار مثل الحضارة (التى يعنى بها فى هذه الحكاية الحضارة "الغربية" أو "الشمالية الغربية" المرتبطة بالثالوث المعروف الإغريقى - الرومانى/ اليهودى - المسيحى). والتقدم، والمقرطة، والأمر الذى يبدو غريبًا إلى حد ما وهو فروض النبالة، بمعنى noblesse oblige من جانب النخب(*) وتمضى هذه الحكاية على طريق انتصار التنوير، وغالبًا ما تستخدمها النخب لتسبغ بها الشرعية، وبالتالى السطوة، على عملياتها. وبالنهاية فهى حكاية "ليبرالية" ومن هنا فهى تحذير من الإصلاح وامتداح له، فى آن معًا. والنماذج المشتركة هى إنكلترا (١٦٨٨) وأمريكا (١٧٧٦) وفرنسا (١٧٨٩) وهى الحكايا الثلاث التى نعرضها هنا.

وحكاية الثورة الاجتماعية هى الحكاية الأشهر، تشمل كلاً من الأفكار النخبوية فى الحكاية السابقة والتنويعات الشعبية التى ستتوالى وهنا تتخذ فرنسا ١٧٨٩ موقع الصدارة إذ تحدث تحولاً فى مفهوم الثورة ذاته. وكما توضح الحكاية التى بدأناها، فمنذ ١٧٨٩ وحتى الآن لم تعد الثورة يقصد بها دورة أخرى للعجلة بقدر ما يقصد بها التحول الاجتماعى - الثقافى، السياسى. والاقتصادى للأمة، للدولة، وربما للعالم. فالناس تتفتح أمامهم أبواب لا حصر لها من إمكانات التحول فى الشروط المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية وبالتالى لدنياهم. والبؤرة هنا هى أقرب ما تكون إلى التعريف الذى سبق طرحه للثورة: الصراع على سلطة الدولة، والتحولات السريعة والجوهرية للبنى الدولتية والطبقية التى تحركها، جزئيًا، الهبات ذات القاعدة الطبقية التى تغير النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بطريقة تتسم بالتزامن وبالتعزيز المتبادل بين المسارات. وعلى طريق فرنسا فإن الأمثلة الأكثر شيوعًا هى روسيا (١٩١٧) والصين (١٩٤٩) وكوبا (١٩٥٩)، وإن

(*) أى ما يتعين على النخب أن تتحلى به من خصال لكى تكون جديرة بالنبالة التى تدعيها لنفسها أو التى تنسبها إليها الجماهير - المترجم.

كانت المكسيك (١٩٢٠) وإيدان (١٩٧٩) ونيكاراغوا (١٩٧٩) تظهر بدورها. وهنا سوف نعود إلى فرنسا، ثم إلى روسيا باعتبارها الطبعة المنقحة والمزيدة للقرن العشرين، وإن كانت بلون ونغمة مختلفين اختلافا مؤكدا. ثم كوبا، التى تأتى بالثورة إلى العالم "الحديث" (أو على الأقل المعاصر). وللمساعدة على تموضع هذه النماذج فسوف تظهر كوميونة باريس، والصين (امتداد الثورة فى "العالم الثالث") وبعض ذرية كوبا.

وإذا كانت حكايتان من هذه الحكايا تقرآن، على نحو معقول، باعتبارهما ثورتين نخبويتين أو على الأقل من أعلى لأسفل، فإن الفصل السابع يقدم مقترب المستوى الوسيط الذى تغطيه حكاية ثورة الحرية والتحرر. وبعكس الحكايا السابقة، فهذه الملحمة الطولى والأقل تماسكا يمكن أن تبدأ فى وقت مبكر مثل هبة سبارتاكوس التى قام بهما العبيد ضد الرومان فى الفترة من ٦٣ إلى ٦١ قبل الميلاد، أو قصة الخروج التورانية؛ وهى تركز على مناهضة العبودية، ومناهضة الاستعمار، ومناهضة الإمبريالية بالهبات والتمردات حول العالم، حيث يسعى الناس إلى نيل حريتهم وانعتاقهم من مختلف أشكال القمع والتسلط. وهنا يوجد اهتمام بالمساواة بالإيمان، و"بتقرير المصير" وهى وعود كاذبة تعرفها الملايين معرفة جيدة وبعض الأمثلة الأجدر بالاهتمام هنا هى هاييتى (١٦٩١) وتمرد سيبوى (١٨٥٧) وتمرد المهدية فى السودان المصرى (ثمانينيات القرن التاسع عشر) وتمرد الملاكمين فى الصين (١٩٠٠)، وعديد من النضالات المعادية للكولونيالية فى القرن العشرين. وممثلو هذه الحكاية تجدهم فى حالات مثل هاييتى، التى قد تكون أهم الثورات فى العالم وأكثرها معاناة من التجاهل، والمكسيك، أول ثورة اجتماعية كبرى فى القرن العشرين، والتى لا يضاهيها إلا الصين وفيتنام كعمليتين اتسمتا بالتوسع وتعدد الفصول. وهذه قصة تنبئ بإعادة انبجاس المقاومة، والتمرد، بل والثورة، محليا، فى مطلع القرن الحادى والعشرين. ثم إن هناك حكاية المستوى الجزئى **micro – level**، وإن كانت حكاية ذات تأثير ذى ثقل على

المستوى الكلى macro – level أو حتى على المستوى المتحول، الحكاية المراوغة، رغم قوتها، عن "ثورات الضائعين والمنسيين" وسواء كانت موجزة ومحكمة أو طويلة ومفككة، فالحكايا الأخرى تطرح رواية ذات مراحل زمنية متتالية تمضى باتجاه نهاية ما وتكشف عن حبكة يمكن تبينها. وهذا مريح بشكل واضح، وأيًا كانت الرواية، فهو محتوم – لكنه أيضًا مخادع. وهنا نجد حكايا أصغر، وأكثر غموضًا، وأكثر محلية، وأضيق، وأكثر عزلة. ولا يعنى ذلك الوجوه المألوفة: ففرنسا والمكسيك وروسيا حاضرات هنا، ولكن بوصفهن حالات لحظية محلية محدودة وضائعة أكثر منها عمليات كبيرة ومعروفة جيدًا. وهذه الحكايا الأكثر غموضًا وانطباعية عن "الصراعات" المفقودة بالنسبة لنا تعكس حكايا المقاومة، والتمرد، والثورة اليومية. والأمثلة لا تحصى ولا تعكس إلا ما نعرفه – فمن المستحيل أن نعرف ما فاتنا ولكن تأمل عهد القائلين بتجديد المعمدانية فى مونستر من ١٥٣٤ إلى ١٥٣٥، وتمرد العبيد الهائل فى القرن السابع عشر الذى أسفر عن جمهورية البالماريس التى بقيت قرابة السبعين عامًا فى شمال شرق البرازيل، أو هبة ماسانيللو التى استمرت تسعة أيام فى ١٦٤٧ فى نابولى الإسبانية، أو "مؤامرة نيويورك" للبحارة وعمال الشحن البحرى فى ١٧٤١، أو الراقصين الأشباح الأمريكيين الشماليين فى القرن التاسع عشر، أو الكتائب الحمراء فى مونديال كازاديل دى لوس أو بريروس فى مكسيكو سيتى من ١٩١١ إلى ١٩١٤ أو "سوفيتية الأيام الثلاثة" غوانغجو (كوميونة باريس الشرقية) أو هبة نازاليت التى قامت فى ١٩٦٧ (واستمرت) فى الهند، أو الجمهورية الشعبية فى غرينيتش تاون فى جامايكا فى ١٩٨٠. والصلات بين هذه الأحداث الضائعة والمنسية والعمليات الكبرى التى قد يكون جزءًا منها لم تأت بها الرياح الرخية، ببساطة، لكنها من فعل أناس مشوا الخطا التى تمشى وقالوا الكلام الذى يقال، سواء فى تراتبيات أو جنبًا إلى جنب، على نحو مباشر أو غير مباشر، وسواء كانوا محرضين نشطين أو مبشرين سلبيين بدرجة كبرى.

وأخيرا، ومع أخذ هذه الحكايا فى الاعتبار، فإننا نبحث كيف يمكن أن تساعدنا على أن نفهم ليس فقط لماذا تحدث الثورات وفى أى ظروف؟، ولكن أيضا متى وأين يمكن أن تحدث؟. ورغم أن الحكايا تخدم، بوضوح، كثيرا من أغراض الناس فإنها، بالأساس، أدوات نستخدمها فى البناء والتنظيم لنحافظ على مستقبلنا وننميه.

وهكذا يبدو معقولا أن نتصور الحكايا باعتبارها شكلا، بل والشكل الأولى، للنضال الاجتماعى – السياسى. وهذا يستدعى أن نأخذ الحكايا فى سياقها، وأيضا خارج سياقها، ويعنى أيضا أن ندرك بطرق غالبا ما تكون مختصرة، أن السياق يعنى أكثر من مجرد "الحالة". ويحذرنا ماك آدم وآخرون من "توسيع الصراع حتى تصبح كل السياسة، على نحو هيغيلى، أسيرة المعنى" (١٤٢: ١٩٩٧). ومع إدراكنا لحقيقة أن الحكايا هى نصوص، والاعتراف بأننا قد نجد، فى بعض الأحيان، وربما عموما، قدرا من "الصدق" فى الحكايا أكبر مما نجده فى كتب التاريخ، هذا الاعتراف لا يعنى أننا ننزلق داخل حفرة الأرنب مع آليس[*] وتؤمن لنا هذه الحكايا، وعلى نحو بالغ الجدوى، معلومات، وتقودنا، نتيجة لذلك، إلى إجابات، ورغم أن التحذير باق: ففى حين أن الإجابات تجىء وتذهب، فالأسئلة هى التى تبقى. يعنى، الأسئلة وأيضا الحكايا...

(*) Alice's Adventures in Wonder Land) التى تختصر غالبا إلى Alice in Wonder Land وهى قصة للأطفال كتبها Charles Lutwidge Dodson الذى كان يكتب باسم مستعار هو Carroll Lewis ونشرها فى ١٨٦٥ – المترجم)

الفصل الثانى

الدفاع عن الحكايا: الحكايا والتحول الاجتماعى

كان ياما كان، فى أرض بعيدة وإن كانت أقرب مما يمكن أن يخطر لك، كان يعيش أناس مثلنا – أو ربما كانوا مختلفين قليلاً. خبروا الصعوبات التى تنشأ عن المحاصيل التعيسة، وعن الطقس الشاذ، وعن موت الأطفال والمسنين بسبب الجوع، وعن المظالم الفادحة التى أنزلها بهم كهنة لا مبالون أو قساة أو أنزلها بهم السادة، والملوك والملكات البعيدون، وعن المعاملة التى يلقونها وكأنهم ليسوا أفضل كثيراً من العبيد، على أرضهم هم. ثم ازدادت الأيام حلكة والظروف صعوبة. وذات يوم ظهر شاب كان يعيش هناك فى زمن أسبق، لكن بُعث به فى طفولته أو فى صباه ليعيش مع عم أو عمة، أو ليتعلم على يدى شخص ما فى مكان بعيد. وراح الشاب يسأل أسئلة عما جعل الحياة على هذه الشاكلة. وبدأ (وفى معظم الروايات هو ذكر) يتحدث إلى الناس مثيراً الجدل حول الأسباب والمبررات. وعند هذه النقطة حذره الكهنة والأزلام المحليون للسلطات القائمة، أيًا كانت، مطالبين إياه بالكف عما هو بصدده حتى لا يقع فى مشكلة مع السلطة. وفى بعض الأحيان تجد الشاب ينصت، وإن كان نادراً ما يأبه للتحذير، وإن فعل فلا يكون ذلك إلا لبرهة، لكنه فى الغالب لا يفعل، وعندها فهو (أو شخص ما قريب وحبيب) يدفع ثمناً غاليًا. وبعد رعاية تعيده إلى عافيته، ربما من قبل امرأة أكبر سناً تعيش وحدها (تملك معرفة نادرة أو غامضة تجعلها منبوذة أو، على الأقل، مهمشة) أو مجموعة من النسوة يعشن معاً، يملك بعضهن أو إحداهن معرفة سرية، أو من قبل شابة تعيش مع جدة (تتذكر عندما...) أو من قبل عم (مرتبك لكنه حنون وعطوف) فيستعيد قوته ويبدأ يفكر فيما يجب عمله لتصحيح الأخطاء التى أصبحت لها قوة القانون، والتى تثقل كاهل هؤلاء الناس الطيبين... وتكون النتيجة أنهم جميعا، باستثناء القرون القليلة الماضية، يعيشون فى سعادة أبدية وشاملة – أو هذا ما نحب أن نتخيله.

ولا تعنى "الحقيقة" فى هذه الحكاية الملفقة، برواياتها المتباينة، الشيء الكثير، وبمعنى ما فإن ما فيها من خيال لا يفعل شيئا سوى أنه يزيـــدها بريقـــا ويجعلهـــا حقيقية أكثر، وقوية بدرجة أكبر وتصلنا صيحة تنبيه وتحية من الصالونية(*) نينـــو دى لنكلو. فعندما سئلت إن كانت تعتقد حقا أن قديس باريس الحامى، الشهيد ســـان دينيس، مشى ميلين وهو يحمل رأسه تحت إبطه، أجابت:

La distance ne vaut rien. Ce n'est que le premier pas qui coute

(المسافة لا تعنى شيئا، إنها الخطوة الأولى فقط التى يحسب حسابها، **Gray, 1872: 34ni**) وما يعنينا هو أن الناس يقرون بأهمية الحكاية ومستعدون للـــتعلم منهـــا، أو لاستلهامها، أو ليستمدوا الشجاعة منها. وبعد ذلك بقرون عدة، فى الذكرى المئويـــة الثانية لثورة فرنسا، تذكرت باريسية أخرى هى النجمة السينمائية الفرنسية ميـــو - ميو ما سمعته فى باريس عام ١٩٦٨. كانت ميو - ميو عاملة على آلة نسيج فـــى عمر المراهقة عندما هب العمال والطلبة معا، بقـــوة وإن لفتـــرة وجيـــزة. وعـــن شعورها آنذاك تقول "لم أفهم شيئا مما كان يجرى، لكنه حركنى" وقالت "العـــاديون من أمثالى بدءوا يفكرون فى أن حياتنا يمكن، على نحو ما، أن يلحق بها تحول ما" (**Marcus 1995: 16**) هذه هى قوة الحكاية وفرضيتها الأساسية التى تفـــتح عـــالم الممكن.(١)

ويسعى هذا الفصل إلى تعميق فهمنا للحكاية ولدورها فى المجتمـــع فالحكايـــا تقوم بعمل اجتماعى دقيق وضرورى. ومعظم الحكايا تـــسعى، دون شـــك، لتعزيـــز الوضع القائم. (**Polletta, 2006: X**) وبعضها قد يوحى بأن هذه هى مهمتها الرئيسية: فالحكاية حسب تيللى تساعد على تفسير الأحداث المربكـــة، أو غيـــر المتوقعـــة، أو

(*) **Saloniere** سيدة تعقد منتدى دوريا فى بيتها وهى ممارسة انتقلت من فرنسا فى القرن السابع عشر إلى روسيا فى القرن الثامن عشر وإلى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وإلى بلدان أخرى. والصالون أو المنتدى يعقده رجل أو امرأة من علية القوم - المترجم.

الدراماتيكية، أو الإشكالية، أو المثالية (Tilly, 2006: 93) لكن تيللى يلاحظ أيضا أنها تساعد على "تأكيد العلاقات الاجتماعية، أو على إعادة تعريفها، أو على تحديها" (٢٠٠٦ :٩٣) وهنا تنشط مجالات مثل المقاومة، أو التمرد، أو الثورة وهكذا فسوف ننظر إلى القصة ذاتها، وكذلك فسوف نتفحص بعض الإشكاليات الأكثر خطورة المترتبة عليها. وهذا يجعل من الضرورى أن نعرج على تخلق الحكايا ودور الرواة، وهو ما يجهزنا، بدوره، للفرق بين الحكاية والسردية.

ولكل عصر حكاياه، وكذلك لكل فرد. وهى حكايا تصوغ الدنيا التى نعرفها وتشكلها. ويعكس عدد مدهش من الحكايا، تاريخيا وعالميا، الإطار المحدد الذى سبق لنا تحديده. فهناك البنية المعهودة من بداية ووسط ونهاية والتى تصف نوعا من التحول أو التطور. وهناك، أيضا، حشد من الشخوص الدرامية (**Steinmetz, 495 : 1992**) المألوفة إلى حد كبير بالنسبة لنا جميعا. ومألوفة لدينا أيضا خطوط الحكاية وأدوات الحبكة بل والفضاءات التى يمكن أن تكون الشخوص قادرة على أن تتموضع أو أن تموضع حياتها داخلها. وعند مناقشة السردية، وهو ما سنعود إليه لاحقا، يدفع سيريل بأن الناس يخبرون "شعورا بالذات... باعتبارهم شخصيات فى حكايا – عن الحب والزواج، عن النجاح، عن التضحية بالنفس بكل نزاهة، عن الواجبات الأسرية، عن النضال الجمعى، عن الصحوة الدينية" (١٩٩٢ :٤٨٣). وفوق كل ذلك، وكما يرى سومرز، فإن هذا يكشف عن عناقيد من العلاقات (الأجزاء المتصل بعضها ببعض) المنغرسة فى الزمان وفى الفضاء، والتى نشأت عن تضافر الأسباب التى تصل (ولو بشكل غير مستقر) المكونات بالهيئة المتصورة أو بشبكة اجتماعية ما (وإن كانت غير متماسكة أو مستحيلة التحقق) (١٩٩٢ :٦٠١).[٢] وكما سنرى فهذا أمر لا يخلو من تعقيد ومن الضرورى التحذير من المبالغة فى استنطاق العلاقات. ورغم ذلك فهو يمثل، أيضا، فرصة متاحة لنا للعثور على أرضية مشتركة للتعرف على مظاهر تعاود الظهور بقدر من الانتظام يكفى لتبين الحكاية.

ولا يقصد بذلك الإيماء بأن الحكايا هي بطبيعتها لا زمنية أو أنها تجسد قيما ثقافية عامة. فالحكايا تعكس، بالأساس، القيم الثقافية لزمانها ومكانها ولأولئك الذين يروونها.[٣] ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك. فالتفاصيل متنوعة تنوع الحكايا ورواتها، والتفاوتات قد تكون انعكاسا لنماذج مختلفة من الحكى وقد تكون أقل ارتباطا بتقاليد السرد الشمالية / الغربية، وبالعناصر الميتافيزيقية الخاصة بالشعب، وبالمكان والزمان، وبالشخصيات غير المألوفة المنتمية الخاضعة لقيم غير معروفة لنا. ورغم ذلك فالحكايا هي مخزونات الرأى والقيم، طريقة يعرف بها الناس أنفسهم ويقيمون بها الصلات مع الآخرين (أو يميزون أنفسهم عنهم)، وهى انعكاس للماضى، والحاضر، والمستقبل وفقا لما تعتبر ثقافتهم أنه "الحق"[٤].

وهذه النقطة الأخيرة بالغة الأهمية؛ فالحكايا الكلاسيكية التى تتناغم مع أصولنا ("الحقيقية" أو بحكم الضرورة المتخيلة / المختلفة) والتى قد تبدو مبشرة بمستقبلنا كما نتمنى أن يكون، وفى أقوى صور الحكايا نجد الماضى والحاضر وقد انصهرا وصارا شيئا واحدا.[٥] وما تعد به الحكايا الأقوى تأثيرا هو خلق حاضر يوجد فيه الماضى والمستقبل، جنبا إلى جنب، وبهذا يبدو كل شيء ممكنا. وبعكس التاريخ حيث "البنى... تخطف الحياة الحقيقية وتحبسها فى الثكنات" يطرح بنجامين "انتفاضة الحواديت الشوارعية" (٨٤٦: ١٩٩٩). وبتعبير آخر، فبغض النظر عما يعلمنا إياه "التاريخ"، فإمكانية المقاومة، أو التمرد، أو الثورة هى فى جوهر الحكاية، أيا كانت نوايا الراوى أو السياق المجتمعى.

ويدفع آبياه (٤٦: ٢٠٠٣) بأن الحكايا تعمل على "حشر الناس فى مجتمع واحد بنقل صور مشتركة حول ماهية الحياة أو ما يفترض أن تكون عليه". الحكايا توحد بين الناس فى مجتمع مشترك تؤمن رموز معينة فيه وثيمات **Themes** وشخوص: الإدراك، والمعرفة والفهم. ونتيجة لذلك فإن "المشاكل المشتركة للإنسانية تتخذ أشكالا سردية مشتركة فى مختلف أصقاع الدنيا" **(Appiah, 2003: 46)**

ويجد المرء، عبر الزمان والمكان، ما يبدو أنها حكايا لا زمنية تعبر عن نوع ما من الحالة الإنسانية ولهذا فمن المنطقى الافتراض بأن هذه الحكايا ذاتها قد تكون موجودة ليس "لمجرد" التعبير عن تلك الحالة ولكن كمحفزات على تغييرها.

وبالتالى فإن الحكايا الأشد تأثيرًا يرجح أن تكون تلك التى تكشف لنا عن الظواهر والشخصيات المجربة والحقيقية. ويمكن أن نجد حشدًا من هذه الحكايا الأشد تأثيرًا فى المصنفات القصصية المشهورة، المجموعات المنتمية لأصول ومصادر متنوعة: ألف ليلة وليلة[٦]، وكتاب الجبال والبحار الصينى (Shan hai Jing)، وكتاب أوفيد "التحولات"، وخرافات أيسوب وبانكا تانترا السنسكريتية،[٧] والكتب المقدسة للثقافات التوحيدية الثلاث (التوراة والإنجيل والقرآن)[٨](*) وكتاب ديكاميرون[٩] لبوكاشيو، وحكايا كانتر برى[١٠] لتشوسر، وحكايا الجنيات التى جمعها الأخوان جريم.[١١] وهذه ببساطة هى المصادر المكتوبة التقليدية التى تحظى بقدر كبير من الشهرة دون أن نأخذ فى اعتبارنا، وهو ما يحدث غالبًا، المجموعات الشفاهية الوافرة، والتى صارت مألوفة، إلى أقصى درجة فى زماننا الحاضر باعتبارها ملاحم وحكايا متشابهة (مثلاً حكايا المحتالين مثل برير رابيت أو العنكبوت أنانسى بأقنعته المختلفة) والدورات الغنائية التى تجدها فى كل الثقافات الحية.[١٢] ويبدو السعى وراء تبين أصول أى حكاية معينة، أو تتبع خط النسب الخاص بها مهمة غير منطقية فى أحسن الأحوال، وهى تتجاوز المجال الخاص بمشروعنا هذا، تمامًا. ورغم ذلك، فبوسعنا أن نجد قدرًا مذهلاً من التشابك والتشابه بين الحكايا المرقشة التى نملكها نحن البشر كجزء من ثقافاتنا المتفرقة الشعاب.

وتمثل هذه الحكايا لوحة عريضة متنوعة: بين استطرادية وعقلانية أو لا عقلانية، بين أداء وتفسير، وحتى وهى تروى بواسطة الرواة بطريقة واحدة أو بطرق عديدة، وتسمع بطريقة واحدة أو بطرق عديدة من جانب المستمعين.[١٣]

(*) يشير المؤلف إلى القصص فى الكتب المقدسة لا باعتبارها وحيًا ولكن باعتبارها – وفقًا لمنهجه هو – تعبيرًا عن قيم إنسانية – المترجم.

لكن هويات الناس تضرب بجذورها فى الثقافة المشتركة، واللغة، والانتماء العرقى، والاقتصاد والذاكرة الجمعية، والرموز، والأعداء المشتركين، والخبرات والمفهومات المشتركة. وتتضافر هذه الديناميات العديدة لتأسيس "حقيبة الأدوات" الواعية وغير الواعية، من الرموز، والحكايا، والطقوس، والصور التى نصور بها عالمنا (Swidler, 1986: 273) مما يحمله الناس فى رؤوسهم وهو ما يفضى إلى تأسيس "ذخيرة العمل الجمعى" (Tilly, 1978: 143). ويعتمد الناس، بقصد أو بغير قصد، على "حقائب الأدوات" هذه ليبنوا ويفسروا دنياهم فى العموم، والماضى، والحالات المعاصرة التى يواجهونها، والمستقبل الذى يتخيلونه والطرق التى قد تأخذهم إليه، فى الخصوص، وتؤمن الحكايا لنا طريقًا للوصول إلى هذه الممالك.

وقد تكون الحكايا أعظم اختراعات الشعوب، على المستوى الاجتماعى وعلى غيره من المستويات، ويشبهها تيللى بظهور المحراث فى الزراعة (Tilly, 2006: 95) وتمزج الحكايا بين عناصر داخل الخطاب المكتوب والشفاهى والمرئى وخارجه، ولا يمكن لها إلا أن تتأثر بالثقافة الشعبية فى كل تجلياتها. وهذه العلاقة مركبة ومفعمة بشحنة عالية؛ حيث إن الحكايا منغرسة، بشكل واضح، فى الثقافات التى تساعد على (إعادة) تخليقها. وهكذا، وبمجرد استيعابها (حتى وهى تستوعب الثقافة الشعبية) فقد يصل الأمر إلى حد النظر إليها باعتبارها مجرد مظاهر ثانوية للثقافة الشعبية، والنظر إليها فى العصر الحديث وما بعد الحديث باعتبارها مادة يجرى التصرف فيها بحرية وبطريقة تمليها ضرورات اللحظة والمكان ونزعات الهوى. وكل هذا "صحيح" على نحو يكاد يكون مؤكدًا – لكنه ليس الحقيقة كلها. وإن لم يكن تيللى ممن يعشقون منهج الحكايا، فهو يعترف، رغم ذلك، بأنه عندما يأخذ معظم الناس المنطق مأخذ الجد، فإن هذا المنطق يصلنا فى شكل حكايا (٩٥: ٢٠٠٦). وكما أشرنا من قبل، فالحكايا تعمل على توحيد الناس داخل مجتمع مشترك تؤمّن فيه رموز معينة وثيمات، وشخوص: الإدراك، والمعرفة، والمشتركات، وفى بعض الأحيان خطط العمل.

ما قبل النظرية: مناورة منهجية خاطفة

لا نقدم هنا تعريفا واحدا للحكاية كما أنه لا توجد خطة منهجية أو جاهزة للتطبيق بهدف التوصل إلى فهم تراكم الحكايا وتأويلها وتقديمها. وبعد أن أظهرنا أسفنا على المناهج الموجود فلابد من الإشارة إلى أننا ندرك أنه من الأسهل أن نحدد المناهج التي يتعين تجنبها لا أن نقترح مجموعة من المناهج للاستخدام المنتظم (Clark, 1973: 10). وبالتالي فما نجده هنا قد يكون أفضل تصور له هو أنه ما قبل النظرية: تدريب يحدد لنا موقفا من الطريقة التي تمضي بها الأمور في دنيانا ويمدنا بمواد أولية للتنظير وفي سياق هذه العملية سوف نقابل تشكيلة متنوعة من الافتراضات العملية على المستوى الجزئي micro – level التي تطورت أثناء العمل الميداني إلى جهود على المستوى الكلي micro – level لتفسير النماذج والعمليات التي يمكن تبنيها، ويمكن لما قبل النظرية أن يعمل كمؤشر إلى أنماط أخرى من التمحيص والبحث وكأساس لنظريات على مستويات أخرى. وهكذا فإن ما قبل النظرية هو مسعى يستهدف رسم خريطة للمنطقة التي سوف يسعى بعضنا، رغم التحذيرات، إلى أن يبحر عبرها، في حين يضرب الآخرون فيها، فيما يكتفي غيرهم بتوفير جهودهم. ونأمل أن نتمكن من إزاحة بعض العوائق أو شق ممر أو اثنين، في الاتجاه الصحيح.[١٤]

وتعريف هذا الجانب من عملنا بأنه ما قبل النظرية يترك المجال مفتوحا للتعديل والتغيير في المراحل التالية من الكتاب، وفي أفضل الأحوال فهو يشرك القارئ في العملية. وقد يكون من السذاجة، وربما من المكر، أن نتجاهل حقيقة أن أي محاولة لتأسيس نظرية يفترض شكلا ممّا وراء الحكاية(*)، ولا نركز هنا على

(*) metanarrative هي حكاية الحكاية أو حكاية الحكايا. ويشار بها، في أدبيات ما بعد الحداثة إلى السرديات أو النظريات التي تقدم نفسها باعتبارها متجاوزة لكل شروط محلية، مثل أعمال كارل ماركس أو ماكس فيبر – المترجم.

ما وراء الحكاية بأشكالها المألوفة مثل أنماط الإنتاج، أو الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، أو ظهور نظام الدولة الحديثة، أو ثنائية التحديث والتبعية. ما وراء الحكاية هنا يمكن تصوره، على النحو الأفضل، باعتباره بنيوية مادية / حداثية، تشير إلى ضرورة الالتزام بما هو إمبيريقى وبما هو "حقيقى"، وتعكس الاعتقاد بأن معظم ما هو إمبيريقى وحقيقى هو رغم ذلك، بنية شيدناها نحن المحدثين، عن قصد أو عن غير قصد.

ويترتب على ذلك، ضمن أمور أخرى، ما تبين لنا بالفعل من تخلّ عن صنيعة العلم الاجتماعى "التقليدية" الصارمة، أو على الأقل الأشكال الراهنة منها مثل "الثورة السلوكية" فى ستينيات القرن العشرين. وعوضًا عن ذلك، فإننا نفترض هنا أن النفور من أسطورة (أو "وهم"، انظر **Chartier 1991: 4**) الأصول، فلا وجود لـ "بداية" واضحة، وأننا بمعنى من المعانى العميقة، موجودون، ربما دائمًا، فى "المنتصف"، كما يشير ديليوز وغواتارى (٢٥: ١٩٨٧)، وهو مكان شيق للغاية حيث "تتسارع الأمور"، و"النهاية" هى فكرة دائمة الحركة وتعاد صياغتها، باستمرار، وأيا كانت الإشكالات التى تنجم عن ذلك فهو انعكاس أكثر دقة للعالم. فإذا كانت الحكايا، جزئيًا، ذاكرة ومعنى ورسائل بالمعنى المجتمعى العميق، فلن نضن بالوقت أو الجهد لبحثها وتوضيح مظاهرها المركبة والشبيهة بالمتاهة. وتمكننا الحكايا برغم كل ما تمثله من تحديات حقيقية تمامًا باعتبارها "معطيات"، على الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم بسبل قد لا تتوفر من دون الحكايا.

ولا يقصد بشىء من هذا أن نستبدل بالحكايا، ببساطة، التحليل الذهنى الصارم. ولكن لا يوجد ما يمنع من المزج بينهما بل والاعتماد على الحكايا ضمن مساعدات التعلم، وكمؤشرات إلى أمور مهمة. ولا يجب أن يؤدى الاعتراف بقوة الحكايا وبأهميتها وبالمعلومات التى قد تمدنا بها إلى التقليل من قدرتنا على تقديم ما نتوصل إليه (ما نعرفه) بالمصطلحات شبه الموضوعية التى تقوم عليها العلوم

الاجتماعية فى زماننا لكن تلك هى قصتنا، فمن المحتوم أن تكون اللغة التى نفهمها، بكاملها، وجوهر مشروع العلوم الاجتماعية ذاته، وما نعرفه مقصور على ما يمكن لنا أن نستخرجه من الحكايا التى نجمعها ثم نقوم بـ (إعادة) روايتها. والنقطة الحرجة هى أن الحكايا تفتح لنا طريقًا للدخول، إنها أداة أخرى من أدوات المهنة يمكن توجيهها إلى بناء فهم أفضل لمن نكون وإلى أين نمضى.

حكايا كثيرة مألوفة لملايين الناس فى العالم، حكايا تخترق حواجز الزمان والمكان والثقافات وهى تقتسم عناصر جوهرية شائعة بينها (انظر مناقشة السردية فيما يلى) وترسخ كثيرًا من المبادئ العريضة والمألوفة. وغالبا ما يكون تبين ماهية هذه الحكايا على وجه الدقة، أمرًا ذاتيًا خالصًا يتوقف على زاوية الرؤية لدى الناظر الذى تناط به مهمة إقناع الآخرين بصدقية تأويلاتها، أو على الأقل براجحيتها. إضافة إلى ذلك فمن الواضح أن هذا تحد لمن بين ظهرانينا مكن المتطفلين على هذا العض القادمون من الزمن الحداثى(*) الذين يعتبرون التثمين والتسمية شكلاً من أشكال السيطرة والإحالة إلى زمننا نحن. لقد جئنا متأخرين، ولا مجال عند هذه النقطة لتقرير ما إذا كانت، مثلاً، الحكايا الكثيرة عن الفيضانات الهائلة والمدمرة أو الرجال والنساء المقدسين أو الأبطال الملحميين أو الشعب (الشعوب) العظيم (العظيمة) هى حكايا عمرها أجيال أو حتى عشرات القرون، أم أنها مجرد غربلة لموروثات قائمة، أم هى الاثنان معًا بل وسوف ننظر فى الصفحات التالية فيما إذا كانت لهذا الأمر أهمية. وأيًا كان الأمر، فعندما "تنزع الطابع القومى" عن هذه الحكايا، يصبح بوسعنا أن نداولها وأن نعثر على ثيمات مشتركة تشير إلى أن الأمور الثورية، وإن كانت محلية على نحو عميق، فهى تعكس أيضًا، أحكامًا أوسع وأعمق نكتبها عبر الزمن والفضاء والثقافة، وهى أحكام تتعلق بمن نكون وكيف نتصرف، وما هو ممكن فى دنيانا.. وهذا أمر بالغ الأهمية.

(*) على اعتبار أن الزمن الحاضر هو زمن ما بعد الحداثة – المترجم.

وليس القصد هنا أن نعطى امتيازا للحكايا تستبعد بموجبه المصادر الأخرى، ولا أن نوحى بأن الحكايا وحدها هى التى تدفع بالناس إلى الفعل. وليس القصد أن نحول الحكايا والثقافة إلى أشياء مجردة مثل العمليات الاقتصادية والقوى السياسية فعدد العوامل التى يمكن أن يأخذها المرء فى اعتباره، على نحو معقول، وهو يعالج شروط الثورة التى تتعلق بأين، ومتى، ولماذا هو بحد ذاته عدد هائل. وقد بذلت جهود كثيرة بهذا الصدد، وتفاوتت حظوظها من النجاح. فالناس يمرون بخبرات متباينة، تتراوح بين الاستبداد والجوع وبين ردود الفعل العاطفية، كما هو واضح. والقليل القليل الذى عالجته هذه التحليلات والتى تأثرت، فى معظم الحالات، بخطاب النخبة أو بخطاب المثقفين - وهذه اتهامات يمكن توجيهها لمشروعنا هذا، أيضا - هى المدى الذى يمكن أن نتوصل إلى تحديده بصياغة الحكايا الآسرة ويمكن لأى حكاية من الحكايا أن تكون لها مغازٍ عديدة بالنسبة لكل من الرواة والمستمعين، الذين يتكلم كل واحد منهم بأكثر من صوت ويصغى كل واحد منهم من مواقع عديدة.

عودة إلى حكايتنا

يريد الناس أن يسمعوا حكاية يعرفونها بالفعل بشخوص مألوفة وأحداث متوقعة، بما فى ذلك من خوف ومتعة (Bates, 1996: 72). ويبدو واضحا أن هناك رغبة فى وجود أبطال، شبه أسطوريين أو غير ذلك مزودين بمعرفة خاصة أو سحرية، حتى وهم بشريون بشكل كامل وقابل للإدراك. وغالبا ما يطلب إليهم أن يرتفعوا فوق حاضرهم، الذى يكون فى الغالب شروطا كئيبة، وأن يتخيلوا مستقبلاً جديدًا، ويصوغوا رؤية جديدة يمكن أن يطمحوا إليها وإن جرى تصويرها، على نحو ما، بصورة الأمر قريب المنال، حتى وإن كانت هناك، أحيانا، مطالبات بإنكار الذات وبالتضحية.

ويعتمد الناس على الحكايا من أجل إعطاء معنى لـدنياهم. لمكـانهم فيهـا. وللممكن والمستحيل فيها. ويمكن للناس، من خلال الحكايا أن ينتجوا (وقد يخلقـون بذلك، على الأقل، أوهام التحكم فى حياتهم وتوجيهها) وأن يفعلوا ليس فقط معارفهم وخبراتهم، بل ومعارف مجتمعاتهم وخبراتها. ونتيجة لذلك، فالحكايا تعكـس حيـاة الناس وتعيد توجيهها بطريقة لا تتأتى لأى نص آخر، بجعـل المجـرد ملموسـا، والمركب قابلاً للتصرف بدرجة أكبر. ولجعل الأمور "حقيقيـة" فالحكايـا تختـزل التعقيد الهائل لدنيانا، بما فى ذلك حيواتنا اليومية، لجعلها أمورًا بمقـاس بـشرى، وبإضافة المعلومات إلى مخزونات عامرة بالفعل لتناسب المسالك المألوفة إلى حـد كبير. وغالبا ما تكون الحكايا معالجات درامية، سرديات، حول أمور ليـست مـن الحاضر، وإن كانت تستخدم على نحو واسع لإضاءة هذا الزمن بالتحديد – الـزمن المضارع – حيث الواقع الاجتماعى يتمتع بدرجة من التنظيم. يبسط العالم. وبوسع الناس أن يجربوا عالما يختلف عن عالمهم. وقليلة هى أدوات البث التى لها مثـل هذا الشيوع، ومثل هذا الاكتمال، والإبهار، والإشباع – أو القابلة لمثل هـذا القـدر من سوء الفهم من جانب المناهج الخاصة بالعلوم الاجتماعية.

"مشكلة الحكايا"

لا تنظر العلوم الاجتمـاعية، كحكم عـام، نظرة عطف إلى الحكايـا التـى لا تنطوى على إشكاليات وغالبا ما توصم هذه بأنها "مجرد" (حكايا – المتـرجم) ويـشار إليها باعتبارها "وصفا" أو "صحافة" أو ما هو أسوأ، باعتبارهـا تاريخـا.[٥] والتهمـة الأخيرة شاذة على نحو خاص؛ لأننا نعتمد إلى حد بعيد، على المـؤرخين وعلـى مـا ينتجونه من مواد فى كثير من المعلومات التى لدينا. ورغم ذلك، وكما تلاحـظ بوليتـا (2006: x – xi) فإن الحكايا تشغل فضاء مختلفا عليه، "إذ يشيع الاعتقاد بأنهـا حقيقيـة وبأنها خادعة... وينظر إليها باعتبار أن دلالاتها عالمية وأن هذه الدلالات خاصة على

نحو خطير – بل وذات حساسية خاصة. ورواية الحكايا هى موضع تقدير ومصدر متعة ومحل شك، لكن هناك اعترافًا متزايدًا (لا يخلو حتى الآن من إصر) بأن العلوم الاجتماعية تروى حكايا هى الأخرى، وبأننا قد نكون بحاجة، على الأقل، إلى أن نأخذ دلالات هذا الأمر بعين الاعتبار: ما مغزى أننا، حتى ونحن نستخف بـ "الحكايا"، نعتمد عليها ونستخدمها لتنمية أعمالنا وإشراك الآخرين فيها.[١٦] وما يلى، وهو يعتمد على أحدث أعمال تيللى (٢٠٠٨، ٢٠٠٧، ٢٠٠٦، ٢٠٠٢) إلى حد كبير، حول استخدام (وإساءة استخدام) الحكايا، حتى وهو يقر بقوتها وبما تعد به، هو عرض موجز للمسائل الرئيسية المتعلقة باستخدام الحكايا، والتى تصنف، بشكل غير دقيق، باعتبارها قضايا الصدقية، والمنهجية، والبث، والترجمة.

نقل الحقيقة عبر الحكاية

أول سؤال يسأل عن الحكايا هو، فى الغالب، ما إذا كانت "حقيقية" أم لا. ونجيب على السؤال بسؤال: "وهل هذا مهم؟" ومن المؤكد أن الكثير منها حقيقى، وفقًا لما يعنيه المرء بهذا اللفظ الصعب، ومع الاعتراف بأن مسائل مثل حقيقة من؟ وبالنسبة لمن؟ ومتى؟ وأين؟ هى مسائل معقدة، لكن المؤكد، وبالقدر ذاته، أن معظمها، فى بعض التفضيلات، فى بعض الروايات، فى شكل أو آخر، ليس حقيقيًا؛ إذ كيف يتأتى لها أن تكون كذلك؟ هل من الممكن لأى تقرير أو أى رواية، على الإطلاق، أن تكون كاملة الدقة؟ أليس من المحتوم أن يؤول أى من هذه التقارير، أولاً من جانب الراوى، ثم يعاد تأويله من جانب المستمع؟ لا نقصد بذلك التلفيق العمدى – وإن كان واردًا بقوة – بقدر ما نقصد الاعتراف بالميل الإنسانى إلى رواية حكاية جيدة، ونقصد بذلك حكاية مألوفة يمكن إدراكها واستيعابها، وبالتالى يتعين أن تتناسب مع نماذج ومعايير معينة حتى تصبح مفهومة.

ولأنه بوسعنا العثور على عدد مدهش من الحكايا المتماثلة في أزمنة وأمكنة متباينة فهذا يوحى إما بطبيعتها الجوهرية أو التأسيسية أو يدفع إلى الظن بأنه ربما كان هناك، فيما سبق، اتصال بين أسلافنا يفوق ما نتصوره جميعا. ورغم أن هذا واضح بدرجة أكبر في الموروثات الدينية، التي استعار بعضها من بعض على نحو بالغ الاتساع، وواضح بدرجة يعتد بها في مجال أساطير المنبت، فهو واضح، أيضًا، في حكايا عن الحيوان وعن العلاقات داخل الأسرة والعلاقات بين الأسر، وعن الحكام والمحكومين، ومحاولات المسنين لتعليم الشباب والعكس بالعكس، وغالبًا ما تبنى هذه الحكايا باعتبارها "كده وكده"؛ أي تخلط الحقيقي بالمتوهم لتفسير أمور مثل: كيف أصبح للنمر خطوط ملونة وللفهد بقع. وبالتالي، فهل هناك حكاية حقيقية؟ هل هذا يهم؟ ربما لا. وسواء كانت القصة "حقيقية" أم لم تكن كذلك، فهذا قد يكون أقل أهمية مما إذا كان ممكنًا أو واجبًا أن تكون كذلك أم لا.

نعلم منذ زمن بعيد أن كثيرًا مما يوصف بأنه "حقيقة". بما في ذلك الروايات التاريخية المعتمدة مجتمعيا والمسندة بوثائق "رسمية" حكومية (أو غير ذلك)، غالبًا ما لا تكون أكثر من خرافة شبه مكشوفة؛ حيث تكون "الحقيقة" هي ما يخدم غرض المؤلف/ المؤلفة ومن يرعاه/ يرعاها.[١٧] ويتفق مع هذا أن كثيرا مما "نعرف"، كثيرًا مما درجنا على اعتباره حقيقة، وصلنا عن طريق ما نسميه "خرافة" وفي الحالين معًا، يتعين أن ندرك ما يكون مفيدًا أن نعتبره "حقيقة اجتماعية"، الحقيقة التي يتم التوصل إليها بنوع من الإجماع العريض الذي يخدم مصالح متنوعة بدرجات متنوعة لكن تمثيلات الحقيقة والحقيقة ذاتها لا يسهل الفصل بينهما، وربما كانت الحكايا تعكس تصورات الناس، بل وربما دوافعهم ولا يدعو شيء من هذا إلى تجاهل حقيقة أن الناس "قادرون على كل أنواع التفكيك – فيما يجري كل يوم من محادثات وكذلك من تأليف مدروس" (Foley 1993: 231).[١٨] هذه التآليف المدروسة هي مصادر لا تحصى.

وبما أننا سوف نعود إلى قضية الصدقية عند مناقشة الذاكرة في الفصل التالى، فسوف نكتفى هنا بثلاث ملاحظات أخرى: أولاها، أن هناك بعض الثقافات التى ضرب الصدق جذوره عميقًا فيما تتلقاه من كلمات الآخرين وفى الكيفية التى تسمع بها هذه الكلمات، وعلى سبيل المثال، فعند البمبا(*) تجد أن "عضو الصدق هو الأذن". ومعيار الحقيقة هو كلمات الآخرين (Maxwell, 1993: 11) ومن الواضح أن هذا يثير عدة مسائل، لكنه يذكرنا على الفور بأنه على الرغم من أن الكلمات هى ذاتها محملة بالمعنى، فالمعنى يتوقف أيضًا على كيف نسمعها؟. وبالتالى من الذى ينطق بها وكيف؟، وفى كل مجتمع وثقافة يوجد من تتمتع كلماتهم بالامتياز.

وثانيتها، أن جانبا كبيرًا من المناقشة حول "الحقيقة" مرتبط بتساؤلات عن "الصدقية". وهنا، أيضًا، تفعل السلطة فعلها وتبرز قضايا الشرعية: من يملك حق الكلام؟ ويمكن أن تصبح هذه القضايا بالغة الأهمية عندما يدور جدل ساخن حول "الحقيقة". وكما تلاحظ غريسوولد "الصدقية هى دائما، نتاج فعل إنسانى. والفارق بين الحقيقى والزائف هو مسألة سياق: فالعمل الحقيقى من أعمال وارهول إناء حساء زائف" (٢٧٤: ١٩٩٨). ورغم ذلك فهى تؤكد لنا أن هناك "صدقية صادقة يمكن أن يقارن بها المصطنع فينكشف ما فيه من نقص". وبتعبير آخر، فالناس يفترض فيهم أن يميزوا بين من يزعمون الصدقية وبين النزاهة الحقيقية.

وثالثتها، وكما تشير هذه النقاط، فالحكايا يتعين أن تؤخذ كحقيقة مسلم بها، وألاّ تؤخذ على هذا النحو، فى آن معا. وهنا تلتقى فكرة بيركهاردت عن الحكايا "التى هى حقيقية وغير حقيقية" واهتمام البمبا بما نسمع من كلمات، وبعناية غريسوولد بالصدقية، وبعبارة ستيفن الساخرة عن الشائعات التى هى "أصدق من الوثائق" المنسوبة إلى "من يفهم الموضوع كله". ولابد من دراسة الحكايا دراسة

(*) Bemba شعب يسكن شمال شرق زامبيا – المترجم.

بعناية وبضمير، ومن مصادر متعددة كلها تيسر ذلك.. وبعد ذلك فقد نظل على شكلنا فيها وربما كان هذا ضروريا – هل هذا ما جرى حقا؟ هل كان الأسبان هم من فجروا السفينة الأمريكية "ماين" فى ١٨٩٨؟ هل استفز البولنديون الألمان فى ١٩٣٩؟ هل كانت جمهورية فيتنام هى التى قامت بالاعتداء على السفن الأمريكية فى خليج تونكين فى ١٩٦٤؟ هل أيد الناس فى جميع أنحاء الولايات المتحدة الحقوق المدنية؟ هل هاجم العراق (أو حتى أفغانستان) الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ والقائمة لا تنتهى و"الحقيقة" بمعنى ما أمر لا يمكن التوصل إليه ولا أهمية له. كل ما يهم، فى لحظة معينة وللأجيال التالية، هو ما يصبح، وإن اختلفنا حوله، الحقيقة المتاحة.

منهج للجنون(١٩)

والإشكاليات المنهجية المحيطة بالحكايا كثيرة. وبرغم أنها قديمة، فى حالات كثيرة، وبرغم ما يلحق بها من "تنميط"، إلى حد ما، فغالبا ما يبدو أن الحكايا سريعة التلاشى، ومحلية على نحو عميق. وقد تجد فى أحياء مختلفة، ومتجاورة، فى مدينة أو فى حاضرة كبيرة روايات مختلفة، نوعا ما، للرواية ذاتها، خاصة فى مجتمعات ترتبط بها هويات الناس بالحى أكثر مما ترتبط بمدينتهم أو بدولتهم. ولا شك أن هناك بعدا فى حكايا كثيرة يجعلها، على اختلاف مصادرها الأصلية، ومضات عابرة تتنقل بين الناس ووسطهم فى بيئات متنوعة ولكن وكما عبر تيللى (٢٠٠٢ :٢٦) ببراعة مشهودة (وسوف نشير إلى هذا مجددا، فيما يلى) هناك ما يكون مجديا أن نعتبره "حكايا معيارية" "متتاليات، سرد تفسيرى عن أناس تربط بينهم روابط ما، ولديهم دوافعهم الذاتية، وعن أحداث ندعوها أحيانا بالقصص، أو الخرافات، أو السرديات... تقارير تفسيرية عن أفعال بشرية ذاتية الدافع" وإذا كان هذا التعريف للحكايا بالغ الضيق والفقر، فإن وجود الحكايا المعيارية علامة

على استمراريتها بل وقد خلق علماء الفولكلور تنميطات لتصنيف الأساطير وحكايا الجنيات. وأكثر هذه شيوعا هو الفهرس النمطى المرقم والمرتب حسب الحــروف؛ فهرس آرنى – طومسون الذى يعتمد على كل من الحكايــة والموتيفــات **motifs** داخلها ليحدد لها العلامات المميزة.(٢٠) ويبدو أن الحكايا هى سريعة الزوال وطويلة العمر إلى حد مدهش، فى آن معا، ولأن هذا يتوقف على الناس فلا يجب أن يكون مصدر دهشة، بل هو يمثل قاعدة ممتازة.

وفيما يتعلق بـــ "المحلية" فالحكايا تتوقف على "الروايات" بشكل بالغ القـــوة. وفى ليون بنيكاراغوا، مثلاً، فهناك حكايا لا تحصى عما جرى فى المدينة من تمرد ومقاومة فى ١٩٧٨ – ١٩٧٩ ضد نظام أناستازيو سوموزا الديكتاتورى. ولم تتنوع الأحداث من حى إلى حى فحسب، بل ومن مربع ســكنى إلـــى الآخـــر، إذ زعــم الكثيرون أنهم هم الذين فجروا الصراع، مع التركيز فى بعض الأحيان على فـــرد بعينه أو على حدث بعينه. وفى بعض الحالات، أظهرت الحكايا مزاعم متضاربة، قد تكون كلها صحيحة وإن بدا أنها ليست كذلك. وعلى سبيل المثال فقد اختبأ القائد عمر كابيزاس عند هؤلاء الناس فى هذه المنطقة، وحشد الناس فى منطقة أخـــرى، وأخفاه هؤلاء الناس هنا، وأكل مع أناس آخرين فى مكان آخر، وكان يختبئ حقًــا فى هذا الحى، وامتدح أهل حى آخر على مبادرتهم وشـــجاعتهم – وفـــى بعــض الأحياء كان ذلك كله فى وقت واحد، وعندما كان يسأل عن هـــذه الحكايــا، كـــان يضحك ويؤكد بابتسامة عريضة أنها، كانت كلها حقيقية بالطبع **(Cabezas 1989)**. وفى كل محلة، ظهر الأبطال المحليون، وحدثت إزاحة طفيفة لحكاية ليون وللدور الليونى البطولى فى ثورة نيكاراغوا، وحتى إن بقيت مجموعة الشخوص والحكايــة الكبرى – ناهيك عن الحقائق الأساسية – على حالها، إلى حد كبير.

وهناك مشكلة أخرى وهى الميل الغالب فى كثير من البيئـــات إلـــى حكايـــا محمولة على بلاغة شاملة صممت بغرض استئصال الغموض وتعزيـــز الحتميـــة.

ويبدو أن حكايا كهذه صاغها أناس يطلبون الزعامة، وبالتالي فهم يبحثون عن القصة الأسرة. وهكذا فغالبا ما يستخدم القصة ضمن محاولة طمس ما يبدو من تضارب أو تناقض في الدناميات وتقديمك رؤية موحدة وصافية، وكما أشار موريس بيشوب (١٩٨٢) مقتفيا أثر ماركس وإنغلز، في غرينادا، فهذا خط للزحف.(٢١) وهو سعى للحيلولة دون تبعثر الناس في اتجاهات شتى ودون تشتيت انتباههم بتعدد الأفعال التي قد يجدونها معاكسة أو محبطة. وحكايا كهذه تتطلب جهدًا طائلاً لو صنعها في سياقها، وتهذيب الحكاية التي تحكى بحساسية وبظلال متدرجة هو أمر يصعب إلا على الحاذقين.

ومن الواضح أن الحكايا تقوم إلى حد كبير على فهم الناس لمحيطهم وللعالم. وبالتالي فالمسألة ليست مجرد تثمين. بل هي أيضا تساؤل حول كيفية الوصول إليها بالصرامة والقابلية للنسخ المثمنتين عاليا في العلوم الاجتماعية وفي الوقت الراهن، فهناك نقص في النظريات، ونقص أشد في الأدوات اللازمة لقياس تأثير حكاية، أو أغنية، أو رقصة، أو رمز على المجتمعات والثقافات، بل وفي الدراسات الأضيق والخاضعة لكثير من القيود حول الكيفية التي تؤثر بها أغنية أو برنامج تليفزيوني على حكومة ما.(٢٢) وهذا تحد يستحق التصدي له، بالنظر إلى ما يمكن أن يزودنا به من معرفة ثرية بالذات الفردية والجمعية.

البث

ومتاعب البث، على اختلاف أنواعها هي من الأمور التي تحدث كل يوم، من التوجيهات البسيطة إلى الاتصالات الأكثر تعقيدًا. وفي كل بث يضيع شيء ويكتسب شيء آخر: سوف تحدث تقاطعات، وتشويهات، وانقطاعات، ومعظمها غير مقصود، وكثير منها يصعب تبينه. انظر، مثلاً لعبة الأطفال المعروفة في كثير من الثقافات حيث يهمس بجملة: "مكن أذن لأذن"، حتى تعود إلى أول من

صدرت عنه همسة، وعندما يثور الضحك عادة وهو يعلن ما تم بثه ويكشف عن الرسالة الأصلية. ونادرا ما تكون "تشويهات" كهذه عمدية، لكن بعضها، فى العالم "الحقيقى" يكون كذلك حتما، حيث يسعى الراوى إلى التدخل فى القصة التى تدروى أو يسعى المستمع إلى إضفاء مغزى، بشروطه هو، على القصة، أو حتى يأتى بقصة من عنده، ويصبح هذا الأمر أكثر احتمالا عندما يجرى البث عبر الثقافات وعبر الزمن، وعندما يتطلب الأمر ترجمة.

والكيفية التى أصبح بها إيميليانو زاباتا، وهو أشهر شخصية ثورية فى المكسيك، بطلا لدى كل من حكومة المكسيك وأعدائها الثوريين المتصلبين والجيش الزاباتيستى للتحرر الوطنى (Ejercito Zapatista de Liberacion Nacional. EZLN) هى مسألة شيقة وإن لم يكن من الصعب تبينها (انظر مثلا ,Brunk, 2008) فقد لعب زاباتا، لوقت طويل، دورا مزدوجا فى المكسيك (Martin, 1992) والناس يكيفون الحكايا بما يناسب أغراضهم وقد يكون الأصعب رسم خريطة تحول زاباتا إلى شخصية ثورية مهمة فى أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبى، لكن حضوره – بل وحضور حصانه الخرافى المحبوب، وهو رمز آخر من رموز المقاومة والنضال الشعبيين – بالنسبة للثوريين خارج المنطقة أمر مثير للخيال. ورغم ذلك، فمن الممكن فى حالات كثيرة تتبع البث، المباشر وغير المباشر.

تخيل السيناريو التالى، وهو محتمل الوقوع وإن كان ضربا من التخمين. من السهل نسبيا، أن نتخيل أن الثوريين الكوبيين "والأرجنتينى الاستثنائى الذى يقتحم المشهد"(*) وهم يتدربون فى المكسيك فى منتصف خمسينيات القرن الفائت (على يدى عقيد الطيران الإسبانى الجمهورى المنفى ألبرتو بايو).[٢٣] وقد سمعوا الكثير عن زاباتا وربما كانوا قد قابلوا بعض رجال حركة الزاباتيستا المكتهلين وتفاعلوا معهم. وبعد حوالى عشرين سنة انخرط هؤلاء الكوبيون أنفسهم فى التدريب وفى

(*) يقصد تشى غيفارا – المترجم.

القتال إلى جانب الثوريين فى أفريقيا، بعد أن حملوا معهم حكايات عن زاباتا وآخرين وبعد ذلك بعشر سنوات سمع يواكين تشيسانو، الذى كان آنذاك وزير خارجية موزمبيق ثم أصبح رئيس جمهوريتها عن دراسة عن الثوريين فى أمريكا اللاتينية، فذكر جملة أشياء كان بينها (وهو ما جعله بادى السرور) "حصان زاباتا الأبيض" (١٩٨٥).

فما معنى هذا؟ ما الذى يعرفه الموزمبيقيون، بل وحتى الكوبيون، عن زاباتا؟ كيف نجحوا فى دمجه فى عالمهم الثورى؟ من هو وماذا يعنى بالنسبة لهم؟ من الممكن أن نتصور أنه فى الثقافتين معا – الموزمبيقية والكوبية – فإن حصان زاباتا، خاصة إذا قرئ باعتباره فحلا، كامل البياض وربما ضخما، قد يكون أهم من الرجل. والرجل الشجاع الذى يحارب من أجل شعبه ومن أجل قضية عادلة على ظهر حصان أبيض هو رجع الصدى لعدد من الحكايا فى عديد من الثقافات فى كثرة من الأزمنة والأمكنة: كيف نقتسم التاريخ وكيف نسمعه، وما الذى يضيع عند الترجمة؟

وحتى داخل البلد الواحد، قد يكون أمرا بالغ الصعوبة أن نقرر ما تعنيه صلات كهذه، وبالنسبة لمن، وكيف؟ وفى نيكاراغوا هناك حكايا عن كهول ثوريين من عشرينيات القرن الماضى وثلاثينياته يقدمون أنفسهم إلى جهة التحرير الوطنى الساندينيستية الحديثة (Frente Sandimista de Liberacion Nacional) لأداء الخدمة.[٢٤] ورغم ذلك فقد أربك بعضا من الساندينيستيين "الأصيلين" ما واجهوه، وما سمعوه،/ وما رأوه. وجد كلا الجانبين متاعب فى توصيل رؤاهم وفهمهم للموقف، ونادرا ما تلاقت وجهات النظر، رغم أن من تبقوا من الساندينيستيين الأصيلين، فيما يبدو، يؤيدون الساندينيستيين المعاصرين، إلى حد كبير خاصة مع بلوغ النضال ذروته. ورغم ذلك، فإن التساؤلات حول بث الحكايا، خاصة عندما تكون هناك حكايا متضاربة تحمل ملامح متشابهة ظاهرة، وإن كانت غير أساسية، قد تلقى بعض الضوء.

وإذا كان البث يمثل نوعًا من الصعوبة، فالترجمة نوع آخر. نحن نعرف المشاكل الواضحة للترجمة، ولا يحتاج المرء إلى أكثر من قراءة كتاب "معروف" بلغته الأصلية (باستخدام مترجم إلكترونى on- line) لتبين هذه المشاكل. لكن الكلمات تكاد لا تكون المادة الوحيدة التى تتطلب الترجمة. فكل ما يمكن "قراءته" باعتباره "نصًا" – رسوم الكتب وزخارفها، الموسيقية، والأفلام، العروض المتلفزة، التغطية الإخبارية، العمارة، وما إلى ذلك قد يحتاج ترجمة. والترجمة مهمة شاقة، وحتى المترجم الردىء، فى تقدير بنجامين، يدرك إدراكا قويًا أن الترجمة تسعى وراء شىء لا يسبر غوره، وراء الغامض "الشعرى" (a253 :1999). "وجزء من المشكلة، على الأقل، هو أننا حتى لو نحينا كل شىء جانبا، عدا الكلمات، فحتى الكلمات ذات المعانى الثابتة يمكن أن تخضع لعملية إنضاج وقد يتلاشى ما لدى الكاتب من قصدية واضحة، مع الوقت، لتبزغ الاتجاهات الباطنية فى الخلق الأدبى (لاحظ أنه أشار إلى فنون غير لغوية مثل الموسيقى والعمارة، وإلى فنون جامعة ولا تمثل اللغة إلا بعض عناصرها مثل الأفلام، والدراما المتلفزة، وإلى أنشطة مهنية غير فنية مثل التغطيات الإخبارية، ولا علاقة لأى من هذا بالخلق الأدبى — المترجم) وما كان وقعه طازجًا، فى لحظة ما، قد يبدو مستهلكًا، فى لحظة تالية، وما كان ينطق بلغة العصر فى وقت ما، قد يبدو عتيقًا، فى يوم من الأيام" (Benjamin, 1999 a: 256). وبالتالى، "فكل ترجمة هى طريقة مؤقتة، على نحو ما، للتعامل مع"المادة المطروحة" ومهمة المترجم تتمثل فى العثور على مقصد معين تجاه اللغة المستهدفة ينتج فى تلك اللغة صدى اللغة الأصيلة" (Benjamin 1991 a : 257, 258). ومن الواضح أن هذه ليست بالمهمة اليسيرة وقد يكون طلبها أمرًا يتجاوز المنطق.

وليست هذه الأمور بسيطة أو غير متصل بعضها ببعض، لكنها أبعد شيء عن أن تكون المشكلات الوحيدة. وعمومًا، فقضايا ترجمة أى مادة من المواد تواجه إشكالين، يمكن أن نسميها خطايا التجهيز وخطايا الإغفال والخطايا الثلاث الأكثر شيوعًا بين خطايا التجهيز هي"التبسيط"؛ جر المفهومات بل والسياقات خارج أرضها إلى أرض المترجم؛ وإعادة الترتيب بل وإسقاط المركب من الشخوص والظروف المحيطة بالحدث والسلوكيات التى لا تتناغم مع زمان معين أو مكان أو ثقافة معينين. والخطايا الثلاث الأكثر شيوعًا، من خطايا الإغفال هى إغفال الظلال الرهيفة، والخبرة، وفى رأى بنجامين اللمسة الحاذقة. أيضًا هذه القضايا المتعددة الأوجه تلتقى، على نحو خاص، عندما يكون من المجرى اعتباره "التنقيح الثقافى".

و"التنقيح الثقافى" يشار به إلى استيعاب ثقافة ما للحظة أو لرمز من ثقافة أخرى ضمن إطارها.[٢٦] وإذا كان هذا يؤمن للدارسين فرصة من حيث المقارنة والعثور على حكاية مألوفة، فهو يطرح، فى الوقت ذاته، عديدًا من الإشكالات. ولنأخذ مثالاً واحدًا واضحًا: انتشرت على نطاق واسع منذ حوالى أربعين عامًا تمثيلات عابرة للثقافات / متعددة الثقافات لـ "تشى غيفارا"، شجع عليها صعوده المتواصل إلى مقام الأيقونة، وإلى مكانة النجم الشعبى، وهو ما يندر، حتى الآن أن تجد فيه سمات الوهن.[٢٧] ورغم ذلك فمن غير الواضح أى جدوى يمكن أن تتحقق عندما يطلق على أميلكار كابرال من الرأس الأخضر/ غينيا بيساو، وغيره، اسم "تشى غيفارا أفريقيا السوداء".[٢٨] أو عندما يسمى القائمقام ماركوس من جيش التحرير الوطنى الزاباتيستى **EZLN** فى المكسيك "تشى غيفارا الجيل"، أو عندما يوصف الناشط الفلسطينى محمد الأسود بأنه "غيفارا غزة" أو حتى عندما نعود إلى الماضى ونشخص الثورى الأوروبى والأمريكى الشمالى توم باين باعتباره "تشى غيفارا زمانه". وتسميات كهذه تمدنا بنوع من الاختزال، وبالنسبة للبعض، بنوع من الشرعية وبالتالى السلطة أو حتى، وهذا هو العجيب، علامة الصدقية. وحتى إذا

كانت هذه التسميات تلقى قدرا من الضوء، فغالبا ما يثبت أنها معتمـة ومـضيقة، وتشجيعات على تبادل، أو حتى حشر الأشخاص، والأماكن والأحداث، والعمليات، فى غير موضعهم، والمخاطرة الحقيقية هنا تتمثل فى رسم توازيات غير ملائمـة ومشتتة للانتباه، يمكن أن تضلل أكثر مما توضح وأن تخفى أكثر مما تظهر وفـى الغالب، فهذه التسميات تخلق وهم التصنيف وبالتالى السيطرة.

التحدى عند تيللى: مشكلته مع الحكايا

يعالج تشارلز تيللى، وهو واحد من أذكى علماء الاجتماع فى الخمسين سنة الأخيرة ومن أبعدهم تأثيرا، فى آخر أعماله ما يعتبره "مشكلة الحكايـا"[٢٩] ولكـن تيللى إلى جانب تحليله المحكم، فهو نفسه يروى حكاية عظيمـة وبـرغم تـساؤله الماكر نوعا ما حول ما إذا كانت للحقيقة "أى نسخ ذات صدقية" (٤: ٢٠٠٢) ففـى تحليله الكثير مما يستحق الثناء وهو يوافق على أن الناس، عموما، يفهمون حياتهم باعتبارها "حكايا تقوم بعمل مهم فى تحقيق التماسك فى الحياة الاجتماعيـة" (٢٦: ٢٠٠٢). وهو يؤدى عملاً جليلاً بإعادة اكتشاف مركزيـة الـصفقات الاجتماعيـة والروابط، والعلاقات بالنسبة للعمليات الاجتماعية ولتفحص نقـاط الاتـصال بـين العلاقات الاجتماعية من ناحية، والبنية الاجتماعية من ناحية أخـرى (٥: ٢٠٠٢) اضافة إلى ذلك، فإن الفرضية القائلة بأن الحكايا تنطوى على "تقارير آسرة حـول ما جرى أو ما سوف يجرى أو ما يجب أن يجرى وبالتالى فهى تقوم بعمل أساسى فى الحياة الاجتماعية بتثبيت التزامات الناس إزاء المشروعات المشتركة، ومساعدة الناس على فهم ما يدور وتقنية **Channelling** القرارات والأحكام الجمعية، وتحفيز الناس على الفعل الذى لولاه لترددوا فى الإقدام عليه" (٢٧: ٢٠٠٢)، هى فرضـية تتناغم مع المنطلقات الأساسية لهذا الكتاب.

ويبقى أنه برغم، وربما بسبب، كم من الأعمال الحافلة بالحكايا فقد قرر تيللي أن رواية الحكايا، وإن كانت مركزية للحياة الإنسانية، فإن البنية السببية بين الحكايا الأكثر تنميطًا وغالبية العمليات الاجتماعية "هى، ببساطة، غير متوافقة" (Tilly, 2002 : 32). وينبهنا تيللي إلى أنه على الرغم من التقادم وعلى الرغم مما بها من "تنميط" فإن ما يعتبره تيللي "حكايا معيارية"، "سردًا متسلسلاً وتفسيريًا عن أحداث وأشخاص مترابطين، ولديهم دوافعهم الذاتية مما نسمية أحيانًا روايات أو خرافات، أو سرديات... (يمدنا) بتقارير تفسيرية عن الفعل الإنساني بدوافعه الذاتية" (٢٦: ٢٠٠٢) وغالبًا ما تكون انتقالية وشديدة المحلية ورغم أنه قد تكون هناك "حكايا عليا" (Tilly, 2002: xiii, 39- 40, 2006 : 171) تتميز فى جانب منها بأنها "حقيقية" فهذه الحكايا تعجز هى أيضا عن "تصوير سلسلة من العلل التراكمية، وغير المباشرة، وغير المتوقعة، والتى هى – لأسباب أخرى – مركبة" (2002 : xiv) وهكذا، فبالنسبة لتيللي "يؤمن القص المعيارى، فى أغلب الظروف، مرشدا شديد الرداءة للتفسير الاجتماعى... وتشمل غالبية العمليات الاجتماعية علاقات السبب – النتيجة التى تكون غير مباشرة، تراكمية، وتفاعلية، ولا قصدية، وجمعية و/ أو متأثرة بالبيئة غير البشرية" (٣٥: ٢٠٠٢). وصياغة تيللي مركبة وثرية، وتتضمن رواية الحكايا على نحو مؤثر، بغرض إسباغ الحيوية والطابع الواقعي على دعاواه المؤثرة. وفى النهاية، فالحكايا قليلة الجدوى نسبيا.

والقول بأن الحكايا كموشر إلى التحليل الاجتماعى تحيط بها إشكالات هو قول منطقى. "وحتى عندما تنقل الحكايا حقائق فهى تبسط العمليات ذات الصلة، تبسيطًا هائلاً" (Tilly, 2002: 65). لكن هذا التبسيط غالبًا ما يكون مخادعًا، وعلى أية حال فإن دورها ومكانتها كناقل [للحقائق] هو إلى حد كبير ما يعطيها كل هذه الأهمية. وبالنظر إلى العمليات الاجتماعية المطبوعة، فى الأصل، بطابع الحكايا، فإن فهمنا أو رؤيتنا لها غالبًا ما يتوافق مع مسار "البداية – الوسط – النهاية"

وبنيتها. وسواء كنا نفضل الحكايا أم لا نفضلها فعوالمنا حافلة بحكايا لا تتوافق مع نموذج رواية القرن التاسع عشر الذى يفرضه الاطراد المنطقى للحبكة والخواتيم الناجزة. وبالأحرى، فهى حكايا ذات نهايات مفتوحة، وأحيانًا ما يكون ذلك على نحو يبعث على الاضطراب، وليست قابلة ببساطة للتأويل، بل هى تتوقعه، وتطالب به، وهى فى الحقيقة معتمدة عليه، فى بعض الأحيان. ويزج الناس بحكاياهم فى المحادثات فتقوم الحكاية المطروحة بتوسعة وتعميق النقاش. ونتيجة لذلك فهى تعكس، بالضبط، علاقات السبب – النتيجة التى يصفها تيللى، فالحكايا هنا هى بالضبط تلك التى تعكس إدراك الناس للعناصر والجوانب غير المباشرة، والتراكمية، واللا قصدية غالبًا فى حكاياهم وحيواتهم، وتعكس وعى الناس (ولا وعيهم) بالطبيعة الجمعية ذات الخواص التفاعلية العميقة لحكاياهم وحيواتهم، وغالبًا ما تعكس الدرجة الاستثنائية من الأهمية التى يوليها الناس بيئتهم. وهذا ما نسعى إلى استكشافه هنا.

إنشاء الحكايا وروايتها: فن التركيب

الحكايا عددها لا يحصى، وحكايا الثورة وفيرة، أكثر حتى من تواريخ الثورات (وهذا أمر له خطره) ويجرى تداولها على نطاق أوسع مما نظن، عادةً؛ فالناس "يعيدون صياغة العمليات الاجتماعية ويبسطونها بحيث تصبح العمليات متاحة للحكى" (Tilly, 2008: 39). لكن من ذا الذى "يصنع" هذه الحكايا؟ وكيف؟ ولماذا؟ وإذا كانت الإجابات واضحة – فنحن نصنعها، وللأسباب التى أوضحناها حتى الآن – فالعملية تبقى أشبه بالسر. والزعم الرئيسى هنا هو أن الناس "يتذكرون" ماضيهم، وغالبًا ما يكون ذلك على نحو أسطورى، ويستعير بعضهم من بعض، فنحن مجبولون على المحاكاة ونتيجة لذلك، غالبًا ما يواجه الناس العالم بالطريقة التى يواجهه بها "الملفق" **bricoleur**. وهذا يعنى فى السياق الراهن،

القدرة على أداء عدد كبير من المهام المتنوعة بما يتيسر من أدوات ومواد، وغالبًا ما تكون هذه أشياء تم ادخارها أو جمعها عبر مراحل العمر من أجل اللحظات التى تتيح الاستفادة بها.[٣٠] و"الملفق" الذى هو ليس عالمًا تطبيقيًا (أو مهندسًا) وليس منظرًا، جاهز للتعامل مع أى ظرف وبأى وسائل متاحة، وقادر على ذلك.[٣١] ولهذا فقد يحيل "خبير التركيب" إلى شخص يضع إستراتيجياته الخاصة لفهم الواقع المطلوب فهمه و التعامل معه.

وهذا لا يجرى فى فراغ. ولا يقتصر الأمر على الشروط القائمة ولكن، وكما تشير بوليتا بكل دقة، فالمستمعون فاعلون "يسدون الثغرات، بين ما يقع من أحداث، وبين الأحداث والنقطة الكبرى التى يعملون على الوصول إليها... والختام لا يكتمل أبدًا. وتبقى إمكانية أن الأحداث ذاتها، عندما تُروى بشكل مختلف، كان يمكن أن تنتج نقطة معيارية مختلفة... نحن نتوقع أن يكون لزاما علينا أن نفسر الحكايا" (Polletta, 2006: viii). وما يعنيه هذا هو أنه تمامًا كما أن القادة ليس بوسعهم أن يتقدموا بأسرع أو أبطأ مما يسمح به أتباعهم، بل ويتعين عليهم أن يساوموا، ويطرحوا الحلول الوسط، ويتفاوضوا، من أجل أن يكسبوهم لصفهم، فرواة الحكايا هم أيضًا وبالضرورة، يأخذون جمهورهم، ومحيطهم، وحالتهم فى الاعتبار. فالقدرة على صياغة حكايا واضحة، وآسرة، وصادقة ليست بالأمر الهين.

"فالعمل الملهوج الذى يركّب كلاًّ على قدر من التماسك باستخدام خليط من المواد والمفهومات المأخوذة من حقيبة ملئت على نحو عشوائى يمكن، بسهولة، أن يوصف بأنه عمل الملفقين، أولئك الذين برعوا فى فن التركيب السحرى: حكايا جديدة تصنع من قطع من حكايا قديمة أعيد تدويرها" (Apter, 2006, 791 Dongier, 2000 : 26 يربط بين السحر والتركيب، على نحو مماثل). وهذا هو ما يفعله الناس فى عدد هائل من المواقف، بعضها استثنائى فى ذاته لكنه يكتسب مزيدًا من المعانى فى حالات معينة بفضل السياق، وربما لا يحدث هذا أبدًا أكثر مما يحدث فى الظروف غير

العادية التى تنشأ عندما تفسح الخيالات الثورية المجال للمشاعر الثورية وربما للحالات الثورية. وهكذا يجعل الناس القديم جديدًا، وهى إعادة صياغة ضرورية للوفاء باحتياجات اللحظة، بخلق الجديد عند مواجهة غير المألوف أو غير المسبوق.

عندئذ يكون من المرجح أن ينشئ الناس تركيبة ثورية، معجمًا من الألفاظ والمفهومات من مصادر متنوعة صاغه الناس فى شكل من أشكال الأيديولوجية التطبيقية التى يواجهون بها الاختلالات والضرورات فى زمانهم ومكانهم، بتصنيع حكايا جديدة، ورؤى جديدة من القديمة، مع الاحتفاظ بروابط ظرفية من الماضى. ويبحث "خبراء التركيب" فى عقولهم وفى ثقافتهم عن مفهومات وممارسات تساعدهم على التعامل مع الشأن المطروح. وكل ما فى الثقافة والمجتمع صيد حلال لهم. وهكذا فإن ذكريات القمع، وملاحم الاحتلال والمقاومة، وقصص المعارضة، وأساطير المجد الذى كان والذى سيأتى مع المستقبل، ومفردات الأسرار والرمزية التى يتم الاستيلاء عليها من مجمع تاريخ المقاومة والتمرد الموجود فى كل ثقافة، تقريبا (والمستعار من الآخرين) وتصاغ فى شكل ماض يمكن استعماله ليواجه الحاضر ويسعى إلى المستقبل، وتؤمن الأسطورة والذاكرة، والمحاكاة صورة للدنيا كما كانت وكما هى وكما يمكن أن تكون ويجب أن تكون.

ورغم أن تتبع نسب أى حكاية أو مصدرها يبدو مهمة لا يتصدى لها إلا أحمق وهى خارج مجال هذا المشروع، فالواقع هو أن بوسعنا العثور على قدر مدهش من التشابه بين مختلف الحكايا التى يبدو أننا نحن البشر، نمتلكها فى ثقافاتنا ومجتمعاتنا المتباينة. وتمدنا المجموعات الشفاهية والمكتوبة من الحكايا، على الأقل، بمدخل إلى تواريخ العوالم الخاصة بكل منها. وما نزعمه هنا هو أن الحكايا القديمة، كجزء من عملية الثورة، تروى وتسمع وبالتالى تحدث ويجرى جعلها حقيقية وقابلة للاستخدام. وكما أن الثورات ليست اعتباطية وليست من قوى الطبيعة التى لا راد لها، فالحكايا أيضًا ليست شيئا نكتشف وجوده حولنا.

دور السردية: حكاية الحكاية

السردية، شأنها شأن الحكاية كلية الحضور، لا يمكن لنا أن نعمل بدونها. وفي الحقيقة، فقد أشار قارئ فطن إلى أن الحكايا التي تروى في جزء لاحق من هذا الكتاب هي ذاتها تعبق بأريج السرديات من النوع ذاته الذي سوف أحاول أن أميزها عنه في هذا العمل.[٣٢] ورغم أن الحكاية لم تبدأ العودة إلى العلوم الاجتماعية إلا مؤخرًا، فجدوى السردية وأهميتها قد تأسستا، على الأقل، منذ ظهور عمل بيرتو (١٩٨١) وربما العمل الرائد الذي أنجزه هوايت (١٩٧٣). وقد ثبت أن السردية بعد أن تناولتها أيدي الكثرة من القادرين بين دعاتها، تتجاوز كونها وصفا يعكس مدى انخراط الناس في الشبكات الاجتماعية المعقدة عبر الزمان والمكان. وهذا يساعدنا على رسم خريطة تبين الدرجات التي تبلغها تقاليد الأنشطة والنضالات الثورية في توسعة الإمكانات التي يرى المواطنون المقموعون أنها متاحة لهم وتنويعها. والسردية هي الجوهر الحرج للحكايات على الأقل كما نفهمها نحن في الشمال/ الغرب عمومًا، لكن رسم الخرائط لا يكون واحدة بواحدة، فالحكاية يمكن أن تكون أكثر من سرديتها.

ولا يقصد بالفصل بين الحكاية والسردية الجدل أو المنازعة، أو الإشارة إلى أن هذه المصطلحات لا يقوم أحدها مقام الآخر في الاستعمالات اليومية. وجزء من الغرض من هذه التدريبات هو أن تمكننا من أن نفكر بقدر أكبر من الدقة بما يتجلى في العالم "الواقعي". ولهذا السبب فإن الزعم بأن السردية، كما نصفها فيما يلي، هي فرع من الحكاية؛ أي أن الحكايا سرديات، إلا أن السردية وحدها ليست حكاية (انظر Glassie, 1982 : 39 ولوجهة نظر معاكسة انظر Tilly, 2006: 64). وفي حدود الأغراض التي يرمي إليها هذا المشروع، فالتركيز يقع على الحكاية، ويقصد بها هنا ما يصور "اللخبطة" الأوسع، والأعمق، والأفسح التي تحيط بذلك الذي

يرويه الناس، ذلك الذى يعنيهم أكثر من سواه. ولكن قد يكون مستحيلاً أن نتفحص الحكاية أو نكشف غموضها من دون دراسة جادة للسردية.

وحسب التصوير الآسر الذى قدمه بارت فإن سرديات العالم وفيرة، وتوجد فى:

- التعبير اللغوى، منطوقا أو مكتوبا، وفى الصور الثابتة والمتحركة، وفى الإيماءات، وفى الخليط المنظم من كل هذه المواد... وهى حاضرة فى الخرافة، والأسطورة، والنادرة، والرواية، والرواية القصيرة، والملحمة، والتاريخ، والمأساة، والدراما، والكوميديا، والتمثيل الصامت، والرسم... والزجاج الملون للنوافذ، والسينما، ورسوم الكاريكاتير، والفقرات الإخبارية، والمحادثة... تحت هذا التنوع الذى يكاد يكون مطلقا تجد السردية حاضرة فى كل عصر، فى كل مكان، فى كل مجتمع، وهى تبدأ مع تاريخ النوع البشرى ذاته، ولا يوجد بشر فى أى مكان ولم يوجدوا أبدا، من دون سردية. (Barthes, 1977: 79)

وحتى لا يكون هناك أى تشوش، فهو يضيف: "كل الجماعات البشرية لديها سرديات... السردية عالمية، عابرة للتاريخ، عابرة للثقافة: إنها ببساطة موجودة، مثل الحياة ذاتها". (Barthes, 1977: 79). وفى نفس الاتجاه الذى يمضى إليه بارت نجد صياغة بايات الأكثر إحكامًا، حيث السردية "هى جزء من الطبيعة البشرية تمامًا كالتنفس والدورة الدموية" (١٦٦: ٢٠٠١). فما هى السردية، إذن وكيف تختلف عن الحكاية؟

من الواضح أن السردية يمكن أن تعنى عددًا من الأمور المختلفة. ومع وعى سيويل بمخاطر "تمييع المعنى" فإنه يعتبر السردية، رغم كل شىء، مقولة عالمية فى الثقافات الإنسانية وفى تقاليد القص، وفى الافتراضات الأبستمولوجية والأنطولوجية، وفى كل تقرير عن خبرات الحياة، وفى البنى الأيديولوجية المقصود

بها تحريك القواعد الجماهيرية للحركات الاجتماعية (٤٨٦: ١٩٩٢). وربما بتعبيرات أقل فخامة يلخص تيللى (١٧: ٢٠٠٢) السردية باعتبار أنها تقوم على "ادعاءات بمعرفة تتمتع بدرجة معقولة من الصدقية بالفاعلين، وبالدافع، وبالأفكار، والحوافز، والأفعال، والنتائج.. (و) أيضا (١) افتراض أن الفاعلين والفعل يتمتعون بدرجة ما من الاستقلال بالذات، (٢) الفصل بين السبب والنتيجة داخل السياق التتابعى للسردية "ويدفع هنشمان بدرجة أقل من الشاعرية، بأن السرديات بالنسبة للعلوم الاجتماعية يجب أن تعرف، على نحو مؤقت، بأنها خطابات ذات ترتيب متسلسل واضح يصل بين الأحداث بطريقة ذات مغزى من أجل جمهور محدد وبذلك فهى تطرح فهما للعالم و / أو خبرات الناس به" (xvi : 1996) وفيما تنطوى هذه التصورات على مزالق، فهى تساعد على تأطير السردية باعتبارها مختلفة عن الحكاية.

وليست هذه حالة من حالات الفطرية بل هو، بالأحرى، اعتراف بعالمية الحكايا وبأننا نميل، على الأرجح، إلى رواية هذه الحكايا فى سردية أو باعتبارها سردية – السردية، إذا شئت، باعتبارها منهجا ورغم أنى لا أرتاح إلى فرضية هوايت بأن السردية والسرد هما مجرد بيانات،[٣٣] فما يشير إليه من أن السردية هى أداة لترجمة "المعرفة إلى حكى وأن مشكلة صياغة الخبرة الإنسانية فى شكل قابل للاستيعاب ضمن حدود المعنى الإنسانى التى هى حدود إنسانية أكثر منها أمرًا محددا بثقافة معينة" (١ : ١٩٨١) هى فكرة لها قوتها. هذا لا يقصد به الإشارة إلى أننا نستطيع، بالضرورة وبشكل مباشر، أن نسبر غور الثقافات الأخرى بما هى عليه من تعقيد، بل يمكننا أن نلاحظ أننا "نواجه صعوبة أقل، نسبيا، فى "فهم" حكاية تأتى من ثقافة أخرى، مهما بدت لنا تلك الثقافة طريفة". ومرة أخرى يؤسس هوايت على بارتس بقوله "وكما يقول بارتس فإن السردية قابلة للترجمة بدون أن يلحق بها ضرر جوهرى، وعلى نحو غير وارد بالنسبة لقصيدة غنائية أو خطاب

فلسفى" (٢ - ١: ١٩٨١).[٣٤] ورغم أن السرديات تتوافق، عموما مع تلك التى ألفناها فبسبب ميلنا إلى القص بالطريقة التى نحب أن نسمع بها الحكايا فهى لا تحتاج إلى أن تتوافق دائما، بل ولا تتوافق فى كل الحالات مع ما نعرفه.

وفى أكثر المحاولات طموحا لتبين السردية الثورية على نحو واضح يصف باركر (١١٣: ١٩٩٩) السردية بأنها "تتابع منظم لأحداث وأفعال تقع فى المجال الزمنى الخاص بها". ثم يمضى إلى القول بأن السردية تؤمن الصلات عبر الزمن ولهذا فهى تمتلك "تماسكا داخليا يضفى نوعا من الحتمية على الأحداث المتوالية" (١١٣: ١٩٩٩)، وبتعبير آخر فلم يكن ممكنا أن تحدث إلا على هذا النحو. فالسرديات "لا تتطلب برهانا يقوم على السببية" ولا على "إمكانية التكرار" وهى تشمل بالفعل "أدوار البشر، والآمال، والخبرات" (١١٣: ١٩٩٩). والسردية "تصنع إطارا جامعا" و"ترسم خريطة" لما هو آت عن طريق "تعيين لحالات النهائية، والقوى المقررة وعوامل التغيير. كما تقدم تبريرات وتؤمن إطارا زمنيا للتحول" (١١٥: ١٩٩٩). فالناس يبتدعون ويصوغون دنياهم ودنيانا، والسرديات التى ننشئها ونعتمد عليها تؤمن الصلات، والتماسك، والقوام الصلب، والجسد.

وبكل الاحترام للصيغة المبهرة للسردية كما طرحها باركر، فسوف لن أواصل الاشتغال على هذه النقطة أكثر من ذلك لكن لا محيص عن إبداء عدة تعليقات. أولها، فمع إدراكنا لحقيقة أن تباين مفاهيمنا عن العالم قد يقوم على تناقض الفرضيات، فالتوصل إلى تعريف محدد للسرديات أقل أهمية من الاعتراف بالمدى الذى نمضى إليه فى اعتمادنا على السردية، كما لو أننا نضفى نوعا من النظام على الهيولى. الحكايا كثيرة ونحن نميل إلى البحث عن طريقة لكى نمنحها شكل صيغة. ونميل إلى تمييزها وإشباعها بالمعنى. وكما سوف يتضح فى الفصلين التاليين، فشغل الحكايا هذا يمثل الأرضية التى يتعين أن يشتبك فوقها من يعدون للمقاومة، وللتمرد، ولصنع الثورة مع من يحاولون أن يعملوا معهم أو يقودوهم

وأولئك الذين يتحدونهم، ولدى كل منهم – من يطلبون التغيير، ومن يقاومونه، ومن يقررون النتيجة النهائية بما يتخذون من قرارات – حكاية يحكيها.

وثانى هذه التعليقات هو أن السردية، فى جوهر الحكاية، تعكس العناصر ذاتها التى طرحت فى بداية الفصل لتمييز الحكاية، وليس فى هذا ما يدعو للدهشة: فهناك بنية كلاسيكية من "بداية ووسط ونهاية" بحبكات معيارية وشخصيات مألوفة، وقد جبل الناس على الشعور بأنهم فاعلون فى حكاياهم وبالتالى فى دنياهم، وتؤمن من السرديات خريطة للدنيا التى يعيشون فيها وخريطة فلكية جديرة بالثقة للعالم الأكبر، وهو ما يخلق إحساسًا عميقًا وعريضًا بالاتصال مع الزمان والمكان وبما يتجاوزهما أيضًا. وهكذا فما تفعله السردية للحكاية هو أنها تطرح متتالية من الأحداث (ولكن انظر **Berger and Quinneey, 2006 b: 4**)، وتعكس المحيط الاجتماعى القائم، وإلى حد كبير فيى تشحن الحكايا بالمعنى وتعطيها ما يبرر الاهتمام بها.

وثالثًا، وكما يفهم مما سبق، فعند نقطة ما يوجد عدد غير محدود من السرديات البديلة، وغالبًا ما تكون الروايات المنافسة متاحة (أو على الأقل يمكن تبينها) فيما يمكن اعتباره أشكالًا تقليدية مثل الروايات والأغانى، والمسرحيات الشعبية وغيرها من أدوات الثقافة الجماهيرية.[٣٥] ورغم أنه من الممكن استخدام هذه الأشكال لنقل المحتوى التاريخى وربطه باللحظة الراهنة، فبوسعها أن تمثل أيضًا، بنى بديلة للتاريخ، بنى يمكن أن يقال إنها تمثل ما يشير إليه بيرساك باعتباره "تاريخًا محليًا" فى إيماءة إلى فكرة غيرتس عن "المعرفة المحلية" التى تحاول الإحاطة بـ "العوالم ذات المغزى والرؤى المحلية التى تمنحها الحياة" (٧٤: ١٩٨٩). فالناس يخلقون تاريخهم الخاص وهم يروون هذا التاريخ كما يرونه، فالتصورات "التى تقوم على أرضية من حالتهم المادية والاجتماعية وخبراتهم السالفة، يعاد صوغها على نحو متواصل من التفاعلات مع الخبرات الجديدة ومع مزاعم الآخرين (**Foley. 1994 : 485**) وهم يحاولون إسباغ المعنى على دنياهم.

ورابعا، فالأمر لا يقف عند أن الناس يختارون السرديات، في الغالب الأعم، لإسباغ المعنى على حكاياهم التي يغرسون جذورها، بالضرورة، في لغة ومكان معينين، فنحن نفعل الشيء ذاته؛ إذ نبحث عن السرديات "الخاصة بنا" التي تجعل "حكاياهم" ذات معنى لدينا حتى نبحث عما تعنيه بالنسبة "لهم" ووفقًا لما قاله سيويل فإن "السرديات التي تزرع الشخوص التاريخية نفسها فيها هي بالغة الأهمية في فهم مجرى التحول التاريخي وديناميانه" (٤٨٣: ١٩٩٢). ونحن مع ديفيس (٤: ١٩٨٧) وهو يقول: "هدفي هو البرهان الذي يثبت كيف... روى الناس حكاياهم... وماذا كانت الحكاية الجيدة برأيهم، وكيف فسروا الواقع، وكيف أنهم أعطوا معنى عبر السردية، لما هو غير متوقع وأدخلوا التناسق على التجربة المباشرة "كيف يمكن أن نفوز بدخول هذه الدنيا، هذه هي بؤرة اهتمام في الفصل التالي.

حكايتنا حتى الآن

شيد الناس البنى التحتية منذ أقدم العصور التي بوسعنا أن نتذكرها وبذلك فقد أعادوا صياغة الأرض، وعبروا الطرق وأقاموا الأبنية والسدود. وهكذا شيدنا المؤسسات، أيضًا مثل نظم العدالة، والمعلومات والرعاية الصحية. ونقوم حياتنا على هذه المؤسسات وعلى عدد آخر من البنى التي لا تحصى ونستعين بها على المستوى اليومي. وبالمثل فقبل أن يوجد البشر بزمن طويل، طورت النباتات والحيوانات والمعادن ما يمكن أن يسمى بنية - بيئية تنطوي على درجة من التشابه مع البنية التحتية وتماثلها من حيث إنها تأسيسية/ أساسية للحياة اليومية.[٣٦] والفرضية المطروحة هنا هي أن الناس، وعلى نحو مماثل إلى حد كبير، خلقوا بنية الحكايا، مخزونا من الحكايا التي تسند حيواتنا اليومية وتعيد صياغتها. فنحن نؤلف (نعيد تأليف) الحكايا، ونصوغها (نعيد صياغتها) بهدف التوصيل (إعادة التوصيل) بينها وبهدف بناء المجتمع. وتقدم هذه الحكايا، في معظمها، حبكات وشخصيات مكررة،

وتميل إلى الإطناب (حتى لا يفوت على أحد فهم المغزى) والتكرار حتى يتعلم الناس، وقد تكون الحكايا قصيرة وعذبة وقد تتمعج وتحتاج روايتها إلى ساعات أو حتى أيام. ويوازن الرواة بين عديد من العناصر والجوانب ويضفرون الشخصيات والأحداث في كل متماسك تفاعلاً مع محيط المستمعين والحقيقة المباشرة أو غير ذلك. أقل أهمية من المدى الذى تمضي إليه الحكايا في تمثيلها لمفهومات الناس وفي تصوير مشاعرهم. وتكون الحكايا مجموعة تعالج ما الذى كنا عليه ومن أين جئنا، وأين نحن الآن، وترشدنا باتجاه ما نمضي إليه وما نريد أن نكون.

وفي كل ثقافة، في كل مجتمع، هناك حكايا كبيرة وصغيرة، أسطورية وإن لم تكن بالضرورة ملحمية، تؤدى الواجب اليومي وتدّخر لمناسبات خاصة. وكما قال الروائي هارى كروز (2005) عن شبابه كانت الحكايا كل شيء وكل شيء كان حكايا. الكل كانوا يحكون حكايا. كان طريقة يقولون بها من هم في الدنيا. كانت الحكايا هي فهمهم لأنفسهم. كانت الحكايا هي أن يجعلوا أنفسهم يعرفوا كيف وفروا لأنفسهم الطريقة التي تسير بها أحوال الدنيا: طريقة صحيحة وأخرى ليست على قدر كاف من الصحة. وتقوم حكايا كهذه، بالضرورة، على مفهومات هي إلى حد ما لا زمنية وهي أدوات بمعنى عميق. تروى وتعاد روايتها وتستخدم بالطرق التي نصنعها هنا؛ وهكذا فيبدو من العدل أن نتصور الحكايا شكلاً، وقد تكون الشكل الأولى، للنضال الاجتماعي السياسي(٣٧).

وتساعد الحكايا والأغنيات على صوغ التاريخ / الذاكرة، الشعبيين والشخصيين معًا، وعلى صيانتهما، وإعادة كتابتهما، و(إعادة) تمجيدهما، و(إعادة) غرسهما في الأذهان، وإعطائهما (مجددًا) طابع اللحظة، وإعادة صياغتهما، وتجديدهما. ولا يعني هذا وجود نوع من الجوهر المتماسك الذى ينساب منه كل هذا؛ بل ليس هناك سوى شبكة هائلة فيها ما لا يحصى من المخارج والمداخل ومن السلاسل والعقد، قدر هائل من التنظيم الاجتماعي - السياسي والثقافي.

وأفضل الطرق لمحاولة الإحاطة بهذه المتاهة هى اللجوء إلى الحكايا. وهذا يستدعى أخذ هذه الحكايا بسياقاتها، وبعيدًا عن هذه السياقات، أيضًا؛ ويعنى، أيضا، الاعتراف بأن السياق يعنى ما هو أكثر من الموقف وبـ "إسقاط الطابع القومى" عن هذه الحكايا يمكننا، أيضا، أن ندوِّل (لا أن نعولم) الحكايا وأن نجد ثيمات شائعة (وليست عالمية) وهو ما يعنى أن كل ما يتصل بالثورة هو محلى بعمق، لكنه يعكس أيضا أحكامًا أوسع وأعمق نضعها عبر الزمان والفضاء والثقافة، وتتعلق بمعنى من نكون، وكيف نسلك، وما هو ممكن فى دنيانا.

وهناك حكايا عن الماضى يشيع الإيمان بها، على نحو ما. وتشبه هذه الحكايا قطع النَجد ذات النسيج الغنى بما فيها من خرافات و"حقائق" (أو الخرافات التى تم تكريسها رسميا كحقائق)، وهى تقوم على المحاكاة على نحو توضيحى ومكثف. وتنهل من مخزون الذكريات التى قد تكون هى ذاتها حقيقية أو متخيلة، لكنها فى الحالين مبتدعة. فلا التاريخ ولا حتى الماضى نفسه يربطان بيننا (وليسا هما اللذان يمزقان شملنا) بل هى حكايا ذلك التاريخ، حكايا الماضى التى نرويها لأنفسنا وللآخرين فى الحاضر، حكايا عن الماضى هى، بالضرورة، فى خدمة الحاضر والمستقبل. وهذه الحكايا المشتركة، الضاربة بجذورها فى الذكريات الجمعية، هى إبداعات تعبر عن خيارات واعية وقصدية بخصوص ما يتعين أن نحتفظ به وما يتعين إسقاطه. وابتداع هذه الحكايا وبالتالى ابتداع ماض يمكن استخدامه ومن ثم التلاعب به ــ باعتباره تاريخا أو التاريخ ــ هو أمر أساسى بقدر ما هو حتمى. وتؤمّن الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة كلاً من الإطار والمدخل.

الفصل الثالث

الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة

وكما أشرنا فى الفصل الثانى فإن الحكايا تركب من شظايا وقطع متباينة فى فعل واع من أفعال التركيب. ويفترض أن أوائل الرواة كانوا ينسجون تراكيبهم السحرية من أجزاء متنوعة، هى ببساطة متناثرة حولهم، من الحطام. وتلك التراكيب التى اتسمت بالتناغم أو التى ثبت جدواها كانت تخدم غرضًا. وسرعان ما أصبح الرواة وأولئك الذين يحاولون استخدام حكاياهم أو الإفادة منها عامدين ومغرضين بدرجة أكبر، وأقل ميلاً إلى التجربة والخطأ. وهكذا فابتداع حكاية ليس عملية عشوائية تعتمد على اكتشاف الأمور الثمينة على غير اتفاق أو تعتمد على المصادفة، رغم أن لا هذه ولا تلك يمكن أن تؤثر (أو قد تؤثر الاثنتان) على زمان ومكان استخدام الحكاية. ولكن إياك أن تقع فى الخطأ: فالحكايا، كالثورات، شىء نصنعه، وشأنها شأن المقاومة، والتمرد، والثورة، فهى تصنع بهدف ومن أجل هدف؛ وجزء من مهمتنا أن نوضح ذلك.

الحكايا تصميم وتقصّد، وعلى الأقل تكتب وتستخدم بعمومية (وإن كتبت فى بعض الأحيان بعناية ودقة) سعيًا وراء أهداف معينة، قد تكون كبيرة أو صغيرة، آنية أو باقية، مباشرة أو غير مباشرة وقد يكون الهدف تعلم درس ما أو نقل رواية تاريخية، أو الإرشاد إلى طريق، أو تأمين صورة كونية. وتتسم كل حالة من هذه بطبقات ومستويات يمكن الكشف عنها أثناء التعلم وبقدر ما تسمح الأحداث، ومع تتابع العمليات ومرور الزمن. وأى حكاية كانت، وخاصة تلك التى ندرسها هنا، يجرى حبكها، ليس بمعنى الافتعال (وإن كان واردًا) بقدر ما نعنى المدى الذى تمضى إليه العملية فى تصوير ما يمكن اعتباره، على نحو مجز، تنقيبًا عن المعنى وتصنيعا له وفى هذه الصياغة يبدأ الناس التنجيم، بمعنى التنقيب والاستخراج، من

الماضى والحاضر، بحثًا عن مواد يمكنهم أن يصنعوا بها الحكايا التى تعبأ بعد ذلك بالمعنى وتصبح مجدية فى دفع الناس باتجاه عملية من العمليات وعبرها. وما يعنيه هذا فى الممارسة، هو الاعتماد على موضوعين مألوفين، الأسطورة والذاكرة، وافتراض المحاكاة. الأسطورة والذاكرة متلائمان على نحو لا مفر منه، وفى أشكال مراوغة إلى حد ما. والكيفية التى تعمل بها الأسطورة والذاكرة، كل على حدة. أو معا، هى من المسائل المعقدة والخارجة عن نطاق بحثنا هذا بعض الشيء، وهذان المصطلحان مشحونان ومقرران سلفًا لدرجة أن فائدتهما الاستعمالية محدودة، وسوف أسعى هنا إلى استعادتهما بهدف تفهم ذلك النوع من الحكايا التى نركز عليها، حكايا المقاومة، والتمرد، والثورة. والتحدى الذى نواجهه هو أن نستخدمهما كمساعدات تعليمية من دون السماح لما ينطويان عليه من تعقيد بأن يشوش الأمور. وتمثل المحاكاة نوعًا مختلفًا من الإلغاز، لكنه إلغاز أشد خطورة. فإيمان الناس بقدرتهم على محاكاة الآخرين، بالرغم من كونه صعب التحقق فى أغلب الأحوال ومؤقت فى بعض الأحوال، هو العنصر الذى لا يفوق عنصرًا آخر، من حيث الأهمية، بالنسبة لحكايا المقاومة، والتمرد، والثورة. وإضافة المحاكاة هى الأمر الحرج هنا: فمعرفة الحكايا شيء، والذكريات التى تثيرها (وتقرر صلاحيتها) شيء آخر، ولكن عندما يتماهى الناس مع الحكاية، وعندما يؤمنون بأنها تمثلهم، عندئذ فقط فإن حكايا مثل التى نناقشها هنا تصبح مركزية. ولإرشادنا عبر الحكايا التالية، فإن الأسطورة والذاكرة يؤمنان السياق فيما يمكن للمحاكاة أن تمدنا بالمحفز.

الناس يعتمدون عن قصد أو عن غير قصد – على مزيج مركب من الأسطورة والذاكرة، والمحاكاة يستخدمونه ليرووا الحكايا، ولا شيء يفوق فى أهميته ذلك المركب الذى يتناول من كانوا وأين كانوا، ومن هم وأين هم الآن، وماذا يريدون أن يكونوا، وأين يريدون أن يذهبوا وكيف يتأتى لهم أن يصلوا إلى هناك. ولا يجب أن نخلط بين هذا وبين التاريخ، الأسطورة التى خلقها الأقوياء

ليفسروا بها كيف أننا وصلنا إلى المكان الذى نجد أنفسنا فيه ولماذا آلت الأشياء إلى ما آلت إليه وما كان يجب أن تؤول إليه: فالتاريخ، كما سوف يتبين من المناقشة، هو أمر مختلف تماما وكما سوف نبين فى الفصول التالية، فهذه الحكايا المتصلة بطرق متباينة بالتحريض على الأنشطة الثورية، وبالانخراط فيها، وبمواصلتها، هى عميقة الارتباط بالأمور التى تناقش هنا: فهى مسندة بالأسطورة (أو بالجوانب والأبعاد الأسطورية) وتنتقل، وتصاغ، وتستدام بالذاكرة، وبالنهاية فهى محاكية بوعى وبقصد فى الغالب – أى أنها تقوم على المحاكاة.

سندريللا: عن "سراب الأصول"

غالبا ما ترتبط كل واحدة من المقولات التالية، وبطرق متباينة، بفكرة الأصل: أساطير الأصل أو الفكرة التى تستقيها أسطورة من مصدر أصلى. غالبا ما يستثمر الناس استثمارا كبيرا فى فكرة تدور حول ما يمكن أن يسمى "الذاكرة الأصلية". وتفترض المحاكاة، بوضوح، حدثا أصليا تجرى محاكاته. ولا يشير "الأصل" إلى نقطة أو موضع أصليين أو تأسيسيين اختارهما من اختارهما لغرض ما، فحسب، بل ويشير، أيضا، إلى بداية وجود، إلى النبع الذى تتدفق منه كل النسخ والتنويعات المستقبلية. إنه لحظة التخصيب والابتداء لكن لدىّ شكوك قوية فى قدرتنا على الإمساك بهذه اللحظة، بل وأحذر رسم الخريطة لطريق بعينه أو لتاريخ بعينه فيما يتصل بأى قصة على وجه التحديد: ولهذا فليس مجديا إلى حد كبير تتبع "سراب الأصول" (**Chartier, 1991: 4**) الذى يشير إلى **Fucault, 1977 a**) حتى إن كان من المجدى الاعتراف بعراقة، بل و"تراث" الحكايا عن المقاومة والتمرد والثورة.

وكل حكاية هى، بمعنى ما، متواصلة: تكتب وتعاد كتابتها مجددا عبر الأزمنة والثقافات. ورغم أن نموذج الشجرة ينطوى على قدر من الجاذبية ويمكن أن يكون نافعا هنا فيمكن القول ذاته عن النموذج الجذرمورى عند ديليوز

وغواتاري (١٩٨٧). ولا يوجد مجال كبير للتساؤل، بعدما سبق، حول قدرتنا على التنقيب بعمق لنجد حكاية سندريلا قبل حوالى عشرة آلاف عام فى الصين، وهى المألوفة، على ما فيها من اختلافات لجماهير اليوم على نحو ملموس. وفى الوقت ذاته، فإن ما يتبين لنا من اتساع عالم الحكاية ذاتها هو أمر مدهش - عبر الثقافات والمجتمعات وكذلك عبر الأزمان. فقصة كهذه توحد الناس عبر الزمان والفضاء والمكان بالرموز والثيمات، والشخصيات التى تؤمن التعرف على الحكاية وتؤمن المعرفة والفهم. وبالتالى فلا غرو أن المشكلات المشتركة بين البشر تتخذ أشكالا سردية مشتركة فى أنحاء مختلفة من العالم (Appiah, 2003: 46). ويجد المرء عبر الزمان والفضاء قصصا تبدو وكأنها خارج الزمن تعالج شكلا من أشكال الحالة الإنسانية. ومن المنطقى أن نفترض أن هذه الحكايا ربما كانت موجودة ليس "لمجرد" تقرير تلك الحالة ولكن باعتبارها محفزا على تغييرها.

وكما هو مذكور فى الفصل الثانى، فإن هذه الحكايا تتمتع داخلة إلى مختلف أنماط الخطاب وخارجة منها، متأثرة لا محالة بالثقافة الشعبية. وهذه العلاقة، كما هو أوضح، شديدة التعقيد والجبرية، وهو أمر لا يدعو للدهشة بالنظر إلى أن الحكايا والثقافة تربطهما علاقة جدلية عميقة، إذ يساعد كل منهما على تخليق الآخر والإبقاء عليه. وإحدى النتائج المترتبة على ذلك هى أن الحكايا يمكن أن يصل بها الأمر أن تعدّ، ببساطة، ضمن عناصر كثيرة، وليست بالغة الأهمية، للثقافة الشعبية. وبالتالى لكان وجودها، بهذه الكيفية، لا يبدو أكثر من أجزاء ونتف يتم التصرف بها دون عناء للأغراض الآتية وللحظة الراهنة. والحقيقة، أيضا، هى أن الحكايا تعمل على توحيد الناس داخل مجتمع مشترك تؤمن فيه رموز، وثيمات، وشخصيات معينة الاعتراف والمعرفة. وللنظر فى المثل التالى من الثقافة الشعبية، وهى حالة قليلة الاتصال بالأمور الثورية (وإن كانت - ربما - فى الزمان والمكان المناسبين وفى الأيدى المناسبة) وعلى الأقل فى أحدث أشكالها وأكثرها قربا إلينا.(١)

هناك عدد من "حكايا الجنيات" الرائجة (المحبوبة) التي تظهر في عدد مدهش من الأماكن والثقافات عبر فترات زمنية طويلة [٢]. وإحدى أشهر هذه الحكايا هي حكاية سندريلا، وهي قصة – في شكلها المألوف لدينا هذه الأيام – عن شابة كانت ذات يوم ثرية لكنها الآن فقيرة (أو على الأقل مجبرة على العيش في ظروف صعبة) تنجح في الفوز بقلب أمير وتستعيد ما كان لها في الماضي (وما تستحقه) من مكانة في المجتمع. وهذه القصة ظهرت في نحو ٧٠٠ رواية[*] (فيما يذهب Sungs, 2007 إلى أنها ٣٠٠٠ رواية)[٣] عبر فترة لا تقل عن ألفي سنة في عديد من الثقافات والثقافات الفرعية، وأصبحت قصة يعرفها كل إنسان كجزء من التيار الرئيسي، وواحد من 'الموروثات الإنسانية" (Appiah, 2003: 47 وانظر أيضًا Ralston, 1982: 32) وتتردد عبارة "حكاية سندريلا" على ألسنة العامة في كثير من أنحاء العالم وفقًا لمعنى هو معنى مشترك إلى حد كبير.[٤] ونتيجة لذلك فقد كانت مناسبة لأن يتبناها ويكيف صيغتها الكثير من الناس ومن المؤسسات في ظروف شتى ولأغراض متباينة.

والأهم بالنسبة لنا هنا هو أنه وبالرغم من "الحكايا الرسمية" (تلك التي يقرها المجتمع والثقافة وكذلك تلك التي تعتمدها الحكومات) فهناك تراث شعبي متفاعل مع الحكايا الرسمية ومتناقض معها، في آن.[٥] وهذا التراث الجماهيري قليل الجدوى نسبيًا لدى التيار الرئيسي ومن يحافظون عليه، ويتمتع بدرجة استقلال عنه، وإن كان أولئك المكلفون برعايته، ولأسباب متباينة، يسعون أحيانًا للغوص في أعماقه عندما يخدم أغراضهم. ولكن في أزمان وأماكن ليست تمامًا خارج الزمان والفضاء كما هو متصور "عادة" (وغالبًا ما يكون ذلك بـ "رعاية" من النساء، انظر Tatar, 2002) توجد حكايا لا تكون قابلة للتفاعل. لكن مهما جرى

(*) Dundes 1982: xiiii ويزعم Heiner, 2007 أنها ظهرت في ١٥٠٠ رواية أي في هذا العدد من الصياغات المختلفة للحكاية كما رواها مؤلفون مختلفون أو كما وردت في ثقافات وطنية ومحلية مختلفة – المترجم.

تكييف الحكايا ظاهريا مع تغير الأزمان فالشخصيات تتمتع بقدرة مذهلة على الصمود وكذلك المواقف، والبدايات والنهايات.(٦)

وهكذا فلكل حكاية من حكايا سندريللا حكايا أخرى لا تحصى قد تشمل عناصر مألوفة لدينا، قد تكون مشتركة أو لا تكون أو قد يكون جامعو الحكايات عثروا بها (وبما يتصل بها من عناصر أقل قدرة على البقاء) وهى حكايا قد تكون طبقاتها ومستوياتها خارج قدرتنا على الفهم وبالتالى فقد نستطيع أو لا نستطيع التعرف عليها، وطرح التساؤلات بخصوصها، وتصنيفها، وربما - وهذا هو الأكثر تشويقا — نقحم أنفسنا عليها، وهو ما جبلنا على فعله. وفى مواجهه غير المألوف، نجد من الصعب علينا الاستكشاف وهكذا نجعله ضمن "ما لنا" كما هى عادتنا.

ولا توجد مصنفات للنماذج الأولية للحكايا الثورية "الكلاسيكية" مثل تلك المصنفات التى ذكرت فى الفصل السابق، وإن كانت الحكايا فى "ألف ليلة وليلة، أو خرافات أيسوب أو الكتب المقدسة، أو الأخوين غريم" يمكن قراءتها، بل وتقرأ، باعتبارها حكايا انقلابية من حكايا المقاومة، والتمرد، إن لم يكن الثورة. كما أن الثوريين لا يعدمون الكتب الإرشادية الخاصة بهم، وإن كانت هذه أيضا ترتبط بالشمال/ الغرب. وعلى مدى يزيد عن ٥٧٠٠ سنة تطلع الناس إلى حكاية "الخروج" (وهى ذاتها صدى لحكايا أقدم)، ولما يقارب ألفى سنة إلى "الموعظة على الجبل" (التى ألقاها ابن نجار فقير قتله الأثرياء والأقوياء بسبب ما سعى إليه لصالح الفقراء والمحرومين)، وإلى تعاليم القرآن. وهناك ما كتبه توماس باين بعنوان "الحس السليم" و"إعلان الاستقلال" الذى كتبه توماس جيفرسون وأصدرته بعض المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية، والصيغة الثورية المتطورة فى فرنسا "إعلان حقوق الإنسان والمواطن". ونحن نعيش فى زمان تأثر على نحو عميق بـ "البيان الشيوعى" الذى أصدره ماركس وإنغلز، ثم هناك "ما العمل" الذى وضعه لينين، والدستور المكسيكى لعام ١٩١٧، و"عن حرب العصابات" الذى وضعه ماو

(ومقتطفات من أعمال الرئيس ماو الذى كان فى كل مكان فى فترة مـــا). و"معـــذبو الأرض" الذى وضعه فانون، و"مائة وخمسون سؤالا لمحارب العصابات"، و"حـــرب العصابات" الذى وضعه تشى(*). و"إعلان آروشا فى تنزانيا. وكيف طورت أوروبـــا أفريقيا" لرودنى، و"ثورة فى الثورة" لدوبريه. ومجموعات أعمال للثائر الزاباتيـــستى المعاصر ماركوس (على شبكة الإنترنت وبعيدا عنها) وغير ذلك.

وإن لم يكن بعض هذه المؤلفات حكايا بالمعنى التقليدى، مثل الحكايا التـــى جمعت فى الموسوعات الأدبية، فهى مجرد عينات على ما هو موجود من حكايا لا تحصى: حكايا المقاومة، والتمرد، والثورة التى يعرفها الناس ويروونهـــا مـــرات تفوق الحصر، وفى بعض الأحيان وتحت ظروف معينة، فهى ترشد الناس باتجـــاه هذه العمليات وعبرها. وكما سوف نبين، فيما بعد، فإن مواد مثل هذه وغيرها كثير مما فى الثقافة الشعبية ينقب فيها الراغبون فى إحـــداث التغيـــر والبـــاحثون عـــن الوسائل لتحقيق ذلك.

الخرافة: كان ياما كان...

تفهم الخرافة، فى الغالب الأعم، باعتبارها نوعًا من الحكايا غيـــر الحقيقيـــة وربما الخيالية؛ وفى أحسن الأحوال فيمكن أن تقرأ الخرافة بوصـــفها مرمـــوزة أو مثلا يقوم على أصل تاريخى، يقصد بهما أن ترمز إلى معلومات ذات مغـــزى أو تنقلها، وإن بشكل لا يعتمد عليه. وكما هو الحال مع لينكولن (ix :1999) فنحن لا نذكر هنا على "ماذا تكون" الخرافة بقدر ما نركز على قيمتها الاستعمالية، وخاصة أن تحافظ للحاضر، كما يشير ليفى شتراوس (١٦: ١٩٦٦) على تلك الملاحظات والتـــأملات التى يبدو أنها لا تزال نافعة.(٧) وكما يلاحظ لينكولن، فالحاجة قائمة إلى كثير مـــن العناية والحرص "ويعود ذلك إلى حد ليس بالقليل إلى" أن الخرافات ليست دائمًا من

( ) غيفارا ـــ المترجم.

إنتاج وتفكر الشعب الذى يروى الحكايا التى تسرد نفسها من خلالها على نحو فعال وفى بعض الأحيان تكون الخرافات حكايا يدون بعض الناس من خلالها سـرديات أناس آخرين، وفى بعض الأحيان فإن وجود هؤلاء الآخرين هو ذاته نتاج لخطاب أسطورى (٢١١: ١٩٩٩)، وبتعبير آخر فإن الخرافة هى "أن تحكى حكايـة عـن الحكايا التى حكاها آخرون عن حكايـا آخـرين غيـرهم" (ix :1999) ولا تعـد الخرافات أقل قوة لهذا السبب.

فالخرافة تعمل على تزويد حياتنا المعاصرة بالمعنى بل وبالقيمـة، وعلـى إرشادنا إلى ما هو ممكن (Eliade, 1953: 2). ويمكن أن تؤدى الخرافة وظيفتهـا، وهى تفعل ذلك حقا، على نحو محافظ، وهى تقوم بعملها أيضا على نحـو يتمتـع بالخيال (Doty 1996 : 450). فالخرافة بالأساس هى معلومات يتعـين أن يعرفهـا الناس (Veyne, 1983 : 45) وأن يعرفوها على نحو جمعى، فـى الحقيقـة، لأنهـا مشبعة بـ "المعنى والغرض، وهى لهذا السبب تنطق بالحق لأولئك الذين يأخذونها مأخذ الجد" (Hughes, 2004 : 2). وعلى سبيل المثال، فإن معظم الثقافـات لـديها خرافة عن الخلق / الأصل، وغالبا ما تصور الخرافات عموما شخصيات بطولية، أو كائنات (شبه) مقدسة، أو حيوانات اكتسبت هيئة البشر (وذات ذكاء غير عـادى فى معظم الحالات) فى ظروف ملحمية. وبالنظر إليها علـى هـذا النحـو تبـدو الخرافات وكأن المقصود بها أن تقف فى مواجهة التاريخ بل وفى تعارض معـه، وهو الذى يوصف باعتباره جماع "الحقائق" الصحيحة والدقيقة. وهذا أمر مخـادع إن لم يكن خطيرًا على نحو ذى مغزى، من بينها أنه يعمل على رفع حكايا النخبـة والأقوياء عاليا مع النزول بقيمة الحكايا الشعبية أو حتى إنكارها.

وعلى الرغم من التظاهر بالعكس فإن فصل عملية التأريخ (أو ربما علـم التاريخ) عن الخرافة ليس بالمهمة السهلة، بل وقد لا تكون مفيدة. ويـدفع كـوهين بأن الخرافى هو الذى يحكم فهمنا للماضى، وبأن فصل الخرافة عن التـاريخ وإن

كان يبدو سهلاً من الناحية النظرية فإن "المؤرخين الجيدين يقدمون فى كتاباتهم... فهمًا للتاريخ دقيقًا وصحيحًا فى حدود الممكن. ويفعل صناع الخرافة، بمعنى ما، عكس ذلك" – ففى الممارسة، فى العالم الحقيقى يكون "التمييز بين التاريخ والخرافة... أقل وضوحًا" (٨٢: ١٩٩٢) – وتمثل المعرفة، التى نقصد بها التاريخ عمومًا، التنوير، لكن الخرافة والتنوير تربطهما علاقة جدلية، لا علاقة تعارض (Adorno and Horkhimer 2002 : xviii). وهكذا فالموضوع هو أن الخرافات توجد لنقل معلومات مهمة ويتقبلها معظم الناس معظم الوقت باعتبارها تسجيلاً تاريخيًا للأحداث على درجة من الصدقية (وفى حالات أقل تسجيلاً تاريخيًا للعمليات) التى وقعت فى الماضى ولكنها ذات مغزى بالنسبة لحاضرهم وتستشرف مستقبلهم.[٩]

ورغم أنه قد يكون هناك قدر من المبالغة فى الزعم بأن "الخرافة" هى إلى حد كبير (أو "بالكامل" وفقا لـ Stigliano 2002: 33) بنية شمالية / غربية بالمعنى النظرى والتحليلى، فمن الضرورى بالنسبة لنا ألا ننتزع الخرافات من سياقها لكى نجعلها "خطابًا خارج الزمن" (Stigliano 2003 : 37) حتى نستخدمها، ببساطة، للأغراض الخاصة بالواحد منا، فزمان الخرافات ومكانها لهما مغزاهما، وإن كانا قابلين للتحول أيضا. ومن المهم أن ندرك أن الخرافة، كما قال بارت (١٩٧٢) هى ممارسة خطابية تعكس عند الحد الأدنى، إعادة تدوين أيديولوجية معينة، وغالبًا ما تساعد على ذلك (انظر أيضا: Barbosa 2005 : 190) وفى الحقيقة فإن بارت (٨ – ١٤٦: ١٩٧٢) يدفع حتى بأن الخرافة محافظة أكثر منها راديكالية، وهى بالأساس، معاكسة للثورية برغم أن الثورة، وقد جددت العالم، لم تعد تسمح بوجود الخرافة. وتبدو هذه قراءة تعيسة للخرافة وعجزًا عن إدراك قوة الذاكرة التى نناقشها فيما يلى.

وتعكس الخرافات، إلى حد ما، شروط الحياة اليومية للناس وتؤمن موردًا يمكن أن يعتمدوا عليه وهم يجابهون عالمًا معاديًا فى الغالب الأعم لمصالحهم ورغائبهم. ويتم إنتاج الخرافات أو التوصل إليها مجتمعيًا، وغالبًا ما يكون الحال

أن الخرافات تمزج بين الخبرات الفعلية للناس والدروس التى بلغتهم شفهية كجزء من الذاكرة الجمعية لمجتمعهم أو لعائلاتهم، بدرجات متباينة. وفيما تؤدى الخرافات أدوارًا يومية "أقل" مثل إعطاء الدروس والتوجيهات والإرشاد، فالأفكار "الكبرى" التى يمكن أن نقرأها باعتبارها حقوقًا إنسانية أو عدالة اجتماعية، أو حقوقًا ملكية يمكن أن تتبين وجودها. وقد يبدو أن الخرافات تعقد الحياة، بالإشارة إلى أن الأشياء ليست دائمًا، كما تطالعنا - فالعمل الشاق أميرة، والصبى المضيع المشوش ملك، والحيذبون مجوسى قوى. ولكن الخرافات تقدم، وبالقدر ذاته، وسائل لترتيب التعقيد الهائل فى عالمنا ليصبح شيئًا بسيطًا وقابلاً للفهم إلى حد كبير، كما تؤمن مؤشرات يمكن الاعتماد عليها إلى حد معقول فيما يخص السلوك اليومى والأفكار المتصلة بمن نكون وكيف، فى هذا العالم.

ولا يعنى ذلك أن الخرافات تمثل نظامًا عقديًا متماسكًا قريبًا إلى الأيديولوجية[٩]. ومع أنها ليست مجموعة كاملة الاستقلال من الأفكار وليست مجموعة من التبريرات المعتمدة على احتياجات السلطة السياسية، فالخرافات تؤمن رغم ذلك رؤية للعالم غير محكمة الصياغة يسقطها الناس على الأحداث والعمليات المحيطة بهم ولا يقتصر دور الخرافة هذا على الطبقات الشعبية: فالنخب تقرأ التاريخ هى الأخرى عبر خرافاتها، وتؤمّن هذه رؤية للعالم تعتمد عليها النخبة. والنقطة الجوهرية هنا هى أن الخرافات تسهل استكشاف الممكن، حتى وإن ظلت كامنة لفترة طويلة إلى أن تستدعيها الذاكرة - وفى بعض الأحيان يكون ذلك بمعنى حرفى؛ أى أن الشظايا يعاد تجميعها بطرق هى قديمة وجديدة فى آن ويفعل الملفق فعله، مجددًا.

وهكذا فالخرافات ليست مستقلة عن الجميع والثقافة، فكلاهما يعيش فيما يسقطه الناس على الأحداث والعمليات المحيطة بهم ويساعد على خلقه ويعكسه وتصوغه خرافات كثيرة وإن بشكل غير مباشر، مثل العدل، والحرية والمساواة، والديمقراطية، والفرص، والانعتاق (من الخوف، من الجوع، من المرض، وحرية

الاجتماع والكلام، والعقيدة) بطرق يمكنها تجنب عيون وآذان ذوى السلطات وغيرهم من المعادين لمصالحهم. ونتيجة لذلك، فالخرافات تكشف ما يشعر الناس: بأن المجتمع والدنيا كانا عليه، وما يجب أن يكونا عليه، وكيف يمكن أن تتحقق هذه الرؤية. والأهم بالنسبة لأغراضنا هنا، أنه يمكن استخدامها، أيضا، إما لإحباط جهود الناس التى تستهدف تحولاً جوهريا للشروط المادية والأيديولوجية لحيواتهم اليومية وإما للتمكين لها. ومع إدراك الناس لخطورة السعى لإسقاط أصحاب السلطات، فالناس فى عديد متنوع من الأماكن فى أزمان مختلفة، وتحت ظروف متباينة، اقتسموا الخرافات التى ساعد بعضها على تأمين الإطار لقدرتهم على التنظيم ولاستعدادهم له.

وبالنظر إلى ذلك، فالخرافات، فى معظم الحالات تقريبا، مختلف بشأنها إلى حد ما والأهم أن أصحاب السلطات يسعون لتنظيمها وتحويل رواياتهم إلى روايات معيارية أو مركزية للمجتمع، وهو ما تشيع تسميته التاريخ (وليست هذه الحالة دائمًا وهذا يسعد المؤرخين). ومثل هذا التاريخ غالبًا ما يركز على أن ما يمكن تصوره تبريرات ومحاولات عقلنة، تنطوى فى بعض الأحيان على كثير من العنت، ومثل هذه الخرافات تسندها، فى العادة، فكرة أن الماضى انتهى إلى هذه النقطة وإلى هؤلاء الناس وهذه السياسات، وليس أمرًا غريبًا على أصحاب السلطات أن يسعوا إلى إنشاء خرافاتهم الخاصة أو على الأقل إلى إعادة كتابة الخرافات الموجودة بما يناسب مصالحهم. وهم لا يختلفون فى هذا عن الثوريين الذين يواجهونهم، وهكذا فقد تدور المعارك من أجل السيطرة على الخرافات (وكذلك على الذاكرة، كما سيأتى) وتأمل بعد مائة سنة، الصراع المستمر فى المكسيك حول شخصية إيميليو زاباتا (**Harvey, 1998, Benjamin, 2000** **Stephan, 2002 Brunk, 2008**).

وإن كان الاتجاه الشائع للآن هو الانصراف عن الخرافات وعن الأدوار التى قد تلعبها، فهناك اعتراف متزايد بجدواها وعالميتها. وقبل أكثر من ثلاثين سنة مضت، وبعد أن أشار بكل التزام إلى أن الخرافات "فى حقيقتها أو كما تبدو فهى اعتباطية، وخالية من المعنى وسخيفة" أقر ليفى شتراوس بأنها "تعاود الظهور فى كل أنحاء العالم، على ما يبدو" (١٢- ١١ : ١٩٧٩) وبدأت العلوم الاجتماعية، ببطء، تغير موقفها وبدون استبعاد "الفرادة" المتأصلة فى أى خرافة محلية، فإن فكرة ليفى شتراوس حول كلية حضورها هى فكرة أساسية، وكذلك فكرته عن أن "التعارض البسيط بين الميثولوجيا والتاريخ التى اعتدنا أن نشير إليها ليست واضحة بالمرة" (٤٠: ١٩٧٩).[١٠] وأيا كان الأمر، ففى حين أن الخرافات قد توقف التحول أو تبطئه، فبوسعها أيضا أن تعمل وبطرق عديدة على تحفيز، وعقلنة، وتشريع أفعال الناس والمجتمعات فى العمليات الثورية؛ فقد كان الناس جائعين، وفقراء، ورأوا أطفالهم يعانون ويموتون فى أماكن كثيرة فى أزمان عديدة ولم يثوروا. فالأثرياء والأقوياء موجودون منذ زمن طويل والأرض، والسلع، والخدمات توزع توزيعا غير عادل، ولم يسفر ذلك عن مواقف ثورية وسواء كانت الشروط البنيوية بسيطة أو مركبة فهى غير كافية وحدها لإطلاق أو استدامة عمليات ثورية وما يتصل بها. الناس هم الذين يستطيعون ذلك، وهم يفعلونه وسوف يواصلون فعله، والخرافات جزء من السبب وراء ذلك.

وتحفل قصة المقاومة، والتمرد، والثورة بالخرافات؛ وعديد من هذه الحكايا غير مرجح، وعدد ما هو غير معقول أو حتى غير متصور منها، على الأقل، هو عدد يتراوح بين تقديرات متباينة؛ لأن بعضها أكثر انتشارا من بعضها الآخر وبعضها يكون، أو على الأقل يبدو، مستحيلاً: الثورى الفيتنامى الشاب هوتشى منه فى باريس وهو يجتمع إلى الرجل الذى سيصبح رئيسا للولايات المتحدة فى المستقبل فرانكلين روزفلت ويناقش معه إعلان الاستقلال الأمريكى، البطل الثورى للرأس

الأخضر وغينيا بيساو أميلكار كابرال وهو يزور الناس فى موزمبيق فى الرؤيا، بعد وفاته، وظهورات الشخصية الثورية تشى غيفارا بعد الموت فى كل ركن من أركان المعمورة. وربما تكون بذور الإمكانية هى فى صميم الاستحالة التى يقرأها الواقفون منا خارج هذا كله (Darnton, 1990, Selbin, 2009 b) وحول الوجود المتأصل للممكن فى غير الممكن، انظر: Rabas, 1997). ولا نقصد هنا أن نضفى الطابع الرومانسى على الثورة أو تصويرها باعتبارها، ببساطة، "تراثًا" خارج الزمن وخرافيا. فمعظم الأفكار الحديثة عن المقاومة، والتمرد، والثورة يضرب بجذوره بقوة فيما بعد التنوير، غالبا فى ١٧٨٩ وفى النهاية المقتضبة لـ "النظام القديم" فى فرنسا وبداية الجديد، وهذا له حضوره القوى فيما يلى من حكايا.(١١) وكما هو الحال بالنسبة لمعظم الخرافات فالغاية تضفى شرعية على الوسيلة.

وكثير من الخرافات التى يعتز بها شعب من الشعوب هى أكثر من غيرها خرافات جمعية، وفى الخرافات الجمعية اتجاه مدهش إلى أن تكون (والمقصود أن تصاغ باعتبارها) "حقيقة". وجدير بالذكر مرة أخرى، أن هذه ليست عملية من أعلى لأسفل تفرضها النخبة وأزلامها؛ فالخرافات المصنعة بشكل كامل والمصممة بهدف التلاعب والسيطرة من الصعب إكسابها طابع الواقع الراهن ومن الصعب بدرجة أكبر استدامتها. أما عندما يتيسر للمسيطرين على مجتمع من المجتمعات أن يزاوجوا بين خرافاتهم وين المفهومات والرغائب الشعبية، فإن المزيج يأتى قويا وتتحقق الهيمنة. ويشير آبلى (٢٠٠١)، على سبيل المثال، إلى أن أول جيل يبلغ رشده فى أمريكا، أولئك الذين تسيدوا الحياة فى الولايات المتحدة فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عملوا على خلق خرافة عن بلدهم باعتباره أرض "الأمريكيين المبادرين، الابتكاريين، المحبين للمساواة". ولم توضع هذه الخرافة موضع المساءلة من قبل الأجيال التالية إلا على نحو متقطع عرضى وبقدر من المخاطرة وقد ساندت خرافات أخرى كثيرة شكلت النصف الثانى من القرن العشرين، ولا تزال تفعل فعلها: فقد كانت الحرب العالمية الثانية "حربًا طيبة" تعيَّن خوضها لوقف

المذابح الجماعية لليهود بأيدى النازيين، وللدفاع عن الديمقراطية وحمايتها، وتحقق النصر فيها بفضل المشاركة الأمريكية والجهود التى بذلتها الولايات المتحدة، وفى أوائل ستينيات القرن الماضى كانت غالبية المواطنين الأمريكيين تساند الحقوق المدنية للأمريكيين السود، وتعارض الحرب الأمريكية فى جنوب شرق آسيا، والولايات المتحدة على الدوام تساند الديمقراطيات التى تتمتع بقاعدة شعبية واسعة فى أمريكا وفى مختلف أنحاء العالم.

وليست الولايات المتحدة وحدها فى هذا فالنمساويون يروون لأنفسهم القصص التى تصورهم على أنهم "أول ضحايا" هتلر، ويشير البريطانيون والفرنسيون إلى الأدوار الاستعمارية النبيلة التى لعبوها وما انتهت إليه. ويزكى السويديون الإحسان المتعدد الكفاءات لإمبراطوريتهم الأوروبية الشمالية. وأكثر من ذلك فمن الصعب أن تعتبر أساطير كهذه حكرا على الشمال/ الغرب؛ فالأفغان والمصريون والعراقيون والفرس وغيرهم (بعضهم خارج منطقة الشرق الأدنى) يصورون بلدانهم بأنها حضانات الحضارة. وأفريقيا جنوب الصحراء حافلة بخرافات جمعية تغطى العصور، ليس أقلها العظمة المضيّعة التى دمرها الأوروبيون، وهى حكاية تتناغم، أيضا مع خرافات شمال أفريقيا. وفى إسرائيل تبرز خرافة المسعدة. وفى جنوب شرق آسيا، وفى آسيا انسحقت الخرافة الحديثة عن الأوروبيين البيض الذين لا يقهرون، وهو ما أعاد الحياة إلى خرافة أقدم كثيرًا عن البأس الحربى الفيتنامى ويحفل جنوب آسيا بالخرافة وهو المصدر المرجح لكثير من الخرافات الحديثة وليس أقلها تلك التى تتصل بالمقاومة.[١٢] ولا تزال فى الغرب مثل الأفكار والميهيكا **Mexica** (الأزتيك) والمايا حية إلى اليوم وتضج الحياة بأساطير قديمة وجديدة: ويمجد كثير من هذه الخرافات المقاومة، والتمرد، والثورة (وإن كانت خرافات غيرها تنهى عن هذه الأشياء) وتغذى خرافات أقرب إلى زماننا تدور حول شخصيات مثل زاباتا فى المكسيك وتشى غيفارا فى كافة أنحاء المنطقة.[١٣]

وتصبح هذه الخرافات التى تعطى صفة تجعلها مقبولة بدرجة أكبر، باعتبارها "موروثا" (Lowenthal, 1998)، جزءا أساسيا من "الذاكرة الجمعية" وفى الحقيقة فإن طابعها "المجتمعى والشعبى" (Brunk, 2008 : 4) هو الذى يعطى الخرافات كل هذه الأهمية فى فهم قوة الحكايا ولنتذكر أن الحكايا لا تعكس الأشكال الشائعة لفهم الماضى، فحسب، بل هى أيضا بالغة التأثير على تصور الناس لما هو ممكن وهذا يدفع بقوة لا راد لها باتجاه حلول لمسائل مثل: من الذى تدور حوله الأسطورة وما هى المادة التى تقوم عليها؟ وممكن أن نتوقع العثور على هؤلاء الناس والأماكن، والأشياء(*) عند تقاطع الخرافة والذاكرة كما أحدثتهما الثقافة فى أى وقت بعينه، فالخرافة، بحسب فاين هى نسخة من الماضى (٦٨: ١٩٨٣). وهكذا فالذاكرة، بتجلياتها الكثيرة والمشوشة، هى صاحبة الدور الأهم فى أى فهم لما هو ممكن أو مستحيل، وبالحقيقة لما هو محتمل. وإذا كان "الأداء فى الماضى لا يعطى أى ضمانة للنتائج فى المستقبل"(**)، فمن الواضح أن ذكريات الماضى يمكن أن تلعب، وتلعب بالفعل، أدوارا بأحجام استثنائية. ووفقا لملاحظة ذكية صدرت عن فوكنر فإن "الماضى لا يموت أبدا. بل أنه ليس ماضيًا" (٢٩ : ١٩٥١). لكن ذلك لا يمنع احتمال أن يكون خرافات، إلى حد كبير.

الذاكرة : يجب أن نتذكر ذلك ...

البشر كائنات مركبة، وقد لا يكون فى تكويننا ما هو أعقد تركيبا من الذاكرة – إنها "كيف نعرف العالم"، كما يشير هالبرن موضحا أنها هى ما نعتمد عليه لكى "تمشى ونحلم ونتكلم ونشم ونخطط ونخاف ونحب ونفكر ونتعلم وأكثر وأكثر وأكثر" (2008:x). وهكذا فإنه لا غنى لنا عن ذاكراتنا (Assmann, 2006:212) وبالتالى فإن

(*) المكونات البشرية والطبيعية للأسطورة – المترجم.

(**) كما تقول شركات الأوراق المالية الغربية لعملائها – المترجم.

الذاكرة، ولا غرو، أصبحت عنصرًا حرجًا فى عديد من المجالات. فنحن جميعا، فى كثير من المجتمعات والثقافات عبر كثير من الأزمنة والأمكنة، أكثر ميلاً إلى تصوير الذاكرة كما لو أنها أقرب إلى "شريط سينمائى" أكثر مما هى "عملية لإعادة التركيب ذاتية وقابلة للوقوع فى الخطأ إلى حد بعيد" (Muir – Brouddus, 2005). فأمخاخنا لا تسجل فى الوقت الحقيقى، وذكرياتنا الفردية تتصف، وعلى نحو لا مهرب منه، بأنها منتجة، تخدم أغراضها، وأحيانا مخترعة (tilly, 2008 :125 فى تلخيص محكم لـ kandel, 2006). وبالإضافة إلى ذلك فالذكريات "ليست أرشيفا" بل هى بالأحرى حية، ككلمة مشحونة بالتضمينات والتعريفات، راقدة فى المخ فى شوانب كيماوية... يمكن أن تضعف (و) يمكن أن تتضاعف قوتها بالملاحظة والخبرة (Halpern, 2008 : 66) والدقة يمكن، فى أحسن الأحوال، أن تكون غير منتظمة، والذاكرة وإن كانت قوية (وهى كذلك) يجب النظر إليها، يقينًا، على أنها غير جديرة بأن يعتمد عليها كمؤشر إلى ما حدث، ومع من، ومتى، وأين، وكيف. وأوجه النقص الهائلة والخطيرة هذه تتفاقم، حتمًا، عندما ننظر فى الذاكرة الجمعية بما فيها من منافسات بين الأفراد والجماعات (Lee and Yang, 2007 : 5) وما هو متوقع ومحتوم من طبقات التعقيد الإضافية.

وقليلة هى الموضوعات التى تكون موضع نزاع أكثر قوة، من ذلك الذى تتعرض له الذاكرة، من زوايا متباينة. وبرغم ما نعلنه (وما نحتفى به) فيما يخص الذاكرة وبرغم ميلنا إلى أن ننغمس فى تصور عنها باعتبارها شيئًا واحدًا ناجز التجسد (Halpern, 2008 : 21) فلا يزال ما لدينا من فهم لكيفية عمل الذاكرة قليلاً إلى حد مدهش. وإذا نحينا جانبا المسألة الضخمة (والتى يرى البعض استحالة حلها) بخصوص المدى الذى يمكن الذهاب إليه فى اعتبار الذاكرة كيماويات أو معرفة، فإن جزءًا من المشكلة يكمن فى تنوع أنماط الذاكرة: الذاكرة الاجتماعية، الذاكرة الجمعية، الذاكرة المشتركة، الذاكرة المشاع، الذاكرة الثقافية

(Assmann 2006 : 220)، الذاكرة العميقة، الذاكرة "المجمعـــة" (Young, 1993, 6) الذاكرة العمومية، الذاكرة السياسية (Assmann 2006 : 215) الذاكرة المـسيطرة، الذاكرة الترقيعية (Landsberg : 2004) والتشكيـلة التى قد نفكر بهـا باعتبارهـا ذاكرة "فردية"، وهى ذاتهـا مفهوم متنـازع حوله على نحو متصـاعد وعميق[١٠] فهل يمكن أن تكون للمرء ذكريـاته، معزولـة عن تأثير الآخرين، وعـن تـأثير الثقافة أو المجتمع؟.

وتفترض كل أنواع الذاكرة هذه طبيعة عالمية، كمـا تفتـرض وبـدرجات متفاوتة، أن لها بالضرورة سياقا تاريخيًا فيما عدا الذاكرة الفردية، وفقًا لما يمكـن الدفع به، وأنها تعكس فكرة أن المفهوم الجمعى "الذاكرة التاريخيـة" هـو تجريـد وتبسيط لجماع الذاكرات الموجودة فى إطار أى مجتمع بعينه (Aguilar, 2002 : 6). وفى ضوء هذه الحقيقة فسوف نوجه عنايتنا، فى المقام الأول، إلى ما يشيع اعتباره ذاكرة جمعية وإلى الكيفية التى يتذكر بها الناس معا، سواء كانت دقة هذه الذكريات ذات مغزى أم لا. كما سنهتم بما إذا كانت ذكريات بعينها، مهما كانت مغرقة فـى طابعها الشخصى أو محلية على نحو خاص، تتسم برغم ذلك بالتناغم مع "الكـونى" أو "العالمى".[١٥] وهذا لا يعنى تجاهل حقيقة أن الذاكرة الجمعية قد تـرتبط، فـى بعض الأحيان، بحكومات أو أيديولوجيات[١٦] وأنها تـسمح بمـساحة للـذاكرتين الاجتماعية والثقافية صاحبتى التأثير. وإضافة إلى ذلك فإن أسـمان (213 : 2006) يبدى ملاحظة ذكية مؤداها أن الذاكرة "انتقالية، متحولة، متطـايرة" وفـوق ذلـك فالخطوة الفاصلة فى الذاكرة الفردية والجمعية لا تتم مناظرتها بـسهولة (216 : 2006) ورغم ذلك فإن "الذاكرة الجمعية" وفقًا لما يقوله لى ويانغ بشكل مقنع (19 : 2007) هـى "قوة ثقافية" ولابد أن يحسب حسابها، خصوصًا عندما يمكن تحقيق تكاملها مع القواعد الدلالية لسردية بطولية أو استشيادية (Assmann 2006 : 218)، أى عندما تـصبح جزءًا من الحكاية.

فالتاريخ وفق المعرفة الأكثر شيوعًا بيننا وكما نقابله، يمكن أن يقرأ، على نحو منطقى، باعتباره "الحكاية الرسمية"، السردية – فهو يقدم (ويعاد تقديمه) دائمًا كسردية – ممهورة بنوع من التوقيع الاجتماعى – السياسى الذى يجود به أصحاب السلطان وأزلامهم. وهو، كما أوضحنا من قبل، عملية من أعلى لأسفل، بالأساس، وربما لا تكون كذلك أكثر مما تكون عندما تسعى لاحتواء حكايا من الثقافة الشعبية، حكايات تروى من "تحت" كما يبدو لهم. وهكذا فقد ينظر إلى الذاكرة الجمعية باعتبارها نقيض التاريخ، أو على أقل القليل متمايزة عنه.

وفى حين أنه قد يكون مفهومًا، وربما بالغ الجدوى، تصوير "الذاكرة الجمعية" ... (باعتبارها) بنى أعيد تشكيلها من أسفل من قبل أناس عاشوا التاريخ (Lee, 2007 : 142) فهناك طريقة أخرى للتفكير بالموضوع. فحسب التصور الشائع، هناك سردية واضحة ومتماسكة تقدم باعتبارها موضوعية ومتسلسلة زمنيًا (وتفضى إلى اللحظة الراهنة، حتمًا) وتصور أحيانًا باعتبارها "الحكايا الوطنية"(*) وهذه يتم تشييدها من أعلى والمتوقع من الناس أن يتقبلوها. وتوضع هذه موضع المقابل مع رؤى الماضى وفقا للخبرة الجمعية والتى تكون نوعًا من "الذاكرة الاجتماعية" المركبة من "حقيقة اجتماعية" .... هى التى ... "غالبًا ما تكون لديها ادعاءات تتعلق بالحقيقة إزاء الأحداث السالفة" (Fentress and Wickham 1992 : 26 يستشهد Lee, 2007 : 142).(٢٧) وهى ادعاءات يؤمن بها ويشارك فيها المرءوسون بأسفل. ويمكن أن تكون هذه الذكريات "المشتركة" غير المعتمدة ذات قوة خاصة بالنسبة للمعارضة، وبالتالى المقاومة، والتمرد، والثورة (Watson, 1994 : 9)، على الأقل لأن هذه الأزمنة الماضية تقرر الأفكار الجمعية حول ما هو ممكن، ومسموح، ومرغوب، على نحو عام، من الأفعال. (Tilly, 1994 : 247). لكن هذا التصور يتجاهل الواقع.

(*) حكاية شعب فى الخطاب الشعبوى المهيمن على الثقافة المصرية بين ١٩٥٢ و١٩٧٥ – المترجم.

فالذاكرة الجمعية هى ذكريات شائعة، لدى معظم الناس إن لم يكن لديهم جميعا – لدى تلك القلة عند القمة، ولدى الأغلبية الهائلة عند "القاع"، ولدى أولئك الذين يعتبر عددهم قليلاً نسبيا (والمعلقة عيونهم فى الغالب بأهل القمة) المعلقين فى الوسط. فالذكريات الجمعية، إذا كان لنا أن نستعير مفهوما ممتعا من سفيكتوفيتش (2003)، وعلى نحو عميق، أرشيفا للعواطف.(١٨) وداخل هذا الأرشيف يمكن أن نجد كل صورة ممكنة للماضى، يمكن لأى واحد منا أن يتذكرها، والتى تؤمّن لنا، على هذا النحو، المعلومات التى نعتمد عليها لنبنى اليوم ولنتخيل المستقبل. وبوسعنا أن نرى فى هذا قلق أسمان من أن "الذاكرة الجماعية... شديدة الغموض وتخلط بين أمور شديدة التمايز" (211 : 2006)،(١٩) لكن هذا يبدو، بالنسبة لما يرمى إليه الساعون إلى التأسيس على هذه الذكريات، مصدر قوة حقيقية ويؤمن المزيد من الفرص وإمكانيات عظيمة.

ويسعى الثوريون وغيرهم من الراديكاليين إلى تنشيط الذاكرة المشتركة بغرض تبرير وشرعنة العمل الذى يسعون إلى إنجازه، فى حين أن أولئك الذين يعارضونهم يحاولون استخدام الذاكرة ذاتها أو ما يشبهها وفى الحالتين، فالهدف هو التذكرة، أو التعزيز، أو إذا اقتضى الأمر، إنتاج بنى قوية تجعل مركزهم متينا ونبيلا.(٢٠) وبدلا من العلاقات الهشة "التى تقوم على صلات سطحية (نسبيا) مثل لون البشرة، أو النوع، أو الطبقة – ولكل منها، كما سوف نرى، قوة هائلة – فالذاكرة تمنح ما تصفه مارفاليت (5 : 2002) بأنه "علاقات غليظة... ضربت بمرساتها فى ماض مشترك أو ربطتها المرساة بذكرى مشتركة". وفى هذه الشبكة المعقدة التى ننسجها نجد ما يمكن أن نعتبره، وفق النموذج الشجرى arboval model جذور الثورة، والمقاومة، والتمرد.

وغالبا ما تسجَّل الذاكرة – تُنقش – باعتبارها "تقليدية" وبالتالى عدوا للتحول والابتكار. لكن هناك، أيضا، اعترافا جاهزا بأن أولئك الذين يسيطرون على الذاكرة، التى توصف عادة بأنها "الماضى" تعبيرا عن الاحترام لأورويل (وفى

اتجاه معاكس، وفقا لأورويل).[٢١] وبين مهام بعض من يجدون أنفسهم فى خدمة أصحاب السلطان تأمين الشرعية، وبالتالى السلطة، للمواقع التى يحتلها أصحاب السلطان. والمنهج الأكثر شيوعًا هو ربطها بأحداث (وعمليات) فى الماضى (Margalit, 2002 : 11)؛ فالحكومات والنخب يتعين عليها أن تسعى للسيطرة على الذاكرة الجمعية من أجل تفسير الكيفية التى تحقق بها وجودهم على نحو شرعى، والسبب فى أنهم هم الذين يجب أن يكونوا فى موقع القوة، ولماذا هم وحدهم الأكثر جدارة بأن يقودوا المسيرة إلى المستقبل. ومن الواضح أن أولئك الذين يسعون إلى التغيير يتعين أن يتحدّوا الذاكرة الجمعية، التى يشيع وصفها بأنها التاريخ، وأن يضعوا صياغة النخبة للحكاية الوطنية موضع التساؤل. والذاكرة ذات أهمية قصوى خاصة عندما يحشد أولئك الذين يطلبون التغيير "الرموز الثقافية، والأبطال، والخرافات" عندما يتعاملون مع "الكيانات الخارجية، والحكومات، والطبقات، والجماعات، وغير ذلك، وهم يحاولون ممارسة السيطرة الثقافية والشرعية" (Whisnaut, 1995 : 4). لكن ميدان المعركة الأكثر شيوعًا، بالنسبة للصراع على الذاكرة هو التاريخ والروايات التاريخية، غالبًا فى الثقافة الشعبية. وهذا يثير ثلاث قضايا: الحنين إلى الماضى، التاريخ، الحقيقة / القابلية للتفسير.

وغواية الحنين إلى الماضى قوية: إنها شكل من أشكال الذاكرة غالبًا ما نجده فى أيدى أصحاب السلطان، الذين يستخدمونه لشرعنة امتيازاتهم وللإقناع بأن الحاضر هو بالصورة المنشودة. لكن الحنين إلى الماضى يؤثر، أيضًا، على الثوريين الذين قد يسعون إلى استخدام زمن بطولى – أسطورى لشرعنة نضالاتهم. ويبدو أن دور الحنين إلى الماضى ومكانته يمثلان إشكالية خاصة، يصورها غيرتس (22 : 200) باعتبارها "حنينًا قصديًا – خطابيًا، ومظهريًا، ومستهلكًا، ومكشوفًا" فى المجتمعات الشمالية / الغربية، التى قد تنظر إلى زيادة "الكتابية" Literacy بين مواطنيها (بالمعنى ما بعد التنويرى) و"تضجهم" أمرًا مبهرًا ويوقظ الحنين إلى ماض أسبغ عليه طابع رومانسى وكانت الأحوال فيه أفضل.

والكثيرون منا، وليس فى الشمال/ الغرب فقط. ولأسباب كثيرة، يستثمرون استثمارًا ضخما فى وهم أن التاريخ الذى يحكم مجتمعاتنا وثقافاتنا "موضوعى" أو "غير منحاز"، بشكل ما، حتى وإن استحال علينا أن نروى الماضى كما كان، فأفضل ما نستطيعه هو أن نرويه كما هو الآن. وأى مناقشة للماضى محملة بشحنة ثقيلة ويجب الاقتراب منها بحذر بالغ. ورغم أنه من الواضح أن مناقشة "ما حدث بالفعل" أمر ممكن ما دام واضحا لدينا أن المسألة، فى الغالب، هى مسألة تأويل. وبالطبع ففى عملية وضع الماضى فى خدمة الحاضر – ولا يمكن لنا إلا أن نفعل ذلك – فإننا نفترض نوعًا من الصدقية والحتمية، بل ونطالب بهما: كان يتعين أن يحدث على النحو التالى. وهكذا فإن مصنف الحكايا الذى نسميه تاريخًا (أو الماضى) هو مجرد سلسلة من الحكايا، تم تحويرها بغرض الدقة، والإيجاز، ووضوح الفرص. ويرويها بعضنا لبعض عن الماضى فى الحاضر. ومهما كانت أبحاثنا محكمة ومنهجية ومهما راعينا الدقة فى التصوير، وهو ما ننسبه كله للتاريخ، فليس كل ما لدينا إلا مزيجا مما نتذكره، وما نسيناه، وما اخترعناه (عن قصد أو عن غير قصد) وما نحتاجه فى أى لحظة محدد بالنسبة إلى من، وأين، ومتى نكون. وتصوغ هذه العوامل، أيضا، تصورنا للمستقبل على نحو جوهرى.

والصيانة التاريخية هى مشروع مكلف، بعديد من الأشكال – وليس معنى هذا أن أحدًا يدخر وسعا. فالحكومات والمجتمعات، والنخب بشكل خاص، تمضى إلى أبعد مدى لخلق شرعيتها وسلطتها وللمحافظة عليهما – وهما العنصران الأكثر تعرضًا للهجوم المباشر من قبل المتمردين أو الثوريين. ومن يوجهون وينجزون الصيانة التاريخية هم المتهمون المعتادون ويظهر بعضهم فى معسكر أولئك الذين يحاولون أن يقلبوا عربة التفاح. وبالنسبة لكل الأطراف، فاحتمال النجاح يتناسب طرديًا، وعلى نحو يكاد يكون مباشرًا، مع القدرة على فهم الشروط الأيديولوجية والفرضيات الميثولوجية التى تقوم بدور أساسى فى إرشاد المجتمع، والتى غالبا ما

تمثل ركيزة الشرعية والسلطة. ولكن من الخطأ أن ينظر إلى ذلك باعتباره محاولة من مجموعات صغيرة من الناس يمارسون تأثيرهم على مجموعة كبيـــرة وســـلبية من السكان، بغض النظر عن محاولات هؤلاء لخلق الأحداث والـــسيطرة عليهـــا. فالناس لديهم حكاياهم، سردياتهم، أبطالهم، رواياتهم.

وكان أحد أساتذتى للغة الإنجليزية يدفع بأن "كل حكاية فيها الكثير من A &T ومع الاعتذار عن هذا الغموض، فها أنا ذا أضع محل هذين الرمزين المصطلحات التى كان يعنيها (والتى كنا نفهمها): الصدق **Truth** والمـــسئولية **Accounability** وفى بعض الأحيان تتكشف حقائق أعظم وأعمق، سواء كانت الحكاية "تصور مـــا جرى حقًا" و"بإخلاص" أو لا تفعل ذلك. والمجادلات والنقاشات حول ما جرى حقًا هى على جانب كبير من الأهمية، وإن كانت تمضى فى اتجاه خاطئ بمعنى مهـــم، وربما عميق. وينبهنا هيغونت (10 : 1998) إلى ضـــرورة أن نراعـــى أن تكـــون الجهود التى نبذلها "حذرة ومتواضعة فى تطلعها إلى إعادة تصوير الماضى – على النحو الذى كان عليه". وسوف يعد ضربا من اللا مبالاة ألا نحاول ســـبر أغـــوار الماضى، قدر المستطاع. والكشف عن السبب فى أن الماضى هو ما يشدنا ويعبـــر عنا؛ ذلك أن "ما جرى حقًا" هو النهاية. أقل أهمية مما شعرنا به وأخطر من ذلـــك. الكيفية التى تم / ويتم بها استبطان هذه المشاعر، والتعامل معها، والتعبيـــر عنهـــا وفهمها من قبل أولئك الذين "شهدوا اللحظة" (وهى عبارة طوبوية أخرى) وأولئـــك الذين قد يتعلمون منهم.[٢٢] وهكذا فسواء كانت حكـــاية مـــا "حقيقيـــة" أو "زائفـــة" (وهذه ثنائية حافلة بالإشكالات) فهذا أمر أقل أهمية مما إذا كانت الحكاية تتناغم مع شروط قائمة وتساعدنا على فهم "الحقائق" الأكثر مباشرة والأكبر فى أى حالـــة أو عملية بعينها. ورغم أن "الحقائق الصحيحة" متاحة فى الكتب، فقد تلقى الضوء على ما هو ذو خطر، وما يهمنا، وما هو "حقيقى" بالنسبة لكثير من الناس أو لمعظمهم، أو لا تفعل ذلك، وهذه "حقيقة" كما سوف أبين فيما بعد، دافع عنها، وحافظ عليهـــا، ووسعها الناس فى الحكايا.

وكما يرى باسيرينى (197 : 1989) فالأمر الذى لا محيص عن قبوله هو "أن" كل ذكريات السيرة الذاتية صحيحة. ومتروك للمفسر أمر اكتشاف مغزى هذه الصحة، ومحلها، والغرض من ورائها وهذا صحيح بالقدر ذاته تماما بالنسبة للذاكرة الجمعية. فمع وجودة "أرشيف المشاعر" الذى يؤمن به الجميع، وحده دون غيره (وإن كان الحفاظ عليه، أساسًا، تم عبر طبيعته الجمعية) فمن الضرورى النظر فى المدى الذى تمضى إليه محاولات الناس إعادة خلق ماضيهم وتفسير حاضرهم عبر الكتب أو التشويه، عن قصد أو عن غير قصد، لأفكارهم وأفعالهم. وبما أن الاهتمامات والمواقف الراهنة تؤثر على ما ينتجه الناس وما يبرزونه من ماضيهم وحاضرهم، فهذا النوع من التغيير محتوم ولكن بما أن العملية التى ننظرها هنا هى، فى المقام الأول، تدور حول تصورات الناس عن ذواتهم وعن العالم المحيط بهم: فهذه ليست إشكالية مهمة. إنها تدعونا، بالفعل، إلى أخذ عينات متنوعة من فهم الناس لماضيهم وماضى مجتمعهم وثقافتهم. وما يهمنا التوصل إليه هو ما إذا كان الناس يصورون الأمور بطريقة تضعها فى مكان يناسبها ولو بالمعنى العام، أم لا.

لكن الذكريات تبقى مشكلة بالنسبة لأولئك الذين يحاولون المناورة بها والباحثين الذين يسعون لدراستها. فالذكريات – بالأساس – تقع خارج مجال الرؤية بالنسبة لنا، وبدرجة خطيرة – الكيفية التى تنشأ بها، كيفية اختزانها، كيف يؤثر عليها هذا الاختزان (صيانتها أو تدهورها) وكيفية استدعائها (متى ولماذا؟)، كل هذا يفلت منا[٢٣] ورغم أن لدينا فكرة ما عن الكيفية التى يجرى بها اقتسامها – وبالتالى عن كيفية حدوث المساومة المحتومة والحلول الوسط الضرورية – فنحن لا نعرف حتى الآن، على وجه الدقة، كيف تأتّى للذاكرة أن تربط بين الأفراد فيصيروا جماعات، كما أنه لا يوجد اتفاق حول ما إذا كانت هذه الروابط عتيقة أم حديثة. وأكثر من ذلك، فإن "الافتراض البادئ بأن الذاكرة الجمعية يتم إنشاؤها أو أنها قابلة للإنشاء يثير أسئلة مزعجة حول السياقات التاريخية والبنى الزمنية التى تجعل مثل هذا العمل

الإنشائي ممكنا (Fritzsche, 2001, 91 - 2). ورؤية جيلديا للذاكرة باعتبارها "بنية جماعية للماضى من قبل مجتمع معين" (10 : 1994) تبدو ملائمة. ولا يعنى هذا أنها نوع من "التفكير الجماعى" (شبه الصوفى). وزعم هولبواكس الذى يمكن اعتباره أول من صاغ مفهوم الذاكرة الجمعية أنه "برغم صلابة الذاكرة الجمعية التى تستمد قوتها من قاعدتها المتمثلة فى هيئة من الناس المتوافقين، فإن الأفراد، باعتبارهم أعضاء فى جماعات، هم الذين يتذكرون (48 : 1980). ويجرى بث الذكريات عبر الأجيال، فى عديد من الطرق. وأيا كانت هذه الطرق، فالنتيجة هى أننا قادرون على أن نحرز شكل الماضى، على الأقل فى خطوطه العريضة، من الذاكرة الجمعية. وهذا يفترض أن بوسعنا الوصول إليه وأن تكون لدينا فكرة ما عن أفضل الطرق لفهمه وتأويله – وهكذا نعود إلى وسائل البث والترجمة وغيرها. وبالتالى فمن الذى أو ما الذى "يصنع" الذكريات، ومتى، وأين، وكيف؟

فمن ناحية هناك من يتعين أن ننعتهم بـ "صناع الذاكرة" وهى صفة لا تشير إلى الواضح فحسب، أى لا تكتفى بأن تشمل المؤرخين، أو الشخصيات العامة من المثقفين، أو المتصرفين بشؤون الدولة، ولكن أيضا كتاب المقالات، والروائيين، وصناع الأفلام، والإعلام، ومن يملكون القدرة على الوصول إلى الحواسيب وشبكة الإنترنت. وهؤلاء تتزايد أعدادهم بيننا، الأمر الذى ينطوى على مزيد من المقرطة فى صناعة الذاكرة. ومن ناحية أخرى فهناك الميل الذى بدأ يتلاشى (وإن كان لا يزال نابضا بالحياة) إلى اعتبار أهل الريف، أو الناس المحليين، أو المنعزلين أصحاب امتياز باعتبارهم مخزونا نقيا للماضى "الأصلى"، وأيا كان نصيب هذه الفرضية من الصحة فإنها خبيثة، بل وضارة.

ورغم أننا مطالبون بتوخى الحذر إزاء ثنائيات كهذه، فما نزعمه هنا هو أن الذاكرة الجمعية، فى الممارسة، تتعدد أشكالها المزروعة فى مختلف الجماعات، والمؤسسات، وغير ذلك من التجمعات القائمة فى المجتمع. وهى أشكال الذاكرة المكتوبة بواسطتهم والمتجسدة فيهم: فالناس عادة ما تكون ذاكراتهم الجماعية

متجذرة فى الجماعات والمؤسسات وغير ذلك من التجمعات القائمة فى المجتمع مكتوبة فيها... (و) هم يستدعون ذكرياتهم، ويدركونها، ويموضعونها فيها (Halbwachs, 1992 : 38)[٢٤] وعندما نستخدم الذاكرة معًا (المشاركة) فهذا يفضى إلى "الذاكرة الجمعية والأطر الاجتماعية للذاكرة" (Halbwachs, 1992 : 38). وهكذا فالتاريخ ليس هو كل الماضى ولا ما تبقى منه. وإضافة إلى التاريخ المكتوب، هناك تاريخ حى يؤبد وجوده ويجدده عبر الزمن (Halbwachs. 1992 : 64) وهذه تذكرة صحية بأن التاريخ متميز عن الذاكرة الجمعية، على هذا النحو، وغير قابل للانفصال عنها، فى آن. ويكفينا، الآن، أن نتذكر أن الذاكرة، مهما كانت فردية، هى تعاونية بمعنى عميق، بل وقد تكون فعلاً من أفعال التعاضد تنتجه مصادر متنوعة، وشبكات علاقات، والظرف القائم أو على الأقل المتخيل، للتعاضد بين المكونات الداخلية لكل من هذه المصادر وبينها وبين الآخرين.

والذكريات التى نحفظها ونقتسمها لا تقوم بوظيفة الربط بيننا فحسب، بل هى تمكننا، أيضًا، من جعل كل حكاية حكاية شخصية وتفصيلها على مقاس اللحظة. والظرف المحيط له أهمية جوهرية[٢٥] لدرجة أن الخبرات ذاتها"، حتى وإن دفع البعض بأنها متجذرة فى الذات وعالمية – والموت والميلاد هما المثلان اللذان يستدعيهما العقل على نحو مباشر، هنا – سوف "تفهم"، أى سوف تبنى ويجرى تصورها، من قبل أناس مختلفين منتمين لثقافات مختلفة لعديد من الأسباب "ليس أقلها أن توصيف الذات هو دائمًا لصيق بثقافة ما" (Zur, 1998 : 19).[٢٦] ومن الواضح أن الذاكرة قوية، ومجتاحة، ومغرضة، وهو ما لا يعنى أنها قصدية دائمًا ولكنها، بالأحرى، مشبعة بالغرض، وبالطبع فهى محملة بالمعنى. والقول بأن الذاكرة تلعب دورًا فى الحكايا هو قول بديهى، حيث إن الراوى والجمهور يعتمدون الذكريات لتأمين التاريخ والظروف المحيطة، وتركيب الأجزاء، وإنشاء حكاية أكبر، وأكثر تنوعا فى الظلال. وغالبا ما تكون أعمق، وغير مصرح بها، مقارنة

بما يعرض – وكذلك ليكون لها صدى فى عدد، يكون أحيانا مدهشا، من المسالك والأماكن. وبالنسبة للثوريين، على وجه الخصوص، فإن بنجامين (٢٠٠٣ : ٣٩٤) لا يدرى أنه مهما كانت الرؤى التى تحرك الأبناء والأحفاد المحرَّرين، فإن أعمق إلهاماتهم يأتى مما لديهم من تصور – وفى الحقيقة من الذكريات – عن أسلافهم المستبعدين. وهذا الضرب من الذكريات الفردية والجماعية، ليس بالنهاية مجرد شظايا الحكايا بل هو فى الحقيقة، البنية العميقة التى تقوم عليها الحكايا ذات المغزى عن المقاومة والتمرد والثورة.

المحاكاة: التبنى والتكيف

وبمعنى من المعانى، فقد لا يكون هناك فعل إنسانى جوهرى أكثر من المحاكاة، إذ يبدو أن تبنى وتكيف أفعال الآخرين هو لصيق بشبكة المخ لدينا – ونحن نتعلم اللغة، والحركة، وأشياء أخرى كثيرة. بهذه الكيفية لكن جانبا من إنسانيتنا قد يبدو أنه ذو طبيعة تجعل هذا النوع من التعلم أكثر كثيرا من مجرد التقليد. وقد رسمت الدراسات النسوية بالتحديد خطا فاصلاً بين "المحاكاة" و"التقليد" حيث تضع الأولى موضعا نافعا و/ أو إستراتيجيا من الناحية السياسية فى حين تتصف الأخيرة بأنها محافظة على نحو جوهرى وخطير.(٢٧) ورغم أن معظم مفهومات المحاكاة تعكس نوعا من النسخ فالاهتمام هنا ينصب على ما هو أوسع وأكثر جماعية.

وليس صعبًا أن نتبين مصدر الاتهامات بالمحافظة. الثقافة مراوغة (Cantwell, 1994 : 80). وأقوى صور هذه المراوغة يتصل بما يسميه فوران "الثقافات السياسية للمعارضة والمقاومة" (Foran, 1992, 1993 b, 2005 : 21, Reed and Foran, 2003) وتركيز كانتويل على الثقافة يتيح لنا أن نفهم كيف يمكن أن تمثل المحاكاة قصورا ذاتيا، أو على الأقل كيف يمكن أن تمثل قوة للقصور الذاتى.

وكما أشرنا من قبل، فالتراث يمكن أن يكون الحصن بوجه التغيير، وعندما يورث بهدوء، بل وفى السر، داخل العائلات (والمجتمعات) يكون بوسعه خلق حكاية ميكانيكية الطابع ومخدرة للعقل تبدو غير قصدية، وغالبًا غير واعية وتكشف عن نفسها فى الأحلام، فجأة وعلى غير توقع... فى السرديات التى ننشئها عن أنفسنا وعن الآخرين أو التى نلجأ إليها باحثين عن الفهم **(Cantwell, 1994 : 80 – 81)**. ورغم أن كانتويل يقصد، على ما يبدو، الانفتاح على الإمكانات – وهو أمر سنعود إليه فيما بعد – فقد يكون من السخف تجاهل المدى الذى تمضى إليه الثقافات فى استخدام الحكايا، وبتحديد أكثر، المحاكاة وهى تحاول ممارسة السيطرة ورسم الحدود. فنحن نروى الحكايا ونعيدها باعتبارها إلى حد كبير، وسيلة لإحياء وتعزيز المعايير والسلوكيات الاجتماعية ضمانًا للاستمرارية.

ونحن نحب أن تكون حكايانا مألوفة، حتى يقل الغموض نسبيًا فى القصص: فتكون الرؤى الأسطورية – الشعرية بسيطة وصلبة إلى حد مدهش، مليئة بالشخصيات المكررة والمواقف المألوفة، وتكون البنية مكرّسة لكثير من مخاوفنا وأحلامنا، ورغائبنا الأساسية. ولحقب طويلة كانت الحكايا فى الصدور، فيتعلم جيل من جيل كيف يكون الكلام، والغناء، وفى صيغة ثابتة. ولا يزال الحال هكذا فى بعض بقاع الأرض، بل وفى تلك المجتمعات التى تخضع ثقافاتها للكلمة المكتوبة، ولا يحتاج المرء إلى الرجوع إلى أكثر من قرن مضى ليجد الأغلبية الساحقة من الناس يتعلمون ويتبادلون المعلومات على هذا النحو – بالتكرار، والمحاكاة، والاستظهار. ورغم أن المشهد قد يتغير (وإن كان التماثل، فى ذاته، بالغ الأهمية للقصة، وقد يتغير الراوى، رغم درجة معينة من التماثل قد تكون أساسية للغاية فيما يمكن الكشف عنه) فالألفة ضرورية. واستظهار الحكايا أو الملاحم، على نحو خاص، والتكرار، والحاجة إلى نحت شخصيات وحبكات تعطى الشعور بالألفة، تحول دون الإبداع. وتمنع تطوير حكايا جديدة، وتسد الطريق أمام الإمكانات الجديدة.

هذا التقليل من قيمة الأصالة والابتكارية عند البشر يستحق مزيدًا من الاهتمام. ويكفى هنا أن نقول إن المسألة ليست خلق حكايا جديدة بقدر ما هى درجة اتصال الحكايا القائمة بالفعل، بشواغل اللحظة وتجديدها. فالحكايا يتواصل تدويرها وإعادة كتابتها للوفاء بالاحتياجات الراهنة – وبالطبع فهذا يعنى المخاطرة بتكرار أخطاء الماضى وهكذا فالمحاكاة تحرك "الإمكانية الغامضة لإشعال النار بحك الأغصان الجافة... فى تلك العلاقات بين الأقليات الخلاقة والأغلبيات الهدامة (Toynbee, 1934 b : 247). وبتعبير آخر، فالناس قادرون على استخدام حكايا مؤثرة بطرق تجد صدى عند الآخرين وهم يسعون إلى إحداث تحول جوهرى فى حيواتهم. وعندما يحدث ذلك تكون إعادة التكيف فى حياة الأغلبية، والذى هو مطلوب بشدة لإنجاز فعل المحاكاة هذا، فى بعض الأحيان، جذرية لدرجة تجعل من المحتم أن تأتى فى شكل ثورة (Toynbee, 1934 b : 369). هذا، إذن، ما يسعى وراءه فوران (٢١ : ٢٠٠٥): الطريقة التى تتم بها تعبئة الناس من أجل التغيير عبر مزيج من "القدرة التنظيمية، والخبرات المعيشية، والثقافة، والأيديولوجيا". لكن هناك مخاوف أخرى تتعلق بممارسة المحاكاة، مزالق أخرى ينبغى الحذر منها. أمران منهما يستحقان أن نهتم بهما هنا وهما العلاقة بنوع من التقليد العبودى، غير العاقل، وللمفهومات التى غالبًا ما يساء فهمها والمتعلقة بالعدوى – المحاكاة كنوع من المرض، وربما الفيروس، الذى ينتشر بين أعضاء الأمة.

وغالبًا ما تستخدم المحاكاة على نحو يعكس، بالأساس، التقليد أو النسخ، وهما كلمتان ينطوى استعمالهما على قدر من التحقيق. وإذ نسترشد هنا بتوينبى (1934 b : 1911, n1) فالهدف هو تلافى هذا التشويه للسمعة. ويؤكد توينبى أنه يستخدم المحاكاة لغرض محدد هو تجنب الإيحاء بـ "التقليد غير الذكى" أو "التقليد الساخر" المرتبط بمشتقات الكلمة الإنجليزية mimicry (شبه سطحى بين متعض وآخر أو بينه وبين الأشياء الطبيعية التى يحيا وسطها – ابتغاء التخفى أو الحماية

الذاتية إلخ – المورد الحديث ٢٠٠٩)... والمعنى هو التقليدات الاجتماعية "من دون إجحاف" وبدلا من الاختزال الذى ينزل إلى مستوى فكرة تبسيطية "غير محترمة" عن التقليد "الذى ينطوى على إيحاء بواقعية ساذجة، ومحاكاة بلا عقل، ونسخ ميكانيكى، بل وسلوك بهيمى" (Gaines, 1999 : 93). فالهدف هنا هو أن تستعيد المحاكاة عافيتها كأسلوب للمعرفة.(٢٨) وهذا الضرب من (إعادة) صياغة المحاكاة "كشكل للمعرفة" سوف يقابل "بمقاومة فى العالم الأول" برأى غينز، خاصة وأن المفهوم طال ارتباطه بعدم المعرفة أو "بمجرد التقليد"، كإعادة إنتاج من دون إضافة. وتعلم بالجسد من دون إشراك العقل (٤ – ٩٣ : ١٩٩٩). ووفقا لما تزعمه فقد آن الأوان لتجاوز هذه الرؤية العميقة للمحاكاة، وحتى مع وجود التقليد كأحد العناصر – وهو وجود يسهل تبينه فى الغالب – فليس هو المهم فى العملية وقد يكون مضللا.

والإشكال الثالث فى المحاكاة والذى يستحق أن نحذره هو أن نقرأها باعتبارها "عدوى". وهذا النوع من التحليل تجد جذوره فى دراسة انتشار الأمراض وغالبا ما يصور كتأثير ضار (أو مفسد) لكن العدوى تعطى صورة أوسع لفكرة أن أنماط السلوك أو الأفكار (أو العواطف) تتحرك من شخص لشخص أو من مجموعة لمجموعة. وهذا المفهوم المبالغ فى طبيعيته وقدريته يشاهد بوضوح فى صياغة برنتون لفكرة الثورة كحمى (١٦ : ١٩٦٥)، وفى فكرة Cordon sanitaive(*) التى طبقت فى حالات الثورة، بل وبمعنى ما فى "نظرية الدومينو" التى تعمل وفق افتراض مؤداه أن وقوع حادثة واحدة يعنى أن حوادث أخرى سوف تتبعها، ببساطة، فى حركة تشبه انهيار قطع الدومينو. ورغم أنه قد يكون "السلوك المعدى.... قادرا على إشعال انفجار مفاجئ للنشاط الثورى (Walt, 2000 : 36) فإن هذا قد يتخذ، على الأرجح، شكل مقاومة أو تمرد، انظر فيما شهدته أوروبا

(*) الحجر الطبى – المترجم.

الشرقية من ثورات "مخملية" أو "ملونة" عديدة ومهما كانت هذه الصياغة آسرة فإنها تفترض أن المحاكاة عملية غير بشرية.

وفى حين أننا لا نرغب، بأى شكل من الأشكال، فى التقليل من أهمية هذه الاعتبارات أو فى استبعادها، فإننا نلاحظ أن المحاكاة يمكن أن تعكس تثبيتا محافظا، بدرجة أكبر، أو تعكس ما نميل إلى ربطه إما بالتقليد (ناهيك عمّا يصحب ذلك من قلق يتعلق بالأصالة) أو مجرد التقليد. فالناس يكثرون من الحديث عن التغيير، وخاصة حول إمكانية التغيير من عدمها. وغالبا، وبرغم المعوقات التى تفت فى العضد، فالناس يعتقدون أنه ممكن، لكن السعى إلى إحداث هذا التغيير يحدث فى حالات نادرة نسبيا. وتشير القرائن الظرفية إلى أن الناس عندما يختارون بالفعل أن يقاوموا أو أن يتمردوا، أو أن يدفعوا لواء الثورة، فذلك يعود جزئيا إلى إدراكهم لحقيقة أن أناسا آخرين، فى أماكن أخرى، وفى أزمنة أخرى، وتحت ظروف أخرى فعلوا ذلك. وأحيانا تكون المواقف متقاربة ومتشابهة فى الأماكن، أو التوقيتات، أو الظروف، وربما كان الناس الآخرون هؤلاء أسلافهم أو حتى أهلهم وهكذا فهم "يعرفون" أن التغيير يمكن إنجازه وقد رأوا كيف يتم إنجازه، ومن هنا فهو يبدو حقيقيا وممكنا، ورغم أن هذا قد يعنى، فى بعض الأحيان، الاستيلاء على أغنيات أو رموز، فغالبا ما تكون هذه سطحية. ولكن الإلهام موجود، وقد يحدث تعلم. وهناك قوة هائلة فى حكاية عما هو ممكن. وقد روى لى ثورى من نيكارغوا، فى أول سنوات الثورة كيف أنه هو وآخرون استلهموا "الانتصار" الذى تحقق فى كوبا. وكما قال لى، فإن منطقهم كان بسيطا "إذا كانوا قادرين على تحقيقه هناك، فبوسعنا تحقيقه هنا".

والمهم فى هذا التصريح هو "هم" و"نحن" فالمحاكاة، شأنها شأن الذاكرة والخرافة، يمكن فهمها على نحو أكمل وأوفر مردودا كمفهوم جمعي أو ثقافي وفي الحالات الثلاث جميعا، فإن هذه العوامل تكتسب حيويتها المكتملة ونبضها، بأقصى

درجاتها، وهما عنصران حيويان فى قوتها، فى إطار جمعى. وهذا ما تصوره صياغة كانتويل عن "المحاكاة الإثنية" تصويرًا جيدًا، حيث يقصد بـ "الإثنية" أن تشير إلى "الجماعات والقوى التى تقوم عليها" وإلى أن المحاكاة "مركبة لكنها ليست غامضة" غموض الطقوس السحرية (ه : ١٩٩٤). ثم يمضى كانتويل إلى تحديد ثلاثة "معان" للمحاكاة: "التقليد الذى هو فى عرف أرسطو المصدر ليس تعلمًا من البشر الآخرين فقط، بل من العالم، والمعنى الثانى من هافلوك وهو التشخيص وإن كان فى الغالب يأتى "غير واع وعفويا وكلى الحضور، تمامًا، فى العلاقات الإنسانية الاجتماعية، ثم المعنى الثالث والأشد سحرا وهو تجسيد أو استحضار الذى يفرز نخبتنا وثقافتنا الشعبية" (Cantwell, 1994 : 5 – 6). وإذا أُخذت هذه العناصر معا، فالنتيجة تكون أن "كل محاكاة هى، بالتالى، محاكاة إثنية" (Cantwell, 1994 : 6). وانعكاس المحاكاة على الآخرين، وينطبق هذا على الخرافة والذاكرة. هو الأكثر أهمية هنا.

والتبنى الواعى والقصدى لأفعال مجموعة ما وتكييفهما من قبل مجموعة أخرى أمر ذو أهمية حيوية فى الكشف عن إمكانات التغيير الاجتماعى – اليأس. ومن المفيد مناقشة درجات القصدية، ومن المؤكد وجود أشكال غير واعية من المحاكاة، أيضًا، وهذا لا يعنى إمكانية التبادل بين الواعى وغير الواعى: فالمحاكاة والتعلم الواعيان والقصديان هما، بقدر كبير من اليقينية، مختلفان فى نواح مهمة وذات مغزى عن المحاكاة غير الواعية وغير القصدية. فالمحاكاة ملمح موجود فى كل الثقافات والمجتمعات، وفى أغلب الأحوال ينقل الناس عن العصور السالفة، وفى بعض الأحوال ينقلون الأحداث الراهنة؛ فالأولى محوطة برؤى ماض بطولى / ملحمى أو ربما برؤى عن زمن، حقيقى أو متخيل، كانت الحياة فيه "طيبة" بما فيها من عدل، ومساواة، ووفرة المأكل، وقلة المخاوف وهذه الرؤية الأخيرة هى الأقوى تصويرًا لما أشار إليه، على نحو مارتن لوثر كينغ (٢٣٤ : ٢٠٠٤)

باعتبارها "الضرورة الشرسة للراهن"، فهناك شيء يحدث الآن وهنا، الناس يفعلون، يفتحون نافذة، وهذا ما نستطيع أن نفعله، نحن أيضا. وقد يستلهم الناس فهمهم لما هو ممكن من أناس آخرين، وثقافات وأزمنة أخرى يشار إليها، عادة، كحكايا من مكان آخر يصلها الناس بزمانهم ومكانهم المحددين وبفكرة أنه "إذا كانوا قادرين على تحقيقه هناك، بوسعنا تحقيقه هنا:

وهذا الأخير – التماهى الواعى مع شعب آخر وتقليده – هو الذى يتمتع بأهمية حيوية فى المقاومة، والتمرد والثورة. وكما سيتضح فى فصول تالية تستعرض حكايا الثورة، فما من حدث أو عملية فى الأزمنة الحديثة تمتع بحضور أقوى من حضور ثورة فرنسا فى ١٧٨٩ وأقوى محللى هذه الثورة تأثيرا وهو فرانسوا فوريه، يلاحظ أن الثورة الفرنسية "كان لها مولد ولم تكن لها نهاية.... كانت وعدا هائلاً لدرجة أن يصبح مطاطا بلا حدود" (٣ : ١٩٨١) أصبح تراثا تبنته أجيال متوالية، ربما على نحو محتوم، باعتباره وعدا وإن كان، على الأقل بالنسبة إلى فوريه، تعهدا لا يمكن أن يبلغ التحقق الكامل من خلال أى حدث (٧ : ١٩٨١). ويمضى ماير إلى ما هو أبعد، زاعما أن "محاكاة الثورة الفرنسية كرمز ربما كانت لها من الأهمية كقوة دافعة، مثلما كان للأيديولوجية فى الثورة الروسية، وخاصة فى السنوات من ١٩١٩ إلى ١٩٢١ (٥٩١ : ٢٠٠١). ونقوم الوصلات التى ينشئها أوكتافيو باز على قاعدة من شعور مماثل: بدا الأمر وكأن المكسيك فى ١٩٦٨ صورة مجازية من كوميونة باريس أو من الهجوم على قصر الشتاء: المكسيك كانت هى المكسيك لكنها كانت، أيضا، زمنا آخر ومكانا آخر – حقيقة أخرى (**ix – 1975**). فالخرافة والذاكرة تمتزجان وتعاودان الامتزاج فى أشكال قوية لتحدث تأثير المحاكاة.

وتأثير المحاكاة فى الثورات نوقش لفترة طويلة وغالبا ما تمت الإشارة إلى "التأثير الدلالى" لها، وإن كان هذا يتعلق فى زماننا بالانتصار (المزعوم) لـــــ

"الليبرالية" و"السوق الحرة" والمؤسسات الديمقراطية الليبرالية حول العالم، أكثر من غيرها؛ وهي فكرة صارت أقل قوة، بدرجة ملحوظة، فى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، مما كانت عليه عند نهاية القرن العشرين. لكن مفهوم التأثير الدلالي ينطوى على بعض الجدوى بالنسبة لأغراضنا هنا، عندما يطبق على حالات المقاومة والتمرد، وكذلك على الحالات الثورية. ورغم أن نايت لديه شكوك عميقة فى أمور الثورة (150nll :2001) فهو يوافق على أنه، فيما يخص كلاً من الديمقراطية والثورة، فهناك وجود لـ "الأثر الدلالى المعروف جيدا الذى يبدو أنه ينشر المحاكاة السياسية فى كل أنحاء أمريكا اللاتينية (وربما العالم)". وتبدو المعادلة بسيطة بما يكفى: ففى مكان أو أكثر يعرف أناس يتصورون أنهم مضطهدون بأن هناك أناسًا يمكن أن يتماهوا معهم سعوا إلى تغيير الشروط المادية والأيديولوجية لحيواتهم اليومية، وبتأثير الاستلهام فإنهم يسعون هم أيضا لإحداث تغيرات جوهرية وتحويلية مماثلة. ومرة أخرى فيجدر بنا أن نلاحظ أن من استلهموهم قد يكونون أسلافهم، أو معاصريهم، أو أناسًا فى أماكن أخرى، قد يكونون قريبين وقد يكونون، فى أحوال أخرى، بعيدين – لا يحتاج المرء إلى أن ينظر إلى أبعد من الحركة الصاخبة التى أحدثتها كوميونة باريس أو الأصداء العجيبة للثورة الكوبية.

ورغم أن مجاز العدوى غير مريح لما فيه من ظلال طبيعية وجبرية، وكذلك بسبب التصور المرتبط به باعتباره متجذرًا فى جاذبية عالمية (**Walt, 2000 : 38**) فهو يملك أصداء قوية. ويقرر سهرابى، دون مواربة، أن "التأثير المعدى للثورات لا يمكن إنكاره" (٤٥ : ٢٠٠٢) ويشير إلى التأثيرات الفورية للمحاكاة، مثل "الثورات الدستورية فى بدايات القرن العشرين" (روسيا ١٩٠٥، إيران من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٧ وإن كانت وصلت ذروتها يوم ٥ أغسطس ١٩٠٦، حين أصدر الشاه مظفر الدين الدستور، فى يوم ميلاده)، وهو ما يعتبره سايروس غانى نسخة

إيرانية من وثيقة الحقوق الأمريكية(*)، (الإمبراطورية العثمانية ١٩٠٨، المكسيك ١٩١٠، والصين ١٩١١) والتأثيرات الأوسع (مثل تلك التى تتصل بفقرة تقع بين قوسى الثورتين الأمريكية ١٧٧٦ والروسية ١٩١٧).[٢٩] وتطرح أرندت (٤٣ : ١٩٦٥) إطارًا أوسع للمحاكاة بقولها "إن هناك ثورة واحدة فحسب، هى ذاتها، وهى خالدة" فيما يمكن أن يصفه جيرار (١٠ : ١٩٩٦) من دون تقليل من شأن أى من الثورات بأنه "مماثلة استحواذية" إذ نفترض أن الثورات تستفيد كل واحدة منها من الأخريات وتنسخها.

وأيا كانت مشكلة المحاكاة، فإن الفائدة التى تتحصل من إدراك المدى الذى يمضى إليه الناس عند الاستفادة مما لديهم ومما لدى الآخرين هى فائدة أكبر من أن نتجاهلها. وكما يقول بنجامين (1999 d : 720) فإننا "يجب أن نفترض أن موهبة إنتاج المماثلات... وبالتالى موهبة إدراكها، قد غيرت مجرى التاريخ" وأكثر من ذلك فإن هويسين (٧٦ : ٢٠٠٠)، مستفيدًا من بنجامين، يزعم على نحو مقنع بأن "تعدد قيم المحاكاة" يعطيها مركزًا ممتازًا كمجال للنقاش حول ذلك النوع من الأمور الجمعية التى نعرض لها بالمناقشة، هنا، مثل الخرافة والذاكرة. ورغم أنى أميل إلى أن أستبدل "الطبقى" بـ "الثورى" فيما يتعلق بغينز (٩٢ : ١٩٩٩) فأنا حذر من المزاعم التى تقول بأن "عملية تنمية وعى طبقى تقوم على المحاكاة وهى غير طوعية" مع إدراك وجود عامل "غير واع" يؤثر على الوعى الذى نما سياسيًا، بالفعل. والمهم بالنسبة للحجج التى سقناها هنا هو تبيُّن ليس فقط النقطة التى يبدأ الناس عندها التفكير والتصرف كثوريين ولكن أيضًا تلك التى يبدءون عندها رواية الحكايا عن المقاومة، والتمرد، والثورة والإيمان بتلك الحكايا التى تضفى النبالة عليهم وعلى أفعالهم وتمضى بهم عبر العملية الثورية.

(*) وهو رأى نعده تأكيدًا لقوة المحاكاة ولعنصرى الذاكرة والخرافة الداخلين فى تكوينها – المترجم.

الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة: ثلاثة هو الرقم السحرى لفظ **Triune** المشتق من الثالوث **Trinity** هو لفظ يمكن أن يعنى ثلاثة أو واحدًا، فى آن معا. وبرغم أن الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة هى ثلاثة مظاهر أو عناصر متمايزة، ويستحق كل واحد منها ما يفوق الكتل الهائلة التى تولدت عنها من أدبيات وأبحاث، فالواقع هو أنها تشكل فيما بينها نوعًا من المثلث الحديدى الذى تستند إليه العملية التى يتحرك بها الناس نحو المقاومة، والتمرد، والثورة، وعبرها. وتتضافر ثلاثة عوامل لجعلها أكثر قوة وأكثر تأهيلاً لتأمين قاعدة تنشأ منها حكاية وليؤمن بها الناس ويروا أنفسهم جزءًا منها. وبداية، فالخرافة، والذاكرة، والمحاكاة تصبح جميعها أقوى وأشد نفوذًا عندما تتحرك أحلام الناس ورغائبهم لتصبح جمعية. وثانيًا، ففى الجمعية تكون هذه العناصر قادرة على أن تمتزج على نحو يجعل بعضها يقوى البعض الآخر، على نحو تبادلى. وثالثًا، فبعد أن تصبح العناصر عامة يمكن للناس عندئذ أن يكيفوها ويستخدموها بطرق عديدة ولأغراض عديدة: لتأكيد أراء سابقة كانت لديهم، ولإدارة العلاقات مع الآخرين، ولعقلنة خياراتهم، وليؤمنوا لأنفسهم الوسائل اللازمة لتنظيم دوافعهم (**Foley, 1993 : 231**). وتؤمّن الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة معا أساسا لإنشاء حكاية للمقاومة، والتمرد، والثورة وصيانتها. وهذا لا يعنى تجاهل العوامل البنيوية التى تساهم فى خلق الشروط وفى خلق السياق الذى تروى فيه الحكاية كما أن هذا لا يعنى أن نمجد التاريخ مكانته، وإن كان من الضرورى أن نشير، مرة أخرى، إلى ما قاله بيدكهاردت (٣٥ : ١٩٧٩) من أن "الصور التاريخية لدينا هى، فى الغالب، بنى خالصة... مجرد انعكاسات لذواتنا" والمواد التى ننشئ بها هذه البنى هى كتلة من بيانات شديدة الانتقائية تحمل خاتم النخبة / الدولة.

ومع المخاطرة بأن تؤخذ الأمور اغتصابا، إلى حد ما، فإن الخرافات فى منابرها العامة المتباينة (انظر **Cohen, 1992 : 83**)[٣٠] هى نوع خاص من الذاكرة الجمعية (**Barbosa, 2005 : 190**) ويؤمن كلاهما الأساس لملكة المحاكاة التى هى، مع بعدها عن مجرد التقليد (**Benjamin, 1999d: 720**) محل التمثيل، والاستكشاف،

والإمكانية. ويمكن أن تمتزج الخرافات الكبيرة والصغيرة مع الذكريات والمحاكاة – المعرفة بأن الآخرين غيروا أنفسهم وغيروا العالم – على نحو مبهج. وإن كان مربكًا أيضا، في تسلسل لا تعود فيه قيمة لقضايا التمييز بين الحقيقة والخيال، وقد تكون حقيقة الأمر، كما أشرنا في الفصل الثاني، أن الحقيقة لا يمكن العثور عليها إلا في الخيال.

وتزودنا الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة بوسيلة نستكشف بها بعض ومضات الأمل المعروفة أكثر من غيرها، نسبيا، والبارزة والتي تمت رعايتها وإنعاشها فيما كان الثوريون والراديكاليون يسعون إلى صنع الدنيا التي يرغبون فيها. وغالبية سكان العالم، في أي عصر من العصور، وحتى في القرن الحادي والعشرين، يقضون أيامهم غارقين في ضرورات الحياة اليومية وتعقيداتها التي نادرا ما تسمو على صراعات البقاء "المعتادة". والناس في حقيقتهم، المحكومة غالبا ليس بالشر أو بالظلام ولكن بدرجات متفاوتة من القمع والكبت، يجدون أنفسهم يعيشون في أزمنة وأمكنة اللون السائد فيها هو الرمادي. ومعظمهم يرغب فيما هو أفضل، لأنفسهم، ولجيرانهم، ولأطفالهم وأحفادهم، ويرغب في تمجيد الأسلاف (وربما في تجنب المصير الذي آلوا إليه). ومنحة كشف الغشاوة، التي تأتي في الأغلب الأعم في شكل، أيا كان الشخص أو المكان الذي جاءت منه، هي منحة مغرية على نحو لا يصدق. وفي أغلب الأحوال، فالحكايا لا تزودنا، فقط، بالسردية المريحة ذات البداية والوسط والنهاية والتي يبدو أنها تتناغم مع الكثير من الأزمنة والأمكنة لكنها تزودنا، أيضا، بـ "تفسيرات" أيا كانت معقوليتها، حول ما كانت عليه الأمور، وكيف وصلت إلى ما هي عليه الآن، وما يمكن عمله لتغيير الأحوال. وفرصته إعادة صياغة عالم المرء ومكانه فيه هي إمكانية مستحيلة. وما يحرك الناس باتجاه العملية الثورية، وفي حالات أكثر ندرة، عبر العمليات الثورية، هي صياغة حكاية آسرة عن الماضي تعطي إطارًا للصراعات الراهنة وتعد بمجيء عالم أفضل.

الفصل الرابع

"هبة الحواديت"

أربع حكايا عن الثورة

تصنع الثورات، قصديًا، بأيدى أناس يسعون بشكل واع إلى تغيير عالمهم وغالبًا عالم الآخرين. وهذا يقلب التصور الذى كان سائدًا فى أغلب الأحيان، عن الثورات: باعتبارها خارجة عن السيطرة، ولا يمكن وقفها، وغالبًا ما تكون من قوى الطبيعة العنيفة. وفى الإعلان الذى لا ينسى، الصادر عن راعية إلغاء الرق ويندبل فيلبيس، فإن الثورات لا تصنع، بل هى تأتى (SKOCPOL, 1979 : 17). ورغم الطبيعة القدرية لعبارة فيلبيس المحكمة فلا شك أنها نموذج مثالى على ما لا يزال قائمًا حتى الآن من شعارات وأقوال مأثورة تصبح جزءًا من حكاية نرويها. والناس حكاؤون. رواة لحياتهم وحياة الآخرين. وكذلك للعالم المحيط بهم، وبالتالى فهم صناع وناقلون للتاريخ وللعالم الذى يعيشون فيه. الناس يصنعون الثورات، والحكايا التى يدونونها هى التى تمكنهم من أن يفعلوا ذلك.

الناس يصنعون الثورات وإذا كانت هناك نتائج وظروف غير مرغوبة قد تكون سيطرتهم عليها محدودة أو مفقودة فإن الأمر يبقى تاريخهم "هم" الذين يسعون إلى "صنعه" ومن الواضح أنهم ليسوا الوحيدين الذين يسعون إلى صنع التاريخ: فهذا ما يفعله أيضًا أولئك الذين يعارضونهم، الذين يُفترض أن لديهم نية مضمرة لإحباط جهودهم والذين لا يُستغرب أن تكون لديهم حكايا خاصة بهم وسواء كان الأمر مقاومة أو تمردًا أو ثورة فساحة النضال بالنسبة لكل من يعنيهم الأمر هى الحكايا. فالحكايا كما سوف نوضح، بوسعها أن تتحاشى المصاعب الاقتصادية وأن تتجاوز الطقوس الاجتماعية – الثقافية، بل وأن تتغلب على القوة العسكرية. فصياغة حكايا قوية ومقنعة ومتميزة بخيوط مقصية وسرديات مؤثرة (ومساعدة على الإنفاق) وتمكينية (وقادرة على التجريد من كل إمكانية) يرسم حدود الإمكانات للدرجة التى يمكن تخيلها فى زمن ما، وتصبح الإمكانات واضحة

مع تتابع السياق؛ فالمطالبات بالتغيير عميقة، وأى تغيير سوف يكون فى الغالب مؤقتا إلى حد بعيد، بل وربما يكون لحظيا، وهذا الأمر أقل أهمية مما يبدو. فالأعمال التى قد توصف بالفشل، لحظة وقوعها، يمكن أن تكون مثمرة على المدى الطويل، سواء بالنسبة للتحول عند الأطراف، وهو الأمر الذى يبقى ذا مغزى لدى الكثيرين، أو بالنسبة لما تضيفه لمخزون الحكايا الثورية - التى يعبر عن فرضيتها الأساسية الشاملة وعن الوعد الجوهرى الذى ينطوى عليه الشعار المرتبط بالبرنامج السياسى الاجتماعى - الديمقراطى الراديكالى لدى مايكل مانلى فى جامايكا فى سبعينيات القرن العشرين: الأفضل لابد وأنه آت(١).

وإلى جانب آمال الناس وأحلامهم فإن أحد المكونات المهمة للقدرات الثورية لأى شعب من الشعوب هو تصوره لما يمكن تخيله وما هو بالتالى مجدٍ نظريًا. فهذه التصورات المترابطة تكمن فى كل من "أرشيف المشاعر" عند سفيتكوفيتش (2003) وفى "المتخيل" الثورى عند باركر (46 : 2003) وتؤمن التصورات، أساسًا، "حقائب العدة" عند سويدلر (273 : 1986) و"مخزونات الفعل الجمعى" عند تيللى (143 : 1978) وأكثر صياغاتها شيوعًا هى الحكايا. وأحيانا نشير إليها باعتبارها التاريخ (أو تاريخًا) وأحيانًا نصفها بأنها خرافة؛ وكما أوضحنا فيما سلف، فمن المحتوم أن تكون خلطة من الاثنين على نحو ما. ويحافظ الناس على هذا الكم من المعرفة كأمر خاص بهم (بغض النظر عن شطحات الذاكرة الفردية) وعلى نحو جماعى. وكما هو الحال مع الخرافة والذاكرة، فالأمر الحاسم هو جماع الموروث، المعرفة المشتركة. ولدى معظم المجتمعات حكايا عن المقاومة والتمرد والثورة يواجهون بها الحرمان أو القمع أو الطغيان وكثير من هذه الحكايا يحتفى بها فى الثقافة الشعبية. وعندما تكون الحركات قادرة على أن تبلغ بهذه الحكايا مرحلة التحقق فسوف تنفذ هذه الأنشطة، على الأرجح، وسوف تلقى تأييدًا شعبيا ولو لمرحلة من مراحل النضال؛ وأيا كانت درجة النجاح أو الفشل فسوف تكتب وتقرأ بوصفها أحدث الفصول فى الحكاية التى تتابع فصولها.

فالحكايا هى التى نقرر من تكون: إنها الأدوات التى نستخدمها لنخلق العالم، ونراه، وندبر أموره. وتظهر المقاومة والتمرد والثورة بمظهر الأمر الممكن عندما يحبك الناس حكايا آسرة تؤمن لأولئك التواقين إلى تغيير الظروف المادية والأيديولوجية للحياة اليومية التى يعيشونها بعقيدة مؤداها أن التحول ممكن وبالطاقة اللازمة لإنجازه، وفى بعض الحالات تؤمن حتى الإستراتيجيات والتكتيكات التى يمكن استخدامها. وفى الغالب الأعم فإنهم ينشئون حكاية مهيمنة وذات تأثير (أو يبعثونها من موات) وغالبًا ما تكون خليطًا أو سلسلة مُسكِرة من الأسماء (لأبطال وشهداء فى العادة) والتواريخ (التى يصفها كان نداء انفنتى وصفا ذكيا : 1994 (148 باعتبارها "ومضات غنائية"[٢]) والأماكن والتواريخ وحتى الوسائل والأساليب. وقد نسجت كلها فى نوع من سردية العمل[٣] وتقتطع هذه الكسرات من حكايات تحكى، من أغنيات تغنى، من أماكن أو أشياء يتم تصويرها ثم تخاط معها فى هدوء وثقة، بالتزام وإيمان وأحيانًا بعاطفة. وغالبًا ما يكون هناك ما يصعب الإمساك به: التعبير على وجه إنسان ما، النظرة فى عينيه، بل وحتى الإيماءات الخاطفة بالرأس أو باليدين أو التحول فى الهيئة: نغمة أو درجة من درجات صوت شخص ما، بارتفاع أو تهدج، خاصة عند الغرق فى حلم يقظة أو عند العجز عن التعبير عن شىء عميق ربما يتجاوز الكلمات، فى حالات ليس أقلها مواجهة المتطفلين. وعندما يعمل الناس معًا لينسجوا حكاية نافعة ويمكن استخدامها فهم يستفيدون من الماضى ويعيدون صياغته لتفسير الحاضر وتوقع المستقبل الذى يعتمد على نحو لا مفر منه على الحاضر وعلى الظروف الصعبة التى يواجهونها.

ونتيجة لذلك فإن هذه الحكايا تعكس اعتمادًا على الخرافة والذاكرة والمحاكاة – عن وعى أو عن غير وعى – ليوضحوا من يكونون وإلى أين يريدون أن يمضوا وكيف سيبلغون تلك الغاية.

وما نسعى إليه هنا هو التعرف على الحكايا الأولية للثورة وما يتصل بها من ظواهر، وخاصة المقاومة والتمرد. وليس هذا ادعاء بوجود حكايا كونية أو معولمة بطبيعتها. فكل حالة ثورية لها قراءتها حتى مع اشتراك كل حالة، في شيء ما وإن كان دقيقا، مع كل الحالات الأخرى. وعلى أقل تقدير فمن الممكن التعرف على الخطوط الإطارية العريضة، وعلى المظاهر الجوهرية في الفعل أو السلوك الجمعي؛ لتبين عمليات صنع القرار، وللنظر في الاعتبارات، أو على الأقل الخيارات المتصلة بالإستراتيجيات والتكتيكات. ويستحق هذا كله قدرا من الانتباه والعناية: الرغبة في تفسيرات تشريعية تنجح في الإجابة عن "كل" أسئلتنا، نوع من نظرية ميدانية موحدة هي في هذه الحالة تستهدف العمل الجمعي الراديكالي، هي رغبة عميقة. وبالوقت ذاته فإننا ولا شك نتوق إلى تقارير أحادية التوجه تعمّق هذه القوانين الشاملة وتدس أساسها.

وما لم يتحقق ذلك فسوف تستمر محاولات التوصل إلى العمق والاتساع وقد يكون أحد الأساليب المطروحة هو التعرف على الحكايا الأساسية للثورة التي يمكن تبينها عبر الزمان والمكان.

ما هي الحكايا التي تحكى وتعاد حكايتها، والأغنيات التي تغنى أو يهمهم بها أو يجرى عزفها؛ والأماكن والأشياء التي تعرض، بحذر أحيانا، وغالبا بتأكيد يشي بوعد وبإخلاص وأحيانا بانفعال؟ وهذا الأخير مراوغ. ولكن تحدث إلى شخص انخرط في أعمال المقاومة أو التمرد أو في عملية ثورية: وسوف يكون الانفعال ما ترى وتسمع وتشعر. كيف يتسنى للمرء أن يبوح لغريب أو لأحد المعارف أو حتى لصديق أو حبيب بأمر قد يكون مركبا وبسيطًا في آن؟ والإجابة غالبا ما تكون بمجرد اللجوء إلى السؤال المتكرر عما إذا كان للحكاية أي معنى، إن كانت واضحة، حتى وأنت تعلم أنها لن تكون كذلك أبدًا. وبمعنى حقيقي فيجب أن تكون

هناك؛ والحكايا هى أفضل ما نبذل من جهد لنمضى بمعنى لم يكونوا هناك إلى ذلك الزمان وذلك المكان.

وفيما يخص المقاومة والتمرد والثورة فإن الحكايا تلعب دورًا متعدد الوجوه. فهذه الأحداث والعمليات هى، فى آن معا، لهذه الثقافات، وبالتالى فإن الأصول التاريخية للمقاومة والتمرد والثورة وشبكاتها تستخدم لإنشاء الحكايا[٤]. ومن الممكن تركيب عديد من الحكايا الأساسية عن الثورة تغطى معظم النشاط الثورى.

وبعض هذه الحكايا هى فى جوهرها، حكايا نخبوية من أعلى تظهر فيها، فى الغالب الأعم، شخصيات مشهورة، وتحيل إلى عمليات ضخمة، وتتميز بأحداث كبيرة، بل وملحمية؛ وليس أمرًا غير معتاد بالنسبة لمن يدونونها أن يحاولوا جعل الأمور والأشخاص الذين تتناولهم الحكايا "مناسبين" لها. والحكايا الأخرى هى حكايا أكثر شعبية تصعد من أسفل، وغالبًا ما تكون حكايا "أصغر" تدور حول شخصيات كلية أقل شهرة، أو إذا كانت مشهورة فهى شخصيات يقرأ الناس عنها باعتبارها شخصيات شعبية أكثر مما هى نخبوية؛ وفى حالات أقل شيوعا تذكر العمليات أو يجرى التعرف عليها بهذه الصفة، وغالبًا ما يضفى مغزى خطير على الأحداث الصغيرة.

وكما أوضحنا فى الفصل الأول فالمسألة هى كيف تجد العناصر المتنافرة بالإمكانية، مثل الآمال والأحلام والرغبات؛ والغضب وأشكال السخط والشعور بالمهانة؛ والالتزامات والمخاوف والأهواء، أرضًا مشتركة وتصبح فى مجموعها شيئًا يفوق أى عنصر منها فى ذاته. كيف تستثار الخيالات الثورية لدى الناس خالقة بذلك حالات ثورية؟ ومرة أخرى، وكما جرى منذ بدأ الناس يدونون الحكايا، فإن الحكايا تبدأ كرحلة تمضى من المستحيل إلى الممكن إلى المحبذ إلى المحتمل. أما كيف تتكشف كل هذه التفاصيل ولماذا وأين ومتى فهذا يبقى بمثابة تحد. وعلى امتداد العملية الثورية فهناك، طوال الطريق، حكايا التطلع والإلهام والحكمة التى

تساعد الناس على شق طريقهم، وربما كان الحال أن معظم هذه الحكايا لا ينتهي نهاية طيبة. فغالبا ما تنزل الهزيمة بـ "الشعب" بسبب أو لآخر، ولا يستبعد أبدًا أن يكون الشعب نفسه هو سبب الهزيمة التي تحيق به. وبالطبع فإن الذين على الجانب الآخر يحشدون الحكايا أو الحكايا المضادة إن شئت، بالملامح ذاتها أو بملامح تشبهها في بعض الأحيان. العالم حافل بالحكايا؛ وفي حين أن الحكايا قد تدعو إلى الحذر والتحوط، فحيثما وجدت الحكايا فهناك أمل وهناك إمكانات.

فبأي الوسائل الغامضة يمضي الناس نحو العمليات الثورية وينخرطون فيها عبر كل المراحل وبوجه الصعاب المخيفة والاحتمالات التي تبعث على الجزع؟ الإجابة "المألوفة" على هذا التساؤل، مع أخذ أولئك الذين لديهم قدر من العداء للعمليات الثورية بعيني الاعتبار، تشير إلى قدر قليل نسبيًا من الغموض وإلى قدر معقول من وضع النموذج والعملية: مجموعة من الثوريين بـ " قيادة" موحدة – غالبا ما تصور بصورة الحزب الطليعي، على نحو ما – تحشد جمهورًا من الأتباع ثم تقوده (وغالبًا ما يوصف هذا الجمهور بأنه "الكتل الشعبية" من قبل الثوريين أو خصومهم) ضد النخب المحدودة وحلفائها الأجانب الذين هم سبب تعاسة هذا الجمهور؛ وتصور الطبقة المتوسطة، في حدود وجودها الفعلي، بصورة من وقع في نقطة تقاطع النيران.

وفي تلك الحالات النادرة التي يتم فيها الاستيلاء على السلطة، فإن الثوريين يقيمون الدولة والمجتمع من جديد على أسس مادية وأيديولوجية جديدة فيسعد عدد كاف من الناس بأن العملية [الثورية] مستمرة؛ فإن فشلوا في خلق هذا الشعور فقد يبادرون إلى قمعهم. وهذه السردية، بغض النظر عن وقتها، هي قصة الثورة التي انتهينا إلى صياغتها في الغالب، بغض النظر عن الظروف، والتي فرضنا على كل الحالات أن تندرج تحت إطارها.

ولا توجد حكاية كافية بذاتها أو لذاتها. لكن الحكايا هى سبب قيام الثورات. فالحكايا لها موقع مركزى فى كل هذه العمليات؛ ليست العامل الوحيد، ولكن بدونها لا وجود لمقاومة أو تمرد أو ثورة.

وهكذا فقد يرى الناس فى نيكاراغوا ١٩٦٩ صورة أخرى من كوبا ١٩٥٩ وهذه الأخيرة قد تقرأ باعتبارها روسيا ١٩١٧ التى شاعت قراءتها من قبل الكثيرين باعتبارها إعادة وتطويرًا لفرنسا ١٦٨٩ – وبالحقيقة فهذه هى حكاية الثورة الاجتماعية المألوفة للغاية لدى الكثيرين منا (كما أوضحنا فى الفصل السادس): نضالات ملحمية من أجل روح الشعب تميزها محاولات إحداث تحول جوهرى فى ظروفه المادية والأيديولوجية. لكن هذا القول يخفى بقدر ما يكشف ويمكن أن يكون مضللاً على نحو سيئ. ومن الواضح أنه من المفيد تصور الثورة فى نيكاراغوا باعتبارها منحدرة من الثورة الفرنسية التى سبقتها بحوالى قرنين؛ فهذا يؤمن سياقًا، ويشير إلى الأطراف التى يكون انخراطها مرجحًا، ويوحى بالأسباب والنتائج كما يوحى بالمصالح والغايات، ويبرز القضايا والديناميات الفاعلة، ولكن هذا لا يقف عن تجاهل مسائل الوقت والمكان والثقافة بل ويمضى إلى تجاهل التحول المحتوم أن يقع مع تتابع الأجيال.

وبغض النظر عن أمور البث والترجمة فإن الثورة الكوبية فى ١٩٥٩ الأقرب إلى زماننا والتى جرى تقليدها بدرجة من القصدية، لا تندرج فى النموذج بسهولة لأنها برزت للوجود فى وقت كان "الطريق الثالث" لا زال يبدو ممكنًا للكثيرين فى عالم عدم الانحياز "بقاراته الثلاث"[٥] ولا نقصد بهذا أن مقارنات من هذا النوع قد لا تكون مفيدة أو مميزة لأى ثورة باعتبارها نسيجا وحدها، لكن ما يتعين أن نبقيه نصب أعيننا أنه حتى عندما يتيسر التعرف على الحكايا المشتركة فإن كل حالة تبقى حكاية فى ذاتها، حتى عندما تمثل إضافة للمخزون الفنى من الحكايا الثورية.

مشكلة الحكايا المستعادة: بعض الدفوع

برغم تكرار الإشارة إلى المقاومة والتمرد والثورة باعتبارها نوعا من الثالوث (المقدس) فهى ليست سواء، وغالبا ما يكون العجز عن التمييز بينها مفيدا. وقد بذل الكثير من الوقت والجهد فى محاولة تقرير أوجه الاختلاف بينها (انظر الفصل ١) وبرغم وجود أوجه تماثل – مثل تتابع السلوكيات الجمعية – فلا المقاومة ولا التمرد ثوريان بالضرورة، كما أن حكاياهما تختلف اختلافا جوهريا. وعلى سبيل التعميم، فحكايا المقاومة تكون عادة أدنى مستوى (وإن بلغت النطاق الملحمى، أحيانا) ومحلية وتستخدم "أسلحة الضعفاء": (scott, 198) فى حين أن حكايا التمرد تميل إلى أن تكون ضيقة النطاق وتركز على إساءات بعينها وعرضة لأن تنتهى نهاية سيئة – فغالبا ما تضيع المكاسب ويتعين النضال مجددا من أجلها. وإضافة إلى ما قلنا، فكلا النوعين من الحكايا، وكما سنبين فى الفصول اللاحقة، يمكن أن يساهم فى خلق البيئة الثورية ويفعل ذلك حقا، بإشعال المخيلة الثورية، وتأجيج العواطف الثورية وتكثيف الظرف الثورى لدرجة أن الثورة لا تبدو ممكنة فحسب، بل ومحتومة.

وليس تأسيس هذه الحتمية بالمهمة الهينة بالنظر إلى أن الحكايا ينظر إليها فى الغالب الأعم باعتبارها محافظة إلى حد كبير. فمجرد الوقت والجهد اللذين يضيعان فى الاستظهار قد يعطلان الخيال ويعطلان النظر فى إمكانيات أخرى. وفوق ذلك فلابد من تذكر أن معظم القصص الخيالى هو بطبيعته تقليدى ومصمم بهدف تزويد الأطفال بالنصائح التحذيرية وفرض السلوكيات المقررة. لكن العنصر ذا الطابع التخريبى الكامن فى كل الحكايا لا يصعب تبينه: فالكبار ليسوا فى الغالب أكثر من حمقى وهم فى أسوأ الحالات قتلة كذابون؛ وقليلا ما تكون حقيقة الأشياء مطابقة لظاهرها، فى هذا العالم، ولا يستطيع أن يدرك حقيقة ما يجرى إلا الخاصة أو

المتعلمون. فهناك، إذن، حكايا، وهناك حكايا داخل الحكايا. ويتوقف الكثير على من يحكى الرواية، وعلى الظروف التى تحكى فيها، والخبرة الحياتية للمستمع.

وغالبًا ما صورت الثورة، تاريخيًا، بصورة نوبة من العنف أو انفجارات للعواطف المنفلتة التى يؤججها، فى بعض الأحيان، متآمرون غير قادرين على السيطرة على الحشود التى هيجوها والتى من المحتم، فى إطار ما يبدو مسرحية وعظية ذات قناع شفاف، أن تدمر كل ما هو طيب وراق؛ بما يماثل وباء مدمرا أو كارثة طبيعية مخيفة. وهذا فى جوهره هو منظور "النار فى عقول الرجال"[٦] ومن الغباء أن نشير إلى أن النار قد لا تكون شرطًا ضروريًا للاحتراق: وفى إطار المسائل الثورية فقد يفيد استخدامها للتوضيح، وقد تفيد فى الوصف، أكثر مما تفيد كدليل إرشادى. ولا شك أنه فى أى عملية ثورية يحدث الكثير من العنف (يكون أعداء الثورة مصدر الكثير منه) وليس أمرًا نادر الحدوث أن يحدث المزيد من العنف فى أعقاب الانتصار السياسى. لكن نادرًا ما يكون العنف لذات العنف فى العمليات الثورية، نادرا يحدث الخوض الراديكالى فى الدماء لكن الأمر لا يخلو من تطرف.

وليس هذا بالأمر المدهش فى زمن التحول الدراماتيكى والإمكانات الدراماتيكية. وغالبًا ما يكون حماس الناس محسوسًا، شيئًا يتذكرونه ويتحدثون عنه لعدة أجيال، ومن المؤكد أن حماسهم تنطق به أفعالهم، وأن سخونة رواياتهم أمر ظاهر. كما أنه من الأمور المضللة إلى أبعد مدى تجاهل تعقيدات البشر فى عالمنا عند الإشارة إلى "سخونة اللحظة" التى تمضى إلى الدمار (وهذا الأمر "يدعو للأسف" حتما). واعتبار الثورة "نارًا" هو أمر مضلل أكثر مما هو مضىء؛ فهذا الأمر لا يتعلق بالفورات أو الانتفاضات أو المؤامرات الصغيرة من ثوريين شبه محترفين يبثون أيديولوجيات علمانية سرية (تم تحويلها إلى عقيدة ثورية) لتحل محل الأديان المضيَّعة. وبرغم ظهور الجماهير التى تأججت مشاعرها واللحظات المحتدمة فى مراحل مبكرة وفى أغلب الروايات الكثيرة التى تتألف منها الحكايا هنا، فهى لا تعدو كونها جزءًا من الحكاية.

ولابد أن فرضيتنا أصبحت الآن واضحة: الثورات ليست شيئًا يحدث تلقائيًا، وإن كانت الفكرة رومانسية ودراماتيكية، لكنها أمور قصدية يأتي بها أناس يسعون عامدين إلى تغيير العالم - وإن كان من المحتم أن يسفر ذلك عن نتائج ليس من المحتمل أن يتخيلها أحدهم وتحت ظروف لا سيطرة لهم عليها والأداة الأولية لذلك صوغ حكايا آسرة ذات حبكات جذابة وقادرة على التمكين. وهذه الجهود لا يقلل من أهميتها أنها ظرفية وسريعة الزوال والفشل - أى العجز عن إدراك الأهداف المرجوة هو القاعدة -، لكن التغيير يحدث؛ والأكثر أهمية أنها تضيف إلى ذلك التراث الذى سبقت الإشارة إليه، إلى مخزون الروايات الثورية.

وكما هو الحال فى حيوات الكثيرين فى معظم أنحاء العالم فلا يضيع إلا القليل. فالنجاح والفشل وكثير مما هو بينهما يصبح كله جزءًا من التراث الثورى. والمكون المهم فى القدرة الثورية هو تصور الناس للخيارات المتاحة. ورصيد المعرفة الذى يكنزونه على نحو جمعى هو أساس ما يمكن تخيله وما هو بالتالى ممكن: "حقائب العدة" من الرموز والحكايا والطقوس والرؤى التى تصور العالم، والتى تؤمن موارد لإنشاء إستراتيجيات العمل **(Swindler, 1986; 273)** و"مخزونات العمل الجمعى" **(Tilly, 1978: 143)** وفى الثقافات المتنوعة للمجتمعات كافة يتعلم الناس من مصادر متباينة كيف يعيشون ويحبون ويشترون ويتكلمون ويصغون؛ أى يتعلمون من يكونون وأين يكونون. وفى المجتمعات التى تعتبر الثورة استجابة صحيحة للقمع - بفضل تاريخ من أنشطة التمرد محتفى به فى الثقافة الشعبية، أو بفضل قادة ثوريين وظفوا موروثًا كهذا فى الثقافة المحلية - يكون من الأرجح انطلاق أنشطة ثورية وحصولها على مساندة شعبية واسعة وبلوغها نهايتها بنجاح.

من يروى الحكايا ومن ينصت إليها؟

كيف يمكن أن تبعث الحياة فى حكايا كهذه وبواسطة من؟ لننظر فى مثال سهل وإن كان مثيرًا للخيال. ففى 1958 فى غضون النضال الثورى فى كوبا عندما كانت الأمور لا زالت غير محسومة، اتخذ فيديل كاسترو، رأس الحركة الثورية الرئيسية، قرارًا خطيرًا قصد به الاستفادة من حكاية من حرب الاستقلال فى ١٨٩٥ التى يعتبر الثوريون المعاصرون أنهم ورثتها. ففى التراث الكوبى أن اثنين من أعظم أبطال النضال الوطنى وهما أنطونيو ماسيو والجنرال ماكسيمو جوميز، ربما بطلب من أعظم الأبطال الوطنيين الكوبيين خوزيه مارتى، أشعلا النار فى حقول قصب السكر المربحة فى الجزيرة كإشارة إلى التزام الشعب الكوبى وإلى التحدى والاستعداد للتضحية بكل شىء لديهم من أجل استقلالهم عن إسبانيا. وبعد ذلك بحوالى ستين عاما، وفى مواجهة نقطة حرجة فى النضال ومع الرغبة القوية فى استعادة روح النضال الكوبى من أجل الاستقلال وفى إلهاب الخيال الشعبى جمع كاسترو، بمهارة، بين اثنين من أكثر أعوانه تمتعا بالكاريزما، وهما تشى غيفارا وكاميلو سينفويغوس وجعلهما يكرران ما صار يعرف باسم "مسيرة الحرائق الشهيرة" فى ١٨٩٥ أيام حرب الاستقلال عندما أشعل المتمردون النار فى حقول قصب السكر. وثبت أنها كانت ضربة تكتيكية ذكية نجحت على عدة مستويات: عسكريًا وسيكولوجيا وثقافيًا.

وليس من الضرورى توفر قيمة ثورية لكى يكون للأفعال مغزى، رغم أن ما يعد ثوريًا فى مجتمع ما أو فى ثقافة ما يمكن أن يتنوع إلى حد بعيد. ففى كل ثقافة حكايا أسطورية يتردد صداها عبر الزمن مع أشخاص مختلفين يعيشون ظروفًا مختلفة. ورغم أن التفاصيل قد تتباين فهذه الحكايا تتوقف، فى كل الحالات، على المثل التى ذكرت إبان مناقشتنا للخرافة: وهى بالتحديد العدالة والحرية

والمساواة والديمقراطية والفرص والحرية. وهذه المثل والجنوح إلى المثالية تكون لها قوتها وهيمنتها فى عالم لا تعكس حياة الناس فيه إلا القليل من المثل. ورغم تباين مستويات ومجالات الحكايا، تباينًا كبيرًا، فمن المحتم أن ينطوى السعى إلى هذه المثل على احتمالات المواجهة وما يرتبط بها من معاناة، ويكون النضال شاقًا وغالبًا ما يكون شديد الوطأة وإن تناوبت عليه فترات التراخى بل وقد يشوبه الملل، وقد يكون الصبر مهمًا وحاسمًا، فى بعض الأحيان. وليس كل من فى هذه الحكايا يمضى إلى نهاية الطريق. والهزائم والنكسات تجعل الحصاد حلوًا – مرًا.

لكن القوة والوعد اللذين تنطوى عليهما الحكايا هائلان. ويمكن للارتباط بهما أو التبنى العلنى لهما فى بعض الأحيان، أن يكون حاسمًا لمن يسعون وراء التحول الاجتماعى. تأمل، على سبيل المثال، حكاية الخروج فى التوراة العبرانية. وهى التى مثلت نقطة مرجعية للثوريين والمتمردين. وليس فقط فى ثورات العبيد – بل وفى كل مكان اقتحمته المسيحية. الخطوط الأساسية فى الحكاية مألوفة ونحن، إلى حد كبير، عالمون بما تنطوى عليه الحكاية من دلالات: ملك شرير، شعب "ضائع" ومعذب، بعض القادة الشجعان، أحدهم على الأقل تحركه رؤيا ولكنه قد ينجح فى أن يصحب الأتباع إلى أرض اللبن والعسل الموعودة، أزمة إيمانية فى لحظة حرجة، الدعوة إلى أن "لا ننسى أبدًا" وإلى أن نروى الحكاية حتى يفهم الآخرون ويعلموا وينخرطوا فى النضال الخاص بهم[٨] ورغم أنه من المحبذ أن نقرأ قصة الخروج باعتبارها قصة تحرير، بالأساس، حيث تلعب قوة خارجية، وليس قوة الناس أنفسهم. الدور الحاسم فبالتأكيد أنها ليست مصادفة أن الثوريين فى أمكنة وأزمنة متباينة طرحوا أنفسهم باعتبارهم الإسرائيليين المعاصرين فى نضالهم ضد أحدث تجسدات الفرعون. وبالتأكيد فإن العناصر الرئيسية فى الحبكة من المرجح أن تكون حاضرة أو يسهل ربطها بالصراع محل البحث.

فالناس يصوغون حكاياهم وهذه تؤدى وظيفتها بتعيين أماكنهم بل وبتعيين ما هو ممكن. وهكذا فإن قادة العمليات الثورية يبادرون قصدا إلى إنشاء سرديات تقوم على جوانب من حكايا يمكن أن تؤكد الرابطة بين المغربيين المحلى والعالمى. وقدرتهم على صوغ حكايا آسرة لها دور حاسم فى نجاح مشروعهم الثورى. والإحالة إلى حكايا نضالات سابقة (كنضال كاسترو فى كوبا، أو الساند نيستا فى نيكاراجوا أو الزاباتيستا المعاصرين فى المكسيك) أو إلى الثقافة التقليدية (الاشتراكية الأفريقية فى ستينيات القرن العشرين) أو إلى السرديات الوطنية (وأحدثها "الثورات الملونة" فى أوروبا الشرقية) تمنح القادة وتابعيهم سياقا مألوفا.

والقيادة حاسمة، وإن كانت قيمتها يبالغ فيها أحيانا كعنصر من العناصر، لكن لا غنى عنها (Foran et al، يصدر قريبا. الفصل السادس). لكن القادة لا يصوغون الحكايا التى يسعون إلى تبنيها أو إلى تكييفها بما يلائم جمهورا سلبيا؛ وكما يلاحظ فرايرى فإن "الحوار مع الناس أمر ضرورى على نحو جذرى بالنسبة لكل ثورة أصيلة" (1970 : 122) والأصالة قضية نوقشت فيما سبق، وبأكبر درجة من المباشرة فى الفصل الثانى؛ ويكفى أن نقول هنا إن أصالة أى عملية ثورية يجب أن تعتمد على تقديرات أولئك الموجودين فى مركزها. والأمر البالغ الأهمية هو الطبيعة الجدلية العميقة للعلاقة بين "القادة" و"التابعين" فليس بوسع أى من الفريقين أن ينجح (أو حتى يواصل جهوده) بدون الآخر. ويتعين أن يكون كل من القادة والتابعين مشاركين بنشاط من أجل إحداث التغيير.

ورغم أن القيادة حاسمة وضرورية فهى ليست ضمانا للمقاومة أو التمرد أو الثورة؛ فبدون مشاركة أولئك الذين يعمل القادة باسمهم فإن العمل الذى له مغزى يصبح مستحيلاً كما أن النشاط الثورى سوف يسفر عن ظهور "حلقات صغيرة"[٩]. فإذا وصل الثوريون الذين لم ينخرطوا فى حوار مع الناس إلى سُدّة السلطة فكل ما سيحدث هو أنهم سوف يكونون تقليدا للظروف القمعية ذاتها التى

حاربوا ضدها، ليس هذا فحسب بل سيكون من المحتم أن يصبحوا مجرد فصل آخر (وربما مجرد فقرة أو حتى هامش) فى الحكايا الشعبية. وبدلاً من أن يكونوا محررين وأصحاب رؤى كما يدعون وملتزمين بتحسين حياة الناس، فإنهم يجدون قادة قمعيين، كدورة قاسية أخرى من دورات الحياة التى شهد الناس كثيرا منها. ونتيجة لذلك فمن الضرورى أن يجد الثوريون حكاية يمكن أن يتبنوها.

وقد يستجيب الناس بالتالى لهذه الحكايا أو لا يستجيبون وغالبًا ما يبدأ الناس كتابة رواياتهم الخاصة أو يتبنون سردية الثوريين باعتبارها سرديتهم وللناس دائمًا حكاياهم، سردياتهم؛ وإما أن يجد الثوريون أو عناصر الثورة المضادة التى تعارضهم طريقة للتواؤم مع هذه السرديات أو لا يجدون. وعندما ينجحون يكون الأرجح هو صوغ حالة ثورية من خيالات ومشاعر الناس؛ وفى بعض الحالات ينتصرون، الثورة لا يصنعها الثوريون من أجل الناس لكنها، من ناحية أخرى، لا يمكن أن تحدث بدون الناس. ويجب أن يحدث التواصل بين الطرفين، والحكايا هى المفتاح. وتعيد الحكايا فى تجلياتها الوفيرة صياغة التاريخ والذاكرة الشعبيين والشخصيين. وبمعنى ما فإن الثورات هى شبكات هائلة ذات عدد لا يحصى من المداخل والمخارج والنقاط المتعددة للتنظيم الاجتماعى – السياسى والثقافى.

وهكذا فإن الثورات يحكم عليها على أساس علاقة الجماهير بالثوريين، كعلاقة تبادلية، وربما علاقة الطرفين بالعملية الثورية ذاتها. وإذا كان هوبزبوم (21 : 1986) محقًا فى أن "الثورات العظمى" كثورة فرنسا 1789 وروسيا ١٩١٧، والصين ١٩٤٩، تتحدد ليس بالاستيلاء على سلطة الدولة ولكن بخلق توجه جديد للمجتمع فإن ما تؤول إليه حكاية الثورة هو أمر مهم على وجه التأكيد. فالثورة غير القادرة على أن تؤسس حكاية واضحة وآسرة ليس من المرجح أن تضاف إلى القائمة.

الرومانسية الثورية والتراث الثورى

فى خطابه فى يوم الاستقلال أعلن الرئيس الأندونيسى سوكارنو وهو شخصية رئيسية فى حركة استقلال البلاد وثورى من نسيج وحده:

إنى أنتمى إلى جماعة من الناس يربط بينهم الحنين الروحى إلى رومانسية الثورة التى ألهمتنى، التى سحرتنى، التى هيمنت علىّ تمامًا، التى بعثت فى الجنون. فأنا مهووس برومانسية الثورة. ولهذا فأنا أنطق بالشكر للإله الذى يهيمن على الطبيعة كلها (1970)[١٠].

وتنتمى "رومانسية الثورة" هذه إلى تراث يبدو أنه خارج الزمن. ويبدأ معظم المناقشات الحديثة حول الثورة بفترة ما بعد التنوير، وعادة بثورة فرنسا ١٧٨٩، التى تصوّر فى الغالب على أنها نهاية "النظام القديم" وبداية الجديد[١١]. ورغم ذلك فقد ظهرت حركات يمكن التعرف عليها وإدراك مغزاها من المقاومة والتمرد وحتى الثورة قبل ١٧٨٩ بآلاف السنين – ورغم أنه من الواجب أن نلزم الحذر ونحن نعيد كتابة ثورة العبيد سبارتاكوس، وحكاية الخروج فى التوراة، أو أى تشكيلة من الثورات المحلية والمتأخرة فى الأمريكتين باعتبارها ثورات معاصرة، فسوف يكون من الخطأ تجاهل العنصر الثورى فى قصص من هذا النوع، أو الرومانسية التى تنبعث منها أو درجة إلهامها للآخرين.

فالرومانسية الثورية مركبة، وفى أفضل الحالات حقيبة مكدسة بالأخلاط. وقد اندفع كثير من الناس إلى العمليات الثورية بقوة الغواية المثالية، وعلى هذا النحو مات الكثيرون أيضًا وأصيب عدد أكبر بخيبة الأمل والفتور. ويجب أن نتوقع ذلك: إذ كيف يمكن للأحداث فى العالم الحقيقى، للممارسة الفعلية القائمة للمقاومة أو التمرد أو الثورة أن توافق خيالاتنا والحكايات التى تحكى؟ ورغم ذلك

فلكى تبدأ الثورة، ولكى تتجمع الآمال والأحلام عند نقطة انطلاق يجب أن يكـــون هناك عاطفة والتزام؛ يجب أن تتوفر درجة من الرومانسية التى تستولى على قلوب الناس وعقولهم.

وبرغم هذه الانتقادات فإن رومانسية الكفاح المسلح وما يصحبها من تقـــديس الدماء التى أريقت وتمجيد الأبطال والشهداء ليست ألعابا يمارســـها المترفـــون مـــن "الرومانسيين وعلماء السياسة الغربيين" كما قال غيرتس (22 : 2000) عن أندونيـــسيا، أو من "المثقفين الأمريكيين الشماليين اليساريين" بالنسبة لـــ "العمليـــات الاجتماعيـــة العنيفة جنوبى الحـــدود" التى يشير إليهـــا ســـانشيزا ليرا وفيللاريـــل (223 : 1995) أو من الشباب المسحورين بالثورة ممن يشار إليهم عادة باعتبارهم ســـذجا وحمقـــى. فالكوبيون الذين لم يعودوا مبهورين بنتائج العملية الثورية يبقون فخورين بما فعلـــوا وبالأسباب التى دفعتهم لذلك الفعل، ويستعيدون الحكاية الرومانسية للباربودوس؛ وما زال أهل نيكاراغوا يهيجهم الشعر عند ذكر المقاتلين الشعبيين الأبطال فـــى الـــتلال والمناطق الفلاحية فى الريف التى أمدتهم بالحياة (رغم أن فقراء المـــدن كـــان لهـــم نصيب وافر فى القتال والموت Massey 1987 : 20 – 21) وحتى فى روســـيا فمـــن الممكن أن تجد بين أولئك الذين تجاوزتهم الأحداث من يتأسفون على ما كـــان مـــن طموح وعظمة ثوريين، وأيا كانت الصعاب والعذابات ففى العملية درجة من الدراما ومن الإثارة، والخوف الذى يندر حدوثه، وهى باعثة على النشوة بل وأسطورية.

ويروج كثير من هذه الأمور بالتركيز على الأفراد، على الثـــوريين الـــذين يصورون بصورة الأبطال الرومانسيين وكما يشير ألمون (19 : 1996) فإن "حكايا الشجاعة الفردية تميل إلى أن تكون ملهمة بدرجة أكبر من المثل المجردة.. فالناس الذين لديهم إيمان عميق بشىء ما جذابون فى الغالب – حتى إذا كانـــت معتقـــداتهم غير متسقة مع معتقداتنا" أضف إلى ذلك مصائدهم التى غالبا ما تكـــون مأســـاوية

وستجد لديك أبطالاً يعيشون حياة سريعة ويموتون قبل أوانهم(*) تاركين وراءهم حكاية جميلة – شهداء قضية. اكتسبوا طابع النبالة عن التضحية بالذات وأحبتهم الآلهة التى أخذتهم، وأحبهم أولئك الذين تركوهم وراءهم.

وقد كان الإيطالى جوسيبى غاريبالدى واحدًا من أوائل الثوريين الرومانسيين العظام؛ حارب من أجل توحيد إيطاليا، من أجل استقلال البرازيل وأوروغواى، ثم عاد ليحارب فى عديد من ثورات ١٨٤٨ فى الأقاليم التى تأتّى لها أن تتحد بعد ذلك فيما أصبح إيطاليا؛ وهو نضال شارك فيه بقية حياته – كان تشى غيفارا القرن التاسع عشر. وقدمت الثورة المكسيكية واحدًا من أكثر شخصيات القرن العشرين القادرة على البقاء، من هذا النمط، وهو إيميليانو زاباتا، الراديكالى الزراعى الذى أعلن أنه "أفضل للمرء أن يموت واقفًا من أن يعيش جاثيًا (ربما جاء هذا القول كاستعارة من أقوال أخ فى الاستشهاد الثورى هو براخيديس غوبريرو؛ انظر: Albro 1996) وعلى الطرف الآخر للقرن العشرين سعى جيش المكسيك الزاباتيستى للتحرر الوطنى (EZLN) عامدًا إلى استعارة رومانسية الثورة عبر اسمهم ذاته الذى أحدث صدى عالميا، وما من أحد يجسد الشخصية الثورية الرومانسية مثل الطبيب الأرجنتينى والثورى الكوبى تشى غيفارا. فقد كان تشى "المغامر الرومانسى روبين هود الأحمر، الدون كيشوت الشيوعى، غاريبالدى الجديد، سان جوست الماركسى، السيّد كمبيادور لمعذبى الأرض، سير غالاهاد الشحاذين، المسيح العلمانى، السان أرنستو دى لا هيغويرا الذى بجّله الفلاحون البوليفيون" (Lowy 1973 : 7) فإذا كان تشى هو التجسد المقدس للرومانسى الثورى(١٢) فإن إعلانه الملهم أن "الثورى الحقيقى يقوده شعور عميق بالحب" (1967 a: 136) قد يبدو أساس الرومانسية الثورية(١٣).

(*) إشارة إلى الشعار الذى راج فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى وتجسد فى حياة وموت النجم الهوليوودى جيمس دين: عش سريعا ومت صغيرا – المترجم.

وتعزز كل لمحة من هذه اللمحات فكـــرة أن الثـــورات عمليـــات حكائيـــة، وبالتالى فهناك حكاية تحكى عن الثورة، تراث ثورى وبرغم ما يبدو فى الـــصياغة من إرداف خلفى، فهناك تراث للثورة يحفل بالحكايا، كثير منها غير محتمـــل فـــى أحسن الحالات. وفى حالات أخرى قد يبدو مستحيلا – وإن كانت هذه الاســـتحالة ذاتها قد تنطوى على بذور الإمكانية أو "بعث الآمال"(١٤). وكما أشرنا من قبل، فإن تجليات تشى فى مواقع عديدة بعد فترة من وفاته فى ١٩٦٧ ساعدت أناســـا علـــى الشعور بأنه جزء من نضال أكبر. ورغم أن الوطنى الفيتنامى الشاب نغويين تـــات ثانه، الذى عرف فيما بعد باسم هوتشى منه لم يقترب، فيما يبدو، مـــن الأوســـاط الرسمية الأمريكية إلا فى حدود مطالبته لفيتنام بتقرير المصير وهو طلب وصـــل إلى يدى كبير المساعدين للرئيس وودرو ويلسون الكولونيل هـــاوس فـــى مـــؤتمر فرساى فى ١٩١٩، فإن حكايا عن لقائه مع ويلسون (أو فرانكلين روزفلت الـــذى كان أياميا مساعدا شابا لوزير البحرية) ومناقشاته حول الاستقلال، كما جـــاء فـــى طلبه الرسمى (Diker 2001 : 59 – 60) فى نيويورك وبوسطن ولنـــدن وبـــاريس، وهى حكايا عن اجتماعاته المفترضة مع هؤلاء تقرأ كدليل على الإيمان والالتـــزام بالنضال. وسواء كانت الحكايا حقيقية أم لا، فالمهم هو فحواهـــا ومـــساهمتها فـــى التراث الغنى، تراث الثورة.

ويشيع الربط بين "التراث" وبين المحافظة على الوضع القائم والحنين إلـــى أزمنة سابقة تكون أكثر محافظة، على العموم – وهذا ما يصعب أن يكـــون مـــادة للثورة لكن برغم ما يسميه شيلز (2 : 2006) ميلنا إلى "التحول الشامل" فهو يشير فى حذق إلى أننا نبذل قصارى الجهد للعيش فى تناغم مـــع "المؤســـسات قديمـــة العهد... التى ورثت ضوابطها من ماض عتيق... كتراث تناقلته أجيـــال عديـــدة" وللاقتداء بها. وقد كانت نهاية "التقليدية" وبزوغ التقدمية جزءا مما مثلتـــه الثـــورة الفرنسية (Shills 2006 : 12) ولا زلنا ننقلها لمن يلى، وهذه لا تكاد تكـــون ســـوى "أفعال مجسدة بعينها" وتتوقف عن كونها موجودة بمجرد أدائها، لأنها أكثر الأشياء قدرة على التلاشى (Shills 2006 : 12).

ولكن حتى ونحن نربط بين التراث والمحافظة والثبات بل والقصور الذاتي، فالحقيقة هي أن التراث قادر، أيضًا، على الإلهام والتلقين وإشاعة الطمأنينة، في الوقت ذاته. وهو مرن على نحو مدهش، فالرموز والمفهومات الثقافية التقليدية "التي يثبت أنها" مرنة تمامًا في الممارسة والتي تساعد بالتالي على "تقرير الإمكانات المتفاوتة" تفضي "إلى تحالف ثوري بعينه" (Burns, 1996 : 352) وبالحقيقة وكما يشير إيفانز، معتمدًا على فوكو، فيما يخص مقاومة الفرنسيين للحرب الفرنسية في الجزائر، فقد كان هناك تراث كامل من النضالات التي تم بثها شفاهة أو كتابة أو في أغنيات وغير ذلك - 1997 : 10 p Foucault, 1977 b: 21)

(2 ويكاد لا يوجد ما يدعو للدهشة أن يؤسس الثوريون غالبًا، على تراثهم النضالي المطول (انظر: Hobsbawm, 1983 : 2) ساعين إلى افتعال الصلة (التلفيق مرة أخرى) بين الألفاظ والتواريخ والرموز وما هو أكثر من ذلك لخلق "تراث" على قدر من التماسك وقابل للاستخدام يضفي الشرعية على أفعالهم. لكن، بالإضافة إلى ذلك، فرواة الحكايا يستعيرون ويطورون بحرية من التراثات الثقافية الأوسع، وبالتالي فإن هذه الحكايا وإن كانت "تقليدية" فليست خارج الزمن؛ وهذا يعني أن شكل الحكايا ومحتواها قد يتغيران أثناء الحكي (Roseberry 1989 : 27) وهو يستشهد بكل من (Taylor and rebel 1981) وفي حين أن "التراث المبتدع" هو موضع شبهة مؤكدة (Hobsaum 1983 : 2) فإن أكثر الحكايا تقليدية يمكن، إذا كانت في أيد قديرة وفي الظرف المناسب، أن توضع في خدمة أغراض المقاومة والتمرد والثورة، وهذا يعيدنا إلى التاريخ.

التواريخ "السرية" أو ما "ننسى" أن نحكيه

ومن السهل أن يؤخذ التاريخ مأخذ الجد، أما ما يتعين أن نصنعه بالتاريخ وإلى أي مدى نثق فيه ونهتم بمغزاه فهذا أقل وضوحًا، إلى حد بعيد، ويرى بنجامين (2003 : 399) أن صوغ الماضي تاريخيًا لا يعني إدراكه "على النحو الذي

كان عليه، بالفعل"(١٥) وتزعم ماكغراناهان فى عبارة تصور تجارب الغالبية من الناس أنه بالنسبة لأهل التبت فإن التاريخ واقع بين "ما جرى حقا" والعتمة الإبستمولوجية للذاكرة التاريخية (Daniel 1996 taussia : 1984) فالتاريخ بالنسبة لهم، وفقا لما تقوله "هو الصدق والخرف وبعض الأكاذيب" ورغم أننا عالجنا، فى عدة مواضع، الخط الواهى والقابل للتحول على نحو متزايد بين "الحقيقة" و"الخرافة" فمن الجديد أن نتحدث عن هذا مرة أخرى فذلك النوع من الدقة، الذى اعتدنا أن نطالب به فى الدراسات الاجتماعية وفى الأكاديمية عموما، مراوغ فى أحسن حالاته، وببساطة فقد لا يكون ضروريا.

وتقليديا فإن التاريخ يصاغ من أعلى، بنشئه المنتصرون، ويضبط إيقاعه الأقوياء ويُعزف ويؤدى للجماهير والأمر الذى يمكن أن يقرّ به أى عدد من الدارسين هو أن التاريخ ليس فقط من الممكن اختراعه بل هو يخترع حتما. وكما يشير هوبزبوم (13 : 1983) فإن "التاريخ الذى أصبح جزءا من ذخيرة المعرفة أو الأيديولوجية بالنسبة لأمة أو لدولة أو لحركة هو.. ما تم انتخابه وكتابته وتصويره والترويج له ومؤسسته من قبل أولئك الذين يناط بهم هذا الأمر.

وإعلان كار أن المؤرخ، إلى حد بعيد، يحصل على الحقائق التى يريدها وأن التاريخ يعنى التفسير (26 : 1961) من الصعب أن يبدو مثيرا للجدل، الآن. لكن كوهن يزعم (xiii – xiv) وجود "توتر بين التاريخ الذى يصنعه الناس، والذى هو ثابت على نحو ما، والتواريخ التى يكتبها ويستخدمها الناس، والتى تبدو دائمة التغير". وأولئك الذين ينخرطون فى كتابة التاريخ يدخلون عملية خلق – إعادة خلق، بقصد أو بغير قصد، وهم ينقشون السجل؛ السجل الذى يحتاج تحديثا منتظما حيث إن المستقبل الجديد يحتاج ماضيا مختلفا، كما أشار لويس (11 : 1975) بالنسبة إلى احتضان روما للمسيحية فيجب أن يتواصل تحديث التاريخ المعتمد من الدولة والداعم للمجتمع والموحِّد(١٦)، ويجب أن تأتى نهاية الحكاية على النحو الوحيد الممكن الحدوث وأن تكون بسيطة ونظيفة وواضحة، قدر الإمكان. مع فرصة محدودة للتأويل أو التساؤل.

وهناك تاريخ آخر يضرب بجذوره فى وعى الناس بما يواصل العالم حولهم كشفه لهم وبمكانهم فى هذه العملية. وهذا تاريخ يتزود بالمعرفة من الأيديولوجيــة العملية للناس ويعكس الظروف المادية والأيديولوجية، على السواء، للحياة اليوميــة للناس. هذا التاريخ منشط وممزق، بشكل ما؛ ففى الأنديز تــصور تقليــدى يــرى التاريخ قماشًا تنسجه النسوة القادرات على تمييز الخطــوط المنحنيــة والمــستقيمة ومادة النسيج وأشكال العلاقات، وعلى تمييز الوجه من الظهر، والقيمة والمغــزى فى النموذج المفصَّل، وما إلى ذلــك (Andean oral History workshop. 1990: 180) وهذا هو التاريخ الذى غالبا ما يكون الأكثر أهمية والذى يجــب أن يــروى للمنخرطين فى المقاومة والتمرد والثورة.

ومن الممكن أن تكون اللغة نفسها جزءًا من المشكلة. فماذا لو أننا نفتقر إلى اللغة التى تصف أو تصور اللحظات؟ ربما كان الأمر يتعقد أكثر. ومــاذا لــو أن اللغة التى نتملكها بالفعل تحد من الإمكانات، وتضيّق الفهم، وتحد مــن التفــسير؟ تؤكد ماكغراناهان (580 : 2005) على أن الأحداث حقيقية ليس لأنها حدثت، ولكــن لأنها تروى بطرق لها مغزى ثقافى، فللحكى أهميته وإن لم يكن كاملاً والقــصص التى تنجح على نحو يأخذ باللب فى تفسيرها "الحقائق" فى ماضى الــشعب تــصبح جوهر المجتمع السياسى لذلك الشعب (Thompson 1996 : 1) ورغم ذلك، فكثيــر مما هو آت، خاصة فى الفصلين السابع والثامن، يصعب إلى حد كبير التعبير عنه بلغات العلوم الاجتماعية والتاريخ. فكما هو الحال فى الغالب فإن الأمور الجــديرة حقًا بالاهتمام تقع فى الما بين، خارج مجال التاريخ.

وإحدى نتائج المقتربات التقليدية للتاريخ التى لم تعد مقنعــة بفــضل العــدد المبهر من الأطروحات التى أنتجت فى أواخر القرن العشرين – هى ادعاء هيغــل (51 : 2009) بأن الثورات، وارتحالات البدو، والتحولات الأكثر غرابة "ليست فــى كتب التاريخ. لكن هذه الأحداث لم تختف سجلاتها بالمصادفة ولكن بالأحرى لأنها

غير ممكنة(*) فإننا نلمس غيابها" (Hegel 2009 : 51) ورغم أن الأشياء الحقيقية تفتقد دمغة "التاريخ" فإنها هي التي تهم الناس الحقيقيين في الدنيا الحقيقية (الناس الذين يتخذون القرارات المهمة) لكنها تحدث خارج نطاق التاريخ؛ ذلك أن التمزقات والمعارضات الهائلة هي التي يمكن دائما التفاوض حولها، وليس الشروخ البسيطة والتمزقات التي لا تكاد تبين (Deleuze and parent 1983 : 84) وحيث إن الدولة - عند المثقفين بالأساس - هي التي تنشئ السجل التاريخي فظواهر كهذه تمحى من الوجود؛ وحيث إن معظم المعارك حول معنى التاريخ تحركها أحداث تعتبرها الدولة مهمة فإن دعاة التواريخ (البديلة) نادرا ما يلاقون اهتماما، وعندما يلفتون الانتباه فإنهم يهمّشون. لكن هذا لا يعني أن الناس لا تعرف. بل هذا يعكس، على الأحرى مقتربا معياريا من التاريخ مبالغا في اعتماده على الرأسي والكرونولوجي.(**) وما نسعى إليه هنا هو استعادة الأفقي. ومقاومة ليس فقط الحافز بل وأيضا الطلب على التتابع في حدود الممكن(١٧).

والقصد هو كشف الغطاء والاستكشافات وإضاءة مواضينا بوفرة من الأصوات ومن عديد من المصادر. فمواضينا تتآمر لتصوغنا على النحو الذي نحن عليه، وهذا بدوره يقودنا نحو ما نتخيل أنه ممكن والطرق التي يمكن بها إنجاز تلك الأشياء، وما سوف تعنيه هذه الأشياء. وكل هذه المواضي موجودة هنا في الحاضر، كما يقول فوينتس؛ ولا يكون لنا "مستقبل حي بماض ميت" (16, 124 : 1996) وبالتالي فالتاريخ أو أي جهد لاستكشاف الماضي، أو التكهن بالمستقبل، هو بالضرورة مكيّف مستقبلا بالحاضر. والجهود المبذولة لاستكشاف حاضرنا مكيفة، على نحو لا يمكن تجنبه، بالماضي، وربما بتوقعاتنا عن المستقبل. ورغم أنه من الواضح أنه من غير المحتمل أن تكون الشروط هي التي يرغبونها، بل ومن المستحيل أن تكون، فالناس يصوغون التاريخ الخاص بهم(١٨).

(*) يقصد غير وارد القبول بها كتاريخ - المترجم.

(**) chronological : مرتب وفق التتابع الزمني للأحداث - المترجم.

صنع التاريخ وإنشاء الروابط

بدون إضفاء الغرائبية أو الفتيشية على الآخرين

في ١٩١٩ تسلق تو روك ثانغ. البحار الفرنسي (والرئيس القادم لجمهورية فيتنام الديمقراطية، وأيضا أول رئيس لجمهورية فيتنام الاشتراكية) قلع المدمرة التي كانت سفينة القيادة في الأسطول الفرنسي في البحر الأسود. ووسط هتافات البحارة نشر علم كومونة باريس، علم الثورة الأحمر، مؤجلا بذلك مشاركة فرنسا في تدخل الحلفاء ضد روسيا السوفييتية الوليدة[١٩]. كان الروس، قبل وقت قصير، قد بعثوا العلم الأحمر، مدعين في ملصق شهير بعد ذلك بعامين في ١٩٢١ أن "موتى كومونة باريس بعثوا من جديد تحت العلم الأحمر للسوفييت" (almond 1996 – 19) وفي ١٨٧١ اعتبر أعضاء الكومونات علميهم الأحمر، علم الجمهورية العالمية : 1978) (623 وسواء كان الأمر ذا مغزى أو مجرد مصادفة فقد حمل العلم الأحمر، أيضا، في تمرد شيز في ١٧٨٦ في الولايات المتحدة (وإن احتوى أحيانا على شجرة صنوبر خضراء، وأحيانا ثعبان وشعار يقول لا تتجاسر على أن تدوسني) وقبل كوميونة باريس بحوالي القرن ظهر شكل أبكر في سافانا بجورجيا، في مارس ١٧٣٦ عندما كان أعضاء انتفاضة من الأيرلنديين التعساء يعرف بعضهم بعضا بشريط أحمر حول الرسغ في حادثة عرفت باسم "مؤامرة الشريط الأحمر".

وتوضح قصة تودوك ثانغ والأسطول الفرنسي ما يمكن استخلاصه كتاريخ سري للمقاومة والتمرد والثورة، بل وربما كتاريخ بديل لعصرنا والعصر الذي سبقه، يروى كمثال على ما يستبعده التاريخ غالبا، عن قصد أو عن غير قصد. ولا نقصد بهذا الإيحاء بأن أولئك الذين يسعون لتغيير العالم هم وحدهم الذين يصنعون التاريخ أو بأن لهم سلطة متميزة على الحكايا. فبوسع كل واحد أن يفعل. ورغم أن

معظم الحكايا المهمة فى هذا السياق تبقى مع أولئك الذين نصفهم بأنهم "البروليتاريا" أو "الجماهير" أو "العمال" أو "الفلاحين" أو "الشعب" أو حتى الصفة التى بعثت حديثًا "العوام" (Hardt & negri 2000, 2004)[٢٠] فالصحيح أيضًا أن "الطبقة الوسطى"، "البورجوازية"، و"المثقفين"، بل وحتى "النخبة" يمكن أن تكون جزءًا من العملية وتشارك فيما يجرى. ورغم المزاعم التى ظهرت فى القرون القليلة الماضية فليس هنا ما يختص به الأثرياء أو أصحاب الملكيات. ولا شىء يميز الطبقة الوسطى، وليس فى الطبقة العاملة ما ينطوى على مغزى. ولا وجود لما يتميز به الفقراء. وعلى الأحرى، ففى هذا الظرف لا يهم سوى الحكايا والنضال وصنع المعنى.

وليس احتشاد المحتجين المعارضين للعولمة فى أمريكا الشمالية وأوروبا حول قضية الزاباتيستا المعاصرين فى المكسيك ومشاركتهم حكاياهم أقل قوة بسبب ما ينطوى عليه من اختلافات. وإذا كان الأمر امتدادًا، بطرق مختلفة، فالفكرة القوية التى تقول "كلنا زاباتيستا" بقيت قوية الأصداء ومثلت همزة الوصل بين شباب، هم فى الغالب من الطبقات الوسطى والعليا فى سياتل، وفلاحين من المايا فى شاباس، ومن هؤلاء إلى أزمنة ونضالات قديمة - زاباتا فى الثورة المكسيكية، فى المقاومة المحلية ضد الغزو الأوروبى للأمريكتين، وما وراء ذلك. وهذا يعكس الاعتقاد لدى أشخاص يرون أنهم جزء من التراث العظيم للأسماء والأماكن والتواريخ التى تستعيد حكايا المقاومة والنضال، وأنهم سينتصرون فى هذه المرة وفى هذا المكان.

وقد يكون هذا ما تلفت الحكايا انتباهنا إليه بأكبر قدر من المباشرة: فالكثافة والآنية اللتان غالبًا ما ترتبطان، على نحو دقيق أو غير ذلك، بالمقاومة والتمرد لا يساعدان كثيرًا فى بحثنا. وهذا هو السبب فى أن الصورة الكبرى، المدى الأطول، الإطار الأوسع الذى يدعو إليه مؤرخون مثل بروديل أو علماء اجتماع مثل تيللى،

يبقى مهما[٢١]. ولا يقصد بذلك طرح تفسيرات بنيوية بشكل زائد وبدرجة ما، فكلما اتسع المجال وكبرت العملية تضخمت الصورة المطلوبة. والكبير والرحب والهائل (tilly، 1984) لهم دور مركزى فى كيفية انتشار الحكايا وفى دوافع انتشارها، إذ تكتسب بعض العناصر وتفقد بعضها وتؤثر على الناس وعلى الأماكن بما يتجاوز الحالات المرتبطة بها. وفى الوقت ذاته، فإن هذه القائمة البسيطة من الأحداث والعمليات المعقدة يجب التغلب عليها بما يسميه هانت (21 : 1984) "الرقى الثورية" وهى كلمات إذا نطق بها فى سياق معين.. [فإنها تعبر عن] الولاء للمجتمع الثورى، على الأقل[٢٢]، فهناك الإطار العام وهناك الإطار الجزئى. ولكى نفهم الصلات التى نوقشت هنا فنحن بحاجة إلى الاثنين وليس هذا اللغز الوحيد الذى لا يتيسر كشف غموضه بسهولة أو على الفور.

فهناك أيضا معضلة "الآخر" ويمكن أن يُقرأ "الآخر" بعديد من الطرق وعلى مستويات متباينة ومن الأمور المهمة لمشروعنا هذا أن الناس الآخرين فى الأزمنة الأخرى هم قوم غيرنا. ويذكرنا دارنتون (4 : 1984) بأن "الناس الآخرين آخرون. وهم لا يفكرون بطريقتنا؛ وإذا أردنا أن نفهم طريقتهم فى التفكير فيجب أن نبدأ باستيعاب فكرة المغايرة. نحن بحاجة دائمة لخضّة تخرجنا من الألفة الزائفة مع الماضى، لتناول جرعات من الصدمة الثقافية" ويمضى هوايت (13 : 1998) فى الاتجاه ذاته "كل تأريخ متقن يبدأ بالغربة. لا يجب أن يكون الماضى مريحًا، لا يجب أن يكون الماضى صدى مألوفًا للحاضر؛ ذلك لأنه لو كان مألوفًا فلم العودة إليه؟ يجب أن يكون الماضى غريبًا لدرجة تجعلك تتساءل مندهشًا كيف جئت أنت والناس الذين تعرفهم وتحبهم من زمن كهذا" وأفضل ما نأمل بخصوص التوصل إلى قدر من الفهم لهذه الغرابة هى الحكايا التى تصلنا، الحكايا التى تشمل المجتمع وتسمح لنا بأن نتبين العقائد والصلات المشتركة، قد يكونون غرباء لكنهم غرباؤنا.

وهذا يفضى إلى جانب مهم آخر يتعلق بالحكايا التى تأتى ونحن نقابل هؤلاء "الآخرين" الذين هم غرباء ليسوا غرباء. وكما ذكرنا فإن أسس التاريخ الشامل ثقافيًا قد تم إضعافها عبر العقود القليلة الماضية، ولم يسعد الجميع بذلك، حيث إن أفكار التأريخ "الموضوعى" قد ووجهت بتحد، ونظريات "الرجل العظيم" وضعت موضع المساءلة، كما هو واجب. وبدلاً منها تنامت محاولات قيمة وإن كانت شائكة، تسعى وراء وجهة النظر الذاتية لتكتب التاريخ من منظورات تختلف عن تلك التى سادت طوال الألوف المضرمة من السنوات ورغم ذلك فالمبالغة فى التأكيد على المحلى واختفاء الطابع الرومانسى على الناس "الحقيقيين"، وإن كان أمرًا طيبًا، ليس عملاً إصلاحيًا يعالج المشكلة إذا كان ذلك ما زال يعتمد على المعطيات ذاتها التى يعتمد عليها التاريخ "التقليدى".

وهذا يعنى أنه ليس بين الحكايا المستخدمة هنا ما ينتمى لمحاولة عالم الاجتماع الشمال – أمريكى الأبيض المكتهل ذى النوايا الطيبة "لإعادة الاعتبار" للناس من الماضى أو ليستغرق فى أوهام استشراقية (وأنا أقتدى هنا بـ **Geston, 2002 p said : 2003**)(٢٣) وفى الأغلب الأعم، فإن الدارسين والناشطين، أثناء محاولاتهم المحمودة لاستعادة تواريخ الفقراء والمعدمين والمقموعين والمهزومين كانوا عرضة لتبنى فرضية أن السكان المحليين يكادون يكونون، بحكم التعريف، طيبين وحكماء وخيّرين باعتبارهم عينات لمجتمعات "أبسط" تعيش فى اتساق مع ذاتها ومع الطبيعة. وهذه الأفكار ذات الطابع الرومانسى والتى تأصلت فيها الميول الأبوية التى "سوف تعطى صوتًا لمن لا صوت لهم" تعزز المغايرة بطرق لا تخدم أحدًا على نحو طيب كما أنها تحمل بذور دينامية تدميرها الذاتى.

ولا يعنى هذا أن ننكر أن الناس قد يكونون كرماء وطيبين وما يفوق ذلك، لكن يلزم الاعتراف بأنه من الوارد أن يعيشوا فى مجتمعات غبية وشريرة تقوم على تراتبيات مركبة وعلى نظم طائفية عظيمة القسوة؛ وبعض الناس المحليين

كانوا، فى يوم من الأيام، القوى العظمى والإمبرياليين فى عالمهم. وقد أشار كولبير، وهو من أوائل الدارسين للشاباس الذين حظوا بأعظم التقدير "إلى حذره من" التصويرات المثالية للمجتمعات الفلاحية والمحلية فأنا أرى هذه المجتمعات على أنها أقل ميلاً إلى المساواة وأكثر ميلاً إلى التمييز على أسس طبقية وسياسية مما يعتقده كثير من المحللين، فمخاطبة المشاعر الجمعية غالبًا ما يرتبط بالمناورة من أجل السلطة الشخصية (x : 1999) وكل المجتمعات البشرية مركبة؛ وليس بينها ما يرجح أن يكون أكثر أو أقل "نبالة" من غيره. وفى الأمريكتين، على سبيل المثال، طورت الإنكا واحدًا من أكثر المجتمعات تعقيدًا من الناحيتين الاجتماعية والسياسية فى العالم؛ ونموذجهم لدولة الرفاه سبق النموذج الأوروبى بأكثر من خمسمائة عام. وكانت السنوات الأولى من تاريخ إمبراطوريتهم تتميز أيضًا بالميل إلى الغزو وقهر الجيران. ومن جانبهم، أنشأ الأزتيك / المهيكاس إمبراطورية تميزت باقتصاد زراعى مركب، كما تميزت بانتصاراتهم وبممارساتهم السياسية / الدينية التى اتسمت بميل مذموم إلى الأضحيات البشرية، التى غالبًا ما تركزت على القلوب النابضة، والتى كانت تمارس أحيانًا على نطاق واسع نسبيًا. والمسايا وجماعات إثنية أخرى عالية التطور ومعترف بنضجها فى مجالات كثيرة اعتبروا الحرب أمرًا مركزيًا فى ثقافتهم؛ ووجد الأقوياء فى بعض المناسبات، أسبابًا تدفعهم للتضحية بالبشر. وأيًا كانت التفسيرات فإن كلاً منها كان "يحكى أنه" قوة عظمى فى العالم الخاص به، مع الاعتراف الواجب بالاختلافات والبنى الثقافية، وقد قمعت أقسامًا من شعبها أو من أولئك الذين أخضعتهم. وقد علمنا أيضًا أنه كانت هناك معارضة لكل قوة من هذه القوى وبالتالى فيمكننا أن نفترض منطقيًا أنه، فى مواجهة هؤلاء القامعين أو الغزاة، فلابد أن أناسًا عديدين حاربوا من أجل العدالة الاجتماعية داخل هذه المجتمعات، قبل أن يظهر الأوروبيون ذوو السلوك السيئ بشرورهم وممارساتهم. وكل هذا وتنويعات عليه، مما يمكن أن نجده فى جميع أنحاء العالم وعبر الزمن، يدفع بالمرء إلى خلاصة مؤداها أنه بالرغم مما لدينا من سحر لا بأس به فنحن البشر عصبة حقيرة(٢٤).

والأشد ضررًا من تصوير الناس الذين عاشوا فى الماضى بطرق سطحية ثنائية البعد هو الجنوح المتواصل من قبل الغربيين المتعلمين بعد التنويريين وحلفائهم إلى سربلتهم بسمة غرائبية ملغزة – الفقراء، المحرومون، الذين "خسروا" التاريخ. وصياغات كهذه تسمح، أيضا وعلى نحو مريح، بتصويرهم بصورة من لا يسبر لهم غور و"لا يمكن فهمهم" وهى الصورة المقصود بها أن تعنى الإبهام الذى يقترب من الشر. ومن المنظور الأول فالحكاية هى أنه بالنسبة لهؤلاء الناس الغرائبيين والغامضين فالحياة نضال يواجهونه ببسالة باعتبارهم "ملح الأرض" الذين لديهم نعمة الحس السليم والنبالة والحكمة الثمينة؛ ومن خلال المنظور التالى فإن أناسًا كهؤلاء موسومون بأنهم دائمو السخط وأشرار[٢٥] وفى الحكايا التى ستأتى لاحقًا يكون من الضرورى أن نتبين هذه الاتجاهات والغوايات وأن ندرك أن الاختلافات بيننا "نحن" و"هم" فى الحدود القائمة بأى شكل هى اختلافات واهية أو غير موجودة.

الحكايا الأربع عن الثورة، فكرة أخيرة قبل أن نذهب

من الممكن أن نجادل حول التحذير الكلاسيكى من مورنيه (1933 : 471) بأن أصل الثورة الفرنسية هو حكاية وتاريخها حكاية أخرى،[٢٦] لكن ذلك التحذير يذكرنا بأمر مناسب: حكايا الثورة كثيرة، أكثر حتى من التواريخ، وليس هذا بالأمر الهين؛ إضافة إلى ذلك، فهذه الحكايا بأشكالها المتباينة واسعة الانتشار بأكثر مما نفترض عادة. ورغم أن بوسعنا أن نميز النماذج التى تتألف منها فلو أخذت معًا لوجدنا أنها تمثل مؤلفًا يفوق الخيال له طابع جذمورى ويمثل شبكة تحتية.

ورغم ما فى القول من ابتذال، فكل حالة ثورية هى فى أن معًا، فريدة ولكنها تشترك مع كل الحالات الأخرى فى شيء، وإن كان دقيقا. ولا غرو أن كل حالة تدفعنا إلى أن نحفر عميقًا ونطور تقارير بيانية عن الأفكار، فهذه عمليات مدهشة حافلة بأحداث غالبًا ما تكون آسرة للخيال، بالنسبة للمقتحمين منا. لكن إصرار العلوم الاجتماعية على تفسيرات ناموسية(*) يدفعنا إلى التجميع للكشف عن تلك القوانين العامة وباختصار فنحن نطلب الصورة الكاملة، وإدراكًا منا لاستحالة ذلك فنحن نسعى لتبين الاتساع والعمق. والهدف هو، بالتالى، أن ندرس الحكايا الأساسية للثورة التى يمكن أن نجدها فى كل زمان ومكان.

تبقى فكرة أخيرة حول هذا المشروع[٢٧]: لقد ساعدت العلوم الاجتماعية، وإلى حد ما الإنسانيات، جهودنا الساعية إلى إلقاء الضوء على الترتيبات الرسمية والمؤسسية الكثيرة التى تشكل حياتنا؛ وبعض أعظم نجاحاتنا كان فى المجالات التى نعتبرها سياسية. ولكن ما هى النتائج التى تترتب على تحويل اهتمامنا إلى ذكاء وإبداع الناس الذين لا يعتبرون خبراتهم السياسية سوى جزء من حياتهم؟ نزعم أننا نسعى إلى أن نؤسس أبحاثنا على الخبرة الإنسانية، على حياة من يصنعون المقاومة والتمرد والثورة ويعيشونها. وبدلاً من التركيز على أسباب يمكن فهمها، على التدابير والترتيبات المؤسسية التى "تحدد ماهية" الثورة فإن اهتمامنا سينصب على قيمهم ومعتقداتهم وعلى ممارساتهم المشتركة وجهودهم كمجتمع لبلوغ ما لا يستطيعون أن يبلغوه كأفراد. ومقترب كهذا بعيد عن الكمال، وقد يكون مربكًا، وكيف له أن يكون غير ذلك مع هذا الخليط المذهل من المثالية؟ مع سعى الناس إلى تحقيق أحلامهم ورغائبهم الخاصة فى المنتديات العامة وبالوسائل البراغماتية، كيف ننتقل من هنا إلى هناك الآن، هذه الأيام، وسط أجواء التطوع

(*) nomothetic: مشتقة من الكلمة اليونانية nomos وتعنى القانون ويقابلها فى العربية الناموس – المترجم.

والمبادرة؟ كلمة السر هى الإنسانية والعناصر التشجيعية هى العدالة والصدق؛ فالأفعال الحقيقية هى القوة المحركة. وفى كل هذه الأحوال نقابل التاريخ فى الحالين الأفقى والرأسى. التاريخ الذى قد يكون كرونولوجيكيًا(*) لكنه أيضًا ميثولوجى(**). فالخرافة والذاكرة والمحاكاة تكتسب أهمية مع سعينا إلى توسعة وتعميق فهمنا وشروحاتنا. والحكايا التى جاءتنا من كل اتجاه والتى سنعرضها لاحقًا، حتى فى أكثر حالاتها تجريدًا، تعكس وتصور أفعالاً يومية صغيرة، أقدم عليها أفراد من البشر ربطت بينهم إنسانيتهم والتزاماتهم المشتركة؛ وهذه الحكايا تشرفهم وتمنح من ينظر فيها منا قدرًا من فهم العمليات الثورية.

(*) متتابع الفقرات وفق حركة الزمن - المترجم.

(**) أسطورى / خرافى - المترجم.

الفصل الخامس

حكاية ثورات التحضر والمقرطة

هناك بالأساس قصتان نخبويتان عن الثورة، الأولى هي قصة الثورات التي تحقق التحضر والمقرطة، والثانية هي قصة الثورة الاجتماعية (موضوع الفصل السادس) والأخيرة هي ولا شك الأشهر بين كل هذه الحكايا وتوجد منها أيضًا، نسخة شعبية، أو على الأقل شعبوية. وفي التقاليد الثورية الحديثة، تلك التي تميل إلى أن تتخذ من ١٧٨٩ في فرنسا نقطة بداية لها أو التي تميز هذا التاريخ عن غيره - تتنافس هاتان الحكايتان، بمعنى ما، على موقع الصدارة. وفي قصة الثورة الاجتماعية فإن فرنسا ١٧٨٩ هي **Ur** (الصورة البدائية / الأصلية) أو **echt** (الصورة الحقيقية)(*) للثورة(١)، أو اللحظة التأسيسية التي ينبع منها كل فهم للثورة في العالم الحديث أو عالم المستقبل وكل تصور عنها، وعلى الأقل في المائتي سنة التالية. وبالمقابل فبالنسبة لحكاية الثورات التي تأتي بالتحضر والمقرطة وعلى الرغم من أن هذه العملية ذاتها في فرنسا هي مدخل إلى العالم الحديث، فالثورة الفرنسية تنطوي على خلاصة ما، تمثل ذروة ما، بل وتحذيرًا، باعتبارها تنبيهًا وإشارة حكيمة إلى حالة تطورت فيها الأمور إلى أبعد مما يجب فأعطتنا صورة مما يمكن أن يؤدي إليه ذلك.

وترتبط المجازات المركزية هنا بالحضارة والتقدم والمقرطة وأيضا، وبدرجة من التناقض، بالنبالة. وتكمن فكرة النبالة في تضحية المرء بمركزه وأيضًا فيما يصحب ذلك من معنى **noblesse oblige** [الشروط الملازمة للنبالة] من جانب النخب التي توسع المجال الحقوقي. وسردية التحضر والمقرطة هذه تمضي على مسار واحد مع انتصار التنوير وكثيرًا ما توظفها وتنشرها الدول والنخب الساعية وراء الشرعية والسلطة التي ترتبط بها وهي بالنهاية حكاية "ليبرالية" عن الثورة

(*) اللفظان مأخوذان من الألمانية العليا الوسيطة - المترجم.

وبالتالى فهى قصة تجمع بين التحذير من الراديكالية والثورة وبين الدعوة إلى الاعتدال والإصلاح وسوف نركز هنا على الحالات الجوهرية الثلاث فى هذه الحكاية: الثورات السياسية فى بريطانيا العظمى (1688)، وبعد ذلك فى بعض مستعمراتها فى أمريكا الشمالية، وفى الولايات المتحدة الوليدة (1776)؛ وفى فرنسا (1789) وهى حالة لوم وتوبيخ بالنهاية، فى هذه الحكاية وسوف تتخذ الحالة الفرنسية، باعتبارها أول ثورة اجتماعية عظمى فى العالم، موقعًا مركزيًا فى الفصل التالى (ثم تظهر كممثل ثانوى فى الفصول الأخرى).

وتتخذ هذه الحكاية نقطة بداية تتمثل فى بنية احتفالية تميل إلى الضخامة تتعلق بـ "الحضارة الغربية" وتركز طويلاً على أفكار المواطنة والديمقراطية. ومن نافلة القول أن كتبًا كثيرة كتبت حول الموضوع، تشير إلى ثقافة أوروبية المركز لها جذورها فى اليونان ولها علاقة تقوم على التناقض، مع تصور عن الشرق المتمثل فى فارس والشرق الأدنى والأوسط. وهنا تنسب الأفكار المبكرة عن الديمقراطية إلى اليونان، مع إيماءة سريعة إلى مجلس الشيوخ فى روما، وفى بعض الأحيان إلى أبطال محليين ونضالات محلية فى أوروبا، طوال العصور ما بعد الوسيطة، تعكس الجهود التى بذلت للتخلص من قبضة الكنيسة. ولفرض قدر من المساءلة على الحكام. وهكذا يكتسب الإصلاح البروتستانتى قدرًا من الأهمية. وتشمل هذه الحكاية على الأقل ذكرًا عابرًا "للثورة المجيدة" فى إنجلترا القرن السابع عشر، وإن كان ذلك بإشارات واهية، إلى levelers(*) وإلى Diggers(**) والحركات المشابهة أو بتجاهل تام لها، وتصل الحكاية ذروتها مع الثورتين التوأم

(*) دعاة المساواة، وهم أعضاء حركة شعبية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر كان مركزها مدينة لندن. ودعت إلى حق التصويت لجميع المواطنين والمساواة أمام القانون والتسامح الدينى، وضمنت كل ذلكماينفستو يعرف باسم "الاتفاقية الشعبية" – المترجم.

(**) الحفارون وهم حركة شيوعية زراعية بدأها جيرارد وينستانلى فى ١٦٤٩ فى إنجلترا واعتبروا أنفسهم الـ levelers الحقيقيين – المترجم.

فى أمريكا ١٧٧٦ وفى فرنسا ١٧٨٩. وفى هذه الحكاية تشترك الثورات "الليبرالية" الثلاث التى تعتبر ديمقراطية بالنسبة لزمنها فى أمور كثيرة. والتركيز على الحرية والديمقراطية، بشكل خاص، ينظر إليه كعامل مساعد على تحقيق "التحضر" فى صيغته الحديثة (الأوروبية / الأمريكية الشمالية). وهكذا فإن الثورة قد اكتملت بعد أن تمكنت من الوصول إلى خاصرة الوحش (الرداء الأوروبى المرقع بما فيه من مشيخات ودوقيات وإمارات وممالك وإمبراطوريات) برغم ما طرأ من تكييفات وتعديلات طوال المائتين وخمسين عامًا التالية، أو ما يناهز ذلك. وبالنظر إلى أن الثورة الأمريكية تعامل بالتقديس باعتبارها "ال" ثورة الليبرالية، وبالتالى، المعيار والمقياس، تكاد كل الثورات التالية تعد ناقصة.

ولا يعنى هذا تجاهل بعض المشاهد القيمة؛ فبعض روايات الحكاية تشمل "ربيع الشعوب" (أو "ربيع الأمم") فى ١٨٤٨. وحصاد الثورات الليبرالية فى عموم أوروبا[٢] وهو الذى تضمن، بالأساس، المطالبات بتوسيع حق الاقتراع وتعميق الديمقراطية (رغم أن هناك، كما سوف نبين، تفسيرات أكثر راديكالية). وليس بالأمر غير المعتاد فى هذه الحكاية أن نقابل ثورات تحديثية مثل: إحياء الميجى فى اليابان فى ١٩٦٨ وتركيا الفتاة فى ١٩١٩، رغم أن التركيز فى هذه الثورات هو على "التمدين" أكثر مما هو على المقرطة[٣]. وتنتج هذه القصة أيضًا شعورًا بالأسى على ما كان يمكن أن يحدث فى حالات مثل: ثورة ١٩٠٥ فى إيران وروسيا وصن يات سن (صن جونغشان) فى السنوات الأولى من الثورة الصينية (١٩١١) وعلى القدرات المبددة فى ثورة المكسيك من ١٩١٦ إلى ١٩٢٠ وما بعدها وفى زمن أقرب تسجل روايات من هذه الحكاية، على نحو يلقى التقدير، "الثورات الملونة" فى ١٩٨٩ فى أوروبا الشرقية كأمثلة، وهو زعم يثير القضية الشائكة حول ما إذا كانت هذه الدول الأوروبية فى حاجة إلى "التحضر". وما يهمنا هنا بالأساس هى حكاية إنجلترا و"أمريكا" وفرنسا باعتبارها الثورات البورجوازية العظمى الثلاث.

تعتمد حكاية التحضر والمقرطة، اعتمادًا كبيرًا، على النموذج الشجرى وتضرب بجذورها فى الحضارة الشمالية – الغربية المرتبطة بالأساس اليونانى – الرومانى – اليهودى – المسيحى المعهود للثقافة الغربية. والثقافة الغربية، كما تقول الحكاية، هى تكامل متميز بين الفنون والعلوم والممارسات السياسية والمبادئ الفلسفية والدينية، على نحو يميزها عن الحضارات الأخرى. وبغض النظر عن صحة الحكاية فقد شاعت لمئات السنين ونشرتها الإمبريالية والعولمة على أوسع نطاق. وفى هذه الحكاية تظهر الحضارة والديمقراطية، أولاً، بين اليونانيين، ثم يعدّ لهما الرومانيون، ويضاف إليهما على نحو فارق من التوراة العبرانية، وخاصة عبر قراءات مسيحية فى وسط أوروبا. وكما سوف نرى فإن هذه التوراة ذاتها، العهد القديم، وبعض الحكايا الرئيسية فيها، سوف تكون مهمة بالنسبة لقصص أخرى عن المقاومة والتمرد والثورة. وبغض النظر عن التفسير الذى يعتنقه المرء، وبرغم الإشكالات الكثيرة التى تكتنف هذا التصور، فإن حكاية التحضر والمقرطة لا تنتقص التناقضات المتأصلة فيها من قوتها.

يصعب القول بأن اليونانيين كانوا كيانًا متجانسًا؛ وبالأحرى كانت هناك مئات من المدن – الدول. وكثير مما يرتبط فى أذهاننا بهم مأخوذ من معرفتنا بأثينا. وأقدم ما لدينا من أفكار عن الديمقراطية مصدره أثينا حوالى الفترة ٤٠٠ – ٥٠٠ قبل الميلاد. وقد كانت الديمقراطية موضع شك، وربما كان ينظر إليها على أنها تميل إلى حكم الدهماء. وقد وسمها أرسطو بأنها شكل منحرف من أشكال الحكم. وبرأيه فأفضل حكم يمكن التوصل اليه هو الجمهورى الدستورى، لكن الديمقراطية تكاد تكون حتمية بسبب النمو السكانى. ورغم أن هذا أفضل من الأوليغاركية [حكم الطغمة] أو الطغيان، فيكاد أرسطو يقول إن الديمقراطية يمكن

أن تكون كارثية عند الممارسة؛ لأنها حكم المعوزين الذين لا يملكون الوقت ولا الرغبة. وقد كانت الديمقراطية المطبقة ديمقراطية حصرية (للمواطنين الذكور فقط) ومباشرة وذات ملامح مميزة (مثل ممارسة النفى التعسفى) لكن يمكن تبينها فورًا من خلال الشكل[٤]؛ ولا شك أنها تعد قاعدة مقبولة يمكن أن تؤرخ بها الديمقراطية الليبرالية الغربية. وتزامن مع نشوء الديمقراطية فى أثينا ازدهار الفنون والآداب ضمن ما أصبح يشار إليه باعتباره عصرًا ذهبيا، أيام مجد أولئك الذين ارتبطت أسماؤهم بالمسرح (إيسخيلوس وأرستوفانيس ويوريبيديس وسوفوكليس) والتأريخ (هيرودوتوس وثوسيبيديس) والفلسفة (سقراط وأرسطو وأفلاطون) ممن يعدون أساسًا للـ "حضارة الغربية". ومع أن الانتقادات التى صدرت عن أرسطو وأفلاطون كان لها دورها الحاسم فى سقوط الديمقراطية، فإن المرحلة المبكرة من الممارسة الديمقراطية والسلوك "المتحضر" تعد أساسية فى هذه الحكاية.

والجزء الرئيسى فى هذه الحكاية الذى أمنه الرومان، والذى يقوم إلى حد بعيد على الديمقراطية التى مارسها اليونانيون، هو التمثيل النيابى ودور مجلس الشيوخ. ومع أن الدستور كان، إلى حد بعيد، غير مكتوب ويتم توارثه شفاهة، ومجلس الشيوخ يتألف من الأقوياء فقد كانت حقوق المواطنين منصوصًا عليها فى "القوائم الاثنتى عشرة" إضافة إلى ذلك، فقد كانوا قادرين على خلق القبائل والجمعيات التى تأسس عليها التمثيل النيابى. وقد كانت هناك بيروقراطية هائلة صار ينظر إليها، على نحو ما، باعتبارها علامة تحضر؛ ومجموعة مذهلة من الموظفين والمناصب. وكانت روما هى الأخرى مكانًا للثقافة وأكثر ترحيبًا بالغرباء من أثينا؛ وقد كانت الثقافة اليونانية بالذات عظيمة التأثير فى كل المجالات. وأصبحت عمارة روما وهندستها المدنية وممارساتها الإنشائية ينظر إليها كمؤشرات إلى التحضر. وكما هو الحال مع أثينا فإن التطلع إلى الاستقرار والحكم القوى أدى إلى انهيار الديمقراطية، لكن حكاية الديمقراطية كانت قد كبرت.

ومصطلح "المسيحية – اليهودية" يستخدم بأكبر قدر من الشيوع فى أمريكا الشمالية من قبل المسيحيين الذين يريدون أن يجدوا لأنفسهم جذورا فى تراث العهد القديم. وبالنسبة لحكاية الثورة التى تأتى بالتحضر والمقرطة فإن السفر الثانى وهو سفر الخروج هو الأكثر أهمية، وهو الذى يروى حكاية الهرب من الطغيان إلى الحرية. ويمضى والزر (5 : 1985) إلى حد أنه يقول إن الإشارات إلى سفر الخروج منتشرة فى التاريخ السياسى للغرب (أو على الأقل تاريخ الطموحات الاحتجاجية والراديكالية فى الغرب) لدرجة أنه لا يشعر بها إلا عند غيابها. ورغم أن حكاية الخروج، على الأقل بالنسبة إلى والزر، ليست حكاية ثورة[٥]، فهى حكاية أصبحت جزءًا من الوعى الثقافى للغرب – حتى أن العديد من الأحداث السياسية المتنوعة (وهى أحداث مختلفة لكنها ضمن نطاق معين) تواصل صنعها واستيعابها داخل الإطار السردى الذى تؤمنه حكاية الخروج. هذه الحكاية جعلت من الممكن رواية حكايا أخرى (7 : 1985) وسرد الحكايات هو بالنسبة للثوريين أمر مركزى الأهمية.

وهناك جانب آخر من التراث المسيحى يستحق أن نذكره فى هذا السياق: الإصلاح البروتستانتى وقد بدأ كمحاولة فى أوائل القرن السادس عشر لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويشيع تأريخ هذه الحركة بما فعله عالم اللاهوت مارتن لوثر فى ١٥١٧ عندما دق بالمسامير أطروحاته الخمس والتسعين على أبواب كنيسة كل القديسين، الكنيسة الجامعية فى ويتنبرغ بساكسونيا، حيث كان يعمل بالتدريس (وإن كان البعض يؤرخ لها بتاريخ حرمانه الكنسى بعد ذلك بأربعة أعوام) وبغض النظر عن القضايا الإكليريكية والمذهبية فقد كان الإصلاح مهمًا من نواح عديدة بالنسبة لما سوف يصبح حكاية التمدين والمقرطة. أولاً لأنها ساندت ووسعت التوجه الوليد الليبرالى (والرأسمالى) إلى تمييز الفرد – فالإيمان الفردى وحده هو الذى أصبح موضع اهتمام. وإضافة إلى ذلك، وبرغم نوايا لوثر، فقد دفع

الإصلاح باتجاه ظهور شيع بروتستانتية بين الكنيسة والدولة. ووجدت الدول حديثة النشوء أن من المناسب لها أن تتحالف مع قادة الشيع البروتستانتية. وأخيرًا فهناك الضمانات (نظريا) لحرية الممارسة الدينية فى معاهدات ويستفاليا لعام ١٦٤٨ التى تضع نهاية لعهد الإصلاح وتقلص الهيمنة الثقافية والسياسية التى كان يمارسها البابا على أوروبا بدرجة كبيرة.

هذه المسطحات الثلاثة معا – اليونان والرومان والتراث اليهودى – المسيحى – تمثل ما يشبه مثلثا حديديا تقيم فوقه حكاية التحضر والمقرطة منشآتها وأجزاء كثيرة من هذا البناء تقوى على المناظرة، وبعض أجزائها ليست أهلاً لاحتمالها، وكثير منها يعكس التاريخ ليس فقط بقراءة ارتجاعية بل وبتفسير غير دقيق يراعى أغراضها أكثر معاصرة.

بـ "الثورة المجيدة" أو بغيرها
اللحظة الليبرالية فى إنجلترا ١٦٨٨

تحتل إنجلترا القرن السابع عشر مكانًا غريبًا فى حكايا الثورة. فنادرًا ما تعد إنجلترا ضمن المبرزين فى الأنشطة الثورية. وللحقيقة فـ "ليس هناك أى دليل على (ثورة) حقيقية فى إنجلترا فى أى قرن بعينه" (macfarlane 1986 : 163) ولكن من المستحب قراءة الحرب الأهلية الإنجليزية كحالة ثورية، وكما ستبين الفصول اللاحقة فإن Diggers، levelers كانت تتملكهم خيالات ومشاعر ثورية. ولكن الثورة المجيدة لعام ١٦٨٨ هى التى يعتد بها فى حكاية التمدين والمقرطة، ولأنها وصلت بالنشاط الثورى إلى نهاية، فى المقام الأول، وتمثل ١٦٨٨ لغزا محيرًا.

وإذا كان لنا أن نقول إن إنكلترا مرت بها ثورة حقيقية، أو على الأقل شيء يقارب الثورة كما يفهمها معظمنا فتلك هي الحرب الأهلية الإنكليزية من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٠ التي يشير إليها البعض باسم "الثورة البيوريتانية" [puritan التطهرية] (من هؤلاء walzer، 1982,) ويشير إليها آخرون باعتبارها "الثورة الإنكليزية" (خاصة hill 1940، 1961، 1984، 1997 a، 1997 b). وباختصار فقد نشأ صراع ملحمي، عجّل به الصراع بين أسكتلندا وإنكلترا (وإلى حد ما أيرلندا) على السيادة وقضايا الالتزام الديني (وربما التسامح الديني) بين الملك وما كان يؤمن به من سلطة مطلقة، والبرلمان الذي أراد أن يؤكد حقوقه وامتيازاته. ودعا البرلمانيون وحلفاؤهم من دعاة المساواة Levellers وأشباه الشيوعيين Diggers إلى مبدأ "لا ضرائب بدون تمثيل نيابي"، وبوضع حد للسجن التعسفي (حق المحكمة في الإفراج عن المسجون ما لم يكن هناك مبرر قانوني لاحتجازه بتفعيل قاعدة habeas corpus) ورفعت الرقابة على المطبوعات وطورت النظام القضائي، وانتهت في ١٦٤٩ إلى قتل الملك. وكانت الفترة من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٩، برأى لانتشمان نشازا في التاريخ الإنكليزي بسبب راديكاليتها والمشاركة الواسعة من القوى الشعبية (86 : 1999)؛ وحسب تعبير هاليداي، "ثورة جماهيرية من أسفل" (47 : 1999). ورغم أن القوى الشعبية خسرت وكسب التجار والطبقة الوسطى وتم النكوص عن معظم المنجزات الراديكالية، فمن الممكن أن نجد في العشرين سنة التي امتدت حتى عودة الملكية في ١٦٦٠ تطلعات ديمقراطية راديكالية وأن نتبين الثورة الليبرالية الأولى التي أدت هزيمتها بيد الثورة المضادة في 1659 - 1660 إلى ارتحال الكثيرين إلى "العالم الجديد" آخذين معهم أحلامهم ورغائبهم على حالها hill، (1985 p 173 – 4) وسواء كانت الفترة من 1640 إلى 1660 تمثل "ثورة حقيقية" أم لا فهذا موضع نظر، لكن كانت هناك جوانب ثورية في هذه الفترة.

فما هو إذن مغزى ١٦٨٨؟ أحداث ١٦٨٨ هى أحداث قليلة الأهمية، نسبيا، فى سياق هذه الحكاية. فمرة أخرى كان الملكيون والبرلمان يتصارعون ومرة أخرى انفجرت قضايا الدين لكنها هذه المرة كانت مصحوبة بقوة القومية التى بدأت تتحرك. وقد أثار اعتلاء الملك جيمس الثانى الكاثوليكى العرش فى ١٦٨٥ قلقا حول الالتزام الدينى وسرعان ما غرق فى معارك مع البرلمان حول امتيازاته. ولكن النقطة الحرجة، فيما يبدو، كانت انتشار الرأى القائل بأنه خاضع لتأثير الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا، وهو كاثوليكى مثله وكان يُعتقد أنه يسعى إلى تأسيس إمبراطورية تشمل كل أوروبا. وتصاعدت المطالبة بالإحياء وبالعودة إلى أوقات سابقة – وبهذا المعنى فقد كانت لحظة محافظة وفى تحرك استهدف إحياء السيادة البروتستانتية طولب الهولنديون، وهم المعارضون الرئيسيون لفرنسا آنذاك، بغزو البلاد. وقد لقى الهولنديون مساندة من الأموال الإنكليزية، وانضمت إليهم قوات إنجليزية وأسكتلندية وقوبلوا بالترحاب كحركة قومية. وفر جيمس الثانى إلى فرنسا واعتبر أنه تنازل عن العرش. وكانت التسوية التى انتهى إليها التفاوض، وهى معاهدة نخبوية، إحيائية فى جزء منها وحداثية فى جزء آخر، خاصة فى ثلاث مجالات بدا فيها أن البرلمان تأثر بالأفكار الليبرالية لدى جون لوك، وتم حصر السلطات الملكية فى الأفعال التى يصرح بها البرلمان، ووضع إعلان حقوق (أصبح اسمه فيما بعد قانون الحقوق)؛ هو فعليا (صورة مبكرة من) الدستور، وتم توضيح حق البرلمان فى تغيير الحكام بطريقة منظمة.

ولو أن هذه كانت غاية سياق ثورى بدأ قبل قرابة خمسين سنة لبدت أقرب إلى أن تكون أنَّة ألم من أن تكون انفجارًا. لكنها، بالنسبة لليبرالية (وإلى حد ما للرأسمالية؛ لأنها واصلت تدمير العلاقات الإقطاعية) كانت لحظة انتصار. فبعد ذلك بخمسين عاما بالضبط، وصفها كاتب فرنسى بأنها "ثورة عظمى.. أدهشت أوروبا" (baker, 207 :1990 مشيرًا إلى جوريو) وقد كان الفرنسيون، حسب بيكر، هم أول من أشار حقيقة إلى أحداث ١٦٨٨ بوصفها **"la révoluation d'Angleterre"** (*) **(1990 – 207)**.

(*) ثورة إنكلترا – المترجم

والمهم بالنسبة لنا أن بيكر يلاحظ المغـزى الـذى انطـوت عليـه قـراءة الفرنسيين للأحداث باعتبار أنها ثورية، المغزى الذى بدأ يتضح كشيء جديد علـى نحو دراماتيكى حتى وهو يقر إحياء أزمنة سابقة. عـودة حقيقيـة إلـى القـوانين الأصلية.. وبالوقت ذاته فجر عهدا جديـدًا يبـشر بإحيـاء الحريـة (207 : 1990) ويمضى فينلى إلى حد اعتبار الثورة المجيدة نوعا من الحد الفاصل: فحتـى هـذه اللحظة لم يكن لمصطلح "ثورة" أى محتوى سياسى، وهكذا فهى "تبين الهوة العميقة بين الثورات الحديثة" وكل ما سبقها من "ثورات" (50 : 1986).

وقد يكون الأمر كذلك، كما يشير ماليا (6 : 2006) لأنها كانت الحلقة الختامية للثورة السابقة فى إنكلترا وكانت تمثل، على نحو مطمئن عملية "إحياء"(*) لكنه ينتهى إلى القول بأنه "يصح" فهمها كثورة (137 : 2006) بل ويقترح قـراءة الفتـرة مـن ١٦٤٠ إلى ١٦٨٨ بالكامل باعتبارها "ثورة طويلة الأمد". وهذا التصور حول عملية مطولة يلعب العقل فيها دورًا هو تصور يتوافق جيدا مع حكاية الثورة التـى تـأتى بالتحضر والديمقراطية.

تترك "الثورة المجيدة" علامتها على هذه الحكاية بعديد من الطرق المهمـة. فمع أنها كانت بوضوح بالغ "إحياء للسلطة الملكية لتـستعيد غـابر مـشروعيتها ومجدها"؛ فإن آرندت تشير إلى أنها كانت أيضًا الحدث الذى اكتـسب فيـه لفـظ "الثورة" وعلى نحو لا يخلو من تناقض موقعه المحدد فى اللغة السياسية والتاريخية (و).. الذى يبدو لنا أنه يشير إلى ظهور، روح جديدة، روح العصر الحديث (1965 : 43) وهذا ما يدركه دون أيضًا. وهو يلاحظ أن "أحلامهم كانت ثورية بما يكفـى فى حدود فهمهم لما كان ممكنًا" (5 : 1989) وهنا يبدو زعم هنتغتون بأن تلك الثورة كانت "مقدمة للثورة الحديثة.. وكان غرضـها وتأثيرهـا.. حـديثين علـى نحـو راديكالى" "265 1968" زعمًا صحيحًا إذن.

(*) وهو يلاحظ بحق أن المعنى الأصلى للفظ الثورة revolution – بالإنكليزية وليس بالعربية – المترجم – هو العودة إلى نقطة المنشأ.

وقد كانت ١٦٨٨ تمثل تعزيز حكم البورجوازية كما أنها رسمت خطوط السلطة بين التاج والبرلمان: فلم يعد بوسع الملوك الإنكليز بعدها أن يحكموا بدون موافقة البرلمان. ولم يغب مغزى النتائج عن فطنة الجيران "فمع إدراكهم للطبيعة الليبرالية للترتيبات الدستورية الإنكليزية" فإن البعض فى فرنسا "اقترحوا اعتبارها شيئا يماثل النموذج" وإن استهدفت إصلاحا (محدودا)، (malia 2006 : 160).

ويشير باركر (146 : 1999) إلى أن الرأى فى أوساط الراديكاليين الإنكليز انتهى إلى أن "تسوية ١٦٨٨ مثلت "الثورة" الوحيدة الضرورية والأمل (الذى كان له ما يبرره) فى أن تتطور المبادئ الليبرالية لتلك الحركة، على نحو ناجح، فى حركة إصلاحية تدريجية بدرجة أكبر ليتحقق المعنى الكامل للثورة التى كانت قد انتهت بالفعل". ويبدو اعتقاد ماليا فى أن الثورة المجيدة لم يكن ممكنا أن تمثل نموذجا ثوريا لبقية أوروبا.. (لأنها) لم تكن قابلة للتصدير (160 : 2006) عاجزا عن إدراك قوة حكاية ثورة ليبرالية ملتزمة بما كان يكتب، على نحو متصاعد، باعتبارها تمدينا ومقرطة، وإن على نطاق محدود. وكان هناك من انتبهوا سواء فى أوروبا أو عبر الأطلسى فى مستعمرات بريطانيا العظمى فى أمريكا الشمالية.

تراث ثورى معارض للثورة

أمريكا فى ١٧٧٦ وقتئذ

قد يكون ما يسمى "الثورة الأمريكية" فى ١٧٧٦[٧] الثورة اللا ثورية الأشهر، على الأقل فى حدود استخدامنا للمصطلح، بشكل عام، وهذا يجعلها، بطرق مختلفة، النموذج التوضيحى الكامل لهذه الحكاية التحذيرية إلى حد بعيد للثورة الليبرالية. فبرغم أن الثورة الأمريكية تقف على نحو آسر باعتبارها واحدة من أعظم اللحظات الثورية، وإن لم تكن من العمليات الثورية، فإن المرء يبحث عنها دون طائل فى معظم الدراسات الأكاديمية عن الثورات، حيث تشيع الكتابة

عننيا كثورة سياسية، وربما كان الأجدى النظر إليها باعتبارها حرب استقلال؛ ذلك أن تصويرها بصورة نضال من أجل "التحرر الوطنى" أو "معاداة الكولونيالية"، وإن كان صحيحًا من الناحية الفنية، يخاطر بانتزاعها من السياق دون هدف يعتد به. ويبرز كومار التناقض (225 : 2008) عندما يمضى فى إثر برنتون (5 – 4 : 1965) مشيرًا إلى الثورة الأمريكية باعتبارها "عظيمة" ويضعها (هى وثورة إنكلترا) مع "الكبيرات الثلاث" فرنسا وروسيا والصين، لكنه يلاحظ، بعد ذلك، أننا مستعدون لتسمية الانفصال الأمريكى بالقوة عن الدولة البريطانية ثورة (الثورة الأمريكية) (229 : 2008)، وهذا منطوق يصعب أن تجد فيه ما يوحى بالعظمة. ففى تناقض ملحوظ لما فعله الفرنسيون والروس والصينيون – ولكن فى تشابه قوى مع ما فعله الإنكليز – لم يبذل الأمريكيون جهدًا حقيقيًا لإحداث تحول جوهرى فى موروثهم الاجتماعى والاقتصادى الأوروبى (ولا فى الموروث السيكولوجى ولا الثقافى) مع سعيهم إلى تعميق أفكار أوروبية معينة.

وسوف تتكرر عودتنا فى هذه الحكايا إلى تساؤلات حول ما هو الثورى فى حالة معينة وما هى أهميته؟. ويبدو من الحمق أن نتجاهل أن الثورة الأمريكية كانت ثورية بطريقة جديدة ومهمة بالنظر إلى رفض الإحياء وإعادة صياغة الهيئة السياسية. ويصفها ساكوا (154 : 2001) باعتبارها "الحالة المثالية" التى لحقت بها، فيما بعد، الثورة الفرنسية، لما يسميه "ثورية التنوير". وإضافة إلى ذلك، فمن السهل أن نتبين الطرائق التى أظهرت بها أهميتها وأثرت بها على الآخرين؛ فهناك أصداء فى كل الحكايا التى ستأتى فيما بعد. وهكذا فنحن لا نحتاج هنا إلا إلى استعادة السردية المألوفة عما يشار إليه عادة باعتباره الثورة الأمريكية فى ١٧٧٦.

ولمدة عقد أو ما يزيد على ذلك قبل ١٧٧٦ استهدف معظم جهود أهل المستعمرات الأمريكية المزيد من التمثيل النيابى والاستقلال داخل النظام البريطانى. وكان التركيز الأكبر ينصب على التخلص من الضرائب الباهظة.

وعلى إسقاط الدين المتعاظم، وإصلاح المؤسسات السياسية القائمة لكى تـوائم مـا أصبح ينظر إليه، على نحو متزايد، باعتباره الاحتياجـات والمـصالح الأمريكيـة المتميزة عن تلك التى تخص "البلد الأم". ومع مراعاة القانون الإنكليزى واعتبـار الثورة الإنجليزية مصدرا للإلهام (kumar 2001 : 72)، ولأنهم يسعون، قبل كـل شيء، إلى تغيير القادة المتشددين أو غير المتجاوبين، بدأت بعض الطبقات الشعبية الأمريكية تدخل مرحلة الهياج وبدأت بعض عناصر النخبة تسعى لاكتساب مساندة شعبية لمعالجة أسباب السخط، وعندما فشلوا فـى ذلـك كـان البـديل المطالبـة بالاستقلال. وعندما أعاد التاج البريطانى تنظـيم صـفوفه وشـدد قبـضته وزاد الضرائب وأبقى على عدد أكبر من الجنود فى مـواقعهم، تـصاعدت التـوترات. وقوبلت هذه التدابير الإمبريالية ببلاغة ليبرالية وجمهورية متصاعدة كانت تـشير إلى الترتيبات الدستورية البريطانية، واستخدمت هذه البلاغة لتنظـيم المعارضـة للمطالب البريطانية، وشجعت عنف الدهماء للإشارة إلى خطورة التحدى. وبلغـت الأمور نقطة حرجة مع قانون الشاى فى ١٧٧٣ وهو الذى عجـل بقيـام "حـزب الشاى فى بوسطن" الشهير الذى أدى بالتالى، إلى الإجراءات العميقة (لمعاقبة أهـل بوسطن) وهو ما أسفر بدوره عن المؤتمر القارى الأول فى ١٧٧٤. وبعـد ذلـك بحوالى سبعة أشهر فى ١٩ أبريل ١٧٧٥، أطلقت القوات البريطانية النـار علـى ميليشيا ماساشوسيتس، والطلقة "سُمعت حول العالم" (Emerson 1994 : 125) وبعد أسابيع انعقد المؤتمر القارى الثانى: وفى أقل من العام بقليل فـى ٤ يوليـو ١٧٧٦ سوف يقرون إعلان الاستقلال.

ويبقى إعلان الاستقلال واحدا من أكثر الوثائق راديكالية فى كل العـصور. والإعلان الذى كتب معظمه توماس جيفرسون يعلن حق تقرير المصير ويـصوغ موقفا موجزا وقويا من حقوق الإنسان الأساسية ("نحن نعد هذه الحقـائق واضـحة بذاتها، إن كل البشر خلقوا متساوين.. بحقوق معينة غير قابلة للتصرف، وإن بـين

هذه الحقوق حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة") ويوجه اتهامات إلى الملك ويبرر استقلالهم. ويُدخل إعلان جيفرسون فكرة الديمقراطية إلى نظام الحكم مانحًا "الشعب" الحق فى "تغيير أو إلغاء الحكومة التى تصبح مدمرة" لحقوقهم المشتركة والمتساوية فى "الحياة والحرية والسعى وراء السعادة" (وهذه الأخيرة مأخوذة من روسو، فى تبديل لافت لما نادى به لوك بخصوص "الحياة والحرية والملْكية") مع إعلان المثال الثورى الذى يجعل الحكومات "تستمد سلطاتها العادلة من موافقة المحكومين". وهذه صيحة ليبرالية ومانيفستو ليبرالى لا يقلل منه على الإطلاق، ما لحق به بعد ذلك من ترويض فى الدستور الأمريكى، حيث ارتبطت الحرية بالملْكية أكثر مما ارتبطت بالديمقراطية، مع استمرار الشكوك فى الإشارة إلى حكم الدهماء الذى قد تكون عواقبه وخيمة على من يملكون المال والامتيازات الحريصين على الإفادة من وضعهم الجديد.

وبالطبع فهناك تفسيرات كثيرة أخرى (انظر، ضمن آخرين Nash 2005; Zinn 2005)، وكما سيتبين فى الفصول المتأخرة، تفصيلاً، وخاصة عن مناقشة الحكاية الثورية للحرية والتحرر وحكاية ثورة المضيَّعين والمنسيين، فهناك عدد من الأبعاد الأخرى للعملية الثورية فيما سوف يصبح الولايات المتحدة. وفى الحكاية الأولى يكون دور الراديكاليين الأوائل مهمًا على نحو خاص، وفى الثانية تبرز إلى المقدمة النضالات الثورية التى تتواصل بعد النصر.

وهناك تحول فى هذه الحكاية: فبعد أن صنعت أمريكا ثورتها وصدمت العالم، بادرت إلى إطلاق ما سوف يصبح تراثًا مطولاً من معارضة الثورة فى أى شكل، تقريبًا، وفى أى مكان وفى أى وقت. وأظهر توينبى دهشته من أن أمريكا بعد ثورة خطيرة، بدت "محرجة ومتضايقة".. عند تذكيرها [بما جرى] وفوق ذلك فقد فضلت دور "روما" لتساند على الدوام الأغنياء ضد الفقراء فى كل المجتمعات الأجنبية التى خضعت لهيمنتها. ولأن الفقراء، حتى الآن، أكثر عددا من الأغنياء

فى كل مكان وزمان، فإن سياسة روما عمدت إلى اللا مساواة والظلم وإلى أقل قدر من السعادة لأكبر عدد من البشر (92 : 1962). وأظهرت آرندت قلقها (1965 : 216) من أن العجز عن إدماج الثورة الأمريكية فى التراث الثورى "لم يلحق الضرر بأمريكا فى الخارج فحسب" عندما تحدث الثورات حتى فى القارة الأمريكية وتتصرف كما لو أنها تعرف نصوص الثورات فى فرنسا وروسيا والصين عن ظهر قلب وإن كانت لم تسمع شيئا أبدا عن شىء يدعى الثورة الأمريكية بل وعلى أرضها أيضا، حيث "الخوف الحاد من الثورة" الذى يرجع إلى العجز عن تذكر أن الثورة هى التى أدت إلى مولد الولايات المتحدة وأن الجمهورية ظهرت للوجود ليس بفعل "حتمية تاريخية" ولا بفعل تطور عضوى، بل بفعل عمدى هو "تأسيس الحرية". وسواء كان الباعث هو الخوف أو الاطمئنان إلى الاعتقاد بأن الثورة الليبرالية البطيئة والإصلاحية هى الطريق فإن الولايات المتحدة أصبح ينظر إليها باعتبارها القوة الأولى المعادية للثورة فى العالم.

فهناك، إذن، فى حقيقة أن الثورة الأمريكية هى واسطة العقد، المثال اللامع المتوهج للثورة الليبرالية، جوهر حكاية ثورة التحضر والمقرطة. وفى هذه الحكاية تحطم عصبة من الشجعان والملتزمين من "الرجال الجدد" (وهم جميعا رجال وجميعًا بيض انظر، مثلاً: (Nash 2005 : xvi and Passim; Linebaugh and Rediker، 2000 : 211 – 47) من العالم الجديد "العالم الجديد" أغلال "القديم" ويبدو من جديد أنها ثورة مدينة بالفضل لأمم أعرق لكنها تنظر إلى الأمام فى تحد، وإن لم يكن ذلك إلى أبعد مما يجب، أو بأسرع مما يجب وقد كان التركيز على الحرية، التى تحميها القوانين ويحفظها نسق من الضوابط والموازنات. و"المذهب الجمهورى" الذى ظهر أصبح ينظر إليه باعتباره المنطوق الديمقراطى الجديد، ولم تعد الديمقراطية حكم الدهماء بل أعيد توصيفها لتصبح حكم المتحضرين. وفى هذه الصياغة القوية تصبح "أمريكا" الآن منارة لأمم العالم وتعود رسالتها القوية لتعبر الأطلسى إلى فرنسا.

عندما تصبح الثورات الجيدة ثورات سيئة

الحكايا التحذيرية لفرنسا ١٧٨٩

لن نبقى طويلاً مع الثورة الفرنسية هنا – فالتحولات التى طرأت على مسارها تأتى مع الحكاية الثورية الاجتماعية فى الفصل التالى. ورغم ذلك فهى مكون مركزى فى هذه الحكاية وهى بلا شك فى تقرير مسار الحكاية. ويجدر بنا أن نعود إلى ملاحظة مورنيه (471 : 1993) التى أشرنا إليها فى الفصل السابق حول أصل الثورة الفرنسية الذى يراه مورنيه حكاية تختلف عن حكاية تاريخها، رغم أننا يجب أن نركز هنا على حكايا(*)، ذلك أنه حتى لو قمنا باستعراض متعجل لمجموع الكتابات المبهرة حقا، الأكاديمية والشعبية، والتى عالجت ثورة ١٧٨٩ فسوف نجد أنه لم تكن هناك ثورة فرنسية واحدة، بل ثورات. وفى حكاية التحضر والمقرطة فإن فرنسا ١٧٨٩ هى الثورة الطيبة التى أصبحت شريرة: "طيبة" فى سنواتها الأولى، الليبرالية؛ وشريرة عندما مضى الناس إلى ما يتجاوز المحدد على الخرائط سلفا وعندما مضت الأمور إلى أبعد مما يجب.

ولابد لأى حكاية عن ثورة فرنسا أن تبدأ بثلاثة عناصر: أولها أنه أيا كانت متاعب فرنسا فى ١٧٨٩ فقد كانت تلك الدولة إحدى أهم وأقوى دولتين وأكثر دولتين نفوذا فى العالم، وكانت باريس عاصمة الدنيا. والثانى هو أن فرنسا كانت تتميز بالطبيعة القمعية للنظام القديم وأوضاعه التى بقيت إقطاعية إلى حد كبير، بكل ما كان يعنيه ذلك بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وأخيرا ففى حين أدت المساعدات الفرنسية التى تفوق الحصر للثوريين الأمريكيين على هزيمة خصوم فرنسا، وهم البريطانيون، فقد ثبت أن النصر سيف ذو حدين: فلم تكن نتيجة هذه العملية أن أشرف النظام الفرنسى على الفشل فحسب، بل وعاد

(*) وليس على كون الثورة، بالضرورة، حكاية واحدة – المترجم.

الجنود ورجال الدولة بأفكار "راديكالية" عن الحكم الذاتى الجمهورى(٦)(*). وبرغم المظهر الذى كان يتسم بقدر من العافية فلم يكن كل شيء على ما يرام.

هنا تبدأ الحكاية تتشعب ولا تظهر حكاية التحضر والمقرطة كبير اهتمام بمأساة الطبقات الفلاحية الضخمة أو فقراء الحضر الذين تتزايد أعدادهم – وتظهر حكايا هؤلاء فى الفصول المقبلة. وفى مواجهة موقف مالىّ لا يمكن الخروج منه وسخط متصاعد، دعا الملك فى ١٧٨٧ إلى انعقاد "جمعية الوجهاء" – وهم موظفون وممثلون عن الأرستقراطية والكهنة – لكنهم عجزوا عن الاتفاق على طريق للخروج من الأزمة. ومع شعوره بالإحباط، وربما لأنه لم يكن لديه خيار آخر، فكر الملك فى استدعاء "السلطات العامة" – وهى هيئة كان يفترض أن تمثل شعب فرنسا. فبما يتماشى مع الإقطاع المتأخر كان مجتمع فرنسا الأبوى المنظم تنظيمًا دقيقًا يتميز بأوضاع تحدد لكل فرد مكانه ووظيفته فى المجتمع؛ وانعكس ذلك، بشكل واسع فى "السلطات" الثلاث: السلطة الأولى الكهنة؛ والثانية الأرستقراطية؛ والثالثة كل من عداهم.

وقد هيمنت السلطتان الأوليان، تاريخيا، على كل إجراء من هذا النوع. ولابد أنهما توقعتا، وهذا منطقى، أنهما لا زالتا قادرتين على أن تفعلا ذلك؛ ولأن الملك يدرك جيدًا أنه يتعين عليه أن يسترضيهما **(Sewell, 1985; 67)** لابد وأن حساباته انتهت إلى أن خطوة كهذه تستحق المخاطرة.

وهكذا ففى هذه الحكاية، بالتحديد، ومع افتراضنا حسن نية الملك الذى كان مدركا لضرورة أن يفعل شيئا والذى لقى قدرًا من المعونة من بعض النبلاء أو تحت ضغط الأرستقراطية وبعض حلفائهم الجدد فى أوساط البورجوازية الموسرة الجديدة؛ انعقدت هيئة "السلطات العامة" فى محاولة لتحديث الدولة الفرنسية وربما

(*) المقصود بالحكم الذاتى هنا حكم الشعب بالشعب – المترجم.

لتحسين مركز الأرستقراطية وحلفائهم. وكما يلاحظ سيويل فقد كانت هذه نهاية مرحلة الملكية المطلقة (67 : 1985) رغم أنه يصعب الشك فى أن الملك والكهنة والأرستقراطية تخيلوا أن يعمل هذا الاجتماع لمصالحهم المتبادلة.

فقد قللوا على نحو خطير، من شأن السلطة الثالثة التى أظهرت قوة واستقلالية فى الفكر غير متوقعتين، وهو ما أربك الجميع. وعندما ينظر المرء فى ميكانيزمات العملية يجد أن ذلك لم يكن يجب أن يحدث. ففى ظروف توتر هائل أقيم نظام انتخابى بسيط، ووضعت قوائم للمظالم (cahiers des doleances) وبالتالى فلا يبدو غريبًا أنه بعد ستة أسابيع من انعقاد هيئة "السلطات العامة" فى أوائل مايو ١٧٨٩ ولأول مرة منذ ١٧٥ عامًا، فإن السلطة الثالثة، مع بعض المؤيدين لها من السلطتين الأخريين، تعيد تشكيل نفسها باعتبارها الجمعية الوطنية التأسيسية لفرنسا وتبدأ، فى مواجهة محاولات من الملك لقمعهم، فى كتابة دستور. وبعد ذلك بشهر سقوط الباستيل فى ١٤ يوليو (وهى حكاية تروى فى الفصل التالى نظرًا لرمزيتها الاجتماعية القوية) الذى كان إشارة إلى سقوط كل مغزى للسلطة الملكية، رغم أنه بقيت بعض مشاعر الود تجاه الملك لعدة أسابيع تالية.

وبعد شهرين، لا غير، من أول انعقاد للجمعية الوطنية، صوتت الجمعية فى ٤ أغسطس لصالح إلغاء الحقوق الإقطاعية، رغم أن ذلك الأمر كان فيه من الرمزية أكثر مما فيه من الواقعية. وبعد قرابة ثلاثة أسابيع تبنّى الجميع إعلان حقوق الإنسان والمواطن. بدأ الإصلاح الليبرالى فى فرنسا وأصبح رفض الملك لما يحدث أمرًا ينذر بالشؤم[٨].

وإعلان حقوق الإنسان والمواطن ينبع مباشرة من إعلان الاستقلال فى الولايات المتحدة، مع بعض إضافات مهمة وتحول جديد. فهذه المساواة وهذه الحقوق كانت هنا متاحة لكل الرجال فى كل مكان (فالنساء والعبيد كانوا، كما جرى فى الولايات المتحدة، مستثنين)، أصبح الناس فى المقدمة وفى المركز؛ فبوصفهم الأمة

صاروا أصحاب السيادة وبالتالى الشرعية والسلطة. وشملت الحقوق "الحرية والملكية والأمن ومقاومة الطغيان" وكذلك الحريات التى سوف يشملها قانون الحقوق الأمريكى مثل حرية الكلام والعبادة والحرية من التوقيف التعسفى - وفى محاولة لرد مظالم معينة أقدم عليها النظام القديم - وافتراض أن المرء برىء حتى تثبت إدانته، والعقوبات العادلة، والضرائب العادلة للصالح العام، وقوات مسلحة تخدم المجتمع، ومصادرة الأملاك للصالح العام مع تعويض عادل، ومحاسبة الموظفين العموميين. إنها وثيقة عظيمة - وإن كانت إصلاحية بالنهاية (على الأقل فى هذه الحكاية) - وسوف تصبح ديباجة الدستور الفرنسى فى ١٧٩١.

وهكذا كانت السنة الأولى من الثورة سنة إصلاح معتدل وإن كان دراماتيكيا، إلى حد بعيد، تتبع خطا الثورتين فى ١٦٨٨ و ١٧٧٦. وفى حكاية التحضر والمقرطة نجد ملكا حسن النوايا، وإن كانت الأحداث دهمته، يحاول أن يتقبل خسارة السلطة المطلقة لكنه قليل الصبر فى لهفته على التصالح مع "شعبه" الذى تعمل طبقاته معا باتجاه نوع من الملكية الدستورية.

وخلال "أيام أكتوبر" أجبرت النسوة المحرومات والجائعات الأسرة المالكة والجمعية الوطنية على العودة من فرساى إلى باريس لتأسيس حرية التجارة (بما فى ذلك قمع اتحادات العمال)، وانتقلوا بالبلاد من نظام الأقاليم لنظام المناطق، وعقدوا الانتخابات، وأقاموا نظاما موحدا للمحاكم وللممارسات القضائية، وفى تحرك مثير للجدل أمموا ممتلكات الكنيسة والكهنة ذوى الرواتب، لكسر شوكة الكنيسة ولأسباب مالية أيضا.

وهنا تبدأ الحكايتان تتخذان مسارين مختلفين؛ ففى الحكاية الثورية الاجتماعية التى سنأتى إليها لاحقا نجد السنة الأولى هذه، سنة الإصلاحات التى تنتهى إلى دستور ١٧٩١ فى مواجهة أرستقراطية مكابرة، هى بمعنى ما النقطة التى تبدأ الأمور تتحرك منها. أما بالنسبة لحكاية التحضر والمقرطة فقد كانت هذه

السنة بداية النهاية. في هذه الحكاية نجد "اليسار" - فقد أصبح هنالك من تلك اللحظة "يسار" و"يمين" كتعبير بسيط عن مكان جلوس الناس في الاجتماعات الأولى للجمعية الوطنية الوليدة - وهم يطلبون المزيد، ما لا يقل عن النظام الجمهوري واستفتاء عام على مصير الأسرة المالكة. وربما كان ما صدر عن البابا بيوس السادس في فبراير ١٧٩١ من إدانة للثورة هو ما شجع الملك على أن يتطلع إلى علاقاته خارج فرنسا، ولا شك أن محاولته في يونيو الهرب من البلاد بعائلته أكدت أسوأ شكوك اليسار ومن المرجح أنها حسمت مصير الملكية. وبدا أن موافقة الملك على الدستور في سبتمبر أمر بلا معنى. وبعد أن أنجزت الجمعية التأسيسية عملها حلت نفسها، وأجريت الانتخابات، وفي أكتوبر ١٧٩١ انعقدت الجمعية التشريعية الجديدة، لتجد في انتظارها تهديدات البروسيين والنمسويين بإعادة الملكية في فرنسا. وخوفا من وقوع الغزو، بادرت الجمعية في أبريل ١٧٩٢ إلى إعلان الحرب على النمسا (في شجاعة موجهة في هذه الحكاية، ضد كل الملوك، باسم كل الرجال) واتخذت الثورة مسارا أكثر راديكالية بكثير. واتهمت الأسرة المالكة بالخيانة، بعد أن بدا أن الثورة في خطر. وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ انفجر التمرد في باريس وأسقط الملكية ودعا إلى انعقاد دستوري أعلن في ٢٢ سبتمبر قيام الجمهورية الفرنسية. وفي ديسمبر حوكم الملك بتهمة الخيانة وأدين، وأعدم بالجيولتين في ٢١ يناير ١٧٩٣ رغم معارضة المعتدلين الذين وجدوا أنفسهم، في غضون ستة أشهر، مطرودين من الحكومة ثم واجهوا الإعدام بالجيلوتين في أكتوبر، ومعهم الملكة أيضا. وبالنسبة للمعتدلين تبين أن الثورة بدأت تلتهم أطفالها، ومنذ تلك اللحظة بدأت محاولات التحول السريع والدراماتيكي تتصاعد(٩).

وهكذا تمضي فرنسا بحكاية التحضر والمفرطة إلى نهايتها مع رسالة تحذير: المطالبة بالكثير، في أقرب وقت، والحركة إلى أبعد مما يجب، بأسرع مما يجب يدمر الحكم الليبرالي الذي تلتهمه الحرائق (أو الحمى، وفقا لما جاء في

(Brinto ،16 : 1965) على نحو لا يمكن السيطرة عليه. ورغم ذلك فإن ١٧٨٩ تمثل ميلاد شعب (سوف ينظر إليها فيما بعد باعتبارها لحظة ميلاد "ال" شعب)؛ إذ حدثت فكرة الديمقراطية المرتبطة باليونان وروما القديمتين واللتين ذكرتا كثيرًا فى هذه الحكاية، وزرعت ليبرالية وديمقراطية "أمريكا" فى خاصرة الوحش ذاتها، فى أوروبا الملكية. وعند هذه النقطة كانت مجموعة من المصطلحات: التمدن، التقدم، الديمقراطية – تكتسب معنى جديدا، معنى مألوفا لدينا اليوم.

وبالحقيقة، وكما يلاحظ ويدرا (29 : 2008) فإن الفرنسيين "خلقوا شعبية للديمقراطية عندما ضفروا فكرة المساواة المسيحية التى تدور حول قيمة الكائنات البشرية بتراث التنوير المتصل بانعتاق الإنسان.." (وهنا) مولد "السياسات الديمقراطية" وإن كان يلاحظ أيضا، ملاحظة دقيقة، عندما يقول إن الوقت المناسب للديمقراطيين لم يكن قد حان بعد؛ ذلك أنهم كانوا لا يزالون فى مرحلة الاقتراب من الظهور (wydra 2008 : 32)، والقصة التحذيرية التى تدوى هنا يلخصها ينعزى (253 : 2008) الذى يعتبر تقارير "المدارس المراجعة" نسخة من الثورة التى تطورت من "التمرد التحريرى" (الليبراليين) إلى "الإرهاب اليعقوبى" (التوجه إلى المركزية والاستعداد لتوظيف الإرهاب) إلى "ثيرميدور البورجوازى"(*) (أو الاعتدال، وربما حتى العودة إلى أزمنة ما قبل الثورة). وهذه هى النهاية المفضلة لهذه القصة حيث يجد الفرنسيون طريقهم للعودة إلى التمدن والتقدم، إلى الديمقراطية الليبرالية، بعد أن أدبتهم المبالغات التى اقترفوها وبعدما تبين لهم خطؤهم.

(*) انقلاب الثورة المضادة ٢٧ – ٢٨ يوليو ١٧٩٤، الموافق ٩ ثيرميدور من السنة الثانية وفق التقويم الجمهورى – المترجم.

الرجوع إلى المستقبل

عودات ثورية إلى الثورات الليبرالية

وسواء صوّرت الثورة المجيدة في إنكلترا في ١٦٨٨ والثورة الأمريكية في ١٧٧٦ والفرنسية في ١٧٨٩ باعتبارها من ثورات التنوير أو من الثورات "الليبرالية" فهي تمثل جوهر حكاية ثورة التحضر والمقرطة، وقد تخيلت كل منها لنفسها جذورا في اليونان وروما والتراث اليهودي - المسيحي - وتولد عن كل واحدة منها مقاومة وتمرد وثورات في أماكن أخرى. وهو ما كان يخشاه ملوك أوروبا بالضبط. ومن الأحداث التي تندرج ضمن هذا التصور وتتناسب معه تمردات بلجيكا في ١٧٨٩ وحتى ١٩٩٠، وثورة هاييتي في ١٧٩٤، والتمرد البولندي (انتفاضة كوشوسكو) وتمرد فيدون في غرينادا في ١٧٩٤ والتمرد الأيرلندي في ١٧٩٨ وفي أحوال نادرة نجد أن الحروب المتفرقة في أمريكا اللاتينية من أجل الاستقلال مندرجة ضمن هذا التصور، رغم أن فيها كلها عناصر ليبرالية.

اللحظة التالية التي تتردد أصداؤها بقوة في الثورات الليبرالية في حكاية التحضر والمقرطة هي في أوروبا في ١٨٤٨. وكما هو الحال هنا، فسوف نجد الثورات في هذا العام تحت عديد من الأقنعة؛ كانت ثورات ليبرالية أو "بورجوازية" إلى حد كبير، في جوهرها، تستهدف دورا أكبر للطبقة الوسطى النامية في تلك المنطقة وإرساء معايير ديمقراطية رأسمالية. وأيا كان الهدف الحقيقي للانتفاضات فقد انتشرت بدرجة مربكة وبسرعة بالغة، في وقت كانت الأخبار فيه لا تزال بطيئة الانتشار: باليرمو ونابولي وبقية الدويلات التي ستتألف منها إيطاليا؛ باريس وأجزاء أخرى من فرنسا؛ برلين (بروسيا)، بافاريا، ومعظم الدويلات التي ستصبح ألمانيا،

الدانمارك (شلزفيغ) ومختلف أرجاء إمبراطورية الهابسبورغ (وخاصة النمسا وهنغاريا)؛ سويسرا وبولندا ورومانيا؛ وكذلك تمردات أصغر في التشيك وفي أوكرانيا، وسلوفاكيا، وبلغاريا وصربيا، بل وفى البرازيل[١٠] وإذا كان تحليل بريفليان القائل بأن ١٨٤٨ كانت نقطة التحول التى فشل التاريخ المعاصر في أن يبلغها (292 : 1922) صحيحا، فإن ذلك لا يكون إلا بمعنى أنه لم يتحول إلى تاريخ ثورى. ويشير هوبزبوم (10 : 1996 b) إلى أنه "لولا حدوث هذه الهبات، ولولا الخوف من تكرارها لتغير تاريخ أوروبا فى السنوات الخمس والعشرين التالية، تغيرًا كبيرًا. وقد كان العام ١٨٤٨ أبعد شيء عن أن يكون (نقطة التحول التى عجز تاريخ أوروبا عن بلوغها)" ورغم أن كثرة المطالب وكثرة التوترات أضعفت الثورات، فلا شك أن حصادها كان المزيد من التمدن ومن الديمقراطية.

وتبدأ حكاية التحضر والمقرطة بالتحرك من وسط أوروبا باتجاه الخارج، وهنا تذكر، عادة، الثورة الدستورية فى روسيا فى ١٩٠٥ التى فشلت، وفى إيران حيث حققت نجاحًا جزئيا. وفى بعض الأحيان تذكر الثورة الجمهورية فى البرتغال فى ١٩١٥ التى اختلط فيها النجاح بالفشل، والثورة المكسيكية التى قدر لها أن تكون، على امتداد السنوات العشر التالية، أول التحولات الاجتماعية الكبرى في القرن العشرين. ويمكن للمرء أن يزعم بأن ثورة بوليفيا الوطنية التى تعقدت في ١٩٥٢ و"ثورة القرنفل" فى البرتغال فى ١٩٧٤ مناسبتان، أيضا، لإطار هذه الحكاية، وقد انحطت الأولى إلى سلسلة من النظم العسكرية فى حين أن الثانية أسفرت عن حكومة دستورية وديمقراطية ناجحة، وهو ما كان بمثابة صورة مبكرة عن "الثورات الملونة" فى أوروبا فى ١٩٨٩.

وتتناسب أحداث ١٩٨٩ بدرجة أكبر مع حكاية التحضر والمقرطة أكثر مما تتناسب مع غيرها، رغم أنها إضافات حديثة العهد ومضطربة، إلى حد ما. ويعود

هذا، جزئيًا. إلى طبيعتها التى نجح فى تصويرها اللفظ المنحوت refolution(*) كإشارة إلى "ثورة لا ثورية" وهو ما يلاحظ بالأحداث ذات التوجه الديمقراطى والتى كانت فى الغالب حضرية وتضمنت قليلاً من العنف أو خلت تمامًا منه وتميزت بوقائع العصيان المدنى التى قادتها المعارضة أو النخب "الإصلاحية" التى تجيد التعامل مع الميديا والتكنولوجيا والمستعدة للتفاوض (Gartonash a: 1;1989)(١١) (9 ;b 1989) ولا يبدو أن هذه الأحداث تتناغم على نحو جيد مع فرنسا ١٧٨٩؛ وبالحقيقة فإن ويدرا (44 : 2008) يشير إلى أنهم يقلبون الثورة الفرنسية رأسًا على عقب. كما أن هذه الأحداث لا تتوافق مع أى من المثالين الإنجليزى أو الأمريكى، رغم أن كومار (2001 : 132 citing bozoki 1992 : 166 – 7)، يزعم أن "غالبية دول شرق ووسط أوروبا مرت بـ "انتقال للديمقراطية" فى العام ١٩٨٩ – ١٩٩٠، على غرار "الثورة المجيدة" فى إنجلترا فى ١٦٨٨ – ١٦٨٩ (الانتقال الناجح الأول للديمقراطية)" وبعد ذلك توسع فى زعمه مشيرًا إلى أن "الثوريين فى ١٩٨٩ سعوا إلى تجنب النماذج الجامحة والمضطربة، إلى حد ما، فى القرن العشرين وارتدوا إلى المبادئ الأكثر رسوخًا واحترامًا للأجيال الأسبق، للناس الذين صنعوا ثورتى ١٨٦٦ ، ١٧٧٦ وثورة ١٧٨٩ على الأقل فى مراحلها الباكرة" (kumar 225 : 2008)، ورغم أن المقارنات هنا لها معنى بديهى (وكذلك الخوف من العسكر) فإن التوافق الأعظم هو مع ثورات أوروبا فى ١٨٤٨ على الأقل فى صيغتها الليبرالية أو البورجوازية. وقد أشير إلى الثورات الملونة فى ١٩٨٩ باعتبارها "خريف الأمم" فى إشارة مباشرة، على نحو واضح، إلى "ربيع الأمم" وهى مقارنة تبدو موفقة، رغم أن بوسع المرء أن يلاحظ أنه، حتى الآن، قوبلت هذه الأحداث بنجاح يفوق ما حازه مواطنو هذه البلاد قبل ١٤٠ سنة. ومن الواضح أن هذه منطقة تحتاج مزيدًا من البحث من زاوية دراسة الثورة المقارنة، وسوف تظل، على نحو متزايد، جزءًا من الحكاية.

(*) وهو تحرير لكلمة revolution التى تعنى الثورة بوضع f المأخوذة من reform التى تعنى الإصلاح بدلا من v التى ترتبط بكلمة violence التى تعنى العنف – المترجم.

وبالنهاية، فحكاية ثورة التحضر والمقرطة هى حكاية محوطة بالشكوك، تقوم على شبهة أن الثورة "طيبة أو سيئة ولكنها ليست شريرة"[١٢] على الأقل عندما يكون تحقيق الليبرالية هو الهدف. وهى تحكى عن ثورات سياسية أساسًا، وهو ما يبدو أمرا ملائمًا؛ فالثورة، بالنهاية، "كان لها حتى انتصاف القرن التاسع عشر معنى سياسى قبل كل شيء" حيث إنها كانت "الموروث الرئيسى للثورات الإنكليزية والأمريكية والفرنسية" (kumar : 2001 : 220) ويزعم كومار (220 : 2001) مرددا أصداء ما قاله (brinton : 1965 : 250)، وعلى نحو آسر، إن أهداف هذه الثورات الثلاث التى تقع فى قلب هذه الحكاية ربما يلخصها، على نحو ما، شعار الثورة الفرنسية (الحرية، الإخاء، المساواة) ثم يمضى إلى الإشارة إلى أنه فيما يظل هذا الإعلان عن المبادئ قابلاً للتفسير و"يمكن أن يتخذ أبعادًا طوبوية" فبالنسبة لمعظم الثوريين فإن النماذج التاريخية لإنكلترا وأمريكا وفرنسا طرحت غايات يمكن الوصول إليها وقدرًا من الوسائل المؤسسية باتجاهها (kumar 2001 : 220)، ونحن نركز هنا على تدمير مفهومات الحكم ومؤسساته وبناه القديمة التى ولّى عهدها، وإقامة مؤسسات سياسية ملائمة (وفى هذه الحكاية، أيضًا، المؤسسات الاقتصادية المصاحبة) لتحقيق أهداف اللبرلة والمقرطة.

وتصور ثورات حكاية التحضر والمقرطة باعتبارها ديمقراطية بشكل واسع، وأحيانًا عميق. ويبرز هذا فى ضوء المقابلة مع الاختلالات والتفاوتات التى سبقتها، لقد كانت الديمقراطية التى تقترب محدودة للغاية، أيام نظام الملكية فى أوروبا. إضافة إلى ذلك فإن فرضية أن شعبًا ما ليس بوسعه فقط أن يرسم حدود السلطات المتاحة للنخبة، بل وأن يضعها، أيضًا، موضع المساءلة – أى أن يكون لديه الحق والقدرة على إزاحة القائمين على السلطة عندما يفقدون مساندة الجماهير لهم – لا يحق لها؛ لأن السلطة والشرعية والسيادة هى الآن بيد الشعوب. إنها حكاية قوية التأثير ولها أشياعها: بل ويمكن أن يزعم المرء أنها أرشدت صناع القرار فى

السياسة الخارجية الأمريكية فى مطلع القرن الحادى والعشرين بخصوص تحركات الولايات المتحدة فى العراق وأفغانستان. وفى الوقت ذاته، يبدو أن من يروون هذه الحكاية يتهربون من المضامين الاجتماعية والثقافية الأوسع والأعمق لهذه الحكاية. وهذه الجوانب والمضامين والتفاعلات الاجتماعية – الثقافية هـــى، وبكـــل تأكيـــد، جوهر الحكاية الاجتماعية الثورية للثورة.

الفصل السادس

قصة الثورة الاجتماعية

يمكننا الزعم بأن حكاية الثورة الاجتماعية هى حكاية الثورة، الحكاية التى نفهم بها المصطلح. فعلى مدى ما يزيد عن مائتى سنة، لم تكن هذه فقط الحكاية الثورية المهيمنة، وفق رواياتنا، بل كانت هى الحكاية التى تقوم عليها التعريفات، المعيار الذى تقاس به كل حكاية أخرى والذى يجعل كل حكاية أخرى تبدو ناقصة. وهذه القصة المألوفة يحبها أناس كثيرون فى مختلف أنحاء العالم، وقد يكون لديهم تشوش (على الأقل) بخصوص التفاصيل لكنهم يجدون فيها وعدا بالخلاص من أحوالهم الراهنة. والحكاية الاجتماعية الثورية هى أيضا حكاية مثالية لدى أجيال من دارسى الثورة، راسخة فى مكانها فى حين تأتى النظريات وتروح. ولأسباب نفحصها فيما يلى. فهذه الحكاية هى موضع فريد يلتقى فيها محبو الثقافة الفرنسية والمتوجسون منها: فالأوائل يميلون إلى أن يروا فى الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ البداية العملية للعالم المعاصر والوسيط الذى أوصل الديمقراطية إلى أوروبا الملكية (خاصرة الوحش ذاتها) وأن "الشعب" بدأ يدرك قدراته بها؛ أما الفريق الثانى فتدفعه الأسباب ذاتها، بالأساس، إلى أن يرى فيها أصل الاضطراب بل والشرور المعاصرة الموجودة فى العالم. وهى على النحو الذى صيغت به وبتمركزها على نداء النفير الفرنسى: عن الحرية والإخاء والمساواة، تبقى قصة قوية وآسرة[١].

وقد كانت الثورة تعنى حتى تلك اللحظة، وفقًا لحكاية الثورة الاجتماعية، الإحياء الذى ربما كان، فى وقت ما قضية نبيلة بما يكفى، خاصة عندما كان هناك اعتقاد سائد بأن الإحياء يعود بالناس إلى شىء أفضل، بل الى عصر ذهبى. وترفض هذه الحكاية أوهاما كهذه (وهى أوهام بالتأكيد، فى معظم الحالات) وتصور العملية الثورية فى فرنسا فى ١٧٨٩ على أنها تحول فى مفهوم الثورة

ذاته. وكما رأينا فى الفصل الأول، فقد كان مستشار الملك لويس السادس عشر روشفوكو هو الذى أكد لسيده ومولاه أن الأمور ليست مجرد تمرد بل ثورة – والمغزى واضح[٢]. فلم يعد هناك من يتصور أن الثورة هى مجرد دورة أخرى للعجلة؛ فمنذ تلك اللحظة أصبحت تعنى تحولاً اجتماعيا – ثقافيا عميقا للأمة والدولة وربما للعالم. وقد دفع كارل ماركس، وهو أهم منظّر للثورة الاجتماعية، بأن الثورة لم يعد من الممكن أن "تستمد شعارها من الماضى بل من المستقبل وحده"؛ إذ يجب التخلص من الماضى حتى لا يخنق الثورة التى "لكى تبلغ غايتها.. يجب أن تدع الموتى يدفنون موتاهم" **(597 : 1978 a)** ما جرى واحنا ولاد النهارده.

وبؤرة التركيز فى حكاية الثورة الاجتماعية ثلاثية (تستفيد جزئيا من سكوكبول **4 : 1979**)[٣]: أولاً، ظهور أو إحداث الحالات والصراعات الثورية من أجل السيطرة على سلطة الدولة والتى تشغلها، جزئيا، التمردات ذات الأساس الطبقى؛ وثانيا، السيطرة الفعلية على السلطة والاستيلاء على الدولة؛ وثالثا، الجهد الأساسى الذى يبذل لإحداث تحول عميق، لا بسيط، ليس فقط فى مؤسسات وبنى الدولة السياسية والاقتصادية، ولكن أيضا فى نظمها الاجتماعية والسيكولوجية والثقافية أيضا بأسلوب عصرى وتبادلى. هذه الحزمة من العناصر هى الحاسمة فى حكاية الثورة الاجتماعية، وبهذا فهى تميزها عن التحول السياسى والاقتصادى الذى يظهر فى حكاية التحضر والمقرطة. فالتحول يراد له أن يكون سريعا وجوهريا وبعيد المدى ومؤثرا – ميلاد عالم جديد. وهكذا يجد الناس أمامهم فرصا لا تحصى لتحويل الظروف المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية ولإعادة صياغة عالمهم فى لحظة التمكن المذهلة. وهذه الحكاية لها شعبية واسعة على مستويات عديدة، تحتوى إلى حد ما، كلاً من الحكاية النخبوية السالفة. والحكايا الأكثر شعبوية التى سوف تلى، وهى حكاية تحتفظ بالوهج والرواج فى كل أنحاء العالم، والحضور الطاغى لاحتفالات يوم الباستيل شاهد مدهش على ذلك.

ولا شك أن الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩، على الأقل فى الصورة الشائعة من الحكاية، هى السلف الأصلى: فهى عظيمة، وهى ملحمية، وهى مكتسحة، وأخطاؤها البشعة ضائعة فى ضبابات الزمن شأنها شأن عناصرها الأكثر راديكالية. ولهذا فسوف نعود هنا إلى فرنسا، رغم أن النغمة ودرجة الصوت فى هذه الحكاية يختلفان، دون شك، عنهما فى الفصل السابق: ورغم أن هناك قدرا من الاهتمام بروما واليونان، فالتركيز الآن هو على الجديد دون التفات إلى وراء. فطوال المائة سنة التالية وما يزيد عليها يروى الملهمون رواية النضال ويكدون بحثا عن أفضل سبل التقدم، فيما تروى النخب ومن يديرون الدولة لحسابهم حكايا مرعبة عن التطرف الذى حدث والذى تقول الظواهر إنه كان محتوما. وفى بعض الأحيان "تذكر خيبات ١٨٤٨، ويشار إلى كوميونة باريس شبه الغامضة ١٨٧١ البالغة التأثير، رغم أنها فى هزيمتها تكتسب الكوميونة موقعا أسطوريا – شعريا. وتظهر هنا المكسيك فى السنوات من ١٩١٥ إلى ١٩٢٠ باعتبارها أعظم جيشان اجتماعى فى القرن العشرين، أكثر من غيرها، رغم أن ارتحالاتها المشائية تمثل نوعا من التحدى (وقد انعكست تعقيداتها على نحو أكثر اقتدارا وتم احتواؤها فى يسر، فى حكايا ترد فيما يلى). ولا شك أن الثورة الروسية فى ١٩١٧ وهى بالنسبة لكثيرين امتداد، من نوع ما، لثورة ١٧٨٩ فى القرن العشرين، هى التالية؛ والصين (١٩٤٩) التى مررنا بها، هى أيضا جزء من هذه الحكاية، وقد اعترضت ملحمتها الممتدة (من ١٩١١ إلى ١٩٤٩) حربان عالميتان، لكنها ممثل أساسى لامتداد الثورة الاجتماعية إلى ما أصبح، على وجه السرعة، يطلق عليه "العالم الثالث"(٤). ثم تتحرك الحكاية بعد ذلك إلى كوبا فى ١٩٥٩ التى تأتى بالثورة الاجتماعية إلى العالم الحديث مؤسسة ما يبقى المعيار الأقوى وإن كان قد أصبح الآن عتيقا. وبالنسبة لكثيرين فهذه هى النقطة التى تنتهى عندها الحكاية الكبرى للثورات الاجتماعية العظيمة.

وفى وقت من الأوقات لم يكن أمرًا غير معتاد أن تجد فيتنام (١٩٧٥) وهى حالة أخرى من حالات التمرد (من ١٩٤٥ – ١٩٧٥) أو الجزائر (من ١٩٥٤ – ١٩٦٢) فى هذه الحكاية، رغم أن الاثنتين صار ينظر إليهما. على نحو أكثر نفعا، باعتبارهما حربى تحرير وطنى. وفى وقت أقرب إلينا، شملت روايات لهذه الحكاية، فى أحوال كثيرة، اثنتين من مثلث ١٩٧٩ الثورى، نيكاراغوا وإيران وغرينادا (وهذه الأخيرة هى الثورة النشاز هنا لأنها لم تشتعل بالوهج الكافى ولا لمدة كافية؛ انظر أعمالاً من بينها (heine, 1991: sebin, 1999) وتحتل نيكاراغوا مكانا معقدًا نوعًا ما فى هذه الحكاية، باعتبارها كما يزعم البعض آخر الثورات المسلحة الناجحة فى إطار التراث الذى بدأ مع ١٧٨٩، وأحيانا يرد ذكرها بالنسبة إلى درجة من التدهور أو الانحطاط فى المفهوم. فقد هزم الثوريون النيكاراغويون فى انتخابات ١٩٩٥ رغم أن عودة بعضهم، على الأقل، فى ٢٠٠٨ تشير إلى أن الأمور لا زالت تتفاعل. والمحصلة النهائية فى إيران، التى يعتبرها البعض آخر الثورات العظمى (ولا شك أن هذا تكريم متعجل) تبقى محل شك. ولا أحد تساوره الشكوك فى أن شيئًا مهمًا لإيران، وللمنطقة، وللعالم، قد حدث. لا شك أن شيئًا مهمًا حدث هناك، لكن كثيرًا ما تقع إيران فريسة للاستشراق الأكاديمى أو "الحيرة" ذات التمركز العرقى، وهو ما تذكرنا به انتخابات ٢٠٠٩ المختلف عليها. ويمكن توضيح نقاط تمايز مفيدة بين الثورتين الإيرانية والإسلامية، لكن الأخيرة تبدو أقرب إلى أن تكون الموروث العظيم وتتناسب بالفعل، وإن بطرائق معقدة (نشير إليها فيما يلى) مع الطرح الأساسى لحكاية الثورة الاجتماعية.

وتبقى نقطتان أخريان جديرتان بالذكر قبل أن نلتفت إلى حكايتنا. يبدو من الصعب الشك فى أن الثورة الاجتماعية هى الخوف الملحّ والكلى الانتشار بين النخب ومن يدى الدولة وصناع السياسات. ورغم أن أعمال المقاومة أو التمرد تشد انتباههم الفورى فإن دراما الثورة الاجتماعية تبقى خطرا كامنا. ولهذا السبب فهذه

هى الحكاية، هذا هو شكل الثورة الأكثر إلهامًا لدى غالبية الناس. ورغم أن الوسائل والمناهج تتباين فالجوانب المهمة، الأحداث التى تشكل فيما بينها كلاً أكبر، هى التى تمثل جوهر حكاية الثورة الاجتماعية كما يمكن أن يلاحظ فى أمثلتها الرئيسية الثلاثة: فرنسا وروسيا والصين.

اللحظة التأسيسية: فرنسا فى ١٧٨٩
والمعنى الجديد للثورة

يشيع تصوير الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ باعتبارها الشكل UR (البدائى/ الأصلى) أو echt (الحقيقى / الصحيح) للثورة(٥) باعتبارها جوهر الثورة الاجتماعية لكن انظر (higonnet 1990 : 69) وهى أكبر من أسطورة أو خرافة، فهى تحتل موقع "حدث تاريخى عالمى" لا زلنا نعيش توابعه لليوم. وبرغم ما يقال من قبيل التحذير من "سراب الأصول" (chartier, 1991 : 4 مستشهدًا بـ fouccault, 1977 a) فإن الثورة بؤرة مائتى سنة ونيف من التفكير الثورى، والمفاهيم النقدية الاجتماعية – السياسية، والتصورات عن العالم الحديث. وبعكس حكاية ثورة التحضر والمقرطة فالتفاصيل أو "الحقائق" هنا لا تهم كثيرًا، رغم أننا نتناول بعضها فيما يلى. وبالأحرى فالمغزى الحقيقى هو فى ظهور "عقيدة الثورة باعتبارها الطريقة التى يعمل بها التاريخ" (malia, 2006 : 6) وهو منظور تبقى الثورة الفرنسية فيه نموذج التقدم.

والقداسة فى هذه الحكاية والاحترام البالغ والعام الذى تلقاه الثورة الفرنسية عالميًا، تقريبا، الآن (وهو ما أكده، ويا للغرابة، الاحتفال على طريقة ديزنى بمئويتها الثانية، التى اقتربت، إلى حد خطير، من احتمال أن تصبح كاريكاتورًا مخجلاً) لا يعنيان أن موروثها غير مختلف عليه أو غير ملتبس. هناك روايات

أقل قوة، وإن كانت لا تزال محاطة بما يشبه الهالة الأسطورية، حيث ينسب إلى العملية أنها ألقت تيار الإرهاب على عالم غافل، انظر مثلاً (chaliand chaliand and blin 2007 : 92, 95 – 112) وهذا التصوير للثورة قد أصبح، مؤخرًا، موضع شك لدى تشكيلة متنامية من السياسيين وتعرض لهجوم كاسح من قبل دارسين معاصرين بارزين مثل فرانسوا فوريه وكوكبته، الذين سعوا إلى إعادة صياغة مفهوم الحدث باعتباره، بدرجة ما، يوما آخر في المكتب في دراما متواصلة هي فرنسا (Kaplan, 1995 : 54 – 60) ويمضي بيير شانو، وهو باحث متميز من أعضاء هذه الجماعة، بهذه الفكرة إلى أقصى مدى يمكن أن تبلغه زاعمًا، على سبيل المثال، كما يقول كابلان (31 : 1995) أنه "إذا أعاد المرء إدخال"الثورة" في عملية التطور التي استغرقت خمسة وأربعين ألف سنة من التاريخ فسوف يتبقى 44. 994 عاما تتساوى في أهميتها". وجدير بنا أن نتذكر حكاية ذات مغزى محدد ومسلية ويكاد يكون مؤكدا أنها مختلقة: سئل واحد من أذكى المراقبين السياسيين في القرن العشرين وهو رئيس الوزراء الصيني شواين لاى في أوائل السبعينيات عن أهمية الثورة الفرنسية، فأجاب قائلاً بأن وقت تقرير أهميتها لم يحن بعد[٦]. وهكذا فبعد ما يزيد عن ٢٢٠ سنة من بداية الثورة، فهي لا تزال تمثل تحديا مرهوبًا.

وفي الحكاية الثورية الاجتماعية يحتل الرابع عشر من يوليو، يوم سقوط الباستيل، مكانة بارزة وكان المؤرخ الفرنسي في القرن التاسع عشر جول ميشليه يقول "إنه في ذلك اليوم كان كل شيء ممكنًا.. المستقبل كان حاضرًا.. أي أن الزمن لم يعد موجودًا منه سوى ومضة واحدة هي الأبدية" (استشهد بها كيميل 1860 :1990) ويوسع سيويل اللحظة إلى عشرة أيام من ١٢ إلى ٢٣ يوليو ١٧٨٩ مشيرًا إلى أنها تمثل "مرحلة استثنائية من الخوف، والبهجة، والعنف والإبداع الثقافي الذي غير تاريخ العالم" (845 : 199) وتتبين آرندت، وليس في فكرها سوى فرنسا "حكاية جديدة تماما، حكاية لم تعرف ولم تحك من قبل أبدًا.. توشك أن تبدأ"

(28 : 1965) حيث الناس "عناصر فاعلة فى عملية تقرر نهاية النظام القديم وتـأتى بميلاد العالم الجديد" (42 : 1965) وقد فتحت تلك اللحظة، حسب التعبير الآسر عن دارنتون عالمًا من "الممكنية" (17، 19 : 1990).

وفى حكاية الثورة التى تأتى بالتمدين والمقرطة تمر الأحداث الدراماتيكية ليوليو ١٧٨٩، بل وأحداث العام الأول على وجه التقريب، عبر ما يصفه دون (6 : 1989) بأنه "رد فعل أرستقراطى، كثورة نبيلة"، وفى الحكاية الاجتماعية الثورية، يكون التركيز على البداية الجديدة التى سبقت الإشارة إليها، أكثر من أى شيء آخر، تأثرًا بما أكده باين قبل سنوات قليلة فى كتابه الحس السليم من أننا "نملك داخلنا القدرة على أن نعيد بداية العالم من جديد" (paine, 2000, 44) إضافة إلى ذلك، ففى هذه الحكاية يسعى الشعب ذاتى القوة، الأمة "الوليدة فى فرنسا، إلى العثور على طريق للتقدم فى مواجهة قوى متزايدة العدوانية، فى الداخل والخارج". وهكذا فبرغم توالى الإصلاحات فإنها لم تكن واسعة النطاق ولا سريعة بالدرجة التى ترضى شعبًا يتزايد ولعه بأفكار الحرية والتحرر والمساواة والعدالة.

ودق قرار الملك الذى يبدو غير قابل للتفسير؛ بأن يهرب بأسرته فى يونيو ١٧٩١ ناقوس الفناء للملكية الدستورية الهشة. وأضاف ما يبدو أنه تآمر من جانبه مع حلفائه المخلصين فى بروسيا والنمسا الإحساس بالخطر القادم. ومضت فرنسا إلى الحرب فى أبريل ١٧٩٢ فتصاعدت الراديكالية من فورها إذ بدت خيانة الأسرة المالكة أكثر وضوحا من ذى قبل لأولئك الذين كانوا يرصدون تلك الأمور. وفى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ أسقط أهل باريس، باسم الأمة، الملكية ودعوا إلى مؤتمر دستورى أعلن بعد ستة أسابيع، تقريبًا (٢٢ سبتمبر ١٧٩٢)، وبعد أيام قليلة من تحول مسار الحرب لصالح فرنسا، قيام الجمهورية الفرنسية الجديدة. وكل ما تبقى كان تنظيف المرحلة الإصلاحية(*)؛ وهكذا ففى ديسمبر أدين الملك الذى أصبح

(*) لكى لا يبقى لها أثر – المترجم.

يشار إليه من الآن باسم لويس كابى بتهمة الخيانة وأُعدم على المقصلة (الجيلوتين) يوم ٢١ يناير ١٧٩٣ (وكان على زوجته أن تلقى المصير ذاته فى وقت لاحق من ذلك العام) رغم اعتراضات المعتدلين فى الحكومة، الذين أصبح يُنظر إليهم باعتبارهم مترددين لدرجة تمنعهم من التخلص من أغلال النظام القديم.

وهكذا تبدأ الحكاية الاجتماعية الثورية، بالبأس والإبداع وبالحماسة المتفجرة فيما كان الثوريون يسعون إلى إعادة صنع عالمهم، فى الداخل والخارج، عالمهم وعالمنا. ومن المؤكد أنها حكاية أحادية الجانب؛ فالتفسيرات الأقل سخاء بكثير من التفسيرات التى تطرحها هذه الحكاية تركز على "الإرهاب" – الشهور العشرة (من سبتمبر ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤) من الصراعات الحادة والعنيفة، غالبًا، التى دارت حول أشكال التطرف فى العملية الثورية واتجاهات هذه العملية. ورغم أن هذه الأحداث الأخيرة تترك ندبة لا تندمل على حكاية ثورة التحضر والمقرطة مضفية على الحكاية درجة من التشاؤم والمرارة، فلا زالت هناك الأحداث التى يمكن استعادتها باعتبارها "اللحظات الضائعة" أو شرارات الإمكانية. وتنتمى هذه الأحداث إلى حكاية الثورات المضيَّعة والمنسية. لكن فى قصة الثورة الاجتماعية كانت هذه الأحداث فى فرنسا جهدًا فريدًا وغير مسبوق لتغيير العالم. فبعد أن تم تغيير المشهد وأعيد رسم خريطة فرنسا لتصبح مرتبة ومنظمة – علمًا بأن التبسيط كان يمكن أن يكون واحدًا من كلمات السر فى الثورة –[٧] حوّل الثوريون اهتمامهم إلى وجهة أخرى. كان الشعب يطالب بالتمثيل النيابى، وقواعد تسيير الحياة العامة، وإعادة التوزيع، وما يزيد عن ذلك.

وطوال ربيع ١٧٩٣ ظلت المطالب الشعبية تتصاعد بوضع ضوابط اجتماعية واقتصادية ومزيدًا من السلامة والأمن للثورة. وأنشئت لجان للسلامة الشعبية والأمن العام وأقيمت محكمة الثورة لتعالج المخاوف الدائمة التزايد من خطر الخيانة. وكانت هذه المخاوف هى التى تنتج الإرهاب بل وتوجهه وتؤسس

نظام التسعيرة (الحد الأقصى للسعر) ونوقش المزيد من التدابير الاقتصادية. وفي نهاية مايو خلع المتطرفون فى الحكومة الأعضاء المعتدلين فيها، وفي أغسطس وضع مشروع دستور جديد نص على حق الانتخاب لكل الذكور رغم أن ذلك "لم ينفذ أبدا"، ونص "الحد الأقصى العمومى" على أسعار للعديد المتنوع من السلع، وأرسى مؤشرات جديدة للمجتمع، واستمرت الصراعات الداخلية بين مختلف الفئات الثورية. وفى أكتوبر قتلت الملكة وكثير من الثوريين المعتدلين بعد أن اتجه الراديكاليون إلى مركزية العملية الثورية وإلى تدعيم مراكزهم. وفيما بدا أنه محاولة لدمغ العملية الثورية بطابعهم، اتخذ الثوريون فى مطلع أكتوبر الخطوة الأكثر جسارة، حتى تلك اللحظة، وأدخلوا تقويمها جديدا.

وليس من السهل التقليل من أثر التقويم الجديد وما صحبه من محاولات تغيير الظروف المادية والأيديولوجية للحياة اليومية للناس؛ وكما يشير دارنتون (٥: ١٩٩٠) فقد حاول الثوريون إعادة خلق "الزمان والفضاء"، هذه هى الثورة الفرنسية فى قلب حكاية الثورة الاجتماعية كمصدر لإلهاماتها. وانعكاسا للتحول بعيدًا عن الكنيسة فى اتجاه الطبيعة تم تقسيم التقويم الجديد إلى أربعة فصول يتألف كل فصل منها من ثلاثة أشهر وبأسماء اعتُبرت مناسبة للوقت والفصل؛ فعلى سبيل المثال أطلق على الفترة من آخر أكتوبر إلى آخر نوفمبر اسم بروميير (الضباب) واستمر نيفوز (الثلجى) من آخر ديسمبر إلى آخر يناير؛ وكان الموسم من آخر أبريل إلى آخر مايو فلوريل (الزهرة) وغطى ثيرميدور أو الحرارة من منتصف يوليو إلى منتصف أغسطس وكل شهر من ثلاثين يوما كانت فيه ثلاثة أسابيع، وكل يوم من الأيام يسمى بترتيبه (الأول، الثانى، الثالث، إلخ)- وبهذه الكيفية فرغوا بالفعل من وحدة الزمن التوراتية وهى الأيام السبعة؛ أما الأيام الخمسة الزائدة فأعياد الفضيلة المدنية[٨]. وبدأ التقويم الجديد بأثر رجعى من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ (يوم إعلان

الجمهورية وظل ساريا حتى ١٨٠٥ وأعيد العمل به خلال الأسابيع التى استغرقتها كوميونة باريس فى ١٨٧١).

وبدأ الناس الذين استلهموا زعماءهم، وسبقوهم فى بعض الحالات، يعيدون خلق فرنسا ويعيدون خلق ذواتهم. وفى مجتمع ممتلئ بالأسماء التى تعبر عن الاحترام للأسرة المالكة وللكنيسة أعاد الناس تسمية مدنهم (فأعيد تسمية حوالى ٦٠٠٠ مدينة، وفقا لـ ٦ : ١٩٩٠ darnton) والميادين العامة، والكنائس (فأعيد تعميد كنيسة نوتردام دو باريس لتصبح معبد العقل) والشوارع التى تغيرت أسماء ١٤٠٠ منها فى باريس وحدها (darnton 1990 : 6) وغير الناس الأسماء التى كانوا يعرفون بها إلى حد كبير؛ أسماء الأشياء التى كانوا يستخدمونها أو يتعاملون معها فى الحياة اليومية – ومن ذلك قطع الشطرنج وأوراق اللعب – وأصبحت "ملكة النحل" تسمى "النحلة البيّاضة" **(brinton 1965 : 179; danton, 1990 : 7)** وامتدت الروح الجديدة حتى إلى العلاقات بين الأشخاص. وعند التحية حلت سيتوايان (المواطن) محل مسيو (السيد) واستبعدت ألقاب عديدة ليحل محلها لقب "المواطن" و"الأخ" وصيغة المخاطب المفرد **(billing ton, 180: 24)** وهذا الأخير يكشف عن الجهد الأكثر إيحاء والأكثر دارماتيكية بهدف إعادة تنظيم اللغة وضبط "العلاقات الأكثر حميمية" كما يوضح دارنتون **(1990 : 8)** "فالمودّة فى الفرنسية يعكسها استخدام المخاطب المفرد بدلاً من صيغة المخاطب الجمع التى تستخدم فى المخاطبات الرسمية.. وفى ظل النظام القديم كانت صيغة المخاطب المفرد محجوزة للتعامل مع العلاقات غير المتكافئة أو المتفاوتة تفاوتًا صارخًا.. والثورة الفرنسية أرادت أن يخاطب كل فرد بصيغة المخاطب المفرد(٩)". ويشير دارنتون **(1990 : 8)** إلى أن إحدى المناطق فى الجنوب الغربى حرّمت استخدام صيغة المخاطب الجمع وقُدّم التماس إلى المؤتمر الوطنى فى ١٧٩٤ ليصدر قرارًا مماثلاً.

كانت الجهود هائلة وحماسية وملتزمة وعميقة. وفى ذروة الثورة، وهذا بالغ الأهمية لتراثها، كانت الفضيلة مركز كل الأشياء، فقد كان المقصود أن يكون هذا عالما جديدا أفضل بكثير من القديم. وكان المقصود أن تصبح فرنسا مجتمعا للمساواة والديمقراطية (للرجال على الأقل) وألغيت العبودية، وكان المقصود أن يصبح الاقتصاد حرا ومفتوحا، وأن تفرض الضرائب على الأغنياء ويعاد توزيع الثروة. وصدرت قوانين الرفاه الاجتماعى حتى لا تعيش غالبية المواطنين فى الظروف التى وصفها هوبز (94 : 2008) قبل فترة غير بعيدة بأنها "عزلة وفقر وقذارة ووحشية وموت مبكر" وبدا لهم أن حياة أفضل تبدو فى المتناول، على نحو مغر.

والحقيقة أنه من السهل قراءة التاريخ بالحكمة المستعادة، والتحدى الحقيقى هو ألاّ نفعل ذلك. ونحن نعلم ما جرى من إرهاب ومن صراعات داخلية وحشية بلغت ذروتها فى ١٧٩٤. عندما بادر روبسبيير واليعاقبة الآخرون إلى القيام بالضربة الأولى ضد "اليسار" (المهتاجون أو الهيبيريست) فى مارس، ثم فى أبريل ضد "اليمين" (وهم الراديكاليون المعتدلون نوعا ما تحت قيادة دانتون) وفى مايو تأسست عقيدة الكائن الأعلى فى محاولة لابتداع دين جديد علمانى، لكنها لم تحظ إلا بقليل من الأتباع ونفر منها الكثيرون. وفى يوليو بدأ تحديد الأجور كجزء من المحاولة للسيطرة على الأزمة الاقتصادية المستمرة. وأدى مجموع هذه التدابير إلى ترسيخ كراهية الناس لهذه الحكومة وإلى انهيار عهد الإرهاب وروبسبيير وسان جوست فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤، ومن تلك اللحظة أعطت "ردة ثيرميدور" التى حملت اسم الشهر الذى بدأت فيه، اسمها وهو ثيرميدور لمرحلة فى العملية الثورية ترتبط بالتصحيح، وربما بالرد العنيف من جانب المعتدلين وحتى المحافظين (malia, 2006: 303, brinton, 1965 : 205 – 36)، ورغم أنه من الممكن اعتبار ثيرميدور علامة على "نهاية اندفاع التيار الثورى نحو التغيير إلى الأمام" (malia, 2006: 91) فلم تكن الأمور بهذه البساطة؛ فقد بقى الراديكاليون مسيطرين، وفى سبتمبر

أصبحت الكنيسة والدولة منفصلتين رسميا. ورغم إبرام اتفاقات هدنة في كل ربوع فرنسا لوضع حد للمقاومات والتمردات، فقد تعين على الحكومة إخماد الانتفاضات الراديكالية التي كانت تطالب بـ "الخير والدستور في ١٧٩٣" ومصارعة "الإرهاب الأبيض" في الأماكن التي حاول المحافظون فيها أن ينتقموا. لكن المعتدلين الذين بقوا تم الترحيب بعودتهم إلى صف الثورة وبدأ السعي نحو مسار جديد للأمام، أكثر اعتدالا وإن ظل عملية ثورية لا ترعوى..

وهنا يميل نجم الثورة الفرنسية في حكاية الثورة الاجتماعية إلى الأفول. فهناك قدر قليل من المبالاة بالردة المحافظة (أو المعتدلة وفقا لمنظور أي منا) التي سيرت معظم أحداث ١٧٩٥ وبلغت ذروتها في دستور جديد آخر، هو بالأساس ليبرالي وفي هيئة تشريعية من مجلسين وينتخب انتخابا غير مباشر بواسطة دافعي الضرائب من الذكور الذين ينتخبون بعد ذلك "إدارة" تنفيذية من خمسة أعضاء. وفي ١٧٩٦ سحقت مؤامرة بابوف(١٠) شبه الاشتراكية "مؤامرة الأنداد" قبل بدايتها الفعلية؛ وربما كان هذا ما أدى إلى النجاح الانتخابي غير المتوقع للملكيين في ١٧٩٧، وهو ما أسفر بدوره عن تطهيرهم وعودة صعود الراديكاليين في ١٧٩٨ بالانتخابات. ومع هذه المراوحة إلى أمام وخلف بين هذين القطبين وفي مواجهة تحديات كثيرة تحول الجمهوريون المعتدلون في ١٧٩٩ إلى جنرالهم الأكثر نجاحا وهو نابليون الذي خلع حكومة الإدارة في ١٨ بدرومير (٩ نوفمبر) وبقدر من السرعة قلب معظم منجزات الثورة رأسا على عقب، فأنهى الحكم النيابي وأنشأ نظام الرقابة وقمع الحقوق التي حصل عليها الشعب وأعاد الحقوق الكنسية والأرستقراطية بدرجات متفاوتة، وأقام ملكية جديدة هي أقوى من سابقتها، من نواح كثيرة. رغم التزامه بالمبادئ الليبرالية في العقلانية والملكية الخاصة. لكن هذا ليس الجانب من الثورة الفرنسية الذي يحتل مركز حكاية الثورة الاجتماعية.

فالثورة الفرنسية التى نجدها فى مركز حكاية الثورة الاجتماعية تصورها قصة غير مقبولة (وتكاد تكون غير صحيحة، يقينا) فبعد أن هزم الفرنسيون البروسيين عند لحظة فاصلة فى تاريخ الثورة فى ١٧٩٣ يزعم غوته أنه طمأن مواطنيه المهزومين إلى أنه "من هذا المكان ومن هذا اليوم تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ العالم وبوسعكم القول إنكم كنتم حيث يتيسر لكم أن تشهدوا ذلك" (boyle, 2003: 128). ويلاحظ فيوريه، وهو واحد من أفضل دارسى الثورة الفرنسية ومن أوسعهم تأثيرا، رغم أنه يتشكك فى أهميتها التاريخية وفى أثرها العالمى، وعدها غير المعقول بـ "مساواة بلا حدود ونوع جديد من التحول" (1981: 3, 5) وهو موروث طوره من سيأتون بعد ذلك، خاصة الثوريين المكسيكيين والروس (maye, 2001, 591 p pa3, 1975: i x) والثوريين فى الصين وكوبا وكثيرين غيرهم. وليس صعبًا أن نتبين لماذا صاغ هذا "الحدث العالمى التاريخى" المائتى عام التاليين ولا يزال يفعل، على نحو عميق.

(wallerstein, 1990 p scocpol, and, kestnbaum, 1990; butsee higonnet, 1990)

وقد طرح دارنتون (1990) فى الذكرى المائتين للثورة الفرنسية سؤالا ممتازًا: ما الذى كان ثوريًا لهذه الدرجة فى الثورة الفرنسية؟ ليس هذا بالسؤال البسيط، رغم أن دارنتون يتعامل معه فى تأنق. ويساعد دون (17 : 2008) فى حل المعضلة، مشيرًا إلى أنه "فى شهور قليلة، من العام ١٧٨٩، وضع الشعب الفرنسى علامته بشكل لا يمحى على فكرة سياسية ظلت محلقة فوق تاريخ العالم منذ ذلك الحين" ورغم ربط الثورة الفرنسية مع "المدارس المراجعة" فإن نيغرى (253 : 2008) يضعها فى مركز ما أصبح يعرف بأنه "ال" حكاية عن الثورة، وهى "تقرير عن التطور، من عصيان تحررى، إلى إرهاب يعقوبى، إلى ثيرميدور بورجوازى" وإذا نحينا توجساته جانبًا، فإننا نجد فيوريه (79 : 1981) يصورها باعتبارها أول تجربة ديمقراطية. وبالنسبة إلى كالينيكوس (79 : 2008)

فإنها تبدأ مع "المشروع السياسى للخلاص الإنسانى".. لكنها تركته ناقصا، ويحاول سيويل (95 : 2004) أن يخلق إحساسًا بالاتساع والفخامة والتأثير فيشير بأن "تتخيل كيف كانت بقية العالم اليوم ستتجاوب مع حدوث ثورة راديكالية بدرجة مذهلة فـــى الولايات المتحدة؟"؛ فعندما هبت باريس فى ١٧٨٩ وقف العالم يرقبها فـــى انتبـــاه جذلان وكلما رويت هذه الحكاية وجدت آذانا صاغية لدرجة تسوق خيالنا باتجاه ما يقول لنا دارنتون إنه المفتاح: وهو يقصد بالتحديد الممكنات.

فما هو ثورى فى الثورة الفرنسية بالنسبة لدارنتون والسبب فى أنها لا زالت مهمة هو الإحساس الملموس بالإمكانية؛ فرصة خلق عالم جديد. وبعكـــس حكايـــة التمدين والمقرطة، فليست هنا عودة إلى عصر ذهبى. إنه هـــذا الـــشعور العميـــق بالإمكانية هو الذى جعل الثورة الفرنسية على هذه الدرجة من الثورية وهو الـــذى يميز على النحو ذاته، الحالات الأخرى التى نميل إلى الاتفاق عليها. وفى الحكايـــة الاجتماعية الثورية وجد الناس، كل الناس، كجماعة واعيـــة قـــادرة علـــى الفعـــل القصدى وتربط بينها أحلامها ورغائبها، أنفسهم فى مواجهة ما يبـــدو فرصـــة لا حدود لها لتغيير الشروط المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية ولإعـــادة صـــياغة عالمهم وذواتهم. والثورة ليست أقل إدهاشا لما لم تكن عليه، أو لما لم يكن ممكنـــا أبدا أن تكون عليه؛ فمكانتها لا تعود لحقيقتها بقدر ما تعود إلى تراثها. وربمـــا لـــم يزل الوقت مبكرا لحسم هذا الأمر.

الثورة فى العالم الحقيقى: روسيا فى ١٩١٧

إذا كان من الممكن أن يقال إن ثورة فرنسا فى ١٧٨٩ كانت المـــدخل إلـــى القرن التاسع عشر، فإن ثورة روسيا فى ١٩١٧ لم تترك مجالاً للشك فى أن قرنـــا جديدا قد بدأ، بإصرارها على العدالة الاجتماعية للجميع وعلـــى الملكيـــة العامـــة لوسائل الإنتاج. ومن السهل أن تقرأ تاريخ العملية الثورية فى روسيا مـــن خـــلال

عدسة فرنسا (أو العكس، انظر 6 : 1981)؛ ذلك أن "انصارها وخصومها.. فهموا الأحداث باعتبارها نتائج مباشرة لـ ١٧٨٩" (Arendt, 1965 : 5). لكن هذا الاستسهال في التحليل، وإن كان مغريا، يخفى أكثر مما يظهر. فبعكس ما جرى في حالة فرنسا – والحكايا التى نفضلها جميعًا – فليست هنا بنية واضحة ذات بداية ووسط ونهاية: ذلك أن "العصيان التحررى موجود لكنه يفضى إلى قرابة سبعين عامًا من "الإرهاب اليعقوبى" المقترن ببيروقراطية هامدة، ولا يصل أبدًا إلى "تيرميدور" حقيقى (malia 2006 : 6). والأجدى أن نبدأ بالنظر إلى روسيا ١٩١٧ باعتبارها أول ثورة فى العالم تعلن عن نفسها باعتبارها اشتراكية وتزعم لنفسها أنها ماركسية.

وعلى مدى أكثر من مائة سنة ظلت الثورة الفرنسية وحدها فى قلب حكاية الثورة الاجتماعية، فقد فشلت ثورات أوروبا فى ١٨٤٨ باستثناء نجاح بعضها فى اتباع الأفكار الديمقراطية الليبرالية والبورجوازية، التى أفضت بمرور الوقت إلى اقتصادات مفتوحة بدرجة أكبر، وإلى توسعة محدودة لحق الانتخاب للرجال من الطبقة الوسطى. ورغم أن حركة الميجى الإحيائية فى اليابان فى ١٨٦٨ كانت "ثورة من أعلى" (trimberger 1978) فلم يكن فيها ما هو ثورى جدًا إلا القليل. وأدت الثورة الدستورية فى فارس فى ١٩٠٥ إلى ملكية دستورية فى فترة وجيزة ولم تزد عن ذلك كثيرًا، أما ثورة روسيا الدستورية فى ١٩٠٥ ففشلت تمامًا، إلا إذا نظرنا للأمر نظرة أوسع، كما سنبين لاحقًا. وكانت للثورة الجمهورية فى البرتغال فى ١٩١٠ نجاحات محدودة وغير صافية. وقد بدأت ثورة المكسيك فى ١٩١٠ كعملية بورجوازية ليبرالية وهذا هو ما انتهت إليه، فى نواح مهمة؛ ورغم أنها كانت لها جوانب اجتماعية ثورية وراديكالية واضحة (نناقش فى فصول تالية) فهى لا تنال هذه المرتبة أبدا فى الحقيقة. وأخيرا، فعلى الرغم من أن الثورة الصينية فى ١٩١١ أسفرت عن قيام جمهورية الصين فى ١٩١٢ فربما كانت تقرأ، فى الأغلب،

باعتبارها ثورة بورجوازية ليبرالية فتحت مرحلة للإحياء، والتمرد، والثورة لن تنتهي إلى ثورة اجتماعية إلا بعد قرابة أربعة عقود. وجدير بالذكر أن علم الثورة في المكسيك وفي الصين، ومهما كانت محدودية الثورتين، ارتفع عاليا في القرن العشرين في أجزاء من العالم سوف يشار إليها، فيما بعد، باسم "العالم الثالث".

ويرى البعض أن هناك صلة، طيبة كانت أم خبيثة، بين فرنسا ١٧٨٩ وروسيا ١٩١٧. وكما هو الحال بالنسبة لفرنسا، فإن كثيرين يعتبرون أن روسيا لم تعجز عن تحقيق مثلها ورؤاها، فحسب، بل وخانتها، على نحو مأساوي وبسرعة فائقة. ولا شك أنه ما أن حل التاريخ الذي رقدت فيه الثورة الروسية في ١٩٩١، فقد كان عدد من يقبلون تسلم الجثمان قليلاً للغاية، وهي نهاية مهينة لعملية ثورية كانت تبشر، كما فعلت فرنسا، بتحويل العالم إلى الأفضل. وإذا كان منطق ستيفنز (799 : 1931) السطحي "لقد انتقلت إلى المستقبل، والموضوع ما شيء"[١١] يبدو مثيرًا للأسف على نحو خاص، فهو برغم ذلك يصور شعورًا بالإمكانيات التي بدت واضحة في ذلك الوقت والتي تلعب دورًا في حكاية الثورة الاجتماعية.

وسواء بلغت ثورة روسيا المراحل الثلاث التي يمكن تبينها في ثورة ١٧٨٩ في فرنسا أم لا فيمكننا أن نقرأها، على نحو مقبول، باعتبارها ثلاث ثورات متمايزة ومتواصلة: ثورة ١٩٠٥ الدستورية الفاشلة، الثورة البورجوازية الليبرالية الديمقراطية في فبراير ١٩١٧ وثورة أكتوبر ١٩١٧ الشهيرة التي نركز عليها هنا[١٢]. ولا شك أن لينين (1980 b: 566) اعتبر الثورات الثلاث مترابطة وقرأها كعملية واحدة[١٣]. ويمكن القول إن قراءة الثورات الثلاث كأحداث منفصلة يمكن أن يكون بالغ النفع. ففي حكايا الثورة، يشيع الفصل بينها غالبًا، بالنظر إلى الثورتين الأوليين باعتبارهما حاشيتين، لا أكثر؛ وغالبًا ما توضع ثورة ١٩٠٥ الدستورية في مركز أدنى باعتبارها فاشلة في حكاية التحضر والمقرطة، محاولة بورجوازية ديمقراطية ليبرالية لخلق ملكية شبه دستورية في مجتمع متخلف لم يكن

مستعدًا لمثل هذا التحول. ويمكن أن نجد حدثًا مهمًا، مثل ذلك الذى جرى "يوم الأحد الدامى" ٩ يناير ١٩٠٥ عندما ذبح أكثر من مائة متظاهر سلمى أمام قصر القيصر الشتوى فى بطرسبرغ فى حكاية الثورات المضيّعة والمنسية. وفى كل الأحوال، فرغم أنه لم يطرأ أى تحول باق أو ذى مغزى، فيمكن القول بأن حالة ثورية قد نشأت لحظة جعلت، كما يقول لينين، الذين فوق القمة عاجزين عن مواصلة الحكم بالطريقة القديمة، والطبقات المستغلة فى فاقة أشد وبؤس أكثر ضراوة، والناس عند القاع غير مستعدين لمواصلة الخنوع. وهو يؤكد على أن هذا ليس ضمانًا بنتيجة ثورية، على الإطلاق (1918 b: 97)[١٤]. وإذا كانت ١٩٠٥ "بروفة أخيرة" كما يشير لينين (1980 b : 521) استعدادًا لـ ١٩١٧ فليس هناك مجال كبير للتساؤل حول مساهمتها فى الأحداث التى جاءت بعد ذلك.

ومن اللافت للنظر أن ثورة فبراير ١٩١٧ لا تظهر كثيرًا، إذ غالبًا ما تدرج فى إطار الحكاية الكبرى التى ستليها بعد أقل من عام أو تختفى فى زحامها، باعتبارها "مرحلة أولى" من الثورة. وحتى بهذه الصفة فهى تظهر فى حكاية التحضر والمقرطة كمثال على "ما كان يمكن أن يحدث" وفى قراءة كهذه، فهى ليست أكثر من انفجار عفوى أطاح بالقيصر نيقولا الثانى، وأنهى الإمبراطورية الروسية، ومهد الطريق للبلاشفة. وقد بدأت هذه العملية فى بطرسبرغ بمطالبة النساء بالخبز فى يوم المرأة العالمى وهو ما أدى إلى إضراب عام؛ وعندما رفضت قوات القيصر، واللافت للنظر أنهم كانوا القوزاق الأكثر ولاء له، تفريق المتظاهرين، انهارت الملكية. واقتحم هذا الفراغ تحالف ذو قاعدة عريضة كانت تشمل مختلف أطياف الليبرالية وخليطًا متنوعًا من الاشتراكيين الملتزمين بإقامة جمعية تأسيسية عبر انتخاب شعبى، وسلطة تنفيذية تنتخب على أسس ديمقراطية، ساعين لإصلاح السياسة والاقتصاد. ووقف "السوفييت" وهم مجالس العمال والجنود والبحارة يرقبون فى قلق المحاولة الأولى التى هيمن عليها الليبراليون من الطبقة المتوسطة العليا ومن النخبة، ومن المحافظين، والصناعيين. وبدأ يتجسد موقف

يتسم بـ "ازدواجية السلطة". وسرعان ما سيطر الاشتراكيون المعتدلون؛ الذين اشتهروا باسم المناشفة(*) وحاولوا أن يواصلوا العملية الإصلاحية وأن يقيموا الديمقراطية ويفعّلوها. فهذه، إذن، هى الحكومة الاشتراكية - الليبرالية الوليدة (البورجوازية بالنسبة لخصومها الاشتراكيين) فى حكاية التحضر والمقرطة، وهى التى أطيح بها فى حركة جوهرها انقلابى نفذها البلاشفة.

وبغض النظر عن أهميتهما فإن أيا من الثورتين الأوليين لا يظهر فى حكاية الثورة الاجتماعية بأى معنى حقيقى؛ فهذه الحكاية فى صياغاتها المعتادة شحيحة لدرجة مذهلة بالنسبة للتفاصيل، على الأقل فيما يتعلق بأفعال الثوريين مقابل ما يصدر عن معارضيهم. وفى هذا الإطار فإن ١٩٠٥ هى لحظة فشل ملحمى يوضح الحاجة إلى أفعال أكثر راديكالية - فالقيصر ووزراؤه وأزلامه ليسوا أهلاً للثقة - وفبراير ١٩١٧ أطاح بالقيصر المستبد وطغمته الحاكمة الفاسدة وسعى لإحلال جمهورية ديمقراطية ليبرالية بورجوازية محل الملكية. لكن الثورة الحقيقية، الثورة الاشتراكية، لا تبدأ إلا بعد أن يُخلع الاشتراكيون الليبراليون المعتدلون فى "أكتوبر الأحمر" ويصل العمال والفلاحون والجنود والبحارة إلى السلطة "ضمن تحالف البروليتاريا - الفلاحين". ولنتذكر أن سيويل يزعم أن جوهر الثورة الفرنسية يكمن فى عشرة أيام فى يوليو ١٧٨٩ غيرت تاريخ العالم؛ وبالمثل فقد اعتبر الصحفى الأمريكى جون ريد ١٩٩٠ الذى غطى الثورة الروسية أن "عشرة أيام هزت العالم" فى أكتوبر ١٩١٧. وتصور هذه التقارير لحظات فى هذه الحكاية: سقوط الباستيل فى الأولى، واقتحام قصر الشتاء فى الثانية.

وهذا يثير مسألة دينامية الثورة الفرنسية - الثورة الروسية(**) لقد حرص الثوريون الروس على أن يقدموا أنفسهم باعتبارهم جزءا من "تراث ثورى مجيد" (corney, 2004 : 8)[١٥] يكفى تاريخه فقط للتعرف عليه، فهو تاريخ مفعم

(*) منشفيك تعنى بالروسية الأقلية وهى عكس بولشفيك التى تعنى الأغلبية - المترجم.

(**) أى تواصل القوة الفعال بين الثورتين - المترجم.

بالمعاني. وكانوا يريدون أن تكون ١٩١٧ نفس النوع من الحدث العالمي التاريخي، "واعتبر كثيرون أن ١٧٨٩ هي جدهم الأعلى وسعوا عامدين إلى رسم خريطة تصلهم بتلك العملية". لقد أعلن البولشفيك، بإدراك واضح، أنهم بناة الثورة الحقيقية الوحيدة منذ الثورة الفرنسية (Rees and Donald 2001, 3 وأيضا soboleva, 2008) ونتيجة لذلك، بدأ أناس كثيرون ينظرون إلى روسيا ١٩١٧ باعتبارها طفلة فرنسا ١٧٨٩. وبمرور الزمن، بدأت هذه النظرة تتحول في أوساط الثوريين أنفسهم، فأصبح كثيرون منهم يعتبرون ثورة ١٧٨٩ ثورة ديمقراطية ليبرالية بورجوازية، وصاروا يتحولون باهتمامهم، على نحو متزايد إلى كوميونة باريس ١٨٧١ (التي تلعب دورًا صغيرًا في هذه الحكاية، إن كان لها دور أصلاً، لكن لها موقعًا بارزًا في حكاية الثورات المضيَّعة والمنسية في الفصل الثامن) وفي وقت مبكر، في ١٩١٧ كان لينين (24 : 1918 b) يربط بين السوفييتات وبين كوميونة باريس (rowan, 2003 : 39) وكورني (6 : 2004) يشير إلى أن الثوريين كانوا يشيرون إلى صلات كهذه حتى قبل[٦] وكان هذا مهما، جزئيا على الأقل؛ لأن الثوريين كانوا حريصين على تجنب خيبات أسلافهم. وهكذا، وكما حرص لينين (1980 a: 84) على أن يبين فهم لم يكونوا حريصين على محاكاة عبودية: لم تكن لديهم أي نية في تبني آراء وبرامج وشعارات ومناهج عمل؛ فقد كان برنامجهم "جديدًا" لا "قديما" كما أن "لديهم شعارًا جديدًا: الديكتاتورية الديمقراطية الثورية للبروليتاريا والفلاحين" و"مناهج عمل جديدة" من أجل "ثورة اشتراكية كاملة" (Lenin, 1980 a: 84) لكن الصلة كانت معترفة به، رغم ذلك، وكانت عميقة.

وبغض النظر عمّن كان يقلد من في أكتوبر ١٩١٧، فإن دون (1989 : 26) يشير إلى أن "جماعة صغيرة لحد مدهش من الرجال استولوا على السلطة في إمبراطورية عظيمة وإن كانت متهاوية" في انقلاب يصفه ماليا (2006 : 270) بأنه كان يدعو "للسخرية" ويبدو شاحبًا بجوار اللحظات الثورية الأخرى التي لها حكايات تستحق أن تحكى. وفي الحكاية الثورية الاجتماعية أن حكومة فبراير

الديمقراطية الليبرالية البورجوازية فى تحالفاتها العديدة وحتى عندما كانت فى أيدى الاشتراكيين المعتدلين (خاصة المناشفة) عجزت عن الوفاء بمطالبة العمال بالخبز، وبإعادة توزيع الأرض على الفلاحين، وعلى وقف الانهيار الاقتصادى، وأخيرا وليس آخرا، وقف دور روسيا فى الحرب العالمية الأولى الذى جلب عليها الدمار. وكل هذا يصوره الشعار الثورى "السلام، الخبز، الأرض" إذ أصر الجنود والبحارة والعمال والفلاحون على الاستجابة لمطالبهم وتحقيق العالم الجديد الذى وُعدوا به، أو على أقل القليل أن يروا خطوات تتخذ باتجاه تحقيقه. ومع فقدان المناشفة للتأييد الشعبى وللتأييد الأهم وهو من العسكريين، بادر الجنود والبحارة فى سوفييت بتروغراد (التى كانت قبل ذلك بطرسبرغ) بقيادة تروتسكى (منشفى سابق) إلى القبض على زمام الأمور، وأعلن البلاشفة أنهم أصحاب السلطة (وكانوا يطلبون العون لعدة أشهر من اليسار الاجتماعى الثورى)(١٧). وظهر أن وعد البلاشفة بإنهاء الحرب، وتشكيل حكومة عمال وفلاحين، وإعادة توزيع الأرض، وتأمين سيطرة عمالية كان وعدا له شعبية، خاصة فى المدن (فقد بقيت المناطق الريفية تفضل اليسار الاجتماعى الثورى). وانتقلت كل السلطات إلى السوفييتات، وهو ما كان يعنى أنه الأساس؛ فإن العسكريين والعمال والفلاحين هم الذين لهم حق التصويت – وبهذا فبوسعهم الآن أن يصنعوا ثورة ويبدؤوا بناء عالم جديد فى وجه معارضة ثبت أنها لا تلين وانفجرت الحرب الأهلية، التى حفلت بالعديد من التقلبات التى أحدثتها التدخلات من قبل القوى الرئيسية(١٨) فى العالم. وظل الثوريون يناضلون أربع سنوات ضد صعاب هائلة دفاعا عن سلطتهم. ورغم أنهم نجحوا بالنهاية، يبقى التساؤل: هل دافعوا عن الثورة التى شرعوا بإقامتها أم أنهم ألحقوا أعظم الضرر بالرؤية التى كانت لديهم؟ وهو سؤال بحثناه إلى حد ما فى الفصل الثامن خلال النظر فى القمع الوحشى لتمرد كرونشتات الذى قام به البحارة والمدنيون فى ١٩٢١ مطالبين بانتخابات حرة وبدولة متعددة الأحزاب وبحريتى الكلام والاجتماع(١٩).

وبدأ الثوريون الروس، على نحو يذكرنا بالثوريين الفرنسيين، بإعادة بناء دراماتيكية لمجتمعهم، وكان قانون ١٩١٨ للزواج والأسرة والوصاية أكثر قانون تقدمي للأحوال الشخصية عرفه العالم، رغم أن ما طبق منه على نحو ذى مغزى بالنسبة للغالبية كان جزءا يسيرًا. إضافة إلى ذلك، أنشئت مؤسسات الطفولة، وأصبح التعليم عامًا، وصدرت قوانين الرفاه الاجتماعى. وأقيمت البنوك والخطوط الحديدية، وتبعتها كل الصناعات الثقيلة وبدأت الموضة والفنون والعمارة تتغير كلها لتعكس القيم "السوفييتية" الجديدة. وبالاتساق مع الثورة الفرنسية ظهرت الحاجة إلى اقتلاع بعض من اللغة القديمة – فألغيت كل الألقاب، مثلاً، وحل لفظ "رفيق" محلها، معبرًا عن الروح الجديدة – وخلق كلمات جديدة من شأنها أن تسمح للناس بفهم العالم الجديد الذى كانوا بصدد إقامته؛ وكان الجانب المظلم لهذا هو الجهد المصاحب الذى استهدف اقتلاع "الأعداء"، الحقيقيين والمتخيلين، للعملية الثورية(٢٠).

وقليل من هذا أو مما ترتب عليه من أحداث هو الذى يجد طريقه إلى حكاية الثورة الاجتماعية. وكما يبين كورنى (2 : 2004) باقتدار لجان "ما يحكى عن أكتوبر" كان أمرًا عالى التوتر ومشحونًا لدرجة هائلة "عملية واسعة وغير منتظمة من القمع والخلق"؛ ولا تزال كذلك حتى اليوم. ورغم ما ارتبط بثورة ١٩١٧ من نتائج فقد بقيت لما يزيد عن سبعين عامًا كتاريخ يشير إلى حدث عالمى محمَّل بالمعنى حتى وإن كانت الأحداث ذاتها غثة، إلى حد كبير. ولا تساعد السردية المعيارية التى لا زالت محل جدال، كثيرًا على فهم مغزى هذه العملية بالنسبة لحكاية الثورة الاجتماعية أو إدراك تأثيرها على هذه الحكاية – وكان هذا بمعنى ما، التحدى الذى واجهه الثوريون – كيف يحولون ما يمكن النظر إليه كانقلاب إلى ثانى أعظم ثورة فى العالم؟! وهكذا ينتقل التركيز من الفعل الذى فعلوه وكيف فعلوه إلى نضالاتهم التى تستهدف مجرد البقاء وتستهدف العدل الاجتماعى فى عالم يعادى الهدفين معا.

وتنخدع حكاية الثورية الاجتماعية، في النهاية، بما يسميه فيوريه (62 : 1999) "السحر العالمي لأكتوبر" وترويجه، ولا يمثل الكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذا السحر وتشخيصها مهمة سهلة لكن هناك عدة عناصر يمكن تمييزها (malia, 2006: 288) وهذا، وإن كان إلى حد كبير سلسلة من الإخفاقات، أمر حوّل الطرائق التي كان الناس يفكرون بها فيما هو ممكن وساعد على إشعال النضالات، ليس فقط من أجل العدل الاجتماعي بل وتقرير المصير للشعوب. وثانيا، فبوصفهم الورثة للثورة الفرنسية، سيكولوجيًا وذهنيًا وربما عاطفيًا.

والمساهمة الأساسية للروس في هذه الحكاية يمكن العثور عليها في عبارة لينين الموفقة: "الثورات هي مهرجانات المقموعين والمستغلين". وأكثر من ذلك ففي روسيا كما قال هو: "لم يكن عامة الناس في أي زمن آخر في مركز يسمح لهم بالتقدم إلى الأمام بمثل هذا النشاط، وبوصفهم مبتدعين لنظام اجتماعي جديد، كما هم في زمن الثورة. ففي زمن كهذا يمكن للشعب أن يصنع المعجزات" (1980 a: 125) وبالنهاية. فقد ألهمت الثورة الروسية الملايين حول العالم لينهضوا في مواجهة النخب وحلفائهم المعادين لمصالحهم ورغائبهم، وأيا كانت إخفاقاتها الكثيرة، والقائمة طويلة ومأساوية، فقد كان الإلهام حقيقيا. وكان لينين، من جانبه، يعتقد أنهم كانوا يضعون أساس الثورة العالمية(٢١).

ومن المناسب أن نضع هنا ملاحظات ختامية. فبرأي ماليا (2006 : 288) هناك تناقض في القول بأن "أكتوبر الأحمر" هو الخاتمة لسلسلة "عظيمة" من الثورات (وهو يستبعد الثورة الصينية باعتبار أنها "مفهوميا.. مجرد تكرار") فهو لا يبدو اليوم أكثر من علامة على الطريق إلى الانهيار الكبير في "١٩٨٩ – ١٩٩١"؛ ذلك أن "الانتصارات الباقية" للثورة قد تم اقتلاعها عن طريق "أنجح ثورة مضادة في التاريخ"؛ فبالنسبة للكثيرين، كما يقول ماليا، فالأمر يبدو "وكأن ثورة ١٩١٧ لم تحدث أبدا.. فقد ألغيت نتائجها وفنِّدت فرضياتها".. وبوسع المرء أن يضيف أنها لم

يبق منها فى الذاكرة إلا فظاعات ستالين وتطرفه، حتى وإن كان ذلك بزعم سعيه إلى الثورة العالمية. وبعد أن قلنا كل هذا، يمكن أن نقول إنه فى ١٩١٧ وما بعدها تعتمد كيفية نظر المرء إلى ثورة أكتوبر، إلى حد كبير، على من أنت وأين كنت؟. وكما يشير روزنبرغ ويونغ (55 : 1982):

بالنسبة لعمال كلايدسايد فى إنجلترا وللجنود الفرنسيين المتمردين فى فيردين، ولكارل ليبنخت والعمال الألمان فى برلين، وللراديكاليين الصينيين فى بكين وشنغهاى، فقد كانت البلشفية تعكس انتصار المقموعين. سلطة الرجل والمرأة العاديين، وسلطة من لا سلطة لهم تاريخيًا واجتماعيا. وتكاد بطولة لينين وأكتوبر أن تكون رمزًا اكتسب مغزاه على الفور. وكان الظل الطويل للعمال الروس الذين جرت تعبئتهم يشير إلى قدرات الناس العاديين فى كل مكان.

وبالنسبة إلى حكاية الثورة الاجتماعية، إذن، فقد كانت الصورة الباقية فى أنحاء كثيرة من العالم، حتى فى يومنا هذا، هى صورة ثوريين متحمسين وملتزمين ومنكرين لذواتهم يؤمنون بأنهم يعملون من أجل شىء أعظم، يعملون بجانب الأبطال من الجنود والبحارة والعمال والفلاحين ويحتمون بهم، معلنين للعالم أن كل شىء أصبح يخص كل إنسان باسم كل إنسان ولخير كل إنسان ومن أجل هدف العدل الاجتماعى.

الثورة فى العالم "الحديث" كوبا ١٩٥٩ (٢٢)

إذا كانت هناك حالة واحدة صاغت معظم المفاهيم المعاصرة للثورة فهى الثورة الكوبية فى ١٩٥٩. وتصور الثورة اليوم، فى بعض الأحيان، كأنها سيناريو على الطراز الهوليوودى: عصبة صغيرة وملتزمة من محاربى الحرية تشق بالقتال طريقها خارجة من التلال ضد ديكتاتورية متسلطة قمعية، لتكسب من بين الناس أنصارًا كلما أوغلت فى السير؛ ثم يستولون على السلطة، ويستمرون لبناء مجتمع

جديد جسور يختلف عن كل ما عرفه العالم من قبل، حيث كل شيء ممكن، وما يسقط من الذاكرة غالبا أن الثورة الكوبية أكثر من أي حدث أو عملية أخرى، هي التي صنعت هذا السيناريو. فلأسباب عديدة، ليس أقلها دخولنا عصر الميديا، فإن ثورة كوبا هي الصورة التي يحملها معظم الناس في عقولهم، كنقطة مرجعية جاهزة. وإذا كانت ثورات الماضي لا تصلح مؤشرًا إلى المستقبل – بعكس الادعاءات التي ظهرت في ثورتي ١٧٨٩ ، ١٩١٧ – فهي تبقى الأحداث والعمليات التي تؤمن اللغة والمفاهيم اللازمة لفهم المستقبل، وتمامًا كما صاغت فرنسا فهمنا لروسيا وصاغت روسيا فهمنا للصين، فكذلك كوبا صاغت الكنية التي نتخيل بها ثورات المستقبل، وكيف ستبدو، وكيف ستجري أحداثها، ومدى ما يمكن أن يكون لها من أهمية. وحتى مع تجاوز الأحداث القريبة العهد للنموذج الذي طرحته الثورة الكوبية، فإن هذه الأخيرة تبقى متكاملة مع حكاية الثورة الاجتماعية.

ومن المهم أن نلاحظ هنا الغياب الواضح عن حكاية الثورة الاجتماعية: الصين. والصين مهمة لأسباب عدة: فهي تأتي بالثورة إلى "العالم الثالث"؛ وهي كانت ثورة فلاحية تتطلع إلى الأمام بحق (بعكس الثورة في المثال المكسيكي) (dunn, 1989 : 70 – 71)؛ وقد كانت الصين هي التي أعادت القومية إلى المركز (رغم أن روسيا كانت تتخلى بهدوء عن أوهامها العمياء. هي أيضًا)؛ وقد كانت الصين، كثورة اجتماعية وثورة معادية للكولونيالية (foran, 1997 b: 236)، هي التي ألهمت النضالات المعادية للكولونيالية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، على النحو الأكثر مباشرة. ويمضي بيج (27 : 2003) إلى حد أن يقول إن ثورة الصين كانت ثورة "على نحو لم تكنه ثورة البلاشفة أبدًا". وفي الوقت ذاته، فالصين يصعب تصنيفها: لقد استمرت الثورة حوالي ثمانية وثلاثين عامًا (الثورة الأطول 46 : foron, 2005) وطابعها الثوري الاجتماعي الواضح يمكن أن يقال إنه يأتي في المرتبة الثانية بعد طبيعتها "كثورة وطنية فوق كل شيء آخر" (Dunn, 1989 : 70) ويمثل فهم مكان الحربين العالميتين في العملية المعقدة

بكاملها تحديا تحليليا معتبرا. وبالنهاية يخلص فوران إلى أنها كانت ثورة وطنية (الصين للصينيين) واجتماعية بعمق وملتزمة بالعدالة الاجتماعية (2005: 53; he cites lomparis 1996 : 142) لكنه ينتهي إلى حيث بدأنا، بملاحظة دون التي تقول إن "الثورة الصينية أصعب في التشخيص على نحو مقنع (وبالتالي أصعب في التفسير) من أي ثورة تاريخية أخرى؛ فمجالها شاسع، وقد تمددت زمنيا على نحو مربك، وبؤرتها غير محددة على الدوام. ولا تزال غير محسومة سياسيا، وهي إلى حد كبير محجوبة وكمداء من البداية للنهاية (389 : 1995) وتلقى الثورة الصينية ظلا طويلا؛ لكنها في هذه الحكاية شبح يسكن القصة.

وكوبا، وليست الصين، هي التي أصبحت قديسة الثورة المعاصرة، مع حبكة من التوقعات الكبرى والإحباطات العظيمة، والفشل والانتصار، الممتزجة بقيمات التجديد والخلاص والأمل. وحتى مع أن ما تم إنجازه أقل مما كان يبدو ممكنا للناس وهم يحلمون، فلا زال صحيحا أن الكوبيين من كل جزء في المجتمع لم يقوموا فقط بثورة، بل وجعلوها تبدو ممكنة للآخرين في أماكن مختلفة للغاية. وقد زعمت في موضع آخر أنه "ما من حدث في الخمسين سنة الأخيرة أثر على عدد كبير لهذا الحد من الناس، في كل هذه الأماكن، ولكل هذا الوقت، وما زال يفعل ذلك مثل الثورة الكوبية" (Selbin, 2009 a: 21) وهذا ادعاء ضخم للغاية إذا نظر المرء إلى ما ظهر من أمور. لكن انظر إلى بعض الأحداث الكبرى – الحرب الباردة، الصراعات ضد الكولونيالية / ضد الإمبريالية / ومن أجل التحرير، أحداث ١٩٦٨، "الثورات الملونة" في أوروبا الشرقية في ١٩٨٩ – أو حتى الأحداث الأقل خطرا مثل انتفاضة الزاباتيستا في المكسيك، التيار المعادي لمنظمة التجارة العالمية: العملية الثورية الكوبية تحتل موقعا مركزيا في كل من هذه التطورات كنموذج وكممارسة، في كل حالة بالسلب أو الإيجاب، والأهم أنها كانت إلهاما قويا بما يمكن إنجازه في مواجهة صعوبات مخيفة.

فى حكاية الثورة الاجتماعية كانت هناك لمحات خاطفة ومغرية من عوالم أخرى ممكنة بعد الحرب العالمية الأولى، جاءت فى جانب يعتد به من ثورة روسيا، ومعظم هذه اللمحات يندرج الآن ضمن الثورات المضيَّعة والمنسية (الفصل الثامن) لكن ذلك يشمل برلين ١٩١٨ والسوفييتات التى لم تعش طويلاً فى ميونيخ وهنغاريا فى ١٩١٩ والعامان الأحمران فى "إيطاليا فى ١٩١٩ - ١٩٢٠" و"فينيا الحمراء" "١٩١٨ - ١٩٣٨". بل كانت هناك ومضات أكثر إثارة بعد الحرب العالمية الثانية: الشيوعيون الذين قادوا المعارضة المعادية للفاشية والذين بدا أنهم فى وضع يسمح لهم بالاستيلاء على السلطة فى إيطاليا واليونان؛ كانت هناك الصين، كما أشرنا من قبل؛ وعمليات راديكالية ومقتحمة متعددة الأطياف فى فيتنام ١٩٤٥ - ١٩٧٥، وإندونيسيا ١٩٤٥ - ١٩٤٩، وماليزيا ١٩٤٨ - ١٩٦٠ وغواتيمالا ١٩٥٠ - ١٩٥٤، وإيران ١٩٥١ - ١٩٥٣، وبوليفيا ١٩٥٢ - ١٩٥٤، وكينيا ١٩٥٢ - ١٩٦٠، وغيانا البريطانية ١٩٥٣ - ١٩٦٤، والجزائر ١٩٥٤ - ١٩٦٢، ومعظم هذه الحالات يكون من المجدى أكثر أن ندرجها ضمن قصة ثورة الحرية والتحرير (الفصل السابع) لكن ليس بين هذه الحالات ما يمضى إلى حيث تمضى حكايات الثورة الاجتماعية فيما يلى سوى كوبا.

فترات الثورة الكوبية خلاب وكلى الانتشار إذ يمكن رؤيته فى كل مكان. ورغم أن فرنسا قدمت المفهوم المعاصر للثورة ورغم أهمية العملية الثورية فى روسيا بالنسبة للقرن العشرين فإن كوبا هى التى جاءت بالثورة إلى المجتمع الكوبى وجعلتها تبدو مقبولة لدى الغالبية الهائلة من البشر. فقد بدت كوبا كإشارة غير مسبوقة قط إلى أن أى مجموعة متماسكة من البشر، لديها التصميم ولديها إرادة الانخراط فى النضال وتقديم التضحيات وخوض المخاطر. سيكون بوسعها أن تصنع ثورة. قصة كوبا هى قصة إرادة وتصميم وشجاعة، وربما بعض الحظ. وفى حكاية الثورة الاجتماعية يكون جوهر الثورة هو التزام الشعب ومجتمعه،

والعاطفة والرغبة، وهى الرؤية بعالم أفضل(٢٣). والمفترض هو أن لا أحد يقرر أنه سيحارب ويخاطر بحياته وحياة أفراد أسرته، أو يعرض آماله للخطر بخفة. أما فى كوبا فقد اختار كثير من الناس النضال.

ومن الصعب التوصل إلى رأى واضح حول التجربة الكوبية إذا كنا نريد أن نقرر مدى التوافق بين تقلبات الخطابيات والمثل الثورية وبين واقع العملية الثورية فى وجودها الفعلى، لكن العظام العارية يسهل التعرف عليها، فوراً(*). ففى محاولة لإشعال التمرد ضد ديكتاتور كوبا الفاسد فولجنسيو باتيستا شن فيديل كاسترو وبعض الزملاء هجوماً سيئ الإعداد على ثكنة مونكارا يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٣، وأدى ذلك إلى دفاع كاسترو الشهير "سوف ينصفنى التاريخ". وبعد فترة وجيزة فى السجن مضى إلى المكسيك حيث جنّد ونظم مجموعة صغيرة من المتمردين الذين سوف يسعون إلى صنع الثورة، وفى ١٩٥٦ عاد هؤلاء الرجال باعتبارهم حركة ٢٦ يوليو (التى تسمّت باسم انتفاضة مونكارا الفاشلة) وبعد أن أصيبوا بخسائر جسيمة اتخذوا طريقهم إلى الجبال ودخلوا فى حوار مع الفلاحين ثبت أنه حوار تحويلى. وأثبت العامان التاليان أن الحرب التى يخوضونها هى حرب موقف (نضال أيديولوجى) أكثر منها حرب مناورة (نضال عسكرى)؛ فقد كان النضال منذ أيامه الأولى، نضالاً من أجل بناء مجتمع جديد(٢٤). وجاء الاستيلاء على سلطة الدولة أشبه بمفاجأة بعد أن هرب باتيستا، فى أعقاب هزيمة بدت بسيطة، يوم أول يناير ١٩٥٩ وتهاوى نظامه، ورحب الشعب فى معظم أنحاء البلاد برحيله. وألهب انتصار الثوريين ذوى الشعبية الجارفة "لوس بار بودوس" (أصحاب اللحى) على الديكتاتور وحلفائه خيال الناس فى مختلف أنحاء العالم. وفى مواجهة قدر غير واضح من الفراغ المؤسس والبنيوى(٢٥) مع مساندة ذات قاعدة عريضة(٢٦) من

(*) أى أن أعمدة الخرسانة التى تقوم عليها ثورة كوبا والتى قد تختفى وراء الخطابيات المثالية، موجودة والتعرف عليها ممكن – المترجم.

الشعب لهم، بدت أفكار الثوريين الشباب حول بناء دولة جديدة ومجتمع جديد، بل وعالم جديد، أمرًا أكثر منطقية؛ لقد فازوا كما قال كاسترو بعد ذلك، بحق بناء عالم جديد - وهذا هو ما سيصبح الثورة الحقيقية.

وإذا كان لنا أن نستخدم عبارة استخدمها كاسترو وهو يشير إلى ثورة أخرى، واحدة من ثورات كثيرة استلهمت ثورة كوبا (فرينادا ١٩٧٩)، فقد كانت الثورة الكوبية "ثورة كبيرة في بلد صغير" (Sunshine, 1988 : 168) وانتبه الناس في كل مكان إلى ذلك.

وقد تحمس الكوبيون، الذين صيغت بلادهم ولزمن طويل وفق نموذج إسباني مفروض ثم خضعت لنموذج مستورد من الولايات المتحدة، وكما فعل الفرنسيون والروس من قبلهم، لمهمة إعادة خلق المجتمع. وأصبحت كلمة السر الجديدة التي تشمل كل شيء هي patria "الوطن الأب"، وبعد أن كان مصدر الفخر هو اقتناء السلع الواردة من الولايات المتحدة، أصبح مصدره اقتناء السلع والخدمات والأساليب الكوبية. وتغيرت الموضات (وظهرت الغوبيرا وهي رداء الرجال واختفت البدل) وأعيد تصور الأفلام والباليه والموسيقى والكتابة في إطار وطني، وصدرت قوانين جديدة لتغير كل الأشياء كبيرها وصغيرها (صدر قرابة ١٥٠٠ قانون في السنة الأولى وحدها ;24 : paige, 2003) وأخيرًا وليس آخرًا حظر التمييز على أساس عرقي أو على أساس الجندر (النوع). وتحولت الثكنات العسكرية إلى مدارس ومستشفيات وعيادات وفتحت الشواطئ والنوادي الخاصة للجمهور. واستهدفت الأمية بنجاح كبير ونفذ الإصلاح الزراعي وفي محاكاة واضحة لثورة فرنسا سعى الكوبيون حتى لتغيير اللغة، في رغبة قوية لتخليص إسبانيتهم من التأثير الأمريكي، وليضيفوا إليها، كما فعل الروس من قبل وليبتعدوا عن أفكار ومفاهيم جديدة[٢٧]. وسعى الناس إلى تغيير وإلى "تنوير" أنفسهم.

وتعترض هذه القصة بعض القضايا الحرجة، ليس أقلها خطرًا أنه كان هناك العديد من الجماعات الثورية تعمل (رغم أن جماعة كاسترو وحدها هي التي كانت تخطط لمجتمع جديد، بشكل مباشر)[٢٨] وهو ما يوضح الدور الرئيسي الذي لعبه الثوريون الحضريون (انظر sveig, 2004 بالذات) ويتجاهل مقدارًا كبيرًا من تقلبات القدر. ورغم ذلك، فكما حاول الروس خلق سردية موحدة وأسرة عن "أكتوبر" (انظر corney, 2004 p von geldern, 1993 مثلاً) فقد فعل الثوريون الكوبيون كذلك باستثمار كثيف في "أسطورة جبال سييرا" خاصة في صياغة جسدها الشخصي الأكثر ثورية والذي يحاكيه الكثيرون وهو الطبيب الأرجنتيني أرنستو "تشي" غيفارا وهو شخصية سنعود إليها في الفصول اللاحقة. والأكثر أهمية في هذه الحكاية أنه مهما كانت النسخة التي تروى من الحكاية فإن بعض من يستمعون إليها كانوا يشقون طريقهم إلى كوبا حيث كان يدربهم تشي ورائده الذي هو أيضًا رائد كاسترو وهو ألبرتو بايو وآخرون من قدامى الثوريين ثم يرسلونهم إلى حيث ينشرون الثورة، وملايين الأشخاص الآخرين الذين لم يتيسر لهم أن يأتوا كانوا يستمدون منها الشجاعة في فضلاتهم الدائرة بالفعل في الجزائر وفيتنام وكولومبيا وماليزيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا تحت الصحراء.

وما كان أهم بكثير من التدريب (أو المساندة اليسيرة) كما هي الحكاية التي كانت تروى في كل مكان في العالم: عصبة صغيرة من الثوريين الملتزمين كان يهمها أمر الشعب واعتمدت على ذلك الشعب كمصدر للمساندة فلم تهزم عدوًا أقوى منها فحسب، بل وهزمت الولايات المتحدة، إحدى القوتين العظميين في العالم. وبعد أن حققت العصبة أهدافها بدأت تغير البلاد على النحو الذي وعدت به بالضبط، في مجالات مثل الصحة والتعليم والتغذية والإسكان فحسنت حياة الملايين. وقد أضفى هذا العمل شعبية ورومانسية على النضال، وبث الحمية في قلوب المحرومين في العالم في مرحلة حرجة – فإذا كان بوسعهم أن يفعلوها هناك، فلماذا لا نفعلها نحن

هنا؟ وهكذا أصبحت العملية الثورية في كوبا، وحسب تقديرات غيفارا هذا "المثال السيئ" للكرامة الوطنية والأممية.. "ففي كل مرة يهب شعب وقح مطالبا بالحرية، نتهم كوبا، وإنه لأمر صحيح، بمعنى ما، أن كوبا مذنبة؛ لأن كوبا هدتهم إلى السبيل.. سبيل النضال.. وبكلمة واحدة، سبيل الكرامة. والمثال الكوبى سيئ، مثال سيئ للغاية.. يتحدى الخطر، ويتقدم باتجاه المستقبل" (123 : 1969) وغير راضية بأن تكون مجرد مثال، فقد "مشت كوبا الخطا المفروضة" فأرسلت المرشدين الثوريين المسلحين للآخرين، وخاصة في أفريقيا الجنوبية؛ ولكن الأمر الذى كانت له أهمية أبقى بالنسبة لفهم الناس للدور الثورى الكوبى أنهم أرسلوا أيضا الأطباء والممرضات والمدرسين والمهندسين وعمال البناء. وبعد أن أصبح هؤلاء الناس وجه الثورة الكوبية أمام العالم فقد علت مكانة الثورة.

وهناك عدة أمور أخرى مهمة بالنسبة لحكاية الثورة الاجتماعية. أولها، أن كوبا كانت ثورة بعد كولونيالية وبعد إمبريالية في جنوب العالم، وباستثناء ثورة المكسيك فقد كانت أكثر الثورات دراماتيكية كعامل للتحول الاجتماعى، بأكثر مما هى ثورة اجتماعية متكاملة على غرار الثورات التى تناسب شمال العالم حيث كان يبدو أن أى تحول ذى بال يمكن أن يحدث. وقد أوضحت الثورة الكوبية أن الثورات يمكن إعدادها في الجنوب لصالح أهل الجنوب. ولم يكن هذا مجرد استيراد أفكار أوروبية (أو صينية)، بقدر ما كان نضالاً جديدًا من أجل عالم جديد باستخدام الإستراتيجيات الجديدة والتكتيكات الجديدة التى صاغتها العملية الكوبية الجديدة – ولو كانت حكاية قديمة فقد تم تجديدها[٢٩]. وثانيا، فقد بدا أن كوبا تقدم دليلاً دامغًا على أن الخير بوسعه أن ينتصر على الشر، حتى في مواجهة عداء شديد، فقد هزمت الثورة ذات القاعدة العريضة، الثورة الشعبية، ديكتاتورًا قاسيًا كان الناس يتصورون أن الولايات المتحدة تسانده (وهى التى تخلت عنه في توقيت سيئ، من وجهة نظر باتيستا، دون أن يحظى ذلك بكثير من الاهتمام في معظم

روايات هذه الحكاية)[٣٠] كما هزمت عصابات الجريمة المنظمة ذات البأس التى لم تكن كوبا بالنسبة لها أكثر من ملعب. واشتدت الأسطورة عندما زادت معارضة الولايات المتحدة وواجه المجتمع الكوبى الجديد محاولات أشد قوة بذلها الأعداء لتدميره، بكل تصميم. وفى عالم يعتبره الكثيرون معاديا لوجود كوبا، كان البقاء على قيد الحياة شارة تمجيد.

وأخيرا، وقد يكون هو الأهم بالنسبة لحكاية الثورة الاجتماعية، فإن كوبا قدمت للناس نموذجا لثورة موجودة فعلاً ويبدو أنها، رغم ما تلقاه من معارضة، تعمل وتمثل فرصة لإنجاز حقهم الثورى فى التغيير المادى والأيديولوجى لشروط حياتهم اليومية. ورغم ذلك، وكما كان الحال مع فرنسا وروسيا والصين قبل الكوبيين فمن الصعب الزعم بأن الكوبيين نجحوا نجاحا جوهريا رغم أن الأمر يتوقف، فى كثير من جوانبه، على ما يختار المرء قياسه وعلى كيفية القياس، لكن من الواضح أن الكوبيين حققوا إعجازا كبيرا. وإذا كان الثوريون الكوبيون لم يرقوا إلى مستوى المهام الهائلة التى أخذوا على عاتقهم أن يحققوها – ففى أرقى تقاليد حكاية الثورة الاجتماعية كانت المهمة ليس فقط أن يعيدوا صياغة أنفسهم بل وأن يعيدوا صياغة العالم حولهم – فقد يبدو من الخرق، على أقل تقدير، تجاهل النجاحات الحقيقية الملموسة التى أنجزوها على الأرض، أو التقليل من شأنها. ورغم أن هناك ترددا مفهوما فيما يتعلق بدرجة احترامهم للحريات المدنية، وفى بعض الحالات أيضا، تقرير الدولة لاحتياجات الناس، والحكاية داخل الحكاية هى أن الناس سعوا إلى بناء عالم أفضل لأنفسهم ولأطفالهم، وإلى إشراك الآخرين فى رؤاهم الطامحة إلى عدالة اجتماعية.

وبالنهاية فقد كانت الثورة الكوبية بداية حلقة جديدة من حكايا الثورة الاجتماعية، بمعان عدة؛ فقد جعلت الثورة الاجتماعية راسخة على أرضية الجنوب وعميقة الجذور فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وإذا كانت الثورة الفرنسية

قد مثلت سقوط الإقطاع والعلاقات التى تخدم عليه وبدأت النضال من أجل العدالة الاجتماعية، فقد جاءت الثورة الكوبية بهذه المعركة إلى خاصرة الوحش المعاصر بالتحديد، إلى أمريكا اللاتينية والكاريبى تحت بصر الولايات المتحدة التى ترقب كل شيء. وربما كان الأمر يتعلق بما هو أهم: فحسب بيريز (482 : 1999) فإن "المنظومة المهيمنة للحضارة كانت فى مرحلة انتقال وكانت سلطة الثورة قادرة على أن يعاد، على نحو قابل للتطبيق، ترتيب المعايير التى تقاس بها الحضارة. وفى سياق هذه العملية تستدعى رؤية لنظام أخلاقى بديل"[٣١] وهكذا تبدأ قصة الثورة الاجتماعية بجهود بذلها الفرنسيون لإعادة خلق العالم، وتنتقل إلى روسيا والصين وإلى الرؤى التى سعى الروس والصينيون لأن يحققوا بها جهودهم ويقرروا بها أفعالهم فى مواجهة تحديات تبين أن التغلب عليها مستحيل، ثم تصل الحكاية إلى كوبا، التى تأتى بالثورة إلى الزمن الحاضر وتجعلها تبدو حقيقية، ويمكن الوصول إليها، وذات مغزى – حكاية يمكن أن يحكيها أى إنسان، فى أى مكان، وفى أى وقت.

حكاية الثورة

الثورة الكوبية هى روح حكاية الثورة الاجتماعية المعاصرة وتشى جيفارا هو الذات التى تجسدت فيها، ويزعم دون (200 : 1989) "أنها بعثت إلى الحياة قابلية الدور الثورى لأن يكون خياراً للمستقبل وليس مجرد حلية عظيمة لمرحلة من التاريخ بسبيلها إلى الزوال"[٣٢] وقد ظلت لعشرات السنين مصدر تشجيع للثورات وحركات المقاومة والتمرد حول العالم، وإن كانت قلة منها هى التى كانت ثورات اجتماعية ناجحة. واتخذ ذلك فى بعض الأحيان، شكل محاكاة مباشرة. نجحت فى حالة الثورة الاجتماعية فى نيكاراغوا فى ١٩٧٩ (وربما فى النجاح القصير العمر فى غرينادا فى ١٩٧٩) وفى الثورات المعادية للكولونيالية فى أنغولا وموزمبيق، وبدرجة أقل فى بوليفيا وفنزويلا وبيرو والسلفادور وغيرها، وفى ظروف أخرى

كان التأثير أكثر مباشرة، كما فى زانزيبار، مثلاً (١٩٦٤) وفـى بينـين (١٩٧٢) وفى بوركينا فاسو (١٩٨٣)، ولم تكن أى من هذه الثورات ثورة اجتماعية. وكانت هناك أيضا صلات أقل وضوحا، ترتبط أكثر بالروح وبالتشجيع، فى حالات متباينة كما فى ١٩٧٥ فى فيتنـام ولاوس وكمبوديـا[٣٣] وأفغانـستان (١٩٧٨) وإيـران (١٩٧٩) وقد يقف الأمر عند حدود الإحساس بالإمكانية الذى حركتـه كوبـا فـى ظروف انتخابية، كما جرى مثلاً فى تشيلى (١٩٧٠) وجامايكـا (١٩٧٢). وربمـا كانت أهمية مثال كوبا للطلاب والعمال والمثقفين حول العـالم فـى ١٩٦٨ أقـل وضوحا ولكنها كانت، رغم ذلك، حقيقية وقوية. وإذا كانت نيكاراغوا وإيران فقـط هما اللتان ترقيان لمستوى الثورة الاجتماعية. فكل هذه الحالات وأكثر منها بكثيـر تتطلع إلى ذلك لأسباب من بينها: أن الثورة الكوبية أصبحت جزءًا من مخزونهـا، الفصل الأخير فى الحكاية الأسرة للثورة الاجتماعية ذاتها.

وتزعم آرندت (1965 : 43) أن "هناك ثورة واحدة فقط، هـى هـى، ثـورة أزلية" وهو قول ينسجم، بشكل مريح، مع أوهام العالميـة التـى يعتنقهـا أولئـك المنخرطون فى العملية الثورية الاجتماعية. وقد أشار كامو فـى ١٩٤٦ إلـى أن ١٧٨٩ و ١٩١٧ ما زالا زمنين تاريخيين لكنهما ليسا مثالين تاريخيين" (kumar, 2001 : 216) وبعد ذلك بحوالى عشرين سنة أبدى برينتـون اعتراضـه (1965 : 249) زاعمًا أن "البحث عن العدالة الاجتماعية فى منتصف القرن العشرين انتقـل إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية" وأنه الحقيقة؛ ففى "الصين وفى غانا وفى كوبـا يريدون ما يظنون أننا فى الغرب كنا نريده عندما بدأنا ثوراتنا وهو ما يجد أفـضل تلخيص له فى (الحرية والمساواة والأخوة) عند الفرنسيين" (1965 : 250). وبالتأكيد فإن الثورات الاجتماعية حاولت تكريس هذه المبادئ – وغالبًا ما يزيد عن ذلـك، والهدف هو ثورة عالمية تأتى، عبر التحول الاقتصادى، والسياسى، والاجتمـاعى، والثقافى، والسيكولوجى، بالعدالة الاجتماعية للجيل الحالى وكل الأجيال التالية.

ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن حكاية الثورة الاجتماعية تنطوى على قوة هائلة، هي ذلك المزيج الكثيف من الأحلام والرغائب التي نسميها، بفضل ١٧٨٩، اليسار، والتى تمثل بالتالى أسوأ كوابيس اليمين. وهى حسب لينين (1980 a: 125) مهرجان المقموعين والمستغلين حيث يسعى الناس الذين طالما قمعوا وقهروا أن يسيطروا، بوسائل متباينة، على الشروط المادية، والأيديولوجية لحياتهم؛ وهذا يعنى بالضرورة انتزاع السلطة ممن يملكونها حاليًا. وقد تبدو الثورة الاجتماعية، من ناحية، انعكاسًا لوعد عصر التنوير. ومن ناحية أخرى، فهى عميقة التأثر بالدون كشوتية – ولنتذكر أحد أكثر مقولاتها تأثيرا وهى مقولة تش الرومانسية إلى حد يدعو للقياس: "الثورى الحق يسترشد بشعور عميق بالحب" (Guevara, 1967 a, 136) وبهذا المعنى، فربما كانت الثورة الاجتماعية تمثل ثورة مزدوجة، وقد نتصورها ثورة نادرة، في جانب منها، بسبب الحاجة إلى حضور العنصرين معًا: الرؤيوى والتنظيمى اللذين يعملان معًا على إمكانية تحقق وعى عام بالأحلام والرغائب الخاصة لدى الناس. ويمكن القول بأن هذا، فوق كل شيء آخر هو ما جعلنا نعلن أن الثورات التى تندرج تحت "حكاية الثورة الاجتماعية" هى "الثورات العظمى".

الفصل السابع

حكاية ثورة الحرية والتحرر

حكايا الثورة هى، حتى الآن، وقوف مطول عند الملحمى والعظيم، فهى محاولات صورت بصورة نضالات عظمى دارت حول كنه الحضارة ذاته أو حول تحقق ثورة عالمية تستهدف العدل الاجتماعى. وهذه قصص غائية، أساسا، تتصل بالبنية الكلاسيكية، بما لها من بداية ووسط ونهاية، التى ألفناها كلنا. وتنسجم حكاية ثورة الحرية والتحرر مع هذه البنية إلى درجة لها مغزاها؛ فهى أيضا بالنهاية، ملحمة تقدمية يجد الناس أنفسهم فيها تحت ظروف مضنية ويكادون يكونون تحت قهر مؤكد. لكن هذه حكاية ترتبط أيضا بما يمكن فهمه على أنه أمور أقرب إلى الحياة المعتادة: قضايا يومية وديناميات تتصل بالحرية والتحرر. ولا يعنى هذا، بأى حال، أن هذه الأمور أقل قيمة؛ فبالنسبة لمن تغشى هذه الأمور حياتهم فهى بالغة الأهمية وقد تكون أهم من الصراعات التى تدور حول السرديات الكبرى.

وبالرغم من الميل إلى الخلط بينهما فالحرية والتحرر مفهومان متمايزان وهناك بعض النفع فى إبقائهما منفصلين. وتلاحظ آرندت، مثلاً، أنه فى فرنسا ١٧٨٩ فإن "التحرر من الطغيان لم يكن يعنى الحرية إلا للقلة ولم يكد يكون محسوسًا لدى الكثيرين الذين بقوا مسحوقين تحت وطأة الشقاء" **(74 : 1965)** وبهذا المعنى فإن هورسلى وستندال **(217 : 2000)** يشيران إلى أن "التحرر ينطوى على إمكانية الإطاحة الكاملة بالبنى القمعية، وإمكانية الثورة فى حين أن الثورة تعرّف بالحدود التى يقبل الأحرار بها لأنفسهم" وقد اعتبر ثوريون مثل فرانز فانون **(1965)** أنه عندما أو "حيثما جاءت الحرية بالمنح أو بالتنازل" فإنها "تحرر زائف"؛ "التحرر الحقيقى لا ينجز إلا عندما يحارب المرء من أجله". **(jinadu 1986 : 68)** وفى منظور مختلف بالتأكيد فإن هوروفيتز **(90 : 72)** وبالنسبة للثورات الحديثة، تحديدًا، يزعم بأن التحرر يتعلق بـ "غياب التقييد وزيادة فى الحراك الاجتماعى".

(والربط بين الأمرين مثير للاهتمام) فى حين أن الحرية تتعلق بـ "المستوى السياسى للحياة[١] وتقبل آرندت (29 : 1965) بفكرة أنه "قد يكون من نافلة القول التأكيد على أن الحرية والتحرر ليسا شيئًا واحدًا لكن الحقيقة هى أن مثل هذه التعبيرات قد تنسى"؛ لأن التحرير له حضوره الطاغى فى حين أن أسس الحرية كانت دائمًا غير مؤكدة إن لم تكن عديمة الجدوى تمامًا. ورغم ذلك يحذر أحد أقطاب لاهوت التحرير (186 : 1983) من أن الحرية لا يمكن أن تحققها "الحريات الحديثة والديمقراطية"، وهكذا يعكس شكوكه فى مثل التنوير، انظر (bell, 2001 : 64) لكنه يزعم أن "الحرية لا يمكن أن تكون إلا نتيجة عملية التحرر" وهنا فهو يعترف بأن التأثير المتبادل قد يكون معقدًا ومربكًا، لكن فى حكاية ثورة الحرية والتحرر يكون الربط بين الاثنين عفويا وبدهيا، فى الغالب.

وتشترك حكاية التحضر والمقرطة وحكاية الثورة الاجتماعية فى ثلاث خصال مهمة. الأولى هى أن كلتيهما من حكايا النخبة، بدرجة ما، على الأقل بمعنى أنهما تكتبان، بالأساس بأقلام المنتصرين، مهما كان ذلك مؤقتًا (كما فى حالة فرنسا) وبما أنها، فى الجوهر، حكايا تأسيسية بالنسبة للمجتمع الخاص بكل حكاية فهذه هى نقطة البداية، وهذا ما نحن عليه الآن. وبالتالى، فهما أشهر حكايا الثورة، الأكثر ارتباطًا بالمصطلح، لكن، وكما رأينا، فهما نادرتان أيضا. فحكاية التمدين والمقرطة لا تتجاوز ثلاث حالات: إنجلترا فى ١٦٨٨، وأمريكا فى ١٧٧٦، وفرنسا فى ١٧٨٩. أما حكاية الثورة الاجتماعية فهى لا تكاد تكون أوسع مجالاً – ويمكن أن يتفق العموم على فرنسا ١٧٨٩، وروسيا ١٩١٧، والصين ١٩٤٩، وكوبا ١٩٥٩، وبدرجات متفاوتة على المكسيك ١٩١٠، ونيكارغوا ١٩٧٩، وإيران ١٩٧٩ وهكذا. ففى الحكايتين معًا ليس هناك ما يزيد عن تسع حالات فيما يزيد قليلاً عن ثلاثمائة سنة. لكن لننظر فى مدى انتشار المفهوم وكذلك الممارسة الثورية، حتى الآن.

وثانيًا، ففى الحكايتين تكون الحرية والتحرر ثيمتين أساسيتين. وفى حكاية التحضر والمقرطة فإنهما تتخذان، أولا، شكل الحماية من الحكومة، وهذه فى جوهرها مسألة حقوق سلبية، مثل حق الكلام، حق الاجتماع، حرية الاعتقاد الدينى، حق التملك، ضوابط الاعتقال habeas corpus وهلم جرا. وتوسع حكاية الثورة الاجتماعية كل هذا وتعمقه، موضحة أنه إلى جانب أن هذه الحقوق هى بداية ضرورية، فهى ليست كافية؛ فلابد أن يتمتع الناس أيضا بحقوق إيجابية وأساسية يمكن أن تؤمنها الحكومة؛ مثل: التحرر من الجوع والمرض، والحق فى المأوى، والحد الأدنى لمستوى المعيشة والتعليم واحترام ذواتهم (الكرامة) وثقافتهم. وفى الحالتين يمكن أن نقول بأن التحرر هو تحرر من التقاليد، خاصة الإقطاعية والملكية (رغم أن هذه الأخيرة ليست بسيطة) والتحرر من الخوف والتطيّر (وهنا تظهر عقلانية عصر التنوير) وكل هذه الأمور تنتج معايير وقيودًا مجتمعية تكبل الناس.

والخصلة المشتركة الثالثة والأخيرة هى أنه، برغم اتجاهاتهما التقدمية والمتطلعة إلى الأمام، دون أى شك، فالحكايتان الشبيهتان بـ يانوس(*) تعكس كل منهما أحد وجهيها إلى الخلف، إلى الإغريق، وبشكل أكثر تحديدًا، إلى الرومان. وكما أشار ماركس (1978 a: 595) فإن فرنسا "سربلت نفسها، على التوالى، مرة برداء الجمهورية الرومانية ومرة برداء الإمبراطورية الرومانية" وسعت كل ثورة جاءت بعد ذلك إلى أن تقلد الفرنسيين.

وتجد قصة الثورة التى تحقق الحرية والتحرر أصولها فى روما، أيضًا، على الأقل فى الروايات الأكثر شيوعًا، وتبدأ من التركيز على تخليص الشعب،

(*) Janus: إله رومانى هو إله الأبواب والمداخل وله رأسان يتطلع أحدهما إلى أمام والآخر إلى خلف، ومنه اشتق اسم الشهر يناير، واختلف الشراح فى تحديد أصل الاسم فمنهم من يرجعه إلى أصول هندية قديمة ومنهم من يرجعه إلى أصول شرق أوسطية إلى الكلدانيين أو الكنعانيين – المترجم.

وإن كانت الحقوق والسيادة تأتى سريعًا بعد ذلك. لكن المنظور هنا أوسع كثيرا ويحتوى على حالات أكثر عددًا وأكثر تنوعًا. ونتيجة لذلك، فهذه ملحمة أطول وأقل تماسكًا مقارنة بالاثنتين اللتين سبقناها، من ناحية التتابع الزمنى، عمومًا، ولكن بدرجة مدهشة من التنوع. وهنا سوف نعطى الحالات الأكثر شيوعا اهتمامًا عابرًا، نتبعه بنظرة متعمقة إلى حالتين تبرزان فى معظم النسخ الرائجة من هذه الحكاية وهما حالتان تحتويان على كثير من العناصر الرئيسية للحكاية. وقد تكون هاييتى أهم عملية ثورية فى الألم؛ وهى عملية يتجاهلها الجميع تقريبًا؛ إنها حالة مركبة تلقى بالضوء على كثير من عناصر هذه الحكاية. ثم هناك المكسيك، أول هبة اجتماعية كبرى فى القرن العشرين، ولا يضاهيها إلا الصين وفيتنام كعمليات هى بحق متمعجة ومتخبطة ومتعددة الفصول وتشتمل على شىء من كل شىء تجده هنا إضافة إلى عناصر من الحكايتين الأوليين بل وإلى بعض وجوه ثورات المضيَّعين والمنسيين وأخيرًا، ننظر فى عجالة إلى الكيفية التى تضرب بها المقاومة والتمرد والثورة، وهى تعود إلى الظهور فى مطلع القرن الحادى والعشرين، على المستوى المحلى، بجذورها عميقًا فى التاريخ.

الحشد الألفى: أربع طبقات عريضة

روما هى البداية الملموسة ذات المغزى التى تستمد منها هذه الحكاية "أصولها" ودوافعها، ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس ٦١ إلى ٧٣ ق.م ضد الرومان. ورغم أن فينلى (54 : 1986) يشير إلى أنه برغم "طابعها الدراماتيكى المخيف" فلم يكن هناك، بالحقيقة، شىء ثورى فى تمرد العبيد، لكنها أثبتت قدرتها على الإلهام(٢). ورغم أن ما نعرفه عن الحدث الفعلى قليل، فيبدو أنه كان تمردًا كبيرًا إلى حد يعتد به وناجحًا إلى حد ما وحاز قدرًا من الشهرة. وأهم ما يتصل بهذه الحكاية أن المتفلسف الراديكالى الفرنسى آبى راينال، بعد ذلك بقرون، وبالتحديد

فى ١٧٧٠ دعا إلى ظهور سبارتاكوس أسود "لينهى الرق فى جزر الهند الغربية"؛ وبالحقيقة فإن تويسان لوفيرتير، زعيم التمرد والثورة فى هاييتى أطلق عليه، وبحق، اسم "سبارتاكوس الأسود" (Meltzer, 1993 : 120) وبعد ذلك بزمن ليس بالطويل علق ماركس، وهو يكتب إلى إنغلز، على ذلك بالقول إن "سبارتاكوس يبرز باعتباره الشخصى الأكثر أهمية فى مجمل التاريخ القديم، كجنرال عظيم.. ذى شخصية نبيلة، كممثل حقيقى للبروليتاريا فى العالم القديم" (1861) وربما كنتيجة لذلك (وقد نشر الخطاب لأول مرة فى شتوتغارت فى ١٩١٣) فإن الجماعة الماركسية التى بدأت تتحلق حول كارل ليبنخت وروزا لوكسمبورغ فى ألمانيا إبان الحرب العالمية الأولى أطلقت على نفسها الرابطة الاسبارتاكوسية واعتبروا نموذجا بدائيا للثورى "النار والروح.. النفس والفؤاد.. الإرادة والعقل الثوريين لدى البروليتاريا.. كل الاحتياج إلى السعادة والتلهف عليها، كل التصميم على خوض معركة البروليتاريا ذات الوعى الطبقى. الاسبارتاكوس الذى أعنى به الاشتراكية والثورة العالمية (ليبنخت كما ورد عند فورتيل (90 : 2001)[٣] وما أن حل العام ١٩٢٠ حتى كان سبارتاكوس قد اكتسب مكانة مهمة فى احتفالات الروس بثورة ١٩١٧ فى زينات صممت لتخلق "شعورًا بعظمة الثورة فى مشاهدها التاريخية التى تصور أولاً ثورة العبيد فى روما بقيادة سبارتاكوس" (Corney, 2004 : 75) ومن الواضح أن الملحمة الملهمة عن عبد يواجه الإمبراطورية الكبيرة لها صداها فى حركة المقاومة، والتمرد، والثورة.

وهناك أمثلة أخرى تجل عن الحصر لحكاية ثورة الحرية والتحرر، وهو ما يذكرنا بالقاعدة الأوسع التى تعتمد عليها. وكثير من الحكايا، مثل حكاية سبارتاكوس، يمكن أن يُقرأ باعتبار أن نقطة ارتكازه هى الحرية. وحكايا أخرى، مثل حكاية الخروج فى الثورات العبرية، والتى نجدها فى أشكال متباينة حيثما حلت المسيحية (كما رأينا فى الفصل الرابع) فهى حكايا تحرر، بقدر أكبر؛ إذ أنها

تصوَّر باعتبارها تحررًا ذاتيا (وإن لم يكن ذلك على الدوام، فحكاية الخروج ذاتها تشتمل على تحرر من مصدر خارجى) وبغض النظر عن البؤرة - الحرية أو التحرر أو مزيج ما من الاثنين، فهناك مخزون ثرى من المقاومة والتمرد والثورة، وكلها تنطوى على عناصر ثورية، تشخص كلها، فى الغالب الأعم، باعتبارها مضادة للعبودية أو مضادة للكولونيالية أو مضادة للإمبريالية. والمشترك بينها هو شعب يسعى للحرية أو للتحرر من السادة أو من الطغاة، المهيمنين عليهم والمتحكمين بحياتهم. وكقاعدة، فالناس تطلب المساواة وتقرير المصير، على نحو خاص، لأنفسهم ولجيرانهم، وأحيانًا بشكل عام لأمتهم أو لدولتهم.

وهنا طبقات عديدة وواسعة أولاها بالأساس هى ثورات العبيد أو التمردات الشبيهة بتمرد سبارتاكوس، رغم أن الكثيرين يلجئون إلى حكاية ثورة المضيَّعين والمنسيين. ومن أبرز الأمثلة الهبة الكبرى فى ١٣٨١ فى إنجلترا، وهى ثورة أقنان؛ والمقاومة المحلية للغزو الإسبانى للأمريكتين فى تاريخ مبكر هو ١٥١٩[٤]. مرورًا بتمرد مانكو إينكا من ١٥٣٦ إلى ١٥٧٢ الذى انتهى بقطع رأس ابنه الأخير توباك آمارو، ووصولاً إلى التمرد الكبير فى الأنديز والذى قاده توباك آمارو الثانى وتوباك كاتارى. (ويميل كل التوباك إلى أن يندمجوا معًا فى الذاكرة الشعبية ليصبحوا أساسًا للقصص الشعبى) وتمرد السبعين عامًا الذى قام به العبيد فى البرازيل وارتكز على جمهورية بالمباريس التى بلغ عدد سكانها فى تسعينيات القرن السابع عشر حوالى عشرين ألف نسمة (86 : 1993)[٥] والتى اختار زعماؤها فى ١٦٩٦ أن يهبوا لمواجهة الموت وهم يصدون الغزاة الهولنديين والبرتغاليين مفضلين ذلك على الاستسلام[٦]؛ وتمرد العبيد فى هاييتى فى ١٦٩١، الذى غالبًا ما ينظر إليه باعتباره الهبة الوحيدة الناجحة للعبيد وتمردات أخرى فى الكاريبى مثل تمرد فيدون فى غرينادا ١٧٩٥ - ١٧٩٦ وقد أسست هاييتى ثيمة معينة، مع بداية الترابط بين تمردات العبيد (والحركات المضادة للعبودية) فى الأمريكتين والجهود

المضادة للكولونيالية فى القرن التاسع عشر، ومن بينها ما شيدته الولايات المتحدة فى بداياتها، تمرد بروسر فى ١٨٠٠، وتمرد أندرى فى ١٨١١[٧] والتمردات التى قادها فيزى فى ١٨٢٢ ونات تيرنر فى ١٨٣١ (وكانت حكاية الخروج جوهر التمردين) وكذلك تمرد لاريسوفينر فيما يعرف الآن بغوايانا فى ١٨٢٣ والملحمة المستحيلة لجون براون وتمرده المضاد للعبودية فى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية. والذى يعرف على نطاق أوسع الآن أكثر مما عرف عند حدوثه فى ١٨٥٥ – ١٩٥٩.

وقد نجد فى طبقة أخرى حالات ذات أهداف يمكن أن تكون أوسع: فقد عاصرت تمردات العبيد والأنشطة المرتبطة بها نضالات ضد الكولونيالية. وفى عدد مدهش من الحالات فإن هذه الحكاية تشمل الثورة الأمريكية، خاصة إعلان الاستقلال، الذى أثبت أنه مصدر إلهام يتجاوز الزمن لكل الناشطين ضد الكولونيالية؛ وعلى سبيل المثال فإن إعلان الاستقلال الفيتنامى فى ١٩٤٥ يبدأ بكلماته الأكثر شهرة "خلق الرجال جميعًا متساوين.. وقد أنعم عليهم خالقهم بحقوق معينة غير قابلة للتصرف، من بينها الحق فى الحياة والحق فى الحرية والحق فى السعى وراء السعادة" (*): وتظهر فى هذه الحكاية ثورة هاييتى لعام ١٧٩١، التى نواصل مناقشتها فيما يلى. ويدرج البعض حروب تحرير أمريكا الجنوبية من الأسبان.

وحقيقة أن هذه الحروب لا يتكرر إدراجها فى الحكاية كثيرًا ربما تعود إلى النتائج التى أسفرت عن قدر قليل بدرجة تدعو للدهشة، من الحرية أو التحرر الحقيقيين لغالبية السكان (انظر meauley, 1997 : 174 – 5). ويشير باركر (34 : 1999)، إذا

(*) فى هذا النص لابد وأن تترجم كلمة men إلى البشر وليس الرجال، لكن المؤلف يشير إلى نص الإعلان الأمريكى الذى كان يقصد الرجال وحدهم، ويستثنى النساء، ورغم أن الثورة الفيتنامية التى جاءت بعد الأمريكية بحوالى قرنين هى أكثر شمولية لأنها لا تفرق بين ذكر وأنثى، فقد حافظنا على طبيعة النص الأمريكى المنحاز للذكور – المترجم.

كان لنا أن نلمح إلى طبقة تأتى فيما بعد، إلى أن هذه الحروب تفهم على أفضل وجه باعتبارها "حركة تحرر وطنى" ورغم ذلك فقد لقيت قدرًا من الاهتمام. ويعد النصب التذكارى للبطل التحررى الأعظم فى أمريكا اللاتينية سيمون بوليفار إشارة تنطوى على التحية إلى ما كانت تعنيه كل هذه الحروب.

وفى الغالب الأعم تستأنف الحكاية مرة أخرى مع تمرد سيبوى فى ١٨٥٧ ضد الحكم الكولونيالى البريطانى للهند الذى أصبح عدد من أبطاله وبطلاته زادًا فولكلوريا للهند ليستلهم ويستخدم فى نضالات الهند المعاصرة[٨] وتحظى حكايا تمرد المهدى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر فى السودان المصرى (تحت السيادة العثمانية لكن إدارته كانت للبريطانيين ذوى الحضور الكلى) والتمردات المعاصرة ضد الحكم الكولونيالى فى الجزائر وداهومى (بينين) وأشانتيلاند (كل من الأنديبيلى والشونا فى أفريقيا الجنوبية) وفى سيراليون وفى دول الهاوسار فولانى (ينجين الشمالية) بشهرة كلية تفوق الشهرة الدولية لها. وقد تواصلت الثورات والتمردات فى أفريقيا، فمنذ العقد الثانى من القرن العشرين كانت أثيوبيا وليبيريا وحدهما الناجيتين من حكم "القوى الكبرى" ومعركة كوبا للاستقلال عن إسبانيا فى ١٨٦٨ – ١٨٧٤ (الحرب الكبيرة) هى جزء مهم آخر من هذا الحكاية، وكذلك معركة ١٨٧٩ – ١٨٨٠ (الحرب الصغيرة) وحرب الاستقلال الكوبية الأكثر شهرة ١٨٩٥ – ١٩٨٩ وجرّت الحرب الأخيرة الولايات المتحدة لتنشط فى المنطقة؛ ومن المعروف جيدًا فى أمريكا اللاتينية والكاريبى أن التدخل الأمريكى الذى دام ثلاثة أشهر انتهى إلى حجب كوبا عن التفاوض حول معاهدة وحجبها عن نتائج استسلام إسبانيا، وبالنهاية فالعلم الأمريكى هو الذى ارتفع فوق هافانا، بدلاً من العلم الإسبانى. وليس العلم الكوبى. ورغم أنها نادرا ما تدرج فى هذه الحكاية. لجان حرب استقلال أيرلندا عن بريطانيا ١٩١٩ – ١٩٢١[٩] فمن حقها أن تكون هنا، هى أيضا.

والجزء الأكثر شهرة فى حكاية الحرية والتحرر الثورية هى حكاية الثورة التى تبدو انتقالية بين النضال ضد الكولونيالية والنضال ضد الإمبريالية وما يسمى تمرد البوكسر فى الصين ١٩٥١ - ١٩٥٥ (أى هوتشوان / يى هو توان، "القبضات المتناغمة")(*) كان محاولة لطرد القوى الأجنبية المختلفة التى احتلت أجزاء من البلاد. ورغم أن الصين لم تكن، بالمعنى التقليدى، مستعمرة لأى بلد بمفرده، وكان ينظر إليها فى ذلك الوقت (والأهم بالنسبة للحكاية التى تروى هنا، أنه ينظر إليها على هذا النحو من قبل الكثيرين، منذ ذلك الحين) باعتبارها مكانا مستعمرا وشعبا خاضعا تحت رحمة القوى الأجنبية الذين كانوا يأخذون ما يشاؤون ويفعلون ما يرغبون فيه. وقد تحول هذا إلى قاعدة ثابتة آنذاك، بالنسبة للكثيرين، عندما أعطت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى منطقة الامتياز الخاضعة للسيطرة الألمانية فى الصين (شان ونغ / فنداو) لليابان وليس للصين.

وينظر إلى هذا الحدث، عموما، على أنه الدافع وراء قيام حركة الرابع عشر من مايو ١٩١٩، رغم أن المؤكد أنه كان أحد دوافع كثيرة فى الحركة التى شاع النظر إليها باعتبارها حركة معادية للإمبريالية وعوملت باعتبارها لحظة حاسمة فى تأسيس الحزب الشيوعى الصينى وفى قيام ثورة ١٩٤٩(١٠). وتشمل الطبقة الثالثة كثيرا من حروب القرن العشرين للتحرر الوطنى، وهى طبقة معقدة لكنها مثمرة؛ وكما يلاحظ باركر (40 : 1999) فإن هذه "مجموعة يصعب فرزها على نحو استثنائى" لكنها "متميزة بما يكفى لتبرير وجودها" وقد كانت فى الغالب خليطا من المعادة للكولونيالية، فى نهاية حقبة ما، ومعاداة الإمبريالية، فى بداية حقبة أخرى. وهذه النضالات لم تستهدف فقط حرية الناس وتحريرهم، ولكنها طرحت فى حالات كثيرة خبرات سياسية واجتماعية واقتصادية بالغة التنوع بما صاحبها من تحولات نفسية(١١). وتتزايد سرعة هذه الحكاية مع انكشاف حقيقة

(*) هذان هما التسمية الصينية وترجمتها الإنكليزية للتنظيم السرى الذى قاد الثورة والذى تعود بداياته إلى عام ١٧٠٠ - المترجم.

وعود المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى "بحق تقرير المصير للشعوب فى البلدان المستعمرة، باعتباره وعدًا بلا مضمون(٢٢). فيتجه للصدمة التى ترتبت على تمسك القوى العظمى بامتيازاتها ولأن أحداث روسيا أشعلت الموقف؛ فقد شهد ربيع ١٩١٩ وحده (وبسبب التأثير المتبادل) ثورات متفاوتة فى الطول وفى الدرجة: فى مصر (مارس) وكوريا (حركة أول مارس) وحركة غاندى ساتيا غراها (المقاومة السلبية) فى الهند البريطانية (أبريل) والحركة التى سبقت الإشارة إليها فى الرابع عشر من مايو فى الصين. وهذه بدورها ألهمت ثورة عالمية من الهند الشرقية الهولندية إلى الهند الغربية البريطانية(٢٣)، وقد تقاطعت معها "حرب عالمية" ثانية: أوروبية بالأساس مرة أخرى (وهى التى بدت للكثيرين مجرد استمرار للحرب الأوروبية الأولى، التى انتهت بخير بالنسبة للقلة) ودعيت الشعوب المستعمرة، مجددا، للحرب من أجل الديمقراطية والحرية، ومن العجيب أن يكون ذلك ضد الفاشية والاستعباد، هذه المرة من: ومرة أخرى بذلت الوعود البراقة والسخية. وفيما يشبه إعادة غريبة، تحرك المنتصرون فى فترة ما بعد الحرب، مجددا، ليؤكدوا ولايتهم وسلطانهم، وهم على استعداد لمواصلة قمع مستعمراتهم.

وظهرت نضالات متعددة الطابع، لكن عددًا أكبر منها مسلح وفى معظم الحالات ثورى ومعاد للكولونيالية ومعاد للديكتاتورية فى القارات الثلاث، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والكاريبى وكذلك فى الأوقيانوسة(*) فبدرجات متفاوتة من النجاح نشبت الصراعات فى فيتنام من ١٩٤٥ إلى ١٩٧٥ وإندونيسيا ١٩٤٥ – ١٩٧٩ والفلبين ١٩٤٦ – ١٩٥٤ وماليزيا ١٩٤٨ – ١٩٦٠ وكينيا ١٩٥٢ – ١٩٦٠ والجزائر ١٩٥٤ – ١٩٦٢، والحروب الاستعمارية البرتغالية (أنغولا والرأس الأخضر وغينيا بيساو وموزمبيق) وجنوب أفريقيا ١٩٦١ – ١٩٩٤ وناميبيا ١٩٦٦ – ١٩٩٠، وأكثر من ذلك فإن كثيرين ممن يحكون هذه الحكاية يدرجون ما يمكن فهمه على نحو مجد باعتباره نضالاً ضد الإمبريالية بوسائل

(*) oceania الجزر فى المناطق المدارية من الباسيفيك – المترجم.

ديمقراطية كما جرى فى جواتيمالا ١٩٥٠ - ١٩٥٤ وإيــران ١٩٥١ - ١٩٥٣ وبوليفيا ١٩٥٢ - ١٩٥٤ ونمويانا البريطانية ١٩٥٤ - ١٩٦٤ وجامايكا ١٩٧٢ - ١٩٨٠ وتشيلى ١٩٧٠ - ١٩٧٣، والمهم بشكل خاص هو المدى الذى ساعدت فيه كل ثورة من هذه الثورات فى تعزيز وتقوية الأخريات على مستويات متباينة علمًا بأن العلاقات بينها جرى الاعتراف بها مبكرًا فى مؤتمر بانـــدونغ لحركـــة عـــدم الانحياز فى القارات الثلاث فى ١٩٥٥. ولكن بغض النظر عـــن اللقـــاءات بـــين الزعماء وعن مظاهر التضامن والإيمان، فالأكثر إثارة للدهشة هى الدرجة التـــى بلغها ميل الناس فى مناطق متعددة، وعلى نحو متزايد، إلى ربط تطلعاتهم بتطلعات الآخرين وتأكيدهم لأنفسهم على حقيقة أنهم ما داموا استطاعوا أن يفعلوهـــا هنـــاك فيمكننا أن نفعلها هنا.

وتشمل حكاية ثورة الحرية والتحرر، أيضا مجموعة حالات يتنوع ظهورها عبر عديد من الحكايا التى نقدمها هنا. ففرنسا ١٧٨٩، مثلا، تظهـــر هنـــا لأنهـــا طرحت الديمقراطية بدرجة أقل مما تظهر به لأنها ذات طابع تحررى والمـــساواة ثيمة مهمة[١٤]، لأسباب ليس أقلها أنهـــا كـــسرت ظهـــر الإقطـــاع والامتيـــازات الأرستقراطية المرافقة له. وبالمثل، فإن الشعور القوى بالحرية المـــرتبط بـــالثورة الروسية، خاصة فبراير ١٩١٧، يمكن أن يجعلها ضمن عناصر هذه الحكاية. وأيًا كان اختيار المرء لتشخيص العملية الثورية الجذابة والتى ولدت ميتة فى غرينـــادا ١٩٧٩ - ١٩٨٣[١٥] (وقد تبدو لحظة حافلة بالإمكانات) فمن المؤكـــد أن أفـــضل تلخيص لهذه الثورة هو ذلك الزعم الملىء بالكبرياء "الحرية هى ما نفعله هنـــا الآن". (وهو ما استشهد به فى **hodge and Searle, 1981 : 82 p Searle, 1984 : 118**) وهنا أيضا يجد المرء، فى الغالب الأعم، اللغز الذى هو العملية الثوريـــة المتنقلـــة فـــى المكسيك ١٩١٠ -١٩٢٠، وهو ما يظهر فى مكان آخر أيضا، فالثورة المكـــسيكية تروى هنا كحكاية متعددة الفصول، متعددة الأوجه، تمثل ضمن أشياء أخـــرى صـــعود إيميليانو زاباتا (زاباتيستا) وأغواسكالينتس والمادة ٢٧ من دستور ١٩١٧.

هاييتى والمكسيك: لحظتان للحرية والتحرر

أيا كانت الفروق بين العمليتين الثوريتين فى هاييتى والمكسيك فإن عددًا من أوجه الشبه يربط بينهما. ففى الحالتين تحتفظ الثورة كلحظة بوهج من الاعتراف العميق والمغزى، ولأسباب نفحصها بمزيد من التوسع فيما يلى. وليس هذا بالأمر المثير للدهشة إذا تأملنا الفرضيات الأساسية التى قامت عليها كل ثورة منهما، على الأقل كما تستعيدهما الذاكرة الشعبية. كانت أحداث هاييتى أول هبة اجتماعية كبرى فى العالم الجديد (أى الجديد على الأوروبيين) وأول هبة اجتماعية كبرى فى القرن التاسع عشر وأول هبة ناجحة للعبيد فى العالم بل وهبة العبيد الناجحة الوحيدة (حتى الآن). ومؤهلات ثورة المكسيك ليست أقل إبهارًا. فقد كانت أول هبة اجتماعية كبرى فى القرن العشرين فى العالم، ورغم طبيعتها المتعددة الأوجه، فهى أول هبة فلاحية ناجحة حقًا فى العالم. (Dunn, 1989 : 49 – 50, 70 p malia, 2006 : 305) وكان دافعها الأرض والحرية[16]. وفى الحالتين يبدو أن كثيرا من التوتر والدراما والمغزى ضائعٌ بسبب مزيج من ضباب الزمن، والذاكرة، وبالتأكيد لأن العمليتين بدا أنهما كانتا تعدان بأكثر مما أسفرتا عنه، بكثير جدًا.

هاييتى: وراء الجبال، مزيد من الجبال

يزعم بوبكين (1 : 2007) أن ثورة هاييتى كانت "أحد الأحداث الرئيسية التى صاغت عالمنا الحديث" لأسباب منها أن هاييتى وحدها، وفى تناقض ملموس مع الثورتين المعاصرتين لها فى أمريكا وفرنسا، أعلنت أن الحرية تتناقض مع امتلاك الرقيق وأن المساواة يجب أن تشمل الناس من كل الأعراق "بالنظر إلى ذلك وإلى أنها بدأت كتمرد للعبيد"، فلا غرو أن ثورة هاييتى تلعب دورًا مركزيا فى حكاية ثورة الحرية والتحرر، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يجدون أنفسهم فى الدياسبورا

الأفريقية. ولكن، وكما يشير ترويو (98 : 1995) فإن ثورة هاييتى، فيما يبدو، "تـم إسكاتها" باعتبارها ثورة لا يجب "التفكير بها" وأنها "أصـبحت لا حـدث" بتعبيـر بوبكين (٢ : ٢٠٠٧) و"حضورا هامشيا فى أفضل الأحوال"[١٧] وربما كان اختفاء ثورة هاييتى من بانثيون(*) غير مثير للدهشة؛ فمن المؤكد أنها عملية لا تتسق مـع الحكايا الأخرى للثورة.

خذ فى اعتبارك الظروف: عبيد أفارقة، غير متعلمين بمعايير ذلك الوقـت، فى الغرب، ألهمتهم الثورة الفرنسية – ثورة أسيادهم الكولونياليين – وألهمهم الوعـد الظاهر بالحرية والمساواة والإخاء، فهبوا لا ليحوزوا اسـتقلالهم فحـسب ولكـن ليهزموا القوى الكولونيالية العالمية الثلاث معا (فرنسا وبريطانيا وإسبانيا) لتحقيـق ذلك الاستقلال. وهكذا وقفت هاييتى باعتبارهـا أول تمـرد نـاجح للعبيـد، أول جمهورية "سوداء" والجمهورية الثانية فحسب فى نصف الكرة الغربى، و"أول أمـة حرة من رجال أحرار تنهض داخل الكوكبة الإمبراطورية الأوروبية الطالعة وفـى مقاومتها" (lowenthal, 1976 : 657). وهكذا فلم تكن أول دولـة سـوداء فرنـسية اللسان مستقلة فى العالم مجرد وريث روحى للثورة الفرنسية، بل ومثلـت أيـضا تحديا خطيرا كأول دولة بعد كولونيالية غير أوروبية فى العالم الحـديث (faurio, 520 : 1996) وقد كان هذا عبئا ثقيلا، بكل المقاييس.

وظروف تمرد العبيد فى هاييتى فى ١٧٩١ واضحة الملامح نسبيا ويبدو أنها عولجت على هذا الأساس فى هذه الحكاية[١٨]. ولم يكن الهدف هو الانفـصال عـن فرنسا (Dubois, 2004 : 3) بل بالأحرى المطالبة بما بذلته ثورة ١٧٨٩ من وعـود وما وعد به إعلان حقوق الإنسان والمواطن. ولم تكن لدى أرستقراطية المـزارعين فى أغنى مستعمرات فرنسا أى نية لاحترام النظام الجديد الموعود وبدا أنهم عاقـدو العزم على استقلال يحفظ استمرار هيمنتهم وازدهارهم. وفى ٢٢ أغـسطس ١٧٩١، وبعد أن رأى العبيد كيف أن ذوى العرق المختلط mulatto والأحـرار الملـونين"

(*) pantheon مجمع الآلهة. أو مقبرة الأبطال – المترجم.

مرفوضون ومهانون من قبل مجتمع المزارعين الصغير، هبوا في كل أرجاء الجزيرة ليحاربوا الممارسات القاسية من جانب الملاك البيض ونظام العبودية. وبقدر من السرعة جمع واحد من الملونين الأحرار وهو فرانسوا - دومينيك توسان لوفيرتير العبيد والملونين الأحرار والمخلطين وقامت المعركة المشتركة ١٧٩١.[١٩] كانت حدثًا قاسيا وعنيفا مات فيه الكثيرون وحدث كثير من التدمير للمتلكات الخاصة بالبيض؛ وبعد بداية التمرد بعامين. ألغيت العبودية في أغسطس ١٧٩٣ ونجحت ثورة العبيد، على الأقل بالنسبة للهدف الأول وهو هدف الخلاص؛ أما الحفاظ عليه فكان التحدى التالي الذى سيصير أساسًا للثورة وللجمهورية المستقلة.

وجذور الثورة مرتبطة بجذور تمرد العبيد وتسبقها من بعض النواحي وبحلول ١٧٩٢ كان العبيد السابقون يسيطرون على ما لا يقل عن ثلث الجزيرة وبدؤوا تحويل الشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية مما يصحبها عادة من تحولات سيكولوجية وثقافية. وكانت الفترة من ١٧٩٢ إلى ١٨٠٢ بالحقيقة وكما يشير نايت (112 : 2000) يوليه؛ ففي وقت واحد كانت في الميدان ست طوائف متحاربة: العبيد، الملونون الأحرار، البيض الصغار، البيض الكبار، القوات الإسبانية، والقوات الإنجليزية، إضافة إلى الفرنسيين الذين كانوا يحاولون، دون طائل، استعادة النظام والسيطرة برغم ذلك، ومع قيام العبيد السابقين بزيادة سيطرتهم وسلطتهم. وبدأ مفهومهم للحرية والمساواة يرسخ في الجزيرة كلها، وعندما حاول نابليون أن يعيد العبودية في ١٨٠٢ خدع توسان وسجنه واجتذب بعضًا من حلفائه، وإن كان ذلك لفترة وجيزة فحسب، وبعد شهور قليلة من الهدوء اشتبكت القوات الفرنسية مع العبيد السابقين الذين عركتهم الحروب، الذين كانوا يحاربون آنذاك من أجل مبادئ الثورة الفرنسية على ألحان المارسييز. وبعد انتصارهم الحاسم على الفرنسيين في أول يناير ١٨٠٤ أعلن الزعيم العظيم الآخر لثورة هاييتي جان جاك ديسالين. أعلن هاييتي "جمهورية حرة" وخلال عام قلد نابليون وتوج نفسه إمبراطورًا[٢٠].

وليس سهلاً أن نموضع ثورة هاييتى – فهى حالة مركبة وملتفة وقد ساهمت التحيزات العنصرية ذات التمركز الثنائى، لا شك، فى تهميشها. ويبدو واضحًا أنه فى السنوات الأولى كان هناك تركيز ثنائى البؤرة على "التنمية المستدامة لكل من الحرية والمساواة الاجتماعية" (Nesbitt 2008 : 23) ولكن بدأ يظهر بالتدريج شقاق بين أولئك الذين يتطلعون إلى ليبرالية فردية بورجوازية وبين الملتزمين بقدر أكبر من المجتمعية القائمة على المساواة(٢١). وتفاقم هذا الانقسام عندما أصبح واضحًا أن "الخلاص الشامل" لم يعد معناه يتجاوز كثيرًا العمل فى المزارع بالسخرة (nesbitt 200 : 20) وأن ما كان متصورًا كنضال من أجل "بنية اجتماعية تحررية تسمح بالتنمية الحرة للجميع" (Nesbitt, 14 – 15) لم تكن بسبيلها إلى أن تحدث. ويرى ماكلاى (177 : 1997) أن التحدى فى جانب منه على الأقل، جاء على الأرجح من "الرؤية المحدودة للقيادة الثورية الهاييتية.. وهو ما يعود جزئيًا لأصولها العبودية، التى هى أيضا مصدر قوتها" وكما يلاحظ فإن الاستبداد الزراعى المتعسكر "المستنير".. كان يمكن أن يتحول؛ بل وتحول بالفعل سريعًا إلى استبداد أعمى من إعادة الاستعباد. "وهكذا، حسب الخلاصة التى ينتهى إليها" فإن قيادة النضال المضاد للكولونيالية الوحيد الذى كان فى الوقت ذاته مضادًا للعبودية "فشلت فى تحقيق حرية غير مشروطة أو حتى مزيد من الحرية" (Mcaula, 199 : 178) وربما فسر هذا الأمر غيابها عن التمثيلات العلمية والشعبية للثورة. ورغم أن القصد كان تصوير التشاؤم المستسلم لدى أهل هاييتى فإن الشعار "وراء الجبال مزيد من الجبال" (fergu son, 1993 : 75) من الممكن اعتباره انعكاسًا لفشل دارسى الثورة. ويطرح فوريول (1996, 517 citing logan, 1971) تفسيرًا مؤداه أن "ثورة هاييتى بدأت (قوة ولغزًا) ثم تحولت إلى (شذوذ) ثم أصبحت (خطرًا).. وأخيرًا صارت "منبوذة" بين الأمم فى العالم كله، ولا زالت "منبوذة" وحالة منسية إلى حد كبير من حالات الثورة.

ومن المهم ألا نتجاهل قوة ومكانة العملية الثورية فى هاييتى فى حكاية ثورة الحرية والتحرر. فقد كان أثر الثورة فى هاييتى ملموسا فى كل أرجاء نصف الكرة [الغربى] وما وراءه ولا زالت اليوم نقطة مرجعية. ففى الكاريبى ألهمت ثورات للعبيد فى جزر مجاورة، خاصة تمرد فيدون فى ١٧٩٥ فى غرينادا، وفى أمريكا الجنوبية كتب بوليفار أن "تمرد العبيد كان أسوأ ألف مرة من غزو إسباني" (Mcaulay, 1997 : 174) ويلاحظ نايت (14 – 113 : 2000) "أنها أثرت على الولايات المتحدة كأمة وليدة وظهر التأثير فى اللغة، الدين، السياسة، الثقافة، المطبخ، المعمار، الطب، وفى الصراع حول مسألة العبودية" وفى رحلة أخرى عبر الأطلسى من النوع الذى سبقت لنا رؤيته، من الولايات المتحدة إلى فرنسا والعودة إلى الأمريكتين[٢٢].

تصبح هذه الحكاية، كما أوضح جيمس (١٩٨٩) لأول مرة فى ١٩٣٨، حكاية قوية لإنهاء الكولونيالية فى أفريقيا؛ إذ صار الأفريقيون يقرؤونها ويفهمونها باعتبارها حكاية أفارقة يتصدون للسادة الأوروبيين ويهزمونهم.

(انظر أيضًا: Williams, 1944 p Blackburn 1989 p Genovese, 1992). فى كل هذه الأماكن وفى غيرها يتذكر الناس ثورة هاييتى ويستشهدون بها كتمرد شعبى اعتمد المشاركون فيه، شأن الملفقين، على أحكام خلاقة باستخدام أى مادة يمكن أن يجدوها متاحة "فى عمل من أعمال الارتجال السياسى المبدع" (Nesbitt, 2008 : 29, 31) كجزء من نضال متواصل من أجل الحرية وحقوق الإنسان (forsdick, 2008 : 6) لا يزال مستمرا بالنسبة لكثير من الناس فى عصرنا هذا.

المكسيك وثوراتها الكثيرة[٢٣].

إذا كانت ثورة هاييتى إلى حد كبير موضع تجاهل أو نسيان، فإن الثورة المكسيكية لقيت مصيرا مختلفا، حيث امتزج الانكشاف الزائد بقلة التقدير وبالاستغلال المتعمد ليجعلها، عمليا، مبتذلة، مجرد خلفية لإعلانات الأطعمة

والبيرة. وهذه نتيجة غريبة لحدث ذى تأثير قوى يحتل موقعا مركزيا لدى الكثيرين فى حكاية ثورة الحرية والتحرر. ويطرح نايت تساؤلاً مثيرا للتفكير عن نوع الثورة التى عرفتها المكسيك: بورجوازية؟ وطنية؟ أم أنها كانت مجرد "تمرد هائل"؟ (1: 1985)؛ ويمضى تحليل جيلى إلى أن المكسيك كانت واحدة من "أولى ثلاث ثورات عظمى ناجحة فى القرن العشرين" وقد بدأت بـ "مد متصاعد من تمردات ذات قواعد ريفية وفلاحية" من شأنها تدمير وابتلاع الإمبراطوريات الكولونيالية للقرن التاسع عشر (116 : 2003) ورغم أنه يصعب دحض هذه الملاحظة فإن محاولة فرز "ثورة مكسيكية" مفردة هو تحد حقيقى؛ فمن المؤكد أن فى هذه الحكاية عديد من الثورات المكسيكية. ووفقًا لأى تعريف معقول، فبالرغم من أن الثورة المكسيكية يصعب اعتبارها حدثًا واحدا أو عملية واحدة ضخمة، فمن الواضح أنها احتوت على عناصر ثورية. ورغم أنها اشتهرت بطبيعتها الزراعية وباتساعها الملحمى، ففيها برغم ذلك عناصر ليبرالية بورجوازية ديمقراطية، ودور عمالى صغير، لكنه حقيقى. وبعض خواص الثورة الاجتماعية، ونوع من الثورة الدستورية، وكل هذا يعتمد عليه من يحكون حكاية ثورة الحرية والتحرر.

وقد بدأت الثورة المكسيكية بما لم يكن يتجاوز كثيرا هبة سياسية، وربما أمكن القول إنها كانت هبة نخبوية. وكانت المكسيك فى ١٩١٥ ليبرالية إن لم تكن ديمقراطية؛ وكانت أفكار الحرية والتحرر غامضة، فى أحسن الأحوال. وكان ديكتاتور المكسيك المكتهل بورفيريو دياز ووزراؤه فى الحكم لما يزيد عن ثلاثة عقود من الحكم تحت الشعار العملى "الحرية والنظام والتقدم" الذى صاغه "العلماء"، كما كان يشار إلى التحديثيين المحيطين بدياز. وما كان يعنيه فى الممارسة هو حرية تنمية التجارة والصناعة الأجنبيتين، والنظام القائم على الخبز والعصا، والتقدم فى خطوط السكة الحديد والتلغراف، ورغم أن هذا نادرًا ما يكون جزءًا من الحكاية، فإن تزايد الهبات الفلاحية وظهور المعارضة الاشتراكية والفوضوية أديا

إلى مزيد من الاعتماد على "العصا"؛ كانت مرحلة وصفت بحق بأنها "غنية بالتعبيرات عن المقاومة لحكم دياز (Foran, 2005 : 37) وكانت هذه التعبيرات تأتى أيضا من الليبراليين والرأسماليين. وكان فرانسيسكو ماديرو "رسول الديمقراطية" ورأس واحدة من أغنى عائلات المكسيك، والمتعلم فى أوروبا والولايات المتحدة، مقتنعا بأن ما تحتاجه المكسيك كان الديمقراطية والتحرر. وأسفرت حملته الانتخابية كمرشح للرئاسة فى ١٩١٥ عن تحالف عريض ضم بين صفوفه "المتطلعين إلى حقوق العمال وحقوق الفلاحين وإلى الأهداف الوطنية والديمقراطية من قطاع عريض من المجتمع (foran, 2005 : 38) إضافة إلى المتمولين من أصحاب المصانع من أمريكا الشمالية. وأمر دياز باعتقاله فى أوائل يونيو وسرعان ما فاز بإعادة انتخابه، فى وقت لاحق من ذلك الشهر. وهرب ماديرو من السجن فى أكتوبر إلى الولايات المتحدة، حيث أعلن عن خطته "خطة سان لويس بوتوس" وهى وثيقة إصلاحية، بالأساس، تعد بانتخابات حرة، واحتوت إشارة غامضة إلى الإصلاح الزراعى وإلى حق العمال فى المساومات الجماعية، كما دعت إلى أن تهب البلاد فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٥. واستجاب الإصلاحيون والراديكاليون والثوريون فى كل أرجاء البلاد للنداء، ولأسباب منها هبة الجنوب (إيمليانو زاباتا فى موريلوس) والشمال (باسكوال أوروسكو وفرانسيسكو "بانشو" فيللا فى تشيهوا هوا) وافق دياز على التنازل عن الحكم فى مايو ١٩١١؛ وفى أكتوبر انتخب ماديرو رئيسا بسهولة.

التحالف الذى وجد ماديرو نفسه على قمته، وفى وضع قلق، كانت تجمع بين مكوناته المعارضة لدياز؛ ويفترض أن دياز قال ساخرا "ماديرو أطلق نمرا. ادعوا نانظر إن كان يستطيع أن يسيطر عليه" (knight, 1990 b : 218) ويقينا فإن انهيار النظام القديم والخطوات المؤقتة للنظام الجديد، الذى أصبح يضم بقايا نظام دياز، كانت خليطا خطيرا. ودعا إيمليانو زاباتا والمجتمعيون الزراعيون إلى "الأرض والحرية" وطالبوا بإصلاح

زراعي جاد، حجر الزاوية في خطة آيالا (١٩١١) وكان هذا أقصى اقتراب للثورة المكسيكية، التي تميزت بالخبرات أكثر مما تميزت بالمثقفين، من مانيفستو أيديولوجي؛ وسوف يكون برنامجها الزراعي الراديكالي مؤثرًا في ١٩١٧ وسوف يعود للظهور في ١٩٩٤. وفي الشمال اهتاج أوروسكو والحمر مطالبين بالتحول الاجتماعي وبشروط عمل أفضل(٢٤). وكانت الجماعتان تريدان أكثر مما كان ماديرو وحلفاؤه مستعدين أن يعطوا، ومع العجز عن الوفاء بالمتطلبات اللازمة لاستراحة الوضع القائم، واحتياجات العمال الحضريين، وتحت ضغوط العديد من الهبات كبيرها وصغيرها فإن المركز - إذا كان ماديرو هو المركز حقا - لم يعد قادرًا على التماسك، وفي فبراير ١٩١٣ تولى الجنرال فيكتور يانو هويرتا قمع تمرد محافظ، لصالح ماديرو، ثم خلعه وقتله. هذه الثورة المضادة فتحت الباب لأربع سنوات من الصراع العنيف، وإلى ظهور فيللا على رأس تحالف الشمال، وإلى كثير من الأحداث التي شاع ربطها بالثورة المكسيكية كما تحكى في هذه الحكاية. وأعاد زاباتا وفيللا وفينوستيانو كارانزا وثوريوه "نوو الياقات البيضاء" (knight, 1990 b : 22) تشكيل تحالف ماديرو الأصلي (1990 b : 18) لإلحاق الهزيمة بهويرتا. لكنهم عجزوا عن التفاهم فيما بينهم.

وجاءت السنوات القليلة التالية بعديد من التطورات الحيوية بالنسبة لحكاية الحرية والتحرر. أول هذه التطورات سبقت الإشارة إليه وهو المانيفستو الثوري الزراعي الصادر عن الزاباتيستا "خطة آيالا" والتي كانت بالفعل موضع التنفيذ فيما يمكن أن نفكر به باعتباره "الجنوب الثوري" وهي ولاية موريلوس (الولاية التي ينتمي إليها زاباتا) وفي غويريرو وفي أجزاء من بويبلا (Gilly, 2005 a: 128 – 9) وفي ذلك الوقت أيضًا، دخلت القوى الرئيسية الثلاث في صدامات مسلحة للاستيلاء على العاصمة وانتشر القتال في مناطق واسعة من الريف؛ وسيطر فيللا على الشمال وزاباتا على الجنوب، وكارانزا ومعه (بعد مفاوضات) الأكثر اقتدارًا بين جنرالاته ألفارو أو بريغون على الوسط(٢٥). ووسط هذه المعارك، وحسب هذه

الحكاية، فإن هناك أهمية كبيرة لتلك اللحظة فى ديسمبر ١٩١٤ عندما يطرد زاباتا وفيللا "القوى الدستورية" من مكسيكو سيتى ويحتلان العاصمة؛ وتقول الحكاية إن فيللا جلس بكل عظمة على كرسى الرئاسة ووقف زاباتا يحمحم فى غيظ[٢٦]. وقد تم تخليد هذا الموقف بطرق كثيرة، ليس أقلها شأنًا اليوتيوب، لكن النقطة المهمة بالنسبة لهذه الحكاية أن الرجلين لم ينتزع أحدهما السلطة على الدولة عندما واتتهما الفرصة لذلك، والمقصود أنها لم يحاربا من أجل السلطة ولكن من أجل الحرية والعدالة. وهذه صورة تصعب مقاومة جمالها فى حكاية يخضع الناس فيها، فى أغلب الأحوال، لغواية السلطة فى ذاتها، حتى وإن وعدوا بما هو أفضل.

واستمرت الأحداث عاصفة، فأعاد أوبريغون تنظيم القوى الدستورية وألحق الهزيمة بفيللا فى سلسلة من المعارك، وأنهى بذلك مسيرته كقوة يعتد بها فى العملية الثورية فى ١٩١٥. ورغم أن زاباتا أحكم قبضته على الجنوب، فإن نفوذه بقى محدودًا على المستوى القومى بسبب الرؤية المحلية المهيمنة والتى جوهرها عزم الفلاحين على استعادة التراث المجتمعى (الكوميونالى)[٢٧]. وفى مكسيكو سيتى أصدر الدستوريون الذين تصاعد دور أوبريغون كزعيم لهم، قانونًا للإصلاح الزراعى لقى تأييدًا شعبيا وتواصلوا مع العمال الذين كانت راديكاليتهم تتصاعد. ولم يدم هذا طويلاً، ومع تنامى راديكالية الطبقة العاملة فقد تحولت إلى خطر؛ وفى ١٩١٦ قمعت الحكومة الدستورية إضرابًا عامًا بأسلوب وحشي. ورغم أن كل هذه العوامل لها دلالاتها، فإن القليل منها هو الذى له تأثير مباشر على حكاية الحرية والتحرر.

وما يظهر دائمًا هو دستور المكسيك فى ١٩١٧. فقد انعقد مؤتمر تأسيسى فى أواخر نوفمبر ١٩١٦ ومثلت فيه فصائل إصلاحية عديدة لكن غابت عنه الفصائل الأكثر راديكالية بعد أن أغلق الدستوريون الباب بوجهها (Dunn, 1989 : 64). ومن الأمور الدالة على طبيعة ذلك العصر أن الدستور عالج، برغم ذلك، الإصلاح فى كل

من القطاع الزراعى والحركة العماليـــة (Dunn, 1989 p 64; Benjamin, 2000 : 69) وأن مجموعة من وفود الإصلاحيين المنتمين أساسا للطبقة الوسطى وضعوا دستورًا اعتبره جيلى (2005 a: 233) الأكثر تقدما فى العالم رغم أنه، كما يقول هو "لم يكن اشتراكيا"[٢٨] ورغم أن ذلك قد يكون صحيحًا فقد كان، برغم ذلك، تفنيدا واضحا لرؤى الماضى ووثيقة أكثر إصلاحية من أى دستور ديمقراطى ليبرالى بورجوازى سبقها؛ ويلخص فوران جوهرها بقوله إنها وثيقة "معتدلة.. [مع] أهداف ثورية يقينًا". وشملت أهدافها: تحريم الرق وكل أشكال التمييز (المادة الأولى)؛ الاحتفاء بالهوية المحلية للمكسيك (المادة ٢)؛ نظامًا للتعليم العام (المادة ٣)؛ إصلاحًا زراعيًا واسعا، وملكية عامة لحقوق النفط وأنشطة التعدين، وقيودا ثقيلة على تملك الأجانب للعقارات والأراضى (المادة ٢٧)؛ وضمان وتوسعة حقوق العمال؛ بما فى ذلك يوم عمل من ثمانى ساعات والحق فى تنظيم الإضراب (المادة ١٢٣)؛ وفصل الكنيسة عن الدولة (المادة ١٣٠). ورغم أن نايت (1990 b: 329) يرى أن "الدستور الجديد غالبا ما يلقى اهتمامًا أكثر مما يجب، وتضفى عليه أهمية زائدة كوثيقة معاصرة"[٢٩] فهو يبقى رغم ذلك موضع تبجيل واسع النطاق فى كثير من أنحاء أمريكا اللاتينية ولا يزال جزءًا مهمًا فى حكاية ثورة الحرية والتحرر.

وتعثرت العملية الثورية وبلغت نهايتها بين ١٩١٧ و ١٩٢٠ وسعى زاباتا إلى حماية قاعدته فى موريلوس؛ وتصاعدت التوترات بين كارانزا، الرئيس الأسمى للجمهورية، وأوبريغون الذى كان الزعيم ذا النفوذ المتناهى ومعه حلفاؤه الإصلاحيون الأكثر راديكالية. واغتيل زاباتا فى ١٩١٩، ويعتقد الكثيرون فى المكسيك وغيرها أنه كان يعلم أن هناك من يتآمر عليه وأنه اقتنع بأنه سيكون نافعا كشهيد أكثر مما هو نافع فى حياته – ولا شك أن حصانه الأبيض الأسطورى وحتى نيران مخيمه، لا زالا يعيشان فى الذاكرة الشعبية، ويمكن أن تلمحهما فى المكسيك وفى أماكن بعيدة عنها فى المخيلات وفى المواقف الثورية[٣٠]. وبعد عشر سنوات من المقاومة والتمرد والثورة وما صحب ذلك من أحداث متنوعة خلص

الأمر لنظام إصلاحى معتدل تحت قيادة أوبريغون؛ مات زاباتا؛ وسرعان ما اغتيل فيللا (١٩٢٣) ولم تعد الأصوات المنادية بالعدل الاجتماعى أكثر من همهمات أشباح. ومثل الثورة الروسية التى عاصرت أحداث المكسيك فإن مأساة الثورة المكسيكية (باستثناء رئاسة لازاروكار ديناس ١٩٣٤ - ١٩٤٠) أسفرت عن نتائج سلبية فى غالبيتها: القمع، والمحافظة والبيروقراطية الخائفة، وانعدام الكفاءة، والقصور الذاتى. وفى الوقت ذاته، فقد كانت المطالبة بالعدالة الاجتماعية مركز الأحداث والعمليات التى يسجلها التاريخ، الأكاديمى والشعبى، باعتبارها عناصر ما نسميه الثورة المكسيكية. ورغم ما واجهته المطالبة بالعدل الاجتماعى من عنت عقب انتهاء العملية الثورية، فقد بلغت ذروتها خلال رئاسة كارديناس، وبعدها لم يعد التزام المسؤولين عن إدارة الدولة بهذه المطالب أكثر من مجرد كلام. وتمثل مذبحة تلاتيلكو فى ١٩٦٨ نهاية واضحة[٣١]. ولم تتوقف المناظرات حول توصيف هذه الثورة، ويلخص بونيفل (88 : 2000) وجهات النظر الثلاث حول طبيعة هذه الثورة، آخذا فى اعتباره ما ذكّرنا به بنجامين حين قال إنها "لم تكن الثورة الفرنسية التى سعت لإلغاء التاريخ وإعادة بناء الأمة" (54 : 2000) بأنها وجهة النظر "التى تعتبرها ثورة أصيلة، وتلك التى تعتبرها مجرد تمرد، وتلك التى ترى فيها مجموعة هزات غير مترابطة ومتباينة الوسائل والأهداف" ويقدم فوران (2005 : 5 - 44) ملاحظة نافعة حول الإمكانيات التى يطرحها معظم الدارسين الرئيسيين أما الأمر الذى لا شك فيه أنه بالنسبة للكثيرين فإن الثورة المكسيكية مكون جوهرى فى حكاية ثورة الحرية والتحرر.

ثبت عينيك على الجائزة

"الخطأ الوحيد الذى ارتكبناه، أننا بقينا يوما فى البرية لم يكن يجب أن نبقاه" هكذا تقول النسخة المحدثة من "توراة المحراث" الأفرو- أمريكية الروحية التى تمضى إلى القول "ثبت عينيك على الجائزة لكن الشىء الوحيد الصحيح الذى

فعلناه، كان اليوم الذى حاربنا فيه" هذه هى حكاية الحرية والتحرر بإيجاز. فى هذه الحكاية يجد أناس أنهم عبيد (فى روما، فى أرض مصر، فى العبودية، فى الأغلال، فى الفقر، فى المصانع) ولا أحد يأتى لتحريرهم، لكنهم يستطيعون أن يتحرروا وسوف يتحررون - من أجل أنفسهم، من أجل أطفالهم، من أجل أطفال أطفالهم. سوف تكون رحلة طويلة ومضنية، ولن يبلغ منتهاها كل واحد، لكنهم مصرون؛ وفى يوم من الأيام سوف يعيشون ويموتون فى مكان للسلام والعدل شيدوه بأنفسهم.

هذا هو المبدأ والوعد المنقول عن سبارتاكوس، وفى قصة الخروج، وفى ثورات العبيد، وفى النضالات المعادية للكولونيالية وللإمبريالية، وفى حروب التحرر الوطنى، وفى أيديولوجيات التحرير التى تتمحور حول انفتاق الأفراد والجماعات من الاستعباد. والمطالب تدور حول التحرر والحرية، والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، والأرض، والسلام، والخبز، تعبيرًا عن عقيدة عبر عنها زاباتا تعبيرًا شهيرًا بقوله "الأفضل للمرء أن يموت واقفًا عن أن يعيش راكعًا"(٣٢).

ومنذ ثورة هاييتى فى ١٧٩١ وحكاية ثورة الحرية والتحرر تُفهم وتُصور إلى حد كبير، باعتبارها حكاية تحدث خارج الشمال، الغرب وهناك استثناءات (تمردات العبيد فى الولايات المتحدة، مثلاً، والنضال فى أيرلندا) لكن هذه فى الأساس حكاية تروى "بعيدًا هناك" على الهامش (أو شبه الهامش) عن "أولئك الناس" فيما أصبح يعرف فى السنوات الأخيرة باعتباره العالم "الثالث" أو "الثانى" ورغم ذلك فهذه أيضًا حكاية تتموضع فى خاصرة الوحش ذاتها، مع حكايا مساعدة تؤيد الفقراء، والمهمشين والمقموعين فى بعض البلدان الكولونيالية والنيو-كولونيالية. والمثال الأوضح هو حركة الحقوق المدنية الأفرو- أمريكية فى الولايات المتحدة، لكن هناك حكايا عن الحرية والتحرر فى كل أرجاء أوروبا، وأمريكا الشمالية، ودول الاستيطان الأبيض فى العالم مع اكتساب المهمشين والمحرومين على أساس العرقية أو الجندر أو الدين أو غير ذلك من العلامات

التمييزية طاقة وحيوية يستمدونها من النضالات التحررية للشعوب الأخـــرى. بـــل إن هناك أيضا فى البلدان القوية المتقدمة من يعتبرون حريتهم وتحررهم مرتبطين أساســا بتحرر الناس فى أماكن أخرى، واضعين بذلك صياغة لحكاية جديدة عن الانعتاق.

ولسنا بحاجة إلى النظر إلى أبعد من رد الفعل القوى والعميق فى كل أنحاء أمريكا الشمالية وأوروبا وبقية العالم عندما هب الزاباتيستا المعاصرون **Ezln** فـــى ثورة أو تمرد أو مقاومة – ولا تزال النقاشات دائرة[٣٣] – فى أول ينـــاير ١٩٩٤ مطالبين بالعدل والكرامة، وسألوا أسئلة مزعجة "لماذا هدأ الجميع هكذا؟ هل هذه هـــى الديمقراطية التى كنتم تطلبونهـــا؟"؛ وهـــذا مـــا ورد فـــى **(Weinbewrg 2002 : 187)** وطرحوا تحديا مثيرا (ليس ضروريا أن نقهر العالم. يكفى أن نجدده نحـــن اليـــوم **(Marcos et al., 1998 : 19** وسرعان ما كان الجواب (نحـــن جميعـــا زاباتيـــستا) وتدفق التأييد على تشاباس، أقصى ولايات الجنوب وأفقرها فى المكسيك، وتـــشجع الناس فى أماكن أخرى – وعلى سبيل المثال. فالمعارضة لمنظمة التجارة العالمية. التى بلغت ذروة الشهرة فى سياتل فى ١٩٩٩، تأسست على نضالات الزاباتيستا.

وسواء كنا نعتبر الزاباتيستا آخر الثوريين فى القرن العشرين أو أولهم فـــى القرن الحادى والعشرين فإن جيلى **(2005 b: 41)** يعتقد أن تمرد ٢٠٠٣ فى بوليفيا كان يمثل "الثورة الأولى فى القرن الحادى والعـــشرين" ودون أن نـــشغل أنفـــسنا بالسؤال عن ماهية هذه الثورة، فمن الواضح أن جيلى تتناغم لغتـــه وبنيتـــه مـــع الحكاية التى تروى هنا: فهو يذكرنا بالحاجة إلى "المصالحة بين الذكريات البعيـــدة (النضالات ضد الكولونيالية، والنظام الأخلاقى قبل الإسبانى) والـــذكريات القريبـــة (القوة الثورية لاتحادات وميليشيات الفلاحين منـــذ ثـــورة ١٩٥٢)" **(cusicanqui, 2003** مقتطف **2005 b: 47)** كما يشير إلى أن "الثورة ليست شيئا يحدث فى الدولة، فى مؤسساتها وبين سياسييها، إنها تأتى من أسفل ومـــن الخـــارج" **(2005 b: 52)** ويعتقد جيلى، بأنه:

عندما يتم الاستيلاء على مركز المسرح – بقوة العنف الجسدى والغضب النابع من الأرواح، فإن أولئك الذين جاؤوا على وجه الدقة، من أسفل ومن الخارج؛ أولئك الذين تتم إزاحتهم جانبًا على الدوام، الذين يتلقون الأوامر، الذين ينظر إليهم الحكام من أعلى باعتبارهم كتلة من الناخبين، زبائن انتخابيين، حيوانات تمثل عبئًا، مادة للاستطلاعات. تحدث الثورة عندما ينفجر هؤلاء، محددين لأنفسهم هدفًا سياسيًا، عندما ينظمون أنفسهم وفقًا لقراراتهم وإدراكهم وبقدر من الوضوح والتفكر والعنف، يفرضون عالمهم ضمن عالم أولئك الذين يحكمونهم ويحصلون، كما هو الوضع في الحالة الراهنة، على ما كانوا يطالبون به **(2005 b: 52)**.

وفى تحليل يتسق جيدا مع حكاية ثورة الحرية والتحرر يخلص جيلى **(2005 : 53)** إلى أنه قد يكون من الأسهل أو الأدعى للطمأنينة فى حالة بوليفيا أن نقول "إن هذه لم تكن ثورة بل مجرد شغب واسع، تمرد، عصيان ارتكب كثيرًا من الأخطاء، ولم يكن فى حزب قائد، وكان فقط من أجل الغاز ومن أجل زارعى الكوكا، حركة شعبية، هبة كبيرة وما يزيد قليلاً عن ذلك"، "لكن هذا يعنى أن نجحد هذه الثورة الاسم الذى تستحقه وننكر بالتالى على أبطالها – الهنود، والتشولو(*) والنساء والرجال من الطبقات الدنيا فى بوليفيا – انتصارهم الصعب" **(2005 b: 54)**.

وفى هذه الحكاية الطويلة والمتخبطة عن الحرية والتحرر، يعمل الناس انطلاقًا من مخزون ثقافى ثرى لصياغة عناصر متباينة وإدخالها فى حكاية شعبية عن التحرر والحرية تميل النخب إلى التقليل من شأنها أو عدم الإشارة إليها، إلا حين يكون ذلك لمصلحتهم وما تصوره الحكاية من صراعات يعمل بعضه على تعزيز وتقوية البعض الآخر، فى صور ليس أقلها أن الناس فى محلات متباينة وفى مسافة زمنية مدهشة يتزايد ميلهم إلى أن تتماهى تطلعاتهم مع تطلعات آخرين.

(*) cholos لفظ تحقيرى يشار به إلى من فى عروقهم دم هندى أحمر، خاصة فى أمريكا الوسطى – المترجم.

وقد أشار البعض إلى أنه مع الانتصارات المفترضة لليبرالية والرأسمالية فإن هذه الحكاية بلغت نهايتها. ويبدو هذا غير محتمل؛ فبرغم غياب الاهتمام من جانب السياسيين، ومن الصحافة الشعبية، بل ومن كثير من الأكاديميين، فإن ملايين الناس يناضلون يوميًا لتحرير أنفسهم من القمع ويسعون إلى بلوغ المساواة في الحقوق وإلى العدل الاجتماعى. ورغم أن هذه الجهود غالبًا ما تقرأ (خطأ) في الشمال / الغرب وبين حلفائهم الإقليميين باعتبارها تصرفات غير قابلة للتفسير من جانب أناس مفزوعين ومرتبكين أو، وهو الأسوأ، من جانب الناس الذين يصرون على مقاومة المد النيوليبرالى المحتوم الذى سوف يجعل كل القوارب تطفو، فقط إذا سمحوا له. ويعنى عجز السياسات الاقتصادية النيوليبرالية والديمقراطية النيوليبرالية عن إحداث تحول جذرى إلى الأفضل فى حياة الناس أن حكاية ثورة الحرية والتحرر سوف تبقى حكاية ذات مغزى. ورغم أن الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية لا زالت مهيمنة على كل تصور لما هو ممكن، فلا يجب أن نتركها تحجب مصالح من تهمشهم أو رغائبهم وتقصيهم أو تحيطها بالضباب. وكما تسعى إلى توضيحه الحكاية التالية، حكاية ثورات المضيَّعين والمنسيين، فهناك الكثير مما يدور حولنا ويجب ألاَّ نأخذ شيئًا كأمر مسلَّم به.

الفصل الثامن

ثورات المضيّعين والمنسيّين

حكايا لا نعرفها ولن نحكيها

في ١٩١٧ وقعت في السهول الجنوبية الوسطى للولايات المتحدة الأمريكية. على الشطآن الطينية للنهر الجنوبي الكندي في ريف أوكلاهوما، الهبة الاشتراكية المتعددة الطبقات، المتعددة الأعراق "تمرد الحزام الأخضر" وفي خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر. في مناطق سوف تصبح ألمانيا، كانت هناك تمردات فلاحية واسعة وكثيفة. وفي الشمال الغربي شهدت مونيستر في ويستغاليا حركة سياسية راديكالية على نحو عميق وشبه اشتراكية. وقد كانت هناك هبة رئيسية معادية للكولونيالية في أوساط النساء في إيغبو في نيجيريا في ١٩٢٩. وتعد الجمهورية الفوضوية العابدة في باجا كاليفورنيا (المكسيك) في ١٩١١ صورة أولية للدولة الفوضوية في أوكرانيا في الفترة ١٩١٩ - ١٩٢١ على مسافة تمثل نصف الكوكب. وفي شهر مارس ١٩٢١ تمرد كرونشتات الوجيز الذي نظمه الفوضويون (أو الاشتراكيون الثوريون) من البحارة والجنود والمواطنين في روسيا السوفييتية الوليدة، والذي نجح، رغم كل شيء في أن يبقى مدة تزيد عدة أيام عن الفترة التي عاشتها "الجمهورية الاشتراكية في تشيلي" والتي قادها الجنرال مارماديوك غروفز، واستمرت اثني عشر يومًا في عام ١٩٣٢. وشهدت الولايات المتحدة بما فيها من جيشان حصة من المقاومة والتمردات والثورات، بينما تمرد شاي(*) في (١٧٨٦ - ١٧٨٧) وتمرد الويسكي في (١٧٩٤ - ١٧٩١) وتمرد فرايز في (١٨٠٠ - ١٧٩٩).

وفي ٢٠٠٩ وضمن أمثلة كثيرة ذات درجات متفاوتة من الأهمية، كانت الاحتجاجات الإيرانية ذات المظهر الشعبي على نتائج انتخابات دار حولها جدل عميق، يشار إليها باعتبارها "ثورة خضراء" وأطلق اللاتفيون المحبطون على

(*) dainiel shay وهو ضابط ميليشيا من ماساشوسيتس – المترجم.

التظاهرات التى ثارت ضد المتاعب الاقتصادية للبلاد اسمًا ساخرًا "ثورة مالك الحزين" وأدى انقلاب دبرته النخبة والعسكر فى هوندوراس إلى مقاومة أدهشت الناس فى ذلك البلد. أما كيف ستبدو هذه الأحداث والعمليات عندما يتذكرها الناس فى السنوات القادمة فهذا ما يستحيل تحديده، ولكن من السذاجة أن نفترض أنها لن تصبح قطعة من الثوب الفخم الذى ننسجه جميعًا.

وقد يجد المرء ما يغريه بأن يفترض أن حكاية ثورات المضيعين والمنسيين هى نوع من الزكيبة المملوءة بالتوافق – جزيرة الثورى التعيس وما يتصل به من لحظات قليلة الأهمية أو عديمة الأهمية. ففى هذه الحكاية "توجد ثورات، وتخبطات الرحّل، وأغرب التحولات" التى اعتقد هيغيل أنها تركت خارج كتب التاريخ، ولم يكن غيابها مصادفة بل "لأنها لم تكن ممكنة. فهل نفتقدها؟" (tlegel, 2009 : 51) ومع افتقادها الحضور والإيقاع فإننا نربطها بـــ "التاريخ" الذى غالبًا ما نتجاهل أن كثيرًا من الأمور المهمة تحدث خارج نطاقه: "فالانشقاقات والمعارضات الكبرى يمكن، دائمًا، التفاوض حولها، ولكن ليس الشقوق الصغيرة والفتوق التى لا تكاد تبين (Deleuze & parent, 1983 : 58) وإذ اختاروا الإمكانيات والفرص لتغيير حياتهم، فقد اختار عدد مذهل من الناس الانخراط فيما يمكن فهمه على نحو معقول على أنه أفعال يومية للمقاومة والتمرد والثورة(١). هذا السلوك الجماعى حافل بالدلالات ويتقرر، على الأقل فى سياق هذه الحكاية، على أساس الممارسات الواعية والقصدية، أولاً(٢).

هذه "اللحظات من الإبداع الاجتماعى" (Markoff 1997 : 1139) هى لحظات يكون فيها الناس والمجتمع منفتحين، بشكل خاص، أمام من تبهرهم هذه الحالات منا. ويبدو إيمان الناس بإمكانية (أو باستحالة) التغيير وبالقدرة على إعادة صياغة ذواتهم ومجتمعاتهم قدرة بلا حدود. ورغم أننا منجذبون لأسباب مفهومه ومتوقعة إلى الأحداث الضخمة (tilly, 1984) إلى السرديات الكبرى التى تساعدنا على فهم

تعقيدات حياتنا، فإن ماركوف يذكرنا بـــ "الحاجة إلى دراسة التفصيلات المربكة للعمليات التاريخية وليس فقط دراسة الاتجاهات الكبرى (١٩٩٧ : ١١٣٩) هذه اللحظات التى تقع على المستوى الجزئى، والتى غالبا ما نركز بؤرتها على الحياة اليومية، يمكن أن تكون لها دلالات ذات ثقل على المستوى الكلى. فالجهود المركبة والملتفة والإشكالية التى يبذلها الناس، والتى قد لا يكون البعد الدولى فيها واضحا لمن يبذلونها، بهدف تحقيق أحلامهم ورغائبهم عبر العمل العام هى فى الغالب مدفوعة بقوة ديناميات من قبيل الأمل أو الخوف أو الحاجة، ويمكن لها أن تخلق وتجسد الموقع – فضائيا وزمنيا وسيكولوجيا، والفرصة لأنشطة مضادة للهيمنة تساعد الناس على أن تكون لهم السيطرة على الشروط المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية.

وقد انتقلنا، حتى الآن، من الحكاية الموجزة نسبيًا والمحددة خطواتها وإيقاعاتها بوضوح، حكاية ثورة التحضر والمقرطة إلى حكاية الثورة الاجتماعية الأكثر تشوشًا، وإن كانت خطية التطور على نحو مذهل، عابرين خلال الحكاية الأطول والأقل ترابطًا، حكاية ثورة الحرية والتحرر. وتطرح كل هذه الحكايا قصة ذات تتابع زمنى ومترابط؛ إلى حد كبير، ولها نقطة بداية (الثورة المجيدة؛ ثورة فرنسا ١٧٨٩؛ تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس) تتطور وتصل إلى نهاية مزعومة (فرنسا ١٧٨٩، كوبا ١٩٥٩، نيكاراغوا وإيران ١٩٧٩؛ وما هو على الأقل التزام شامل سما بالحرية والتحرر باعتبارهما خيرًا للجميع) ويمكن الزعم بأن الحبكة يمكن تبينها، دون عناء، فى كل حالة. فهل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ لكن الاطمئنان إلى خلق حكاية واضحة ومتتابعة، وما ينطوى عليه ذلك من تناقض، لا يجب أن يعمينا عن الأوهام التى نخلقها، كل الحكايا السابقة تصبح خطية، بمعنى ما، وتتميز جميعها بما تعجز عن ذكره بقدر ما تتميز بما تشمله. وبالنهاية فنحن جبلنا على أن نرى ونسمع بالطريقة التى نفعل بها ذلك، وأن نفهم الأمور بناء على ذلك، والحكايا الثلاث التى رويناها حتى الآن، سواء كانت محبوكة بعناية أو مركبة دون ترابط، متسقة وقوية نسبيًا.

وحكايا ثورات المضيعين والمنسيين تروى قصة أكثر رهافة وإن لم تكن أقل قوة فهى تشتمل على حكايا أصغر، لم تصغها عمليات كبرى، رغم أن هذا ربما ترتب على كونها جاءت قبل أو بعد تلك العمليات، وهو ما قد يفسر كونها مضيعة أو منسية؛ ومن الأمثلة هنا الثورة الإسبانية ١٩٣٦ - ١٩٣٧ التى دفنت تقريبًا فى الحرب الأهلية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وهكذا فالحكايا تميل إلى أن تكون محلية وذات مرجعية محدودة، وغالبًا ما تكون غامضة إلى حد ما، وأضيق فى نطاقها، وقد تكون انعزالية، رغم أن هذا المنظور قد لا يقره أولئك الذين كانت حياتهم وقودًا لها. وهذا لا يعكس، بالطبع، إلا الحكايا التى "تعرفها"؛ فمن المستحيل أن نحكى ما ضاع أو ما وصلنا فى رواية فقيرة بسبب سوء البث أو سوء الترجمة. وهذه الحكاية الأكثر غموضًا والأكثر انطباعية إلى حد ما، عن نضالات ضاعت أو نسيت تتعلق بما فى الحياة اليومية من مقاومة، وتمرد، وثورة. والأمثلة لا تحصى وهذه هى الأمثلة التى نعرفها. ولدى الناس فى كل مكان وزمان، تقريبًا، رواياتهم عنها.

ورغم أن نوعية الصوت ودرجته قد تختلفان، فإن الوجوه الأليفة موجودة: التمردات الصاخبة التى بهتت صورتها من زمن طويل فى الولايات المتحدة؛ فى فرنسا فى ١٧٩٣ إذ طالب خالعو السراويل بديمقراطية شعبية أو فى كوميونة ١٨٧١؛ اللحظات الديمقراطية المنسية وتمرد كروندشتات فى روسيا؛ دولة الفوضويين الغامضة فى أوكرانيا (والغريب أن قائدها ماخنو مدفون بجوار الأبطال الذين يجدهم لينين، ثوار كوميونة باريس فى مقبرة بيد لاشيز) وما يبدو أنها لحظات مضيعة ومنسية لا حصة لها فى المكسيك، بعضها معروف لدى الملايين، وبعضها ربما لا يعرفه إلا حفنة قليلة، ورغم أن البعض من الثورات المضيعة والمنسية معروف أكثر من بعضها الآخر، فليس منها ما يمنح مكانة خاصة. وقد يكون الربط بين هذه اللحظات المنفصلة بشكل عنيد أمرًا مضللاً ويهدد بأن ينزل بها إلى ما لا يزيد كثيرًا عن مجرد قائمة. ولكن بما أنها حدثت فهى تمثل بالفعل، فى وجودها العابر، شبكة واسعة ومفتوحة من اللحظات المعمرة على المستوى الجزئى.

ومن المناسب هنا أن نورد بعض الملاحظات التحذيرية فكما لاحظنا من قبل، فهذه المحاولة المحدودة بالضرورة لرسم صورة اللحظات الثورية المضيعة والمنسية يمكن لها فقط أن تعالج ما نعرفه منها. وبالطبع، فقد تكون هناك حالات من المقاومة، والتمرد، والثورة تراوغ المرتبطين منا بالمقتربات الشمالية الغربية الذكورية الخطية التقدمية من المعرفة، وثانيا فبالرغم من أن هذه اللحظات تحديدًا قد سحقت فى الغالب الأعم، وأصبحت بالتالى خفية، فقد تعود للظهور فى مكان آخر وفى زمن آخر (**Bey, 1991 : 101**) فى أزمنة وثيقة الصلة، وأحيانًا ما تكون غامضة. وفى بعض المناسبات فقد يعكس اختفاؤها، ببساطة، قرارًا بالفرار من وجه السلطة والامتيازات، ضمن خطة للحرب فى يوم آخر. وأخيرًا فالصلات بين هذه الحالات المضيعة والمنسية ليست أمرًا تنقله النسائم ببساطة، بل ينقلها، سواء على نحو خوارجى(*) أو تراتبى، مباشر أو غير مباشر، أناس يصنعون التاريخ.

ويبدو أن لدى كل شعب النسخ الخاصة به من هذه الحكايا، تتناقلها الأجيال. ولا يمثل الكثير منها أكثر من سجل للمواضع والفضاءات التى يجتازها على الأقل قلة من الناس لفترة وجيزة من الزمن[٣]. وبرغم قصرها، فيمكن أن تترك هذه اللحظات آثارها، خذ مثلاً الشوارع الرئيسية (البولفارات) الواسعة فى عواصم أوروبا، التى ظهرت عقب ثورات ١٨٤٨ لتمكن الخيالة والمدفعية من المناورة. فحالات كهذه تمثل أشخاصًا، وأماكن وأزمنة، وحكايا عن المقاومة والنضال، تم تدويرها وكما يشير كولييه ومازوكا (٢٠٠٨ : ٤٧٩) فإن (العميق) أو (السميك) ليس بالضرورة "فريدًا أو منيعًا" – وعادة ما يكون الاعتقاد أننا، وبشكل ما، سوف نفوز هذه المرة. وهناك رسائل أخرى واضحة أيضًا. فنحن جزء من موروث عظيم وحافل بالحكايا، ولكن يندر الاحتفاء به، إن كان يحتفى به أصلاً. من جانب أولئك الذين يملكون القدرة على أن يفعلوا ذلك. ورغم أن القلة هى التى نجحت

(*) **lateral** والمقصود بها خروج عن التنظيم التراتبى- المترجم.

فالأفضل أن نحاول؛ يجب أن نحاول، ورغم آنية النضال الراهن وكثافته، فإن تاريخنا، سواء أقر الأقوياء بذلك أم لا، يوصى بطول النفس.

وإذن، ففى حدود الممكن فإننا مدعوون هنا إلى أن ننظر، ليس من أعلى، كما كان الحال مع الحكايتين الأوليين، وليس من أسفل كما كان مع الأخيرة، ولكن نظرة مواكبة. إضافة إلى ذلك، فالتحدى يتمثل فى استجواب الأحداث من "الخارج" أى مع الخروج من التاريخ ومن البديهيات التقليدية حوله، وكذلك من "الداخل" بحثًا عن مصادر بديلة نادرًا ما يرجع إليها أو يعتمد عليها. وهنا أكثر مما هو الحال مع أى حكاية أخرى، فنحن فى مملكة الخرافة، الشاعرية، القصص، الأغنيات، بل وفى بعض الأحيان مجرد أوهام، التى قد يكون كثيرًا منها نسج عمدًا لحمايتها وحفظها من أثر أولئك الذين لديهم السلطة وليحولوا دون أن يدخلها المتشككون بطبعهم منا – إذن لماذا نريد أن نعرف وماذا سنفعل بالمعلومات؟ "الأفضل أن نبقى على هدوئنا يا طفلى – إذ كان عليهم أن يسألوا، فهم لا يعلمون"[٤].

تكمن حكايا ثورات المضيعين والمنسيين فى طيات ماضينا وقد تكون فى كل ما هو حولنا فى الحاضر ولا شك أنه من الممكن أن نصنفها، على نحو مجد، حسب الموضع (إسبانيا، المكسيك – إندونيسيا، غانا أو كندا) أو حسب الشعب (المايا، الباسك، الكرد، الكونغ سان، الفنلنديين) أو حسب النمط (الدينية، العصابات الاجتماعية / القراصنة، الرسائل الخفية، الأرواح الحيوانية، العالم الآخر أو المتسامى) ويمكن أن تبلغ التصنيفات أى عدد.

ويتجاوز تصنيف كهذا مجال مشروعنا، لكن ما يهمنا أنه يفند فكرة هذه الحكاية بسعيه إلى تنظيم الإمكانات وحصرها. وبدلاً من ذلك، ففيما يلى عينات مختارة من الحكايا "المضيَّعة" و"المنسيّة" وسوف نركز على تلك التى نجحت فى أن تكتسب مكانة تتجاوز المحلية الخالصة وتتجاوز الغموض المؤكد والتى تتقاسم بعض الوجوه مع حكايا أخرى على نفس المستوى الجزئى للنضالات الفردية والجمعية المتصلة بأشكال يمكن فك شفرتها من المقاومة والتمرد والثورة.

شرارات الأمل: مشهد حيوى
من الثورات المضيّعة والمنسيّة

أحد الأشياء المدهشة فى الثورات المضيعة والمنسية هو مقدار ما نعرفه عن هذا العدد من "اللحظات" التى نمت إلى علمنا. ورغم أن هناك ما يغرى بافتراض أن هذه من ظواهر "عصر المعلومات" فمثل هذا الافتراض قد يعنى تجاهل الشبكات الممتدة باتساع العالم فى عصور سابقة – "المستكشفين" الذين يبعثون بتقاريرهم، الجنود والبحارة فى رسائلهم إلى الأهل، كتّاب الرسائل من كافة الأنواع (خاصة أولئك الذين انتظموا حول قضايا مثل إلغاء العبودية، أو إنهاء ربط أقدام الإناث فى الصين)، والمارقين، والطوّافين، والمشردين. وما يمكن أن تعكسه هو الانفتاح على معلومات غير جاهزة التصنيف وتعكس أيضا استعدادًا أكبر للقبول بقدر من عدم الإحكام، وبفجوات فى السردية، ونوع من النهاية المفتوحة. ورغم أن معظمنا يميل إلى أن يعيش مع غموض كهذا فى حياتنا اليومية فليست القاعدة أن ما نبحث عنه فى السردية هو ما نميل إلى إنشائه؛ ورغم ذلك فالحكاية قد تؤمّن فضاء كهذا.

ورغم أن بعض التفصيلات قد تكون معروفة للقلة فحسب، فكثير منها رائج على نطاق واسع. وعلى سبيل المثال، فليس هناك ما يدعو لدهشة كاملة أن نعرف أن ثوار ناميبيا يعرفون "المارسييز"، أو نكتشف انتشار قمصان غيفارا فى كل أنحاء طهران فى ١٩٧٩ (Taheri, 1986 : 254) ولكن تذكر أن هناك فى موزمبيق من يعد حصان زاباتا الأبيض مألوفًا لديهم؛ وأن فلاحى نيكاراغوا، وإن كانوا "أميين" بمعايير شمالية – غربية، يملكون المعرفة فيما يتعلق بمعركة كوينتوكوانا وإلى "العظيمة" وهى نقطة تحول مهمة بالنسبة لمعاداة الإمبريالية وللثورة فى أفريقيا الجنوبية، وأن من الفلسطينيين من يعرفون من هو جوهيل الناشط العمالى

الأمريكى باعتبار أنه "حارب مع سبارتاكوس.. كان فى تشيلى فى سبعينيات القرن الماضى، وفى السلفادور، وغواتيمالا لكن الآن.. جوهيل فلسطينى" (Cynd & Carubacic, 2008 : 196) وأن الثوريين المكسيك يعرفون لوى رييل، الزعيم الميتيسى ذا الأصول العرقية المختلطة للمتمردين فى النهر الأحمر فى ١٨٦٩ – ١٨٧٠ وفى الشمال الغربى فى ١٨٨٥ فى السهول الكندية؛ أو أن شابا من الأمريكيين الأصليين فى الولايات المتحدة خبير بإستراتيجيات المقاومة التى تبناها الزاباتيستا المحدثون الذين هم من المحليين، غالبًا فى المكسيك، وتبناها الإنويت فى كندا. وهذه الأمثلة تذكارات قيمة للتداعيات والارتباطات التى يستخدمها الناس، عن الفضاء والزمن، لإنشاء مخيلة ثورية تشمل الرموز والأسماء والتواريخ والأماكن وانحزازات والحكايا، والوسائل والمناهج التى يستخدمونها حينئذ وهم يتدبرون عالمهم وخياراتهم(٥).

هذا المخزون الثقافى من التكتيكات والإستراتيجيات والإلهامات يندر ألاّ يلقى اعتراضًا. فأولئك الذين يسعون إلى التغلب على المقاومة، وإلى إنهاء التمرد، ومواجهة الثورة (أو ترويضها بما يناسب أغراضهم) يسعون أيضًا إلى خلق خيال اجتماعى لمساندة منظورهم؛ فالحكومة المكسيكية على سبيل المثال، لطالما سعت لتبنى زاباتا (والتحكم بموروثه) كشخصية تاريخية لدعم شرعيتها وسلطتها. وبقدر أكبر من النجاح تمكنت حكومة بوليفيا العسكرية من إحباط جهود الأمميين الثوريين الغيفاريين فى ١٩٦٧ بوسائل من بينها أن صوروا أنفسهم ورثة ثورة بوليفيا الوطنية فى ١٩٥٢. وقد لا تكون هناك دولة أو مجتمع نجح بالتلاعب بماضيه الثورى بمثل ما نجحت الولايات المتحدة التى استخدمته طيلة مائتى سنة لتبرير معارضتها الداخلية والخارجية لكل إصلاح إلا ما كان طفيفًا، ولكل مقاومة أو تمرد – دعك من الثورة – فقد أعادت كتابته على نحو فعال كأنه غريب عنها. ورغم ذلك، ففى معظم الحالات فإن جهودًا رجعية كهذه يصعب ترسيخها والحفاظ عليها لأى فترة من الزمن. وبالحقيقة فإن الجهود التى تبذلها النخب أو المسؤولون عن

إدارة الدولة لتأكيد مؤهلات شعبيتهم من المرجح أن تقابل بكثير من الشك وهكذا فمن هم فى السلطة يفعلون ما بوسعهم لاقتلاع اللحظات الثورية أو لمحوها.

فما هى تلك اللحظات؛ إذن؟ بوسعنا فقط أن نركز على تلك اللحظات التى صارت لها مكانة تتجاوز المحلية الخالصة وتتجاوز الغموض المؤكد والتى تتقاسم بعض الوجوه مع حكايا أخرى على نفس المستوى الجزئى للنضالات الفردية والجمعية المتصلة بأشكال يمكن فك شفرتها من المقاومة، والتمرد، والثورة. فالحشاشون العرب فى أوائل القرون الوسطى لم يتركوا ما يزيد عن اسمهم إلا قليلاً، لكنهم أثاروا الرعب، لا شك، فى قلوب الطغاة (وقلوب كل من مروا بهم). ورغم أن تمثال إيتيان مارسيل يحرس أوتيل دى فيل (قاعة المدينة) فى باريس حيث تواجه السين، فإن قليلين هم الذين يتذكرون إضراب العمال الذى دُبِّره فى (klussey, 2005 : 23 - 357) وكان ذلك الإضراب جزءًا من الشغب **Jacquerie** الواسع النطاق والذى كان، فى المقام الأول، تمردًا فلاحيًا فى فرنسا إبان حرب المائة عام. وقد كانت مرابض القرصان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تمثل صورة مبكرة من الديمقراطية التى ربما كان لها، وهذا احتمال قوى، تأثير على المد الديمقراطى الصاعد فى أوروبا، وعلى المحاولات المبكرة لإنشاء نظام للرفاه الاجتماعى، بل ويمكن القول إنها قدمت تصورات مبكرة لنظام التأمين الحديث. وقد طرحت النضالات المتعددة الأعراف من أجل العدالة فى أمريكا؛ مؤامرة الأمريكيين السود فى نيويورك فى ١٧٤١٠، وعمال الشحن البحرى والبحارة الأيرلنديين و"الإسبان" وفقراء البيض، نموذجًا للمحرومين وهم يعملون معًا لأهداف مشتركة.[٦] وقد طالب اتحاد المزارعين المتعدد الاثنيات فى جنوب الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر بأسعار عادلة للمحصولات، ودعا إلى ضوابط حكومية للنقل والاتصالات، وإلى إنشاء تعاونيات، كما دعا إلى سياسات اقتصادية شعبوية. وخلال تلك الفترة ذاتها فى فرنسا نظمت بورصات

العمل وركزت حركات الطبقة العاملة على المساعدة المتبادلة والتعليم والتنظيم – وبمساعدة من البعض فى الحكومة، وبفضل عجائب الكولونيالية انتشر هذا كله فى كل أرجاء إمبراطورية فرنسا التى كانت لا تزال ضخمة.

ومن الأمثلة على الجمرات الباقية بشكل يثير الدهشة والتى لقيت عناية بالغة ما يمكن أن يكون مفيدًا قبل أن ننتقل إلى النظر فى بعض الحالات بمزيد من التعمق. فقد ألهم الأسبوع الأحمر فى ١٩١٤ وهو الإضراب العام عن العمل فى آلكونا، إيطاليا، والذى أدى إلى إعلان بعض المجتمعات تحولها إلى "كوميونات" على غرار ما جرى فى باريس فى ١٨٧١ أو جمهوريات عمالية **(Harvey, 1994 : 429)** فكرة احتلال المصانع والإدارة الذاتية للعمال خلال العامين الأحمرين ١٩١٩ – ١٩٢٠ وهو ما أدى بدوره إلى السنتين السوداوين الفاشيتين فى ١٩٢١ و١٩٢٢، مما مهد لاستيلاء الفاشيين على إيطاليا. وقد قوبلت دينامية مماثلة: احتلال المصانع والإدارة الذاتية من قبل العمال برد فعل شبه فاشى أو نيوفاشى. وقد ظهرت هذه الدينامية بوضوح فى إسبانيا ١٩٣٦ – ١٩٣٩ وفى إيطاليا خلال الخريف الساخن فى ١٩٦٩ وفى تشيلى ١٩٧٠ – ١٩٧٣؛ وربما لأن إيطاليا تعلمت من ماضيها، فإنها هذه المرة لم تبال بأنشودة السايرينات المحذرة من الحكم الاستبدادى. ولم تنتج حركة استعادة المصانع فى الأرجنتين فى مطلع القرن الحادى والعشرين عن رد فعل فـاشى، حتى الآن، وفى ٢٠٠٥ تجمع ناشطون من مختلف أنحاء المنطقة فى اجتمـاع بعنوان "اللقـاء الأمريكى اللاتينى للشركـات المستعادة" فى فنزويلا وهناك أعلنت الصلة العمدية الواعية عن مائة سنة، عبر حربين عالميتين، والحرب الباردة، وديكتاتورية عسكرية وحشية فى تشيلى، و"حرب قذرة" فى الأرجنتين، وظهـور النيوليبرالية، لوضع هذا النضـال فى سيـاق تاريخى. فالحكـايا المضيعة والمنسية للمقـاومة، والتمرد، والثورة يمكن استعادتها وقد استعيدت هى الأخرى.

ومن الضرورى أن نتقدم هنا بحذر؛ فالتصنيف والأقلمة بل والتعريف هى الديناميات التى تسعى هذه الحكاية إلى رفضها. والاستغراق فى ممارسة كهذه وفرض لحظات تحول قائم مثل هذه يسفر عنهما ضرر لا صلاح له، عنف حقيقى، للسياق وللمحتوى. وكلنا متورط فى هذه العملية، عندما نأخذ ومضات من معنى عميق ونوايا عميقة ثم نقوم بتصنيع تاريخ، تاريخ هو حكاية معروفة جيدًا وبدرجة تكفى لأن يحيط بها أستاذ للعلوم الاجتماعية من أمريكا الشمالية ذو جذور فى قلب المركز وتكفى لأن يموضع المعلومات، ونتيجة لذلك لا تعود السجادة الفخمة التى نسجها الناس معًا فى الحكايا الأخرى. وبالأحرى، فهى تعكس كل الأشياء التى ليست مناسبة، ولا يمكن أن تكون وإن لم تكن أقل واقعية – وفى بعض الحالات، وفى بعض الطرائق، تكون واقعية بدرجة أكبر – حتى أنها لا تعود مناسبة، لا يعود من الممكن اختزالها إلى الحكاية القديمة ذاتها.

والمجموعة القصيرة من الحكايا الطويلة التالية تحتوى بالضرورة على عملية تنظيم وبالتالى سيطرة عليها، وعلى خلق تصنيف لا يخبرك فقط بمعناها بل وبالسبب الذى جعلها مهمة (أو بالحقيقة، لماذا هى غير ذات بل وأهملت لأنها غير مستوفية للملامح الفولكلورية)[٧]. وهذا التمرس يضرب فى صميم طبيعتها الرومانسية الصرف، فقوتها تكمن فى أنها عابرة وفى حقيقة أنها لا تخص أحدًا. فيجب أن نتذكر أن هذه الحالات من المقاومة، والتمرد، والثورة هى فى هذه الطبقة لأنها "فشلت" على الأقل بالمعايير التقليدية للنجاح. والأشهر (إذا أردت) بين الثورات المضيعة والمنسية هى كوميونة باريس فى ١٨٧١؛ وهى فشل ثورى ملحمى رومانسى عظيم.

أعظم الثورات "المنسية":

كوميونة باريس ١٨٧١[٨]

الوجود العابر الوهاج للكوميونة معروف جيدًا وتأثيرها لا يمكن الاختلاف عليه – فقد امتدح ماركس إنجازاتها؛ وكانت بالنسبة إلى لينين "مهرجان المقموعين" (١٩٨٠ a: 125) وقد دفن في علمها الأحمر، واستعاد ماو ذكراها في مرحلة مبكرة ومرات كثيرة؛ وأكثر من ذلك فمن العدل القول إنه بالنسبة للمائة سنة التالية (١٩٦٨ هى، بمعنى من المعانى، النسخة التالية وربما قبل الأخيرة منها) وقد كان النخب ومديرو شؤون الدول في كل أوروبا خائفين منها، خوفًا عميقًا. لكن هذا الخوف والنفور هو، بالتحديد، السبب الذى يجعلها تدرج هنا -- وربما أكثر من أى لحظة – فى هذا النوع، فقد كان هناك سعى نشط لنسيان الكوميونة. وعلى سبيل المثال، وخلال الاحتفال بمائتى عام على الثورة الفرنسية فى ١٩٨٩، تم الاحتفاء بكثير من اللحظات الثورية فى تاريخ فرنسا، ولكن غياب الكوميونة كان ملحوظًا. وكان القصد اقتلاعها، ليس فقط من التاريخ الرسمى بل من الخبرات المعيشة لدى الناس؛ لضمان ألاّ تلعب دورًا فى المخزون الشعبى. فماذا كان فى ذلك الحدث حتى يعمّق بالتالى ردود فعل من الإعجاب والنفور، فى آن؟

فى ١٨٧٠ أثناء الحرب الفرنسية البروسية حوصرت باريس لخمسة أشهر. ولإنهاء هذه الورطة، قدمت الحكومة الفرنسية تنازلات كبيرة لم تستقبل كلها استقبالاً حسنًا من قبل الناس فى باريس. وبسبب الخوف من ثورة الطبقة العاملة حاولت الحكومة جمع المدافع التى كانت قد وزعتها من أجل الدفاع عن المدينة، وهكذا نشبت المعركة. رفض الباريسيون تسليم السلاح، وفى ٢٦ مارس ١٨٧١ انتخبوا كوميونة لتحكم المدينة، وانسحبت الجمعية الوطنية، حقًا وصدقًا، إلى فرساى. وبادرت الكوميونة إلى إلغاء الشرطة والجيش، وفتحت مدارس عامة (وفى

بعض الحالات وفرت لوازم المدرسة، والطعام، بل والملابس للتلاميذ) وأعلنت فصل الكنيسة عن الدولة. ونظم الاشتراكيون، والفوضويون، والجمهوريون التحرريون، والنسويات[٩] وغيرهم، نظموا أنفسهم وعملوا بشكل جمعي. وأعيد العمل بتقويم ١٧٨٩ ورُفع العلم الأحمر، وانتهى العمل الليلي في المخابز، ومُنحت المعاشات لمن يعيشون معًا دون عقد قران من أعضاء الحرس الوطني، وأُحرقت آلة جيلوتين بشكل احتفالي، وأسقط عمود فاندوم، وأقيمت احتفالات عامة وفقرات موسيقية ضخمة. كان هذا الانفجار العفوي رفضًا بعيد المدى للسيطرة والتحكم – وأقلق ماركس (١٩٧١) أنهم كانوا بالغي "التردد" بهذا الخصوص (وأزعجته "سلامة طويتهم") – وعناقًا قويًا مع إمكانات وفيرة. ولم يكن ممكنا أن يستمر عيد الخيال هذا، لأسباب ليس أقلها أن أصحاب السلطان لم يحتملوا دلالاته وما يمكن أن يترتب عليه: كان الناس، يحكمون أنفسهم، وكان العمال والفقراء، بل والنساء، يدخلون إلى أدوار موظفي الحكومة؛ وأصبحت التقاليد الاجتماعية، حسبما هو متصور، عرضة لخطر شديد.

ومن البداية، تقريبا، كانت هناك مناوشات بين قوات الحكومة وأعضاء الكوميونة. وإذ استفزها تصلب الكوميونة وخرقها للتقاليد (وحركها إعلان قيام دولة ألمانية جديدة) فإن قوات فرساي صعّدت هجماتها وفي ٢١ مايو دخلت باريس نفسها حيث بدأت المذبحة. وفيما أصبح يعرف باسم الأسبوع الدموي، قتل عشرات الألوف في المعركة أو أجهز عليهم بمجرد استسلامهم. وآخر ١٥٠ منهم، أو قرابة ذلك، أطلق عليهم الرصاص أمام حائط الكوميونة، كما هو معروف، وهو حائط في مقبرة بير لاشيز؛ ونفذ بحق المزيد من الألوف الإعدام أو السجن أو الترحيل إلى المستعمرات العقابية الفرنسية. وكان النساء والأطفال مستهدفين بشكل خاص. وقرر كثيرون أنه من الأفضل أن يموت المرء واقفًا عن أن يعيش راكعًا. ويقال إن بلدانا أوروبية أخرى عرضت إرسال قوات؛ فهذا النوع من التمرد الشعبي لم يكن

ممكنا التسامح معه وكان لابد من القضاء عليه بأقسى مظهر ممكن للقوة – ملح يبذر فى الأرض حتى لا تعود تنبت مرة أخرى. وقد فعل هذا فعله إلى حد كبير. وأقيمت كنيسة القلب المقدس المميزة فوق مونمارتر، أعلى نقطة فى باريس، بكل ما لهذا من معنى رمزى، حيث كانت بدايات الكوميونة، وكرست من أجل الغفران للخطايا المزعومة التى ارتكبها أهل الكوميونة **(Tlarvey, 1979 : 377 p 2003 : 311 : 40)** لكن مرثية ماركس المؤثرة ما زال يتردد صداها: باريس العاملة، المفكرة، المحاربة، النازفة – تكاد تكون نسيت، إبان حضانتها لمجتمع جديد، الغيلان على أبوابها – متألقة بحماس مبادرتها التاريخى **(1978 b : 641)**"[١٠] وبعدها بوقت طويل نسيت حكومة فرساى والجمهورية الثالثة.

والمفارقة واضحة فبرغم أفضل الجهود التى بذلها الآخرون فإن أعظم الثورات المضيعة والمنسية بقيت فى ذاكرة أولئك الذين عقدوا العزم على أن يصنعوا التاريخ. وحتى مع محاولات الأقوياء وأصحاب الامتيازات أن يستأصلوها من التاريخ، فقد أخذ الكثيرون علمها الأحمر ومضوا به قدمًا. ولكن مع شيوع "مهرجان المقموعين" هذا بين الفقراء والمحرومين فى العالم فقد زاد الحرص على استبعاده من التاريخ، فبعد أن نحيت هذه الثورة جانبًا باعتبارها هامشًا للثوريين الشيوعيين وبعد ربطها أولاً بروسيا وثانيًا بالصين، ففى ثورة ١٩٦٨ العمالية والطلابية الفاشلة، فقط، عادت كوميونة باريس حقًا إلى الظهور فى الوعى الشعبى. وقد قارن كاستور باديس (١٩٩٢ : ٢٥٩) باريس فى مايو ١٩٦٨ بالكوميونة، زاعمًا أنه فى الحالتين "هذه الأسابيع" كانت "بالنسبة لنا لا تقل أهمية وليست أضعف دلالة من ثلاثة آلاف سنة من تاريخ مصر الفرعونى"[١١]. وبعد عودتها على هذا النحو، فقد أثبتت أحداث ١٩٦٨ أنها ليست أقل إثارة لفزع أولئك الذين فى السلطة مما كانت عليه هذه الكوميونة فى زمنها؛ ورغم ذلك، فالاهتمام بها لم يعش طويلاً بين أولئك الذين يبحثون عن مسالك للتغيير. لكن، وخلال سنوات قليلة عادت قصة كوميونة باريس، مرة أخرى، لتستودع هوامش التاريخ – لتوصف بأنها إصلاحية

من قبل بيل بيم (٢٠٠١ : ٣٧) ولتقرأ باعتبار أنها ليست ثورية ولكنها "رمية من غير رام، فى محاولة أخيرة ومأساوية" عند ماليا (٢٠٠٦ : ٢٤٨) وإن كان يقر بأنها خلفت أسطورة قوية من أجل (المرة التالية)، ومع كل هذا فهذه اللحظة التى تبدو مستحيلة عملت على إعادة صياغة مفهومات الثورة، وأعدت المسرح، على نحو مهم، لثورات القرن العشرين (خاصة فى روسيا والصين) التى ستأتى بعدها.

وفيما يتعلق بحكاية الثورة المضيّعة والمنسيّة فإن التناقض باق. فهذه الحكاية، من ناحية لا هى مضيّعة ولا هى منسيّة، رغم الجهود الواعية والقصدية لتحقير وجودها وإنكاره. لقد كانت أول ثورة بروليتارية حضرية. أول من هاجم الدولة العسكرية الصناعية الطالعة (Billington, 1980 : 346) وأول من طرح صياغة مختلفة جذريًا لتنظيم السلطة، كما أنها كانت علامة الانتقال من الثورة القومية إلى الثورة العابرة للقومية (Billington, 1980: 347) وهو ما يرمز إليه، وليس هذا بالأمر البسيط، فى أناشيد الثورة الأممية من "المارسييز" الفرنسى إلى "الإنترناسيونالى" [نشيد الأممية] الذى كتب فى أعقاب الكوميونة بقلم واحد من مناضليها. وفى الوقت ذاته، فعبر السنوات أزيحت قصة كوميونة باريس، إلى النسيان، لتصبح جزءًا جوهريًا من أى تاريخ سرى للمرحلة الثورية، التى تلتها، كتراث معروف لعدد قليل نسبيًا وإن بدا أنهم كثيرون، لكن أساطيرهم وذكرياتها تواصل البقاء.

الثورة البروليتارية فى (١٩١٢ – ١٩١٦) فى مكسيكو سيتى (١٢)

ليس أمرًا غير عادى أن تعتبر ثورة المكسيك ثورة اجتماعية، وفى الفصل السابق اعتبرناها من ثورات الحرية والتحرر. وقليل من الناس فقط هم الذين يجادلون فى مكانة ثورة ١٩١٥ – ١٩٢٠ فى المكسيك باعتبارها أول هبة اجتماعية كبرى فى القرن العشرين وأعظم أبطالها هم الراديكالى الزراعى إيميليانو

زاباتا وزعيم الجماعات الريفية الاجتماعى سانشو فيللا، وقد كان بين أتباعهم عمال من أهل الريف بينهم عمال مناجم وعمال أخشاب ورجال السكة الحديد(١٣) وأعظم موروثات الثورة هو الإصلاح الزراعى ومبدأ أن الأرض والنفط والمعادن التى تحتها هى ملك لأهل البلاد. ولكنها بالتأكيد لم تكن ثورة عمالية (Kuight, 1984 : 51) ويشير نابت إلى أنه لم يكن فيها حزب عمالى يسعى إلى السلطة، ولم تتأسس مجالس عمالية، ولم يبذل العمال جهودًا للسيطرة على الصناعة؛ كانت مساهمات العمال "محدودة وفى إطار رد الفعل غالبًا" (١٩٨٤ : ٥١) فى بلد كان يتحول إلى التصنيع بشكل متصاعد، أين كان العمال؟

وكما تبين الآن، فقد كان كثير من العمال فى قلب المعمعة. فقد كانت الطبقة العمالية المكسيكية المتنامية متمركزة، بالأساس، فى مكسيكو سيتى، وفى المدن، الموانئ الرئيسية مثل فيراكوز وتامبيكو وأكابولكو وفى المدن القريبة من حدود الولايات المتحدة مع المكسيك مثل تشيهواهو Ncal ويواريز وكانانيا. كانت أحوال الطبقة العاملة فى المكسيك طيبة نسبيًا وفى وقت الثورة تحالف معظمهم مع المعتدلين من القوى الملتفة حول ماديرو ودائرة النخبة والطبقات العليا من أنصاره. وهذا لا يعنى تجاهل النضالات الحقيقية التى كانت دائرة ولا نمو حركة عمالية فوضوية اتحدت أساسًا مع إخوان ماغون والماغونيستا(١٤). وكان هؤلاء رأس الحربة فى حركة الجمهورية المتعددة الجنسيات المتعددة الأعراق والفوضوية والمصرة على الغموض، جمهورية باجا فى ١٩١١(١٥) لكن الحركة فى أوساط العمال كانت، أساسا، فى مكسيكو سيتى، التى تحولت إلى التصنيع على نطاق واسع أيام البورفيرياتو، وهى العقود الثلاثة من ديكتاتورية بورفيريو دياز، وهناك تأسست دار عمال العالم **Casa del Obreros Mundial** فى مطلع القرن ثم أغلقتها الديكتاتورية وأعادت نشوب الثورة العمالية إلى المعترك، وإن اتخذ ذلك، على الأقل فى البداية "شكلاً فرديًا أكثر مما كان قوة منظمة" **(Gilly, 2005 a: 148)** وفى صيف ١٩١٢ ولدت الكازا **Casa** (دار العمال) من جديد.

ولأنها أكثر من اتحاد، فقد سعت الدار إلى التأثير على الحركة العمالية، وعلى حكومة ماديرو، وإضافة منظور أسمى وفوضوى على الأحداث التى تتوالى. وحسب هارت (xxi: ١٩٩٧) فإن "المائة وخمسين ألفا من العمال أرادوا إدارة ذاتية لعمال المصانع، والأرض للفلاحين، ودورا مختزلاً للغاية للحكومة وللرأسماليين الأجانب". وحسب غونزاليس (٢٠٠٢ : ١٤٦) "فلم يكونوا معنيين بإطاحة النظام الرأسمالى وكانوا مؤيدين لنظام ماديرو الذى كان إصلاحيًا إلى حد بعيد" (لكن انظر Richards, 2004 : 26) وبعد أن قمعوا إبان ديكتاتورية ١٩١٣ – ١٩١٤ فى عهد هويرتا الذى أطاح بماديرو. فقد أعيد تأليف الدار العمالية بضربة عبقرية من أوبريغون وجهها للجانب الدستورى، وهو قرار لم ينج من الجدل حوله (Gilly, 2005 a: 199) وأدى هذا إلى تشكيل "الكتائب الحمراء" الأسطورية والتى حققت نجاحًا فائقًا (والتى نمت أسطورتها فى الذاكرة، مع مر السنوات) وكانت هذه الكتائب مجموعة من "النجارين، وعمال البناء، والحجارين، والخياطين، وعمال صف الحروف فى المطابع إلخ" ممن عارضوا زاباتا وفيلا باعتبارهما "قوى رجعية" (Mclynn, 2001: 344) وحققت معارضتهم نجاحًا ملحوظًا.

واستلهامًا لما حققته من نجاحات، إلى حد ما، ومع تنامى قوة حلفائها من الدستوريين بدأت الدار Casa تتخذ مواقف أكثر قوة، لتشكل اتحادات العمال فى كل مكان وصلت إليه وتنظم الإضرابات حيثما استطاعت. لكن الدستوريين بدؤوا يتراجعون، فقاموا بحل الكتائب الحمراء وتجنيد عمال السكك الحديدية، الذين أصبحوا بذلك فى إطار ضبط عسكرى، وأغلقت مكاتب الدار casa وتم تصعيد الضغوط على العمال بخليط من الوعد والوعيد الذى انطوى على شبه غامض بأسلوب بورفيريو "الخبز أو العصا" فى مواجهة أعدائه. وفى ربيع ١٩١٦ بدا أن إضرابًا ضد الحكومة نجح فى كسب تنازلات مهمة؛ وأدى النكوص عن الوعود إلى إضراب عام ثان فى صيف ١٩١٦. وعن هذه النقطة انقضت الحكومة بوحشية على حلفائها العتيدين، معلنة الأحكام العرفية ومعتبرة إياهم خونة ومشيرة إلى التهديد بعقوبة الإعدام للمضربين، وانهار الإضراب وانهارت معه الدار Casa.

من ناحية أخرى فإن الحركة العمالية كانت قد تحالفت مع الشيطان، فلم ينحازوا إلى القوى الزراعية التقدمية بقيادة زاباتا فى الجنوب أو إلى الفلاحين والعمال الريفيين الراديكاليين بقيادة فيللا فى الشمال ولكن، وكما يلاحظ دون (١٩٨٩ : ٥٠) انحازوا إلى القوى الدستورية المعتدلة (وإلى بقايا نظام بورفيريو) وفى النهاية ثبت أنه "تحالف شاذ بالنسبة للبروليتاريا الثورية (Dunn, 1989 : 68) واكتشفت الحركة العمالية الصغيرة نسبيًا أنها كانت زائدة عن الحاجة وسهلت تنحيتها جانبًا. ورغم أنها تبقى فى الذاكرة أكثر من جمهورية باجا الفوضوية، فإن هذا الفصل فى عاصفة الثورة المكسيكية مُنى إلى حد بعيد. وفى المناقشات والتقارير الوصفية حول مساندة عمال المكسيك للطلبة فى ١٩٦٨، أو حول العلاقات بين الزاباتيستا المعاصرين والعمال، يصعب أن تجد أى إشارة إلى دار العمال العالميين وفى سنة ٢٠٠٠، فى متحف الثورة فى تشيهوهوا بالمكسيك، حرص أحد عمال المتحف على توضيح التشكيل متعدد الطبقات لمن ركبوا وحاربوا مع فيللا ومع فيلق الشمال. وقال إن العمال كانوا عنصرًا رئيسيًا، كانوا منظمين، وكانت معهم ساعات يد، وجادين فى عملهم. وأضاف إنهم لم يكونوا مثل العمال فى مكسيكو سيتى الذين ربطوا مصيرهم بالحكومة ولم يعرفوا ماذا كانوا هم أنفسهم يريدون[١٦]. وهكذا فبالنسبة للبعض، فإن العمال ضائعون[*] .

(*) لم نقل "مضيعين" هذه المرة رغم أن صيغة الفعل لم تتغير فى النص الإنكليزى عن المرات السابقة. لكن اختلاف النحو العربى عن النحو الإنكليزى يجعل من الضرورى أن نقول هنا "ضائعون" بمعنى أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يريدون. بخلاف "مضيعون" التى تعنى ضيعهم التاريخ ونسيهم. كما فى سياقات سابقة – المترجم.

المتمردون الاشتراكيون فى ريف أوكلاهوما:

تمرد الحنطة الخضراء فى ١٩١٧[١٧]

نادرا ما يتم الربط بين الولايات المتحدة والاشتراكية. لكن كانت هناك فلول من الطوباويين فى القرن التاسع عشر، معظمهم فى المناطق الريفية، يسعون إلى خلق مجتمعات نموذجية. وبعد ذلك جاء المهاجرون، ومعظمهم من الألمان، أفكارهم كانت بالأساس ديمقراطية اشتراكية لها جذور فى مثل الاشتراكية الأوروبية. ومع انقلاب القرن اتحد معظم الاشتراكيين فى البلاد فى حزب أمريكا الاشتراكى، وهو جماعة ذات قاعدة واسعة من العمال الحضريين من مختلف الاثنيات ومختلف الطبقات وكثير منهم مهاجرون. كانوا أقرب إلى العمال الريفيين، والمزارعين الشعبويين، والمصلحين الاجتماعيين، وأصحاب الدكاكين. وفى بداية القرن العشرين كان هناك زخم له مغزاه، وإن كان محليًا، وانتُخب عدد من الاشتراكيين لمنصب العمدة، ولعضوية المجالس النيابية المحلية، وكموظفين فى الولايات، وانتُخب مؤيد للاشتراكيين حاكمًا فى نورث داكوتا. وحصل مرشح الحزب الاشتراكى لمنصب الرئاسة على ٩٠٠,٠٠٠ صوت فى انتخابات ١٩١٢ و١٩٢٠. وكانت السهول العظمى فى الولايات المتحدة **Great plains** أرضًا خصبة، على نحو خاص، فى تلك الأيام، وكما يقول بيربانك (١٩٧٦) "صوّت المزارعون للحمر".

ورغم أنها لم ترتبط عمومًا بالسياسات الراديكالية أو حتى التقدمية فإن ولاية أوكلاهوما فى جنوب السهول العظمى كانت مكانًا خشنًا متجاوبًا مع الحزب الاشتراكى والتنظيمات المرتبطة به وأثبتت أنها واحدة من أكثر الولايات اشتراكية فى البلاد. ففى الانتخابات الرئاسية فى ١٩١٢ سجلت أعلى نسبة للأصوات لصالح المرشح الاشتراكى "وكان فيها أغلب نسبة من المنتمين إلى الحزب مقارنة بإجمالى

سكان الولاية فى الولايات المتحدة" (Lipset & marks, 2001: 135) وبالبناء على "ثلاث من أكثر الوثائق راديكالية فى كل الأزمان: المانيفستو الشيوعى، وإعلان الاستقلال، وموعظة الجبل" (Bissett, 1999: 196) فإن اشتراكيى أوكلاهوما جعلوا أنفسهم جزءًا من المجتمع. وفى انتخابات ١٩١٤ حصل مرشح الحزب الاشتراكى لمنصب الحاكم على عشرين بالمائة من الأصوات وانتخب أكثر من ١٧٥ من المرشحين الاشتراكيين لمناصب محلية فى تلك السنة، كان بينها، ستة أعضاء فى المجلس الاشتراكى للولاية (Bissett, 1999: 126)، ومن منظور ذى أساس زراعى اعتبر أن العمال الزراعيين هم الطبقة العاملة (Bissett, 1999: 5)، وباستخدام مجازات وعبارات من المسيحية (Bissett, 1999: 91) لنشر رسالتهم، خلق الاشتراكيون قاعدة قوية، فقد كان الآلاف يتجمعون فى أواخر الصيف بعد انتهاء الحصاد فى "تجمعات اشتراكية" من أجل الموسيقى والترفيه والتعليم (Bissett, 19999: 21 – 2) وبدا أن كل شيء يمضى فى الاتجاه الصحيح؛ وعندئذ دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. وقد كانت المطالبة بأن يتمكن السود من ممارسة حقوقهم فى التصويت وبأن يكون للنساء مجرد الحق فى التصويت أصلاً، وأن يعد أمرًا مشروعًا أن تنتقد السياسات الزراعية والأسعار بل وأن تنسق مع الحركة العمالية، فى العقد الثانى من القرن العشرين فى أوكلاهوما، كان هذا موضوعًا (Sellers, 1998 : 18) وكانت إدانة اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب ومعارضة التجنيد أمرًا آخر تمامًا.

وقد كان تمرد الحنطة الخضراء هبة متعددة العرقيات "السود وفقراء البيض والهنود السمينول" (Dunbar – Drtiz, 1997: 14)، متعددة الطبقات وغير منظمة بل وهيولية فى أغسطس ١٩١٧ على امتداد ضفاف نهر جنوب كندا فى مقاطعة هيوز، أوكلاهوما. وكان يبدو أن الهدف هو الاعتراض على دخول الولايات المتحدة إلى الحرب الأوروبية وعلى مؤسسة التجنيد، وربما كان الأمر أكثر من

ذلك وحسب دبنار – أوريتز (١٩٩٧ : ١٦) فقد قرر المحتجون تحرير رقابهم من النير الخشبى ليزحفوا على واشنطن العاصمة و"يسقطوا الرئيس ويلسون (urbank 1976 : 134) ويوقفوا الحرب، ويصلحوا الاقتصاد الوطنى بهدف (أن تستعيد الطبقة العاملة كامل إنتاج عملها)". وقد أحرقوا الجسور، وقطعوا أسلاك التلغراف، وخططوا لمصادرة الملكيات، كانوا مسلحين (من الواضح أن سلاحهم كان المسدسات وبنادق صغيرة العيار) واتفقوا على استخدام القوة، وتزعم دبنار – أوريتز (١٩٩٧ : ١٦) أنهم "سمموا الأطعمة ومياه الآبار" وقد انضم إليهم أيضا هنود المسكوجى وبدأ العمل:

قسموا أنفسهم إلى مفرزات، يتولى بعضها تجنيد كل من لم ينضم بعد إلى التمرد، والبعض الآخر لحرق الشونات، وأخرى لتفجير أنابيب تكساكو. وجماعات عديدة لنسف جسور السكك الحديدية وقطع خطوط التلغراف والتليفون، وأخرى لإسقاط الأسوار وإطلاق حيوانات المزارع لتدهس حقول القطن. وبعد يوم صيفى طويل من التدمير تجمع المتمردون الذين ناهز عددهم خمسمائة فى منطقتهم المحررة الجديدة للولائم والاحتفالات والراحة (Dunbar – oritz, 1997 : 17).

وقد لقوا مساندة من الجناح الأكثر راديكالية فى الحزب الاشتراكى فى أوكلاهوما وبعض رفاق الطريق من اتحاد الطبقة العاملة فى أركانسو وهو شبه اشتراكى. وكان رد الفعل من أصدقائهم وجيرانهم سريعًا وشرسًا؛ فقد تجمعت قوة مسلحة على الفور، ووقعت مناوشات عديدة، وتبعثر المتمردون (Barbank, 1976 : 135) مات سبعة واعتقل عدة مئات وسُجن خمسة وسبعون.

ورغم وجود بعض المعلومات عن هذا الحدث اللافت، فقد استبعد من زمن طويل من تاريخ الولايات المتحدة، بل ومن تاريخ أوكلاهوما، وكثير مما نعرفه الآن هو من تقارير صحفية فى صحف محلية، من مقالات قليلة كتبت لمجلات اشتراكية فى ذلك الوقت، ومن ذكريات مثل تلك التى سمعتها (دنبار – أورتيز ١٩٩٧) من أبيها أو

مثل التى سردت فى كمنغهام وفرايزن (١٩٩٩). لكن المعلومات موجودة ومن الممكن العثور على من يعرفون قصصا عما يبدو مستحيلاً عن اشتراكيين فى أكثر الولايات محافظة، فى الولايات المتحدة، يخططون لـ "تحرير" مناطقهم بأفكار خيالية عن السيطرة على الحكم وتحويل البلاد. بل، حسب رواية واحدة على الأقل، العودة بالزمن إلى ما يناسب احتياج الزراعة. هذه قصة منسية ومضيعة لكنها جديرة بأن نستعيدها ولو لنذكّر أنفسنا بالآمال والرغائب الكامنة فى الأعماق.

محاولة رعى القطط: بعض حالات بدائية أخرى

من الواضح أن الاحتمالات لا نهاية لها، والسعى إلى حصرها لعبة لا يلعبها إلا أحمق. وفى محاولة لتبيان مدى الاتساع والعمق فى الإمكانيات، يجدر بنا أن نذكر المزيد، وقد جمعنا هذه الحالات على أساس جغرافى، إلى حد كبير. وفى بعض هذه الحالات هناك المزيد مما يتعين اكتشافه؛ وتبدو حالات أخرى بسيطة: مجرد اسم، مكان، لحظة مشحونة بالمعنى بالنسبة لشخص ما، فى مكان ما.

فى أمريكا اللاتينية والكاريبى كان هناك، ضمن آخرين، الفيلق الماركسى بريستس فى البرازيل فى الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٧، والتمرد الوطنى ساندينو فى نيكاراغوا من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٤، ورؤية فارابوندو مارتى الماركسية الثورية فى السلفادور فى ١٩٣٢ التى أسفرت عن مجلس السوفييت العمال والفلاحين الذى استمر ثلاثة أيام فى تاكوبا (paige, 1997: 118)، وكان الووبليز [Wobblies المتأرجحون] الناشطون فى تشيلى، وغيرها فى أوائل العشرينيات من القرن العشرين وبدأت Lo Violencia فى كولومبيا فى ١٩٤٨ لكن تراثها المختلط، الممزق والمرقع بتصورات لا شك أنها تلفيقية، يبقى حيًا ونشطًا اليوم. وعرفت إكوادور فى ١٩٤٤ "ثورة مايو المجيدة" لكن انتفاضة كيوراكوفى ١٩٦٩ تحت قيادة جبهة العمل والتحرير (Anderson & Dynes, 1975) غامضة لكنها معروفة

أكثر من الجمهورية الشعبية فى غرينيتش تاون فى جامايكا فى ١٩٨٠، التى لم تعد أكثر من ملاحظة هامشية فى تاريخ ذلك البلد (**Gray, 2004**)، وغير واضح ما يجرى فى فنزويلا القرن الحادى والعشرين – هل هى حقًا ثورة بوليفارية؟، فى الوقت ذاته فإن جيللى (b٢٠٠٥) يجد أن الثورة الأولى فى القرن الحادى والعشرين فى بوليفيا.

أما أوروبا فمستحيلة؛ وسنكتفى بأمثلة قليلة. كان هناك تمرد الفلاحين الألمان فى ١٥٢٥ (الذى يعتبر البعض أنه قد يكون أول ثورة ماركسية)[١٩] وتمرد الأيام التسعة فى ماساثيللو فى ١٦٤٧ فى نابولى الإسبانية. وقد وقعت تمردات قوقازية فى ١٦٧٠ – ١٦٧١ (تمرد رازين) وفى ١٧٠٧ – ١٧٠٨ (تمرد بولافين) الذى طالب بحياة أفضل للفلاحين وقدْر أقل من السيطرة الحكومية. وفى ١٩١٥ شهدت البرتغال ثورة قلّ أن يعرفها أحد أدت إلى استقلال أفريقيا البرتغالية. وقد كانت هناك لحظة ثورية ذات مغزى فى برلين فى ١٩١٨[٢٠]، وسوفييتات قصيرة العمر فى ميونيخ وهنغاريا فى ١٩١٩، وفى هامبورغ فى ١٩٢٣. وكانت هناك عشرون سنة فى فيينا الحمراء "بين الحربين العالميتين" (١٩٣٦ – ١٩١٨) والثورة الفنلندية فى **Alapuro,**) (**1917**) (**1998**) وفى إسبانيا انتفاضة عمال المناجم فى إستوريا فى ١٩٣٤ والتوجه إلى الراديكالية فى ١٩٣٦ – ١٩٣٩ فى مدريد وفى "برشلونة الحمراء" وفى الأندلس. وهزيمة الفرنسيين فى ١٩٥٤ فى ديان بيان فو – التى تعد فى الغالب انتصارًا للفيتناميين – ومغادرتهم جنوب شرق آسيا وهى الهزيمة التى دمرت المركز الإمبريالى لفرنسا فى العالم، فى مناطق ليس أقلها شمال أفريقيا. فخلال سنة أشهر كانت تخوض حرب الجزائر وخلال عامين اشتعلت تونس والمغرب، وهنغاريا فى ١٩٥٦ وربيع براغ فى ١٩٦٨ كانا حاضرين بقوة فى ثورات شرق أوروبا فى ١٩٨٩ ويبقيان فى ذاكرة الناس عن القارة ولا يزال شعب الباسيك فى شمال إسبانيا وجنوب فرنسا يناضل من أجل تقرير المصير.

وفى الولايات المتحدة كانت هناك حروب صغيرة فى الثورة الأمريكية، لكنها الآن جرى صهرها فى حرب واحدة؛ والتمردات التى لا حصر لها والتى قام بها العبيد وذكرناها فى الفصل السابق؛ ونضالات السكان الأصليين والتى لم تكن(*)، ودستور جون براون من أجل جمهورية حرة ١٨٥٥ – ١٨٥٩ وهى حركة قامت على أساس حرب العصابات. وكان هناك شهداء هاى ماركت فى نهاية القرن التاسع عشر والأشباح الراقصة المحلية، فى الفترة ذاتها. وشهدت أوائل القرن العشرين مذابح للعمال الذين حاولوا تنظيم أنفسهم، وكذلك حركات دينية وسياسية أو حركات تجريبية مثل مجتمع للانو ديل ريو الاشتراكى فى كاليفورنيا (١٩١٨ – ١٩١٤) ولويزيانا (١٩٣٨ – ١٩١٨) فى لوس أنجلوس. إبان الحرب العالمية الثانية كانت هناك حركات الشغب المسماة زوت سوت(**)، وكانت صدامات بين المجندين وبين الشباب الأمريكيين من أصل مكسيكى. فى ذلك الوقت كان الأمريكيون من أصل يابانى يحتجزون فى "معسكرات اعتقال". وشهد العام ١٩٧٠ إطلاق النار على طلاب غير مسلحين فى ولاية جاكسون فى جامعة كنت ثم "أحداث الشغب الشعبية فى الحدائق" وكانت اثنين، ثلاثة، كانت كثيرة فى بيركلى عقب "يوم الخميس الدامى" ١٥ مايو ١٩٦٩. وأحداث شغب ستونوول فى نيويورك فى ١٩٦٩ لها مكان هنا أيضًا، وكذلك التعبئة فى سياتل فى ١٩٩٩ ضد منظمة التجارة العالمية (**WTO**)؛ وتبعتها عمليات حشد ضد منظمة التجارة العالمية فى الدوحة ٢٠٠١ وكانكون ٢٠٠٣ وهونج كونغ ٢٠٠٥، وشهد أبريل ٢٠٠١ احتجاجات هائلة ضد منطقة التجارة الحرة للأمريكتين (**FTAA**) التى اتفق عليها فى كيبيك، كندا.

(*) أحد التعبيرات الغامضة التى يظهر المؤلف ولعه بها، وربما يقصد به أنها نضالات انمحت، أو كادت، من الذاكرة – المترجم.

(**) الزوت سوت هى بدلة ذات سترة فضفاضة وسروال ضيق عند الخصر وفضفاض تحته ويعود للإحكام فوق القدمين مباشرة، وكان يرتديه الشباب من أصول لاتينية من الذين اشتبكوا، إبان تلك الأحداث مع البحارة ومشاة البحرية من مواطنيهم الأمريكيين المنحدرين من أصول أوروبية – المترجم.

وفى آسيا وقعت انتفاضة كازان مومكين فى شرق جاوة فى ١٩٠٤ بهدف خلع "الأوروبيين". وأثرت حركة الاستقلال الأولى فى مارس ١٩١٩ فى كوريا على حركة الرابع من مايو فى الصين، كما أثرت على غاندى فى الهند، وكانت فى تلك الحركة يوغوانسون المعروفة بأنها جان دارك الكورية. وفى ١٩٢٧ وقعت أحداث مهمة فى غوانجو (وطن الكانتون) وقام مجلس السوفييت لثلاثة أيام ("كوميونة باريس الشرق") وفى هونان انتفاضة حصاد الخريف. وكانت انتفاضة العمال فورينغ دو فى ١٩٣٠ فى فيتنام انتصارًا كبيرًا للقوى الشيوعية التى كانت حديثة التنظيم. كما كان تمرد آن كلوث فى ١٨٥٩ فى بعض أجزاء الهند حركة نسائية مبكرة. وشهد جنوب آسيا فى ١٩٤٦ – ١٩٥١ تلنغانا، وهو تمرد فلاحى قاده الشيوعيون فى دولة الإمارة فى حيدر آباد (Welch, 1980) وتمرد منطقة نكسلبارى التابعة لمنطقة دار جيلنغ فى البنغال الغربى فى ١٩٦٧، وهو تمرد ما زال مؤثرًا، حتى اليوم. وفى ١٩٢٠ – ١٩٢١ كانت فى فارس جمهورية جيلان السوفييتية التى لا يعرف بها الكثيرون ولم تعش طويلاً (وأحيانا يشار إليها باسم الجمهورية الفارسية الاشتراكية السوفييتية). و"حادثة سياكل" فى ١٩٧١ فى إيران لا تكاد تكون معروفة، ولكن قد تكون لعبت دورًا فى ثورة ذلك البلد فى ١٩٧٩. وقد سعت انتفاضة ٨٨٨٨ إلى تحقيق الديمقراطية فى بورما فى ١٩٨٨ وقوبلت بالرصاص. وأثبتت المقاومة فى نهاية القرن العشرين فى الهند من خلال حركة باليابان أنها نموذج معمر.

وفى العالم العربى وأفريقيا هناك حالات مثل تمرد كاوسن الذى قام به شعب الطوارق فى النيجر الشمالى ضد الفرنسيين فى ١٩١٦ – ١٩١٧. وتمرد ظفار ١٩٦٢ – ١٩٧٥ الذى أجبر عمان على التحديث والذى لم ينته إلا بتدخل القوات الإيرانية(*). ومعركة ١٩٧١ بين القوات البريطانية واليمنية. وأصبحت ثورة اليمن

(*) هنا تجاهل للدور البريطانى الحاسم فى قمع التمرد أو جهل به، ويتصل هذا بتشوش رؤية المؤلف لأوضاع العالم العربى- المترجم.

الاشتراكية فى ١٩٦٢ لحظة رئيسية بالنسبة للحركة العربية المعادية للإمبريالية وبالنسبة للناصرية؛ وقد تبعتها حرب أهلية فى اليمن الشمالى ١٩٦٢ – ١٩٧٠ والحرب الأهلية النيجرية ١٩٦٧ – ١٩٧٠ التى كادت تسفر عن قيام دولة جديدة، بيافرا – وبرغم التأثير المحلى الهائل فإن ثورتى زنزيبار فى ١٩٦٤ وبوركينا فاسو فى ١٩٨٣ أمران لم يستكشفا بقدر كاف. والصراع فى الصحراء الغربية الذى تقوده البوليساريو ذات القاعدة الصحراوية (الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء وساحل الذهب) ما زال يدور بشكل أو بآخر على امتداد جيل.

وقد كانت هناك عشرات الأيام باسم "يوم الأحد الدامى" عبر الكوكب. وتشمل: لندن، ١٣ نوفمبر ١٨٨٧، وكانت تظاهرة ضد القهر فى أيرلندا؛ ٢٢ يناير ١٩٠٥ فى سان بطرسبورغ فى روسيا، عندما لقى متظاهرون سلميون غير مسلحين مصرعهم بالرصاص وهم فى طريقهم لتقديم التماس للقيصر نيقولا الثانى وتصدى لهم الحرس الإمبراطورى؛ ومذبحة إيفريت وهى مواجهة مسلحة بين السلطات المحلية وأعضاء حركة العمال الصناعيين فى العالم (الووبليز، IWW) فى إيفريت، واشنطن، يوم ٥ نوفمبر ١٩١٦؛ وفى ٧ مارس ١٩٦٥ هوجم ٢٠٠ من أعضاء مسيرة للحقوق المدنية من قبل شرطة الولاية والشرطة المحلية بالهراوات وقنابل الغاز خارج سيلما، آلاباما؛ وفى ديرى بأيرلندا الشمالية قتل ٢٧ متظاهرًا من رعاة الحقوق المدنية بالرصاص فى ٣٠ يناير ١٩٧٢.

كل هذه الأحداث وملايين غيرها هى جزء من موروثنا المشترك، جزء من النضال الذى يخوضه الناس ليغيروا عالمهم وعالمنا، جزء من حكاية الثورات المضيعة والمنسية. وتذكر أن هذه النضالات نادرًا ما تضيع أو تنسى عند أولئك الذين عاشوها أو الذين علموا بها أو يسعون إلى إبقائها حية. ورغم أن كثيرًا منها غائب عن كتب التاريخ وعن الاحتفالات الوطنية أو الإقليمية، فهذا لا يعنى أنها ليست موجودة فى ذاكرتنا، كخرافات تنتظر من ينشطها وربما يشتغل عليها. فكيف إذن تبقى هذه اللحظات الغامضة حية؟

ناقلو الثورة: همسة جانبية موجزة[٢١]

مسألة أخرى تستحق أن تذكر هنا. الصلات بين الأحداث المضيعة والمنسية (والعملية الكبرى التي قد تكون هذه الأحداث جزءا منها) ليست مجرد أشياء تحملها النسائم. وسواء كانت تراتبية أو خوارجية، مباشرة أو غير مباشرة، تحريضية نشطة أو اتصالية سلبية، فقد كان فيها أناس قطعوا الطرق التي يجب أن تقطع وقالوا ما يجب أن يقال، رغم أن أحد الاثنين [الحركة أو الكلام] ربما زاد عن الآخر، أحيانًا. وكثير من هؤلاء الناس زعماء محليون أو وطنيون، وكثير منهم مجهولون لكنهم مهمون؛ فيدون في نهاية القرن الثامن عشر في غرينادا أو الأخوان ماغون في المكسيك تقفز أسماؤهم إلى الذاكرة وكذلك اسما مصطفى كامل ومحمد فريد في هبة ١٩١٩ في مصر[*] وقد أصبح بعضهم شخصيات إقليمية وربما دولية كما حدث بالنسبة لزعيم الرأس الأخضر آميلكار كابرال ولزعيم فيتنام هوتشي منه في سبعينيات القرن العشرين. وهناك أعداد تقدر بالألوف عبر القرون ممن حملوا، بوعي أو بغير وعي، كلمة المقاومة، والتمرد، والثورة.

وبعض هؤلاء الناس ممن يصفهم هوبزبوم (١٩٨٨ : ١٢) مستشهدًا بالكاتب المسرحي المناهض للفاشية بيرتولت بريشت الذي قال إنهم يغيرون بلدانهم أكثر مما يغيرون أحذيتهم[٢٢]. ونصف الإله المعاصر هنا هو تشي غيفارا، الطبيب الأرجنتيني الذي شارك في تجربة غواتيمالا الديمقراطية وعمل مع الاشتراكيين الديمقراطيين والماركسيين الطالعين في المكسيك حيث اتصل بالمنفيين الكوبيين، وساعد في قيادة الثورة الكوبية، وانتقل إلى الكونغو، وأخيرًا رحل إلى بوليفيا حيث

(*) تبدو صورة التاريخ المصري مشوّشة عند المؤلف لأن سعد زغلول هو قائد هبّة ١٩١٩ وإن كان في مصر من يقول إن البنية التحتية لتلك الهبة كانت الشبكات الثورية التي أعدها الحزب الوطني ليوم قيامته الثوري وبتدبير من محمد بك فريد – المترجم.

مات، لأسباب من بينها تدابير تآمرية من أولئك الذين شعروا بأنه لابد من وضع نهاية لأساليبه ومجهوداته المتنقلة، فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. وعند مغادرته كوبا فى ١٩٦٥ كتب هذا المشاء إلى والديه مشيرًا إلى المسعى النبيل لدون كيشوت باتجاه أماكن يقوم فيها بتصحيح المعوج قائلاً مرة أخرى أشعر بأن تحت كعبىّ ضلوع روزينانتى (١٩٦٧ b : 142)(23)[٢٣] والأكثر إبهارًا، كما رأينا، هو عدد الأماكن التى يبدو أن تشى زارها بعد موته. ولا شك أن حضوره الكلى اليوم يجعله شيئًا مبتذلاً تقريبًا.

وقد كان توماس باين بريطانيًا حاول أن يأتى بالثورة إلى كل من أمريكا وفرنسا، وكانت له رؤيا عن "جمهورية الإنسان" الكونية وعن انتشار الحرية والديمقراطية فى كل مكان على الكوكب. وكانت صيحته المنذرة المبشرة تعلن "بوسعنا أن نبدأ العالم من جديد، لم تطرأ حالة مماثلة لحالتنا الراهنة منذ أيام نوح وحتى الآن. ويوم ميلاد عالم جديد، هو يوم قريب" (٢٠٠٠ : ٤٤) وكانت أصداؤها تتردد فى مدن متباينة مثل دبلن ودوبروفنيك وفيلادلفيا ووارسو وبرلين وسانتو دومينغو (Keane, 1995: x) ولا يزال الراديكاليون فى أمريكا اللاتينية وآسيا يستشهدون بتوماس باين (Dyck, 1993: 117)؛ وفى وقت قريب للغاية استشهد به رئيس الولايات المتحدة فى خطابه الافتتاحى (أوباما: ٢٠٠٠) وفى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر حاربت الفرنسية البيروفية فلورا تريستان من أجل الاشتراكية والنسوية ومن أجل شروط اجتماعية محسنة، وربط حقوق النساء بحقوق العمال فى بيرو، وفرنسا وبريطانيا العظمى. ويشير نيمتز (٢٠٠٢) إلى أن ماركس وإنغلز هما فى الحقيقة نموذجان ("للاعبين المتجاوزين للقومية" ليس بسبب أسفارهما، ولكن بسبب ما بذلا من جهود من أجل التواصل والتضامن على مستوى العالم. وغالبًا ما يشار إلى جوزيبى غاريبالدى باعتباره تشى غيفارا القرن التاسع عشر (لكن انظر Sinclair, 1998 : 113, Riall, 2007) فهما يريان

العكس هو الصحيح)[٢٤]. حارب غاريبالدى من أجل الليبرالية فى أوروغواى وإيطاليا قبل أن يوجه جهوده إلى الأممية الاشتراكية؛ ولثلاثين سنة انخرط غاريبالدى فى كل معركةَ ذات خطر فيما سوف يصبح، بفضل كثيرين هو منهم، إيطاليا الحديثة. ولقى اعترافًا عالميًا وبقى ملتزمًا بالعدل وبالنضال.

وذات مرة، وللحظة (تقريبًا من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩) كانت هناك حقًا مؤامرة شيوعية دولية فعلية للسيطرة على العالم، تمامًا كما كان يخشى كثيرون فى "الغرب". كان عملاء الكومنترن أناسًا من طراز الهندى الماركسى الموجود فى كل مكان م. ن. روى الذى قاد تمردًا ماركسيًا فى الهند، وساعد على إنشاء أحزاب شيوعية فى المكسيك والهند ولعب أدوارًا مهمة فى أماكن متنوعة مثل ألمانيا والشرق الأوسط وروسيا وإندونيسيا والصين وجعلت الراديكالية الألمانية أو لغابناريو (بريستس) حضورها محسوسًا فى ألمانيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة والبرازيل، وكان زوجها الأول أوتو براون (وهو ماركسى أيضًا) نشطًا فى كل أوروبا لكن أقصى شهرته كانت فى الثورة الصينية باسم لاى دى[٢٥].

وهؤلاء هم بالطبع، من نعرفهم؛ وفى الأغلب فالناس الذين لا نشعر حتى بوجودهم هم الذين ينشرون الأخبار. وعلى سبيل المثال، فإن لينستروث (٢٠٠٠) يفصّل كيف حارب الباسك فى أمريكا الوسطى، ودربوا الناس فى كوبا وشمال أفريقيا، وكانوا مطلعين على نضالات منظمة التحرير الفلسطينية والثوريين الماركسيين فى كولومبيا والزاباتيستا فى المكسيك، وساعدوا على نقل الحكايا بين القارات الثلاث، إلى ثلاثة أو أربعة أقاليم، ولأعداد لا تحصى من البشر. وقد تقاسم الثوريون فى مختلف أنحاء الكوكب حكاياهم فى كل ركن من أركان العالم.

مضيعون ومنسيون ويمكن تذكرهم[٢٦]

حكاية الثورات المضيعة والمنسية التى قدمناها هنا ليست خالية من التعقيد. وقد يجادل الكثيرون فى الحالات المذكورة، والحالات التى نعلم بها، وحتى تلك التى لا تتجاوز حافة وعينا هى جزء من ذاكرتنا الجمعية، تكمن تحت السطح مباشرة، تنتظر أن نعيد إليها الحياة باستدعائها من "مجموعة النفائس العزيزة على كل.. [الثوريين]" (Anderson, 1992: Xil). وقد قال زاباتا "الثورات ستأتى.. الثورات ستمضى.. لكنى سوف أبقى مع ثورتى" (Womack, 1970: 197 - 8) ومن الصعب القول إن ثورة زاباتا انتهى بها الأمر مضيّعة أو منسيّة، لكن عبارته تبقى أصداؤها. وفى حين أن الثورات الكبرى، والتمردات الكبرى، وأعمال المقاومة الكبرى تحوز الانتباه، فقد يكون الأمر هو أنه فى النهاية فإن الأفعال الأصغر، الأكثر محلية، بل واليومية هى التى تهم. هل هى الأهم؟ هذا أقل وضوحًا. وكان الأمريكى توماس جيفرسون الذى يمكن القول إنه على قدر من العلم بالثورات، أو على الأقل بالتمردات السياسية المهمة قال عن تمرد شيز (١٧٨٦ – ١٧٨٧) "إن تمردًا صغيرًا بين الحين والحين هو شيء طيب، وهو ضرورى فى العالم السياسى ضرورة العواصف فى العالم الطبيعى (١٩٥٥ a: 93) وفى رسالة أخرى، عبر جيفرسون، على نحو مماثل، عن رأى مفاده "عسى الله ألاّ يتركنا عشرين عامًا بدون تمرد كهذا، أبدا، فمثل هذه الأحداث ضرورية برأيه حتى يصل" إلى الحكام تحذير مفاده أن شعبهم ما زال يحتفظ بروح المقاومة (١٩٥٥ b: 355) ويواصل القول "دعهم يحملوا السلاح" وهذه المرة بقدر أكبر من التشاؤم (وإن كـــانت جاذبية العبـــارة واضحة لبعض الثوريين الرومانسيين) ويضيف "شجرة الحرية يجب أن تنتعش من فترة لأخرى بدماء الوطنيين والطغاة. هذا سمادها الطبيعى".

ومعظم حكايا الثورات المضيعة والمنسية يتعلق بتلك الثورات، الثورات التى يتحدث عنها جيفرسون، وبالتأكيد فقد كانت دماء الوطنيين والطغاة وكثيرين غيرهم هى التى تراق. ونوع المقاومة والتمرد والثورة الذى نعرض له هنا قد لا يكون فيه ما يكفى من الملحمية والعظمة بل وقد يبدو مضحكًا – جمهورية الاثنى عشر يومًا الاشتراكية فى تشيلى، الثوريون الاشتراكيون فى أوكلاهوما؛ المدينة الشعبية فى جامايكا – لكن ذلك لا يجعله حقيقيًا بدرجة أقل أو ينتقص من مغزاه بالنسبة لمن انخرطوا فيه، كما أنه عاد إلى الظهور، مرات، بتصميم مذهل – وعلى سبيل المثال فالاشتراكيون الذين فازوا بالسلطة فى انتخابات ١٩٧٠ فى تشيلى ينسبون أنفسهم إلى اللحظة الاشتراكية فى ١٩٣٢. وهذا يذكرنا، أيضًا، بأنه وأكثر من أى حكاية أخرى، يجد المرء هنا شهادة على الصبر والقبول فى مواجهة السلطة، حتى مع وجود استعداد لاختبار هذه السلطة، بالرموز، بالكلمات، بالإيماءات، بل وأحيانًا بالصمت. وإلى جانب الحكايا العظمى فى ١٧٨٩ فى فرنسا وفى ١٩١٧ فى روسيا، وفى ١٩٥٩ فى كوبا، فهذه هى الحكايا التى ينهل منها الناس فى العالم كله، ويعيدون كتابتها، وينشئون حكاياهم هم، بينما يخلقون سرديات نضالاتهم وحياتهم هم. وحتى إذا كانت لا تعيد بناء الماضى، أو لا تتفاعل مع الحاضر، أو لا تنتج المستقبل، فهى رغم ذلك حكايتهم عن المقاومة والتمرد والثورة.

الفصل التاسع

حكايا تتكشف عن مقاومة، وتمرد، وثورة

فى سياق البحث عن بطل حقيقى للثورة المكسيكية يعتقد تايبو أنه وجد ذلك البطل فى شخص سيباستيان سان فنسنتى، وهو فوضوى إسبانى يروى له حكايا عن "كوميونة باريس.. برشلونة الحمراء وشهداء أول مايو فى هاى ماركت بشيكاغو"[١] (tuibo. 2000: 12). وبعدها، وإذ فشل فى العثور على أى وثيقة تسجل.. مساهمته فى ثورة آستوريا فى (٢٠٠٠ : ١٦٧) "٣٤" يتساءل:

الووبليز فى تشيلى.. الثورة الصينية من ١٩٢٥ صعوداً؟ هونج كونج، أم كانتون، أم شنغهاى فى ١٩٢٧؟ هامبورغ؟ إسبانيا؟ مدريد، أم برشلونة أم الأندلس؟ أفريقيا؟ بعض النخلات الأخرى؟ الأرجنتين؟ أقلب فى مجموعة لا بروتستا فى أرشيف فالاديس فى الفترة ١٩٢٥ – ١٩٢٨ كأنى أبحث عن أوزة برية فوق خريطة متحركة. قد يؤمن الخيال الوصلات الضائعة بين سيباستيان سان فنسنتى الذى رحلوه من المكسيك فى يوليو ١٩٢٣ وأوتو براون صديق (لاى ثى)(*). فى المسيرة الطويلة فى الصين فى ١٩٣٤، وقليل من الإنشاء الروائى قد يصل الرجل الذى يحدق فى خليج المكسيك بصديق روميرو الإسبانى فى تمرد هوك فى الفلبين. بل ويمكنك القول إن سان فنسنتى كان سانشيز، الكولومبى، الذى ساعد دوروتى على سرقة بنك فى بوينوس آيرس. لكن الروابط لا تحتمل قوة الشد، فهى تتمزق تاركة رجلاً يقف على رصيف الميناء فى فيراكروز (٢٠٠٠ : ١٦٨)

(*) أشار إليه المؤلف فى الفصل السابق باعتبار أن اسمه الحركى فى الصين هو لاى دى. وهو هنا ينقل عن تايبو أن لاى ثى (وليس لاى دى) هو صديقه الصينى وأن أوتو براون إسبانى وليس ألمانيا، والأرجح أن هذا التحريف يشير إلى ما تفعله الذاكرة الزائفة بشهادات الشهود على لحظة تاريخية ما – المترجم.

هذا المصنَّف البارع والمعقد؛ رواة الحكايا يحققون "أصالتهم بالطريقة التى يصوغون بها الذاكرة الجمعية"[٢] (Apter, 2006: 790) يصور قرابة سبعين سنة من المقاومة والتمرد، والثورة فى حزمة متقنة ومحترمة.

الناس يختارون أن يقاوموا وأن يتمردوا، والناس يصنعون الثورات. وهم يفعلون ذلك، إلى حد ليس صغيرًا، بأن يصنعوا الحكايا. حكايا هى أيضا تجعلهم أناسًا[٣]. إنها شبكة غير مدروزة نخاطر إن فكّكناها؛ ونحن مغروسون بعمق فى حكايانا حتى ونحن مشغولون بخلقها واستخدامها. ورغم أن الحكايا يمكن أن تنتهى وأن تخدم وظائف عديدة، فهى تنطوى دائمًا على إمكانية التخريب، وحسب تقدير أوكرى هى "دائمًا شكل من أشكال المقاومة" (١٩٩٦) ومن الأمور الحاسمة فى كيفية عمل الحكايا "الذاكرة، والأسطورة، والتاريخ، التذكر المنظم والنسيان القصدى" (Benjanin, 2000: 14)) وهو ما أضيف إليه، برغم عدم ارتياحى إلى مجاز المرض عند برنتون (١٩٦٥) حين قال إننا "نعيش فى عالم مُعدٍ" (Walt, 2000 : 34) ونتيجة لذلك، فالناس يعرفون الحكاية؛ يعرفون الحبكة، رغم أنه من المحتم أن تكون الأصوات متعددة، وكذلك المعانى والظروف وبالتالى النتائج، لكن لا يزال هناك ما يصفه وينستين، (٢٠٠٧ : ٢٨) بأنه "توافق مدهش حول مجموعة من المعتقدات الجوهرية حول الكيفية التى يجب أن ينظم بها عصيان، وهذه الإستراتيجيات قد انتشرت على نطاق واسع، عبر الأقاليم وعبر الجماعات ذات الدوافع المختلفة". وهكذا فبينما تكون الحبكة واحدة بشكل مدهش، والأفكار حول الكيفية التى يجب أن تحدث بها الأشياء، وحتى الأفكار، قوية وملحة، فالحال أيضًا أن "المزيد من التجليات اليومية للحياة الاجتماعية توضح كيف يمكن إلحاق الخطابات الجديدة بالممارسات السياسية القديمة، فى حين يمكن أن تصبح الممارسات الجديدة مشحونة بمعان قديمة"[٤] (Rodgers, 2009: 86)) هذه الصلة بين "سلوكيات المعارضة فى الماضى مع أشكال المقاومة فى الحاضر (تخلق)

فضاءات من الإمكان حيث يمكن تخيل المستقبل على نحو مختلف" (Hokks, 1995 : 151)[٥] ولأن الثورات لديها "أجندات لم تستكمل" فهى تبقى ذات معنى "سواء واصلت الحدوث أم لا" ويعود ذلك، فى قدر غير قليل منه، إلى "حاجة الناس – كأفراد وفى حركات الكتل الجمعية – إلى أن يحلموا" (Halliday, 1999: 335 , 338).

الثورات تشبه هجرات إلى المستقبل.. [حيث] توجد الأرض الموعودة.. فى عقول من يؤمنون بها (Nodia, 2000 : 164) وهذه المجموعة المستعارة قصدًا من التحليلات تبرز الأطروحات الأساسية التى يقوم عليها هذا المشروع.

بدأ هذا الكتاب بثلاث حكايا ذات حساسية خاصة، وليست بالضرورة بديهية، وانعطف فى إيجاز للنظر فى الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة، وما يرتبط بهذه من اهتمامات، ثم اشتغل على أربع حكايا تسعى إلى الإمساك بالنسخ المتنوعة والعديدة للمقاومة، والتمرد، والثورة وهى الحكايا التى خلقها الناس إبان سعيهم لترشيد جهودهم الهادفة إلى إحداث تحول جوهرى فى الشروط المادية والأيديولوجية لحياتهم اليومية. والدروس (ولا نجد كلمة أفضل) المستفادة من هذه الحكايا يمكن تلخيصها على النحو التالى: أولاً، التعريفات مهمة فعلاً، والثورات ليست هيجانات. وثانيا، فالناس الآخرون هم آخرون حقًا (Darnton, 1984: 4) سواء فى الماضى أو فى الحاضر، ويفكرون بشكل مختلف غالبًا؛ ولكى نفهمهم لابد لنا أن نحتوى تلك "الغرابة"[٦] وأيضًا فإن "الحقيقة" على الأقل المفهوم البورجوازى الليبرالى، المتفق عليه فى الغرب للحقيقة، قد يكون أقل أهمية من الإمساك بالحقيقة كما يفهمها الناس على الأرض، والزمن الأسطورى مختلف عن الزمن الكرونولوجى [الموقوت] وثالثًا، فبينما تبقى الحكايا، بحكم التعريف محلية وخاصة، تبقى هناك حكايا، صحيحة كانت أم غير صحيحة. موجودة فى كل مكان. وأخيرًا، فإذا كانت أى حكاية هى حكاية هشة، فالحكايا معمرة؛ إذ تروى وتعاد روايتها عبر الأجيال. وهذه الحكايا الأربع معًا تعطى لمحة عن أداة معقدة بشكل مذهل.

ولدراسة هذه الحكايا يكون من المفيد أن نتوفر بعض المساعدات على الدراسة. والمقترح هنا أن ذلك قد تؤمنه مفهومات الخرافة والذاكرة والمحاكاة، علما بأن هذه كلها مفهومات معقدة وليس بينها ما يخلو من إشكاليات. فالأساطير تؤمّن ثروة من المعلومات حول ما يعتقده الناس عن أحوال الدنيا كما هى وما يجب أن تكون عليه؛ والمحاكاة هى أكثر من التقليد – فقد تكون حتى ابتكارا، إذ يتبنى الناس ما فعله الآخرون ويعدلون ليصلحوا ما يطرأ على حياتهم من خلل.

وما نزعمه هنا هو أن ما أنتجته هذه الجهود، عن عملية من المزج، هى حكايا المقاومة والتمرد والثورة التى صاغها الناس والتى تساعد على تفسير السبب فى حدوث الثورات هنا وليس هناك، الآن وليس عندئذ، وبين هؤلاء الناس وليس أولئك. الحكاية المناسبة فى المكان المناسب والزمان المناسب – هل يمكن أن تكون الأمور شرطية أكثر من ذلك؟ تساعد النشاط الثورى وترقّيه وتزيد احتمال نضج الخيال الثورى ليصبح عاطفة ثورية تضع أساسا للحالات الثورية وبالتالى إمكانية نتائج ثورية. وحكاية ثورة التحضر والمقرطة هى، بالأساس، حكاية نخبوية عن القوة العظيمة، بسبب ما تعد به وأيضا ما تحذر منه: الثورة شيء مخيف. ادخلها وتحمل النتيجة، وتوقع الأسوأ. وتمضى هذه الحكاية على مسار انتصار التنوير، وفى الغالب الأعم هى تستخدم من قبل الموجودين فى السلطة لإضفاء نوع من التميز على مراكزهم. والحكاية الثورية الاجتماعية عن الثورة هى الأشهر والأسهل فهمًا. وتوصف بأنها سريعة ودراماتيكية وتقوم على مطالب شعبية بتحولات مجتمعية جوهرية يطاح فيها بالقديم ويحتفى بالجديد(٧) وهى ملحمية، وفخمة، ومجيدة، وهى فشل رومانسى. وبؤرة هذه الحكاية المستحيلة هى الجهود المتجاوزة للزمن لتحقيق الخلاص من سادة متنوعين: المستعبدين، المستعمرين، الإمبرياليين، وتسعى حكاية المضيعين والمنسيين إلى الإمساك بومضات من المقاومة والتمرد، والثورة، على المستوى اليومى، بحكايا النضال "الأصغر"، الأكثر غموضًا، وهى حكايا لا تحصى.

وبأخذ كل هذه الحكايا بعين الاعتبار. فالتأمل فى كيفية حدوثها والسبب فى ذلك قد يساعدنا على أن نفهم، ليس فقط لماذا تحدث الثورات وأين تحدث وفى أية أوساط؟، ولكن أيضًا كيف يمكن أن نفهم الأحداث المحتمل وقوعها فى المستقبل؟. وفى حين أن الحكايا، كما هو واضح، تخدم أغراضا كثيرة، فهى بالأساس أدوات نبنى بها وننظم بهدف صيانة وتنمية حياتنا وصولاً إلى المستقبل. وهكذا يبدو من المعقول أن تُتصور الحكايا باعتبارها شكلاً، بل وربما شكلاً أوليًا للنضال الاجتماعى – السياسى وهذا يستتبع فهم هذه الحكايا فى سياقها، وأيضًا خارج هذا السياق؛ وهذا يعنى أيضًا الاعتراف بأن السياق يشير إلى ما يتجاوز "الحالة" فقط. والحكايا ملحة، وصبورة، ومعمرة على نحو مدهش، ويزعم أرندت (١٩٦٥ : ٢٢٠) أن "الخبرات بل والحكايا التى تنبت مما يفعل الرجال وما يحتلمون، من الأحداث والوقائع، تغرق عائدة إلى اللا جدوى المتأصلة فى الكلمة الحية والفعل الحى ما لم يدر حولهما الكلام مرارًا وتكرارًا" فالحكى وإعادة الحكى أمر مهم؛ لأنه يصنع المغزى ويحركنا.

"حكاية واحدة وأخيرة : نوع من المداخلة"

هذه الحكاية الأخيرة تدور حول الحكايا وحول طبقاتها ومستوياتها. فالهاسيدية الحديثة هى حركة يهودية صوفية تأسست فى أوروبا الشرقية فى القرن الثامن عشر على يد الحاخام بال شيم توف، وهو رجل كان يقال عنه، كما يقال عن كثيرين غيره فى حكايا أخرى، إنه كان يعرف الاسم الأعظم للرب؛ أى أنه كان يعلم ويفهم أشياء يجهلها معظمنا. وكان أيضًا، كما سنجد فى حكايا صغيرة وكبيرة، ساحرًا على نحو خاص، وفى هذه الحالة أستاذًا فى القبلانية(*). وفيما يبدو

(*) فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض النصارى العصر الوسيط مبنية على تفسير صوفى للكتاب المقدس (التحرير).

أنه رهان ثلاثى على الخيل فى الحكايا التقليدية عن العارفين، كان مشعوذًا مخلصًا لشعبه، نذر نفسه لحمايتهم وتحسين أحوالهم، وقد تمرد أتباع الهاسيدية هؤلاء على التعاليم التلمودية التقليدية التى تقول إن الرب يحيطنا جميعًا بحضوره الدائم وبالتالى فكل ما يقوله المرء ويفعله "لخدمة هذا الرب الدائم الانتباه" وإذا فعلت ذلك بإخلاص تحدث لك نتائج طيبة، كما توضح الحكاية.

وفى يوم من الأيام، كانت لدى بال شيم مهمة صعبة، لأن تعاسة بالغة كانت تهدد الشعب اليهودى. وكما حدث عندما واجهته مواقف صعبة من قبل، فقد ذهب إلى مكان معين فى غابة ليتأمل ويصلى. وهناك أشعل نارًا من نوع معين، وقرأ صلاة خاصة، وكما حدث من قبل، تحققت المعجزة. وانقضى جيل أو أكثر، وواجه أحد تلاميذه وهو "ماجد" من ميزريتش مهمة مشابهة. ولأنه يحتاج تدخلاً من السماء، فقد ذهب هو أيضا إلى الأحراج – كان يعرف المكان – ولكن، وكما اعترف للرب، فهو لم يعد يعرف كيف يشعل النار الطقسية؛ لكنه كان يعرف الصلاة ويأمل فى أن حضوره هناك قد يكون كافيا، وقد كان. ثم مر جيل أو نحو ذلك وطرحت مهمة أخرى: تعرض اليهود للخطر مرة أخرى وكان الحاخام موشى لايبى من ساسوف يعرف ما يجب عمله. ومضى بدوره إلى الأحراج – كان يعرف المكان فى الغابة – لكن فى هذه المرة كان عليه أن يقر، ليس فقط بأنه لا يعرف كيف يشعل نارا بل ولم يكن يعرف الصلاة. لكنه كان يعرف المكان وكان يثق أن هذا كاف، وقد كان. ومر المزيد من الوقت، على الأقل جيل آخر، ومرة أخرى وُوجه اليهود بسوء الحظ، وتوجهوا إلى الحاخام إسرائيل من ريجين، وريث هؤلاء السابقين. كان يعرف ما يجب عمله، لكنه لم يكن يعرف كيف يفعله. وقد جلس فى بيته، ورأسه بين يديه، فقد راح يتمتم حزينًا وهو يناجى الرب: "أنا عاجز عن إشعال النار ولا أعرف الصلاة؛ ولا أستطيع حتى أن أجد المكان فى الغابة كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أحكى الحكاية؛ ولابد أن يكون هذا كافيا، يجب أن يكون كافيًا بالنسبة لك لتتدخل وتنقذ شعبك" وقد كانت الحكاية كافية.

العلاقة بين الحكاية والراوى والمستمع أو المستهلك - ولا يجب أن يكون مستمعًا سلبيًا؛ وتلاحظ بوليتا (٢٠٠٦ : ١٠) أن الحكايا تتطلب مساهمتنا التفسيرية - للحكاية، وكذلك بينهم وبين من سوف يستخدمها فى شكل أو آخر، هى علاقة معقدة، لكن لا يجب أن تبدو وكأن المرء وقع مع آليس فى جحر الأرنب. وفكرة دِيليوز غواتارى (١٩٨٧ : ١٠ - ١١) عن "الزنبور والسحلبية" هى فكرة مفيدة يُقصد بها "انصهار الحدود الشخصية بين زنبور وزهرة السحلبية فى عملية اللقاح.. كاستعارة تصور العلاقة بين الكتاب والقارئ"، فالأول لن يتحقق إلا فى حدود أن يُقرأ، والآخر لن يتحقق كقارئ إلا عندما يوجد كتاب يقرأه. وهكذا يكوّنان كيانًا تكافليًا هو "قارئ كتاب" الذى تنصهر المنطقة الفاصلة فيه مؤقتًا، فى عملية القراءة (Cordes selbin, 2009 : 35) والحكايا ليست دائمًا تقارير مرتبة[٨] فهذا هو الدور الذى أحصى به السرديات هنا - ويمكن أن تكون "صعبة" (Niemi and Ellis, 2001) لكن الحكايا تقول لنا من نكون (وبالتالى من كنا) وليست كيف نكون وما يجب أن نعمله حتى نصل إلى حيث نريد أن نذهب. الحكايا تبقينا أحياء. وكما يشير ديديون (١٩٧٩) "نحن نحكى الحكايا لأنفسنا حتى نعيش".

نحن نصهر الحكايا فى الحياة وبالتالى فالحكايا تمدنا بالفهم وبالرؤية عن الماضى والحاضر والمستقبل؛ وهى أساسية. الحكايا هى ما نكون - هى ممتعة وخطيرة - وما أن تسمع الحكايا، ما أن تعرف، حتى تعرف وهكذا تصبح أشد خطرًا، على نفسك وعلى الآخرين، سواء كفاعل أو كشاهد (وهو نمط من الفاعلية أيضًا). كما أن الصمت لا يتعين أن يقرأ باعتباره نسيانًا؛ فالحكايا المضادة المحرمة لها وجودها، تيارات تحتية من التاريخ الرسمى، ثقل شعبى مكافئ يضاد الحكايا الرسمية والسرديات المحكمة. وكل هذا قد يصور جيوش الأبطال، والنخب

النبيلة وهى تقاوم العصابات المتعطشة للدم، لكن الناس ليسوا جاهلين – فهم يعرفون من يملك السلاح، ومن لديه السلطة. وهم يعرفون ما حدث، أو على الأقل لديهم حكايتهم. معرفتهم بما "حدث حقًا".

الحكاية مقولة واسعة (Smith, 2003: 44) لكنها نافعة بشكل قوى. تنسج الحكاية نفسها داخلة إلى الخطابات المدونة والشفاهية والمرئية، وخارجة منها، وتبلغ درجة التأثير، حتما بقوة الثقافة الشعبية فى تجلياتها الكثيرة والمتنوعة. وهذه العلاقة مشحونة ومركبة؛ لأن الحكايا بوضوح، هى جزء من الثقافة التى تساعد على خلقها. وبمجرد استيعابها (كما تستوجب هى الثقافة الشعبية) فقد يبلغ بها الأمر أن تبدو وكأنها لا تزيد كثيرًا عن مظاهر جانبية للثقافة الشعبية، وأكثر قليلاً فى العصور الحداثية وما بعد الحداثية عن مادة يجرى التلاعب بها حسب الحاجة ورغم أن هذه قد تكون هى الحقيقة فعلاً، فهناك المزيد. الحكايا توحد الناس فتجعل منهم مجتمعًا مشتركًا تؤمن فيه رموز وثيمات وشخصيات معينة الإدراك والمعرفة.

والسياسات الرمزية، والذاكرة الجمعية، والسياق الاجتماعى للسياسة هى ذات أهمية مركزية فى فهم واستكشاف العمليات الثورية. وتؤمن لنا الحكايا الوصول إلى كل هذا، وليس فقط إلى المحلى والمعين. فالثورة محلية بشكل عميق وكونية بشكل غائر. والثورة كونية منذ أمد طويل؛ ورغم أن الإجماع الشائع يقدر الفترة بمائتى سنة (١٧٨٩) فالحكايا السالف ذكرها والدراسات الأحدث عن الثورة عمومًا تشير إلى زمن أبعد بكثير. ولن نكسب كثيرًا إذا وضعنا المحلى فى مواجهته مع الكونى أو المتجاوز للقومية فى مواجهة القومى؛ فالأشكال المحلية والإقليمية والقومية للتدافع، هى منذ زمن بعيد حجر الزاوية فى كل مجتمع. والأشكال المألوفة أكثر من غيرها للعمل الجمعى – كالحركات الاجتماعية، والعصيان المدنى، والتظاهرات – تجتذب الاهتمام، غالبًا، بدرجة تتجاوز طبيعة موقعها. وإذا كان عصر الميديا أو عصر المعلومات جعل هذا الأمر صحيحًا على

نحو خاص، فإن أهمية المقاومة والتمرد والثورة قديمة ومسجلة فى الحكاية التى ينشرها الرحّل، والمسافرون فى الرسائل، والأغنيات، والقصص. وفى غير ذلك من الأشكال. ومن الممكن أن نتبين فى هذه الحكايا ثيمات أساسية توضح أنه برغم الحقيقة القائلة بأن كل حالات المقاومة، والتمرد، والثورة هى محلية فى الجوهر، فهى تعكس أيضا حقائق أوسع وأعمق حول ما هو ممكن.

ولا غرو أن هذه الصلات يمكن تبينها على نحو مباشر. فالبشر يبنون، منذ زمن طويل، بنى تحتية من مختلف الأنواع، قنوات، وطرق، ومنشآت مثلا، وفى وقت أقرب إلينا، أصبحنا ندرك أن النظم المصممة لتأمين المعلومات أو العدالة أو الصحة هى أبنية تحتية أيضًا، تتشكل فى أصول كثيرة بقوة المحلى والمعين، حتى وإن كانت تستمد المعلومات من المتجاوز للقومية. وهذه الأبنية التحتية تساعدنا على الحياة على أساس يومى – عندما تجرى صيانتها واستدامتها وتفعيلها(٩). وعلى نحو مماثل، إلى حد كبير، فقد خلقت الإنسانية بنية حكايوية، مخزونا من الحكايا، يسند ويصوغ حياتنا اليومية. فنحن بغير تأليف الحكايا وبغير صياغتها فى محاولة للتواصل فيما بيننا وبين مجتمعنا – أو العكس.

وليس القصد هنا أن نميز الحكايا بما يستبعد المصادر الأخرى، ولا أن نوصى بأن الحكايا وحدها تدفع الناس إلى الفعل. وليس مشروعنا أن نحول الحكايا إلى ما يبدو أشياء قصصية ومجردة على نحو ما، مثل العمليات والقوى الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية على مستوى كلى – أو مستوى شامل(١٠). ليس الغرض أن نوحى بالاستغناء عن التحليل المنهجى أو العقلى للمتغيرات التى يمكن إدراكها وقياسها لتحل الحكايا محلها، ببساطة، وإن كنا نأمل أن تبين هذه الممارسة أن الحكايا ذاتها يمكن دمجها بشكل مثمر بل والاعتماد عليها كمساعدات تعليمية وتحليلها على نحو صارم ومنهجى.

وعدد المتغيرات التى قد يتفحصها المرء وهو يثمن المسألة الجوهرية التى يتدفق منها هذا المشروع – لماذا تحدث الثورات هنا وليس هناك؟، الآن وليس آنذاك؟، بين هؤلاء الناس وليس أولئك؟ – هو عدد مذهل ببساطة: فالقمع أو الجوع أو العواطف أو الضغوط الديموغرافية أو الأزمة الاقتصادية ليست إلا بعضا مما هو أكثر وضوحًا. وقد كانت هناك مجموعة واسعة من الجهود الجديرة بالثناء – دراسة الثورة غنية – لكن قلة قليلة للغاية من هذه التحليلات، المشبعة، كما هى الحال غالبًا، بخطاب المؤسسة أو بخطاب المثقفين، هى التى تبحث فى المدى الذى يمكن أن تصل إليه الحكايا المؤثرة فى تأمين مفاتيح الفهم. ولا يجب أن يؤدى إدراكنا لقوة الحكايا وأهميتها والمعلومات التى تمدنا بها إلى تقليص قدرتنا على الكشف عمّا نتوصل إليه بالمصطلحات شبه الموضوعية والتحليلية التى هى العنصر الحاسم فى العلم الاجتماعى اليوم.

وتمنحنا الحكايا أداة أخرى للمهنة يمكن توجيهها إلى بناء فهم أفضل لمن نكون؟، ما الذى نسعى إليه وإلى أين يمضى بنا الطريق؟. ومفتاح الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالثورة يكمن فى التركيز على كل من البشر والأبنية، ويبقى أنه من الضرورى توجيه قدر أكبر من الاهتمام إلى الناس وإلى سعيهم القصدى لصنع الثورة (دون أن يعنى ذلك أبدًا إنكار حقيقة النتائج التى تتدفق بشكل غزير). كيف ولماذا وأين يفعلون ذلك؟، هذه هى الأسئلة: والإجابات المهمة هى التى تتصل بالحكايا التى يرويها الناس، مستخدمين الخرافة والذاكرة والمحاكاة. وهناك حكايا عن الماضى يشيع اعتناقها، أو على الأقل الاعتراف بها لدرجة تكفى لأن تحدث صدى. وغالبًا ما تكون هذه مشابهة لسجادة الأساطير الفخمة ولما نصفه بأنه "الحقيقة"؛ وهو ما يمكن اعتباره الأساطير التى تم المصادقة عليها رسميًا، وهى أساطير تقوم على المحاكاة بشكل واضح بل وكثيف، وتسحب من مخزون الذكريات التى قد تكون هى ذاتها حقيقية أو متخيلة ولكن فى أى من الحالين فنحن خلقناها بقصد استعمالها.

المقاومة، والتمرد، والثورة

الناس يصنعون تاريخهم الخاص

بغض النظر عن المدى وعن المستوى فما يربط بين الناس هى الحكايا باعتبارها التاريخ أو باعتبارها تاريخا، أو سردية، أو قصة. وهى أداة نستخدمها لتصوير الماضى لأنفسنا ولبعضنا البعض. وأى حكايا من هذا النوع حول الماضى هى فى خدمة الحاضر، حتما، ولخدمة رؤية المستقبل. ويعتمد معناها على طبيعتها الجمعية وعلى ذاكرتنا التى هى انكسارات لاختياراتنا الواعية(*) لما تشمله الحكايا وما تستبعده، كما أن طبيعتها الجمعية وذاكرتنا هما ما تجعلان الحكايا حقيقية.

وخلق هذه الحكايا أساسى بقدر ما هو محتوم. وكل الحكايا تتطلع إلى الماضى إلى حد ما، سواء كانت الحكاية التى تروى إنتاجا حديثا (حكايا ما عدا التنوير عن ثورة التمدين والمقرطة أو الثورة الاجتماعية) أو تطرح كجزء من قصة أقدم (حكاية ثورة الحرية والتحرر) أو حتى ملحمة متجاوزة للزمن (قصة ثورات المضيعين والمنسيين) تضرب فى أعماق أبعد. وفى الوقت ذاته، فكل هذه الحكايا تتطلع إلى المستقبل وإلى أبعد ما يمكن تخيله، حتى إذا كانت هناك، أحيانا، عين مثبتة على الماضى. والحكايا تصنع وتضاف إلى المخزون بشكل دائم – "الثورات الملونة" فى أوروبا الشرقية فى ١٩٨٩، الحركة المناهضة لمنظمة التجارة العالمية "الثورات المفاوضة" فى نيبال أو تيمور الشرقية، وربما حتى ثورات صندوق الانتخابات فى فنزويلا أو بوليفيا (وتختلف إحداهما عن الأخرى) أو الثورات التى تسعى لتغيير العالم دون استيلاء على السلطة[١١] (Holloway, 2002) وبالطبع هناك الحكايا التى لم تؤلف بعد.

(*) كانكسارات الضوء عبر أى وسيط خاصة حدقة العين البشرية – المترجم.

ولابد من مراعاة بعض الحذر؛ فالامتداد اللا نهائي للإمكانات الثورية الذى يجرى فى كل اتجاه هو قليل النفع. وعلى سبيل المثال، فما هى الجدوى من البحث عن تنويعات جديدة فى فرنسا ١٧٨٩ أو حتى تشيكوسلوفاكيا ١٩٨٩؟ ومع الاحترام الواجب لشواين لاى الصينى. فقد لا تكون المسألة أن الوقت لم يحن بعد بقدر ما هى أننا تجاوزنا وقت رواية القصة(١٢). وعلى مستوى آخر. فمن الواضح أن كل حالة من حالات الغوص فى الكآبة أو حياة الرحل - "أسلوب حياة فوضوى" - قد لا يكون ممكنا فهمها على نحو نافع كمقاومة، أو تمرد، أو ثورة، رغم أن كل الحالات، بالطبع. قد تحتوى على عناصر من أى من الثلاثة. ومن ناحية أخرى، إذا كنا مستعدين لأن نعتبر من يتعمد أن يعيش مشردا، خارج الشبكة الاجتماعية، ليتغذى على ما فى القمامة من بقايا البيتزا أو (وهذا قد يكون أكثر جدوى) من يعبر عن احتجاجه بقذف الحجارة على الواجهة الزجاجية لمصرف بانك أوف أمريكا بشارع تليغراف فى بيركلى ذات صباح مشمس فى ١٩٦٩ (أو ١٩٧٠) جزءا من "لحظة جنون" حين تكون السلطة غير واضحة (Zolberg, 1972) باعتباره أحد أطراف المسيرة، وفرنسا ١٧٨٩ وروسيا ١٩١٧. أو أى هبة اجتماعية كبرى غيرهما. الطرف الآخر. فهناك إذن عالم من الإمكانات تتعين دراسته.

وقد عجزت أفضل مناهجنا العلمية، حتى الآن، عن أن تكون أكثر من أمر يحقق الدرجة الدنيا، أو تلك الكلمة الممتعة الموجودة فى الحقيبة والتى يثير معناها الشعور بالإحباط: الكافية(١٣). وبرغم بعض الأعمال الاستثنائية، فما زالت الإجابات المبهرة لدينا قليلة إزاء أسئلة عادة ما تُطرح حول الثورات فيما يتعلق بأصولها ونتائجها وسياقها. والمناهج "الموضوعية" (التى هى لدى الكثيرين مطمئنة) فى التحليل الاجتماعى العلمى لم تقدم لنا، حتى الآن، تحليلا فيه من الحساسية ما يكفى لتقديم فحص وتوضيح كافيين لمعضلة الثورة. تبدو التحليلات سيئة التجهيز، على نحو خاص، (وفى بعض الحالات معادية بنشاط) لإمكانية

الإمساك بالنظرة فى عينى شخص ما، أو نغمة صوته، والعاطفة التى تجعل، بالنسبة لهم، حصان زاباتا الأبيض؛ بيريه تشى غيفارا؛ قبعة ساندينو؛ خوذة هوتشى مينه، وخيزرانته، وذقنه الحفيفة؛ أو قبعة كابرال المغزولة – محملة بالمعنى ومثقلة بالدلالات. وتجعل الاستشهاد بها أو استخدامها أمرا له ما بعده. فالرموز من هذا النوع، المحملة بالمعانى، والطلاسم التى تشير إليها، والإحالات التى تنسجها، تمنحنا الفرصة لفهم الكيفية والسبب.

ومن الممكن الوصول إلى عمق الحكايا التى يرويها الناس عن المقاومة، والتمرد، والثورة، ومن خلالها يمكننا فك الشفرة أو على الأقل "كتابة السيناريو"(١٤) لمجموعة من الشؤون المتصلة بالثورة المحاطة عادة بشروط وطنية، بحيث تصبح هذه الشؤون قابلة للقراءة، فى الحدود الممكنة، من قبل الغرباء، وهذا ليس مشروعا "موضوعيا" وما ينبغى له؛ لأنه ما من مسعى يكون متحررا من الانحياز، على نحو صادق(١٥) ومع إدراكنا لحقيقة أن كل واحد منا يبدأ من نقطة ما، فلابد أن يكون الالتزام صارما، وأن يكون مفتوحا للنزاهة على نحو جذرى عند بذل الجهود بهدف التحقق والتفسير.

وباتجاه هذا الهدف، كانت غاية هذا الكتاب أن يروى حكاية من حكايا المقاومة، والتمرد، والثورة، الحكايا التى تروى مرة بعد مرة، أو الأغنيات التى تغنى أو تعزف، أو الأماكن التى تصور فى هدوء وثقة، وبالتزام وإيمان، وأحيانًا تكون هناك عاطفة أو خصلة يصعب وصفها، ولكنك خبرتها دون شك وأنت تحادث شخصا انخرط فى أعمال المقاومة، والتمرد، والثورة – تعبير على وجه إنسان ما، نبرة أو نغمة فى صوته، تحول فى الهيئة، إشارة بالرأس أو باليدين، وربما خلود إلى الصمت أو حلم اليقظة وربما كان إحباطًا شعر به وهو يحاول أن ينقل أمرًا عميقًا لهذه الدرجة إلى غريب عن المهنة. كيف يعبر المرء عند محاورة غريب، أو أحد المعارف، أو حتى صديق أو محبوب، عن أمر بهذا التعقيد وبهذه

البساطة؟ غالبا بأن يسأل، ويكرر السؤال، إن كانت الحكاية تعنى أى شيء، إن كنت تفهم، إذا كانت واضحة حتى وإن كان هو (وأنت أيضًا) يعلم أنها لن تكون ولا يمكن أن تكون. وتعمل الحكايا الضاربة بجذورها فى الثقافات، وفى الأنساب[٦٦]، وفى شبكات حقيقية للمقاومة، والتمرد، والثورة، على خلق الالتزام ونشره، وعلى تعميق الهوية الجمعية، وعلى تمكين من يستجيبون للنداء. وهذه الحكايا ذاتها تؤمن – بالوقت ذاته – نقدًا قويا للأوضاع القائمة والتى كانت قائمة، وكذلك تقوم بدور المؤشر المعيارى أو البرامجى إلى الفعل.

لا تحدث الثورات والتمردات وأعمال المقاومة من دون صياغة حكايا آسرة تساعد الناس الساعين إلى تغيير الشروط المادية والأيديولوجية كيانها، وتمكن لهم. فالناس تأخذ من الماضى لتفسر الحاضر ولتتوقع المستقبل، راصدة المستقبل الذى يتوقف على الحاضر، وعاملة على إعادة صياغة الماضى على النحو الضرورى لمعالجة الطوارئ التى يواجهونها[٦٧] والنتيجة هى تشكيلة من الحكايا التى تتنافس فيما بينها على أن تكون إحداها حكاية اللحظة. وهذه عملية يعتمد الناس فيها على مزيج من الخرافة، والذاكرة، والمحاكاة، ليرووا حكاية قوية عمن هم؟، وإلى أين يريدون أن يذهبوا؟، وكيف سيصلون إلى هناك؟. وهناك كم هائل من الحكايا التى يعتمد عليها الناس فى مختلف أنحاء العالم، ويعيدون كتابتها، ويؤلفون الحكايا الخاصة بهم. وفى هذه العملية فإنهم يحذفون ويحررون ويستبعدون أشياء لا تناسب الوضوح والدقة حتى وهم يضيفون التركيب عندما يستدعى الأمر ذلك. ومن ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣ كان هناك استعراض تليفزيونى فى الولايات المتحدة باسم "المدينة العارية" يصيح الراوى فى نهايته قائلاً: "هناك ثمانية ملايين حكاية فى المدينة العارية؛ كانت هذه واحدة منها" ضاعف هذا الرقم بمعامل الألف أو نحوه وعندئذ ستتضح لك صعوبة الإمساك بها؛ وهكذا أيضًا تبدو الاحتمالات التى حولها.

في السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين قد لا يكون نموذج الثورات التى عرفتها فرنسا أو روسيا أو الصين أو كوبا أو نيكاراغوا أو إيران مناسبًا لنا بعد الآن إلى درجة مقبولة. ومن الممكن أن هذه الأمثلة لم تكن مناسبة على نحو مقبول أبدا لما نريد، على النحو الذى كنا نظنه. لأنها ربما تكون شدت انتباهنا بعيدًا عن العملية اللا شعرية التى تتألف منها الخبرة المعيشة لدى معظم الناس، باسم المقاومة، والتمرد، والثورة. ولأن الناس يواصلون السعى إلى المقاومة وإنعاش الحياة، كما يبدو أنهم كانوا يفعلون منذ أزمان سحيقة. فهناك كل الأسباب التى تدعونا إلى أن نظن أننا سوف نظل نجد نفعا فى الحكايا الأساسية التى رسمنا خطوطها العريضة هنا، حتى ونحن نقابلها فى أشكال جديدة، فى نضالات الناس من أجل الدفاع عن حياتهم ومن أجل تحسينها وفقا لما لديهم من رؤى وطموحات، وإلى أن تتحقق تلك الأحلام والرغائب، بغض النظر عن كيفية تعريفنا لها، فسوف تبقى المقاومة، والتمرد، والثورة. وهكذا فقد عاشوا فى التبات والنبات. هى النهاية إذن.. كلا.. انتظر. وكما يسالون، غالبا، فى الحكايا القديمة، ما الذى تظنه حدث بعد ذلك؛ وكما اعتاد طفل استثنائى الذكاء لم يتجاوز عمره عامين أن يقول عندما يسأله أحد سؤالاً: "قل لى أنت"[١٨].

الهوامش

الفصل الأول

١- تجد صياغة مختلفة عن هذا على نحو طفيف في بداية : **Selbin, 1997 a**
99 – 106.

٢- هذا العمل المرجعي الكثيف والإشكالي نشر في ١٨٦٠ بعنوان **Die Cultur der Renaissance in Italien : Ein Versuch**. وترجمت إلى هذا المقطع ماريون كلشايمر سيلبين (٢٠٠٣)، بمعنى "أحدها ليس صحيحًا في أي مكان ورغم ذلك في كل مكان" وهي تشير إلى أن "القتل" هو ترجمة أكثر دقة لكلمة "**Umbringen**" من "الإعدام" وهو ما يجعل نواياهم ووعيهم (بذاتهم) أوضح.

٣- هذا تسبقه إدانة واعية: "دروس التاريخ كانت أشبه بزيارات إلى تماثيل الشمع أو إلى منطقة الموتى. كان الماضي بلا حياة، فارغًا، أصم. درّسوا لنا الماضي حتى نقنع بالحاضر بعد تفريغ ضمائرنا: ليس بهدف صناعة التاريخ، الذي كان مصنوعًا بالفعل، ولكن للقبول به". (**Galeano, 1958 : XV**)

٤- الإشارة هنا هي إلى **Hic sunt dracones** (ليكن التنين هنا) التي "يعرف الجميع" أنها كانت تظهر على حواف الخرائط المبكرة للعالم. وفي الواقع، فإن "لينوكس غلوب" (ح١٥٠٥ تقريبًا) هي وحدها التي كان عليها إشارة كهذه، معلقة فوق حافة آسيا.

٥- يوسع باركر عبارته الموحية في هامش نهائي: "أشير بهذا إلى جملة من الموارد الرمزية المتاحة لمجتمع ما لتصور عالما حقيقيا والكيانات التي بداخله، والعلاقات المتبادلة بينها .(٢٠٠٣: ٥٥ N6)

٦- يمكن أن تجد وجهات نظر جديدة بالاهتمام حول المقاومة عند

Scott, 1985, 1990 p Virno, 1996 p Groves and Chang, 199 P Tuviel, 2003; Mcfarland, 2004; martin, 199; Higgins, 2000: Eckstein, 2001, Langely, 2004; and zibechi, 2005.

٧- يدرس هولاندر أينوهر (٢٠٠٤؛ ٥٣٩ – ٤٤) أيضا متغيرين رئيسيين، الاعتراف والقصدية، ويطرحان تنميطا ذكيا للمقاومة مصنفة باعتبارها مكشوفة ومغطاة، وغير ذكية، ومحددة بالهدف، ومحددة من الخارج، ومضيعة، ومجرد محاولة (٢٠٠٤ : ٥٤٤ – ٧).

٨- ينقل كامبويرث (٢٠٠٢ : n14) عن فوران (١٩٧٧-277 :1997b; 203-b; a: 67; 1993 a: 1-17; 1992: 3 – 27)

كما ينقل عن ويكهام كراولي (١٩٩٢ : ٢٤٦) حول "الثقافات السياسية للمعارضة" وعن سيلبين (١٩٩٧، ١٢٣ – ٣ ؛١٩٩٩) حول "العلاقة بين الثقافة والفعل في السياسة الثورية".

٩- يمكن أن تجد محاولات شيقة لمعالجة التمرد لدى والتون ١٩٨٤؛ وماستدز، ٢٠٠٤، وساكتون ٢٠٠٥، ودونير ٢٠٠٥، وهارفي ١٩٩٨، ويدومو للرش ١٩٩٨، وكليري ٢٠٠٠، وكراوز ٢٠٠١، وكانون ٢٠٠٤، أرموني وآريوفي ٢٠٠٥، شانتزمان ٢٠٠٥.

١٠- يمكن أن تجد دليلا مقنعا على ذلك عند دولف ١٩٦٩، وآخرين.

١١- هذا التلخيص المحكم للمغنى الجامايكى ديلروى ويلسون ١٩٧١ وقد تبنى حزب الشعب الوطنى الاشتراكى والديمقراطى الذى يمكن وصفه بالثورى والذى يقوده مايكل مانلى أغنيته الشهيرة؛ وعن الطبيعة الثورية لجامايكا انظر المناقشة الموجزة فى الفصل ٤؛ NI وفوران (٢٠٠٥ : ١٦٩): حيث يبقى إلحاق وصف "الثورة" بغواتيمالا ١٩٤٤ إلى ١٩٥٤ وتشيلى ١٩٧٠ – ١٩٧٣ وجامايكا ١٩٧٢ – ١٩٨٠ موضع جدال.

١٢- المنطوق المنظومى عن "الجيل الثالث" يعود إلى سكوكبول ١٩٧٩؛ وغولدستون ١٩٩١ طوره على مهم؛ وغودوين ٢٠٠١ خاتمة ممتازة. وغولدستون (٢٠٠١) وفوران (٢٠٠٥) هما أوضح مرشحين للمنطوق المنظومى عن "الجيل الرابع" لكن انظر تبنى الأخير، على نحو غريب، لتعريف سكوكبول "يخصنى بالكامل" (Foran, 2005 : 7) و"أجيال" النظريات عن الثورة مصدره غولدستون ١٩٨٠؛ و"الجيل الرابع" الممكن ذكر الأول مرة عند فوران١٩٩٣.

١٣- استرشد هنا، على نحو جزئي، بباركر (١٩٩٩) واستخدامه لمصطلح "السردية" ويكرس البحث المعاصر ما بعد الحداثى السردية ملقيا عليها ضوءًا خاصا – ومفيدًا – لكنى، وكما أوضحت فى الفصل الثانى، سوف أميز بين السردية والحكاية إلى حد ما، رغم أن التداخل كبير والمبالغة فى الفصل غير مفيدة.

١٤- هذا لا يعنى تجاهل الإمكانات الوفيرة (والمغرية) والتى يمكن تبينها فى المكسيك ١٩١٠ – ١٩٢٠ وربما أيضا فى الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٠.

١٥- رغم أن الفاشية ترتبط منذ الحرب العالمية الثانية بالنازية الألمانية، فالفاشيون الإيطاليون الأوائل يمثلون منظورا مختلفا، لكنه استسلم للمبالغات النازية وللمعالجات شبه الملكية والكاثوليكية – اليمينية عند الفاشيين الجدد

مثل فرانكو فى إسبانيا وسالازار فى البرتغال وبيرون فى الأرجنتين وفارغاس فى البرازيل.

١٦- يزعم هيغونيه (١٩٩٨: ١٣) أنهم "ثقافيون أكثر مما هم اجتماعيون أو اقتصاديون فى أصولهم وفيما بدر عنهم، حتى وإن كانت الأشكال الاجتماعية والاقتصادية سببًا ونتيجة حاسمين للعقيدة الثقافية" ويشير إلى فيوريه (١٩٩٩).

١٧- كثير من هذا الجزء يأخذ بتوسع من سيلبين. (١٩٩٧ b: 88 – 92)

١٨- كما أشرت فى موضع آخر (Selbin, 2000: 92 p 2003 : 89) فهذه الماركوزات المتعددة تخلق عصابًا بلا شك، فكيف تمكنك مواجهة، ولا تقول محاربة، هذه المراوغة؟

١٩- هذه الحكايا حسبما يزعم دوينجر "تبقى على مر القرون، فى تتابع من التجسدات لأنها متاحة وأيضًا لأنها كاريزمية فى جوهرها" (٢٠٠٠ : ٢٦) .

٢٠- لأنه حتى لو تعلق الأمر بحالة "واحدة" فكل واحدة، حتمًا، تعكس كثيرين؛ كل منا مجلد انظر أيضًا المناقشة فى الفصل الثانى، فيما يلى، حول المزج والمازجين.

٢١- سوف يمثل الكتاب القارئ (Deleuze and; Guattari 1987 : 10-11) مفهومهم.

٢٢- يمكن العثور على مثال ممتاز عند "ماك آدم وآخرين" (٢٠٠١) عن البرنامج المستمر للسياسة. وفى طبعة سابقة فهم يعربون عن الأسف لأن دراسة "الحروب والثورات والتمردات و(معظم) الحركات الاجتماعية، والصراعات العمالية الصناعية، والحزازات، وأعمال الشغب، واللصوصية، والمهرجانات المخجلة، والأشكال الكثيرة الأخرى للصراع الجمعى هى بنظرهم سياسات مختلف عليها" ولم تتطور لتصبح حقلاً موحدًا

(McAdam et al., 1997 : 143)

الفصل الثانى

١- أفضل بيان للـــ"ممكنية" هو عند دارنتون ١٩٩٠ انظر أيضًا سيلبين ٢٠٠٩ .b

٢- "السرداوية المعادة صياغتها" عند سومرز "لها أربعة ملامح"

[١] العلائقية بين الأجزاء

[٢] التركيب العلى

[٣] التخصيص الانتقائى

[٤] الموفونية والتتابع والمكان (١٩٩٢: ٦٠١).

٣- يزعم روزبرى (١٩٨٩ : ٢٧) أننا يجب أن "نسأل من يروى الحكايا وفى أى سياق؟" [ذلك لأنه] رغم أن الحكايا تقليدية، فهى ليست خارج الزمن؛ أى أن "الشكل والمضمون فى الحكايا قد يتغيران أثناء الحكى" (وهو يستشهد بتايلور وريبيل ١٩٨١) ويزعم آبياه أن "الحكايا يقصد بها أن ترتجل وتتذوق، بما يعكس اللحظة التاريخية التى تحكى فيها ووعى الراوى" (lee , 2003 : b) .

٤- مفهوم الحكايا باعتبارها "مخزونا قيميًا" يأتى من أوكرى (١٩٩٦ : ٢١) رغم أنه يفهمها باعتبارها "مخزونا سريًا".

٥- فى تقدير أوكرى (١٩٩٦ : ١٧) فإن "أعظم الحكايا هى تلك التى ترن أصداؤها مصورة بداياتنا ومتوقعة نهاياتنا (أصولنا الغامضة ومصائرنا العديدة) وتصهرها كلها فى شىء واحد".

٦- تعرف أيضا باسم ألف ليلة وليلة، وهذا العمل الكلاسيكى فى الأدب العالمى مشيد حول جهود شهرزاد التى تحاول أن تمنع زوجها الملك من قتلها

بتسليته بالحكايا ليلة بعد ليلة. وأشهر حكاياها فى زماننا هى على بابا، وسندباد، وعلاء الدين. وكثير من الحكايا يدور فى الهند، رغم أن "أصولها" مجهولة والنسخ الأكثر شهرة هذه الأيام، بسبب كتاب ورسامى والت ديزنى، غالبا ما تنسب لمسلمين أو عرب أو فرس.

٧- وضعت الحكايا، وفقا لأبياه (٢٠٠٣ : ٤٦) "فى وقت ما قبل سنة ٥٠٠ الميلادية لتهذيب الأمراء.. الذين يقال إنهم عرفوا طريقهم إلى الحكايا الشعبية الويلزية والصينية (فى الحالة السابقة عن طريق ترجمات عربية).

٨- تختلف بنية القرآن، على نحو ما، عن بنية أى من "الكتابين العظيمين" الآخرين فى الموروثات التوحيدية وهو "لا يقدم سردية متصلة من النوع الذى تجده فى سفر الخروج (Cook, 2006 : 6) وأشكر مالين فيميليوس لأنه أوضح هذه النقطة.

٩- مجموعة من حوالى مائة حكاية طريفة وتميل إلى الفجور (بالنسبة لزمنها) ألفت فى ظروف وباء الطاعون الذى يدعو إلى التعقل.

١٠- هذه القصيدة الملحمية الهائلة غير المكتملة والتى هى مستلهمة من بوكاشيو تتعلق بمجموعة من الحجاج فى طريقهم إلى ضريح القديس توماس بيكيت ويقتلون الوقت بالحكايا التى تعكس العديد من الأشكال الأدبية فى القرون الوسطى.

١١- بعكس الرأى التقليدى القائل بأن الأخوين غريم جمعا الحكايا من الموروث الشفاهى الفلاحى. فالتحليلات الأحدث تزعم أنهما حصلاها من مصادر أدبية عاصراها فأعادا كتابتها وانظر، على سبيل المثال، زايبس ٢٠٠٠، وبوتيغايمر ١٩٨٩.

١٢- قبل أن يسمع الأطفال "أهزوجة ماما وزة" أو "جاك وعود اللوبيا" بزمان طويل كانت الحكايا تروى فى أفريقيا عن الأسود الحكيمة، والثعابين الماكرة، وكيف بدأ العالم. وتناقل الرواة هذه الحكايا شفاهة، مجسدين بذلك أفكارًا عن الأخلاق والطبيعة البشرية والثقافات التى جاءت منها الحكايا. وعلى خلاف مجموعات حكايا الجنيات والخرافات والأساطير الأوروبية، المنتشرة عالميا، فإن تصنيفات الحكايا الشعبية الأفريقية لم تنل اهتمام التيار الرئيسي، خارج أفريقيا، إلا مؤخرًا (Lee , 2003 : 1)

١٣- يتناغم هذا المفهوم مع فكرة ديليوز وغواتارى عن "الزنبور والسحلبية" وهو مجاز عن قارئ الكتاب (١٩٨٧ : ١٠-١) انظر أيضا كوردس سيلبين ٢٠٠٩ : ٣٢.

١٤- هذه الفقرة تأخذ عن مناقشات حول نظريات ما قبل النظرية والمرحلة الوسيطة عند روزنو ١٩٨٠ : ١٢٦ وميرتون ١٩٦٧ : ٣٩ على التوالى.

١٥- قدم منظر سياسى محترم لطلاب السنة الأولى بالدراسات العليا للعلوم السياسية توقعات عن المناهج ذات الصلة فى موجز متقن. فبعد أن مر بهم عبر العلوم الاجتماعية، على نحو مفيد، بأكثر من معنى، أوضح لهم أن "السؤال الأوسع انتشارًا بين ما طرحه المؤرخون على المستوى النظرى هو "وماذا حدث بعد ذلك؟" انتهينا من التاريخ.

١٦- استخدامنا للتاريخ كبيانات واعتمادنا على ما يمدنا به من سرديات هما محل معالجة جادة وإن كان ذلك برؤية بالغة الضيق عند بوته ٢٠٠٢.

١٧- حذر ستيفن جاى غولد (١٩٨١ : ٢١ -٢) من أن "الأنشطة ذات الجذر الاجتماعى" مثل العلم، غالبا ما تعكس أن "الحقائق ليست نقية أو شذرات معلوماتية محصنة من التلاعب؛ والثقافة تؤثر أيضا على ما نراه وكيف نراه.

١٨- يضيف فولى أن "هناك أدلة كافية على أننا لا نملك القدرة على الإدراك الدقيق لدوافعنا نحن" وهو يستشهد بما جاء عند نيسبت وويلسون ١٩٧٧.

١٩- تأثر هذا القسم بمناقشات مع الدارسين فى دورة السلام والعنف الدوليين فى جامعة ساوث ويسترن حول كراوفورد (٢٠٠٠).

٢٠- فى نظام AT ، مثلاً، فإن سندريللا هى النمط ٥١٠ a وتشمل مكونات S31 (زوجة الأب القاسية) و L55 (البطلة بنت الزوج) D10501، (ملابس أنتجت بالسحر) انظر آرنى ١٩٩٥. ويرافق هذا، بشكل ما، مجلدات طومسون السبعة ١٩٥٥ – ٥٨ ولمن يشوقه الموضوع فهناك أيضًا آشليمان ١٩٨٧.

٢١- يشير بيشوب إلى عبارة ماركس وانغلز الواردة فى البيان (المانيفستو- المترجم) الشيوعى والمستخدمة لوصف الرؤية الشيوعية المتسقة التى تناسبه أو تناسبها لتولى القيادة (Marx and Eugels, 1978 : 494)

٢٢- كانت هناك اختبارات فى رقصة الرقة للسياسيين الجامايكيين (waters 1985 p King, 1998) ورقصة كاليبسو فى شرق الكاريبى (Regis, 1999) ومصارعة الكوريدوس فى الولايات المتحدة (Dorsey, 2006) ورقصة الروك "لوى .. لوى" فى الولايات المتحدة (Marsh, 1992)

٢٣- كان بايو، كما يثبت هورجز (١٩٨٦ : ١٦٧ – ٧٢) على الأرجح طاقمًا غارقًا مؤلفًا من رجل واحد وهو ما لا شك فى أنه يفسر بعض العلاقات الإقليمية. وإذ أجبر على الخروج إلى المنفى بعد أن دمر الفاشيون الجمهورية الإسبانية فى ١٩٣٩، فقد راح يدرب من بقى حيا من الساندينيستا فى أربعينيات القرن الماضى فى كوستاريكا، وكذلك أفرادًا من الفيلق الكاريبى النبيل السيئ الحظ، وكل هؤلاء مجموعة من المحاربين التقدميين المصممين على إطاحة الطغاة فى المنطقة. وقد أبحروا لمحاربة سوموزا فى

نيكاراغوا فى ١٩٤٨ ومحاربة تروجيللو فى الدومينيكان فى ١٩٤٩ (انظر Ameringer, 1974) وبعد ذلك درب بايو المنفيين إلى المكسيك من أنصار كاسترو الكوبيين. وكان "النجم" بين تلاميذه تشى غيفارا. وفى كوبا ساعد بايو وغيفارا على تدريب آلاف آخرين من مختلف أنحاء العالم، بينهم جيل جديد من المنفيين من نيكاراغوا، فنقلوا إليهم الدروس من إسبانيا وساندينو وخبرات غيفارا فى ١٩٥٤ مع تدمير الولايات المتحدة للديمقراطية فى غواتيمالا، والخبرة الكوبية والعلاقات هى عبر الزمن وداخله، عبر الحدود الثقافية وداخلها.

٢٤- أخبرنى مناضل من الجبهة الساندنيستية للتحرر الوطنى حكاية تدور وقائعها فى السنوات الأولى من نضال رجل عجوز يقود بعض الثوريين المنهكين واليائسين إلى حيث دفن بنادق من ثلاثينيات القرن العشرين من أجلهم، فيقف أمامهم ويعلن أنه "تحت أمرهم" وقد كان المناضل صغير السن ولا يمكن أن يكون شهد ذلك لكنه روى الحكاية كما تروى المأثورات الدينية. ورغم أن القصة مرجحة، فهى أيضا حكاية تسعد راويها، على عدة مستويات.

٢٥- ليست أعمال بنجامين ذاتها غريبة عن هذه المشكلة، وهو أمر تم إبرازه مؤخرًا مع نشر كثير من أعماله فى ترجمات جديدة والمقارنات المحتمة مع كم العمل الصغير نسبيًا الذى كان متاحًا فى ترجمته. وقد ترجمت إحدى أشهر مقالاته، أولا، باعتبارها "أطروحات حول فلسفة التاريخ" (Benjamin, 2003 : 389 ; 400) والأمثلة الأخرى المرتبطة، ببساطة، بهذه المقالة تشمل ترجمة المصطلح Styillstellung فى الأطروحة ١٦ وهو ما يترجم باعتباره "توقيف" فى النسختين المشار إليهما (Benjamin 1968 : 254 , 2003 : 396) ولكنها "ساعة الصفر" عند ريدموند (Benjamin, 1974) الذى يعد تفسيره لنسخته أمرًا ينطوى على رؤى ساحرة لعقل المترجم؛ أما

Jetztzeit فى الأطروحة ١٤ فيترجمها زوهن إلى "الراهن" ، (Benjamin 1968 : 261) موضحا أن: "بنجامين يقولها ويشير بعلامات التنصيص إلى أنه لا يقصد بها مقابل الحاضر. فهو يفكر بوضوح فى nunc stans الصوفية والتى يفيد فيهما على أنها نوع من "الآن" اللا زمنية والأزلية ولكن لاحظ أن إيلاند جننغز يذكرها باعتبارها "زمن - الآن" (٢٠٠٣ -: ٣٩٥). وريدموند (Benjamin ، 1974) باعتبارها "هنا - و - الآن" فى حين يترجمها كاتب سيرة بنجامين وهولون سبنسر باعتبارها "زمن الآن" (Benjamin, 2008) .

٢٦- سرقت هذه الفكرة، مع بعض التحوير، من غيرتز (٢٣ : ٢٠٠٠).

٢٧- فى وقت الكتابة، ظهر فيلم آخر عن تشى وتبقى قمصانه ووجهه كلية الحضور بين عشاق الموضة والموسيقى والميديا وكذلك الطلاب، وعلى مايوهات بيكينى وجوارب بل وعرائس ضرب النار. وإذا استبعدنا الثقافة الشعبية، والرغبة فى التظاهر، فإن الإشارات شبه الطقسية إليه تبقى أمرًا معتادًا بين الراديكاليين والثوريين فى كل القارات. (انظر أيضًا Casey, 2009).

٢٨- كنية تطلق أيضا فى مناسبات مختلفة على بيير موليل، وهو ثورى واصل نضال لومومبا فى جمهورية الكونغو الديمقراطية الأولى، وعلى سامورا ماتشيل فى موزمبيق، وتوماس سانكارا فى بوركينافاسو، وربما كان هناك آخرون حملوا هذه الكنية ومن المؤكد أن كثيرين غيرهم سيحملونها.

٢٩- كما يفعل آخرون بوضوح والمناقشة التالية مدينة للمشاركين فى مناقشة ١٩٩٧ Amsoc التى دفعت إليها مسودة تيللى حول "مشكلة الحكايا" (Tilly, 2002) وأنا أشكر فرانسيسكابوليتا، بشكل خاص، لأنها أطلعتنى على الملف الكامل الذى أعدته عن المناقشة وأشركتنى فى مداولاتها مع تيللى.

٣٠- الوصف هنا يستمد الكثير من ليفى شتراوس (١٧: ١٩٦٦) وعلى الصفحة ذاتها يلاحظ المؤلف أن كلمة "الملفق" **Bricoleur** ليس لها مقابل دقيق فى الإنجليزية. فهو شخص يؤدى المهام الغريبة وهو "بتاع كله" أو مهنى من نوع "اعمل كل شيء بنفسك"، ولكن النص يوضح أنه يختلف عن المقصود بـ "الحاذق" المتعدد المهارات. انظر أيضا إشارة إستر إلى المصطلح (٧٩١: ٢٠٠٦).

٣١- العبارة المرتبطة، كما هو شائع، بالناشط الأمريكى من أصل أفريقى مالكولم إكس "بكل وسيلة يلزم استخدامها" هى، فيما يبدو، إعادة صياغة من عبارة لهاملت، عند شكسبير (**Protz, 1964 : 2**) ومن الواضح أنها إستراتيجية تبناها ملايين الناس لآلاف السنين فى مواجهة القمع، والاضطهاد، وغياب العدل الاجتماعى.

٣٢- هارالد ويدرا، فى اتصال شخصى، مايو ٢٠٠٩.

٣٣- هو يستشهد هنا بالنقطة الواسعة الانتشار التى تعود إلى بارت، والتى تقول إن السردية "هى ببساطة موجودة كالحياة نفسها.. عالمية، عابرة للقوميات، عابرة للثقافات" (١٩٧٧: ٧٩) وإن كان يقلب العبارة المستشهد بها؛ فهى فى الحقيقة: "السردية عالمية، متجاوزة للتاريخ ومتجاوزة للثقافات: إنها ببساطة موجودة كالحياة نفسها". وهذا أيضا عن بارتز (١٩٨٢: ٢٥١ – ٩٥) وعند بارثز (١٩٩٦ : ٤٥ – ٦٠) وتكاد تكون هناك نسخة مماثلة لمقالة هوايت فى هوايت (١٩٨٧ : ١ – ٢٥) .

٣٤- لا يشير هوايت إلى أصل ما اقتطفه من بارت، وهو (١٩٧٧ : ١٢١) .

٣٥- يقوم تفكيرى هنا على ما أخذته عمّا ادعاه سميث من أنه "بالنسبة لأى سردية معينة، فلا توجد قصة أساسية واحدة تقوم عليها، ولكن هنا على

الأرجح عدد غير محدود من السرديات الأخرى التى يمكن أن تبنى كاستجابة لها أو يتصور أنها مرتبطة بها" فليست هناك فقط "نسخ منها (مثلا، ترجمات، اقتباسات، اختصارات، صيغ منتقاة منها) ولكن هذه الإعادات أيضا التى نسميها" موجز الحبكة "تفسيرات" وأحيانا "الحكايا الأساسية ليست أساسية أكثر من غيرها" وبالنسبة لأى سردية، هناك دائما "حكايا أساسية متعددة يمكن بناؤها" وتلك التى نبنيها تعكس ما لدينا من "افتراضات وأغراض" وهو ما "يخلق تراتبيات الأهمية والمركزية "وينتهى بتقرير ما هى الحكاية الأساسية"؛ الشكل والملامح فى أى "نسخة" ستكون خاضعة لأمور من بينها الدوافع الخاصة التى استلتها والاهتمامات والوظائف الخاصة التى صممت لخدمتها وأخيرا ففى كل مجموعة من السرديات.. هناك عدد غير محدود من العلاقات الممكن إدراكها (smith, 1981 : 217 – 18).

٣٦- هذا متأثر بوارشال ١٩٩٨.

٣٧- من أجل صورة مختلفة محفزة للفكر ومتحدية، من هذه الفكرة، (انظر هاراواى ١٩٩١).

الفصل الثالث

١- كانت هناك فورة مصغرة فى البحث عن النسخ "الأصلية" من هذه الحكايا أو إعادة تخيلها. وإحدى أبكرها (وأفضلها) من السبعينيات هى محاولة زايبس ١٩٨٩، ومن الأمثلة الممتعة فيها مجموعة حكايا الجنيات فى ميرسيسايد (١٩٨٩) ورؤيتها الذكية حول سنوهوايت باعتبارها ناشطة راديكالية وثورية ملتزمة.

٢- ثارت مؤخرا مناظرة بين بعض الدارسين لحكايا الجنيات حول ما إذا كانت "حكايا شعبية حقا، فى الأصل، أم مخزونا للحكمة الشعبية والتراث الشفاهى"، وانتهت إلى أيدى عدد من المصنفين فى القرن التاسع عشر، أم أنها بالأحرى نتاجات أدبية مصنوعة وبالغة التكلف، تم مثل البلوجينز، لتؤدى الغرض (غوبنيك ٢٠٠٢ : ١٣٦ مشيرا إلى بوتيغايمر ٢٠٠٢ فيما يتعلق بما هو "مصنوع ومتكلف" وتتر ٢٠٠٢ فيما يخص الأولى، ملاحظا تقبلها "فكرة أن حكايا الجنيات تمثل خطا طويلا من الفن العامى.. وحكاياه").

٣- من الصعب إعطاء أرقام موثوقة فى أى من الحالتين، بسبب المناقشات العميقة حول ما يمثل أساسا "حكاية سندريلا" وتجد عرضا موجزا رائعا عند ويندلنغ ١٩٩٧.

٤- يمكن التعرف دون عناء على نسخة كتبت فى منتصف القرن التاسع فى الصين، رغم أن جذورها تعود، فيما يبدو، إلى ما قبل ذلك بثلاثمائة سنة. انظر جيمسون ١٩٨٢ : ٧٤ - ٥ ، ٧٧ - ٩ أو هاينر ٢٠٠٧ الذى يقترح، بقدر أكبر من التحديد، مرحلة الشيوع ٨٥٠ - ٦٠ وقد كانت هناك نسخ أقل شهرة بموتيفات يمكن التعرف عليها "قبل ألفى سنة" فى البلقان

(Ruth, 1982 : 136) ولدى داندیس ۱۹۸۲ وفرة من المراجع للنسخ المحلية / "التقليدية" من سندريللا عبر العالم. وبما يتجاوز الحالات الوفيرة جيدة التوثيق فى كل بلد أوروبى وفى جميع ثقافاتها وثقافاتها الفرعية، تقريبا، فالنسخ تشمل: الهند (ص ٤٠ - ٦٥ - ٢٩٥) الصين (ص ٧١) "البحار الجنوبية" (ص ٧٨) آنام (ص ۸۰) مصر (ص ۸۳) مونغوليا (ص ۸۳) التبت (ص ٨٣) اليابان (ص ١١٧) جنوب الجزيرة العربية (ص ۱۱۹) آسيا الوسطى وبيزنطة (ص ۱۲۳) أفريقيا (ص ١٤٨) توغو (ص ١٥٨) كاميرون (ص ١٥٨) نيجيريا (ص ١٥٨) موريشيوس (ص ١٥٩) جنوب أفريقيا (ص ١٥٩) مارتينيك (ص ١٦٠) مالاغاش (ص ١٦٠) أنغولا (ص ١٦١) البرازيل (ص ١٦١) مراكش (ص ١٦٤) جاوة (ص ١٦٩) زونى فى أمريكا الشمالية (ص ١٦٩) إيران (ص ۱۸۱) وأفغانستان (ص ۱۸۱) ؛ ويضيف هاينر (٢٠٠٧) فيتنام و"هنود الغونكوين" ويقترح براون (۱۹۹۷) الفلبين وغرب أفريقيا وتايلاند وكوريا وزيمبابوى والزولو والأوجويبوا.

٥- نسترشد فى هذا التمييز، جزئيا، بما قاله جاربوزا عما هو "بين الشعبى والرسمى" والذى "يوجد فى الحقل البحثى ذاته" (٢٠٠٥ : ١٨٩ n3) .

٦- ولكن انظر تيللى: "الشخصيات الدرامية فى الصراع السياسى والعمل الجمعى والثورات تغيرت على نحو جوهرى بين (١٩٩٥ : ٢٨)" ١٤٩٢ ، ١٩٩٢.

٧- ربما لا تكون مفيدة وبالتالى فهو يحذرنا من أن "التفكير الأسطورى.. هو حبيس مسارات وخبرات لا يمل ترتيبها وإعادة ترتيبها فى سعيه لأن يجد لها معنى. لكنه يقوم بدور المحرر أيضا". (Levi – Strauss, 1966 : 22)

٨- بالنسبة لدوتى (١٩٩٦ : ٤٥٠) "تستبق الخرافات المستقبل، وترشد فهمنا للماضى والمستقبل وللتقليدى وللمتوقع".

٩- انظر حول هذه النقطة سيلبين (١٩٩٨ p 1999 : 80) يمكن قراءة مفاهيم علم الاجتماع هى الأخرى باعتبارها خرافات.

١٠- أجمجم. لكنه يواصل الكلام قائلاً "إن هناك مستوى وسيطاً. الميثولوجيا ستاتيكية ونحن نجد العناصر الميثولوجية ذاتها يتم تجميعها المرة بعد الأخرى، لكنها نظام مغلق؛ لنقل إن هذا يضعها فى تناقض مع التاريخ الذى هو، بالطبع، نظام مفتوح".

١١- فيوريه (١٩٨١ : ٣) يزعم أن "النظام القديم يعتقد أن له نهاية وليست له بداية، والثورية لها مولد وليست لها نهاية" وهذه مسألة على جانب من الأهمية وسنعود إليها.

١٢- ربما جاء بعضها من بلاد العرب أو بلاد فارس أو العكس.

١٣- يحيل روشماير (٢٠٠٦ : ٢٤٨) إلى سوريل وباريتو، ويذكرنا بأن المذاهب والنظريات الاجتماعية ربما تكون لها "قوتها الاجتماعية العظمى.. باعتبارها خرافة".

١٤-هناك حشد مذهل من الصياغات لما يمكن تجميعه، دون رباط قوى، تحت عنوان "الذاكرة الفردية" وتذكر هالبرن (٢٠٠٨ : ١٩ – ٢٠): "الذاكرة المعلنة" (المعروفة أيضًا باسم "الذاكرة المكشوفة" أو "ذاكرة ذات سجل" وتشمل الذاكرة "الفقارية" و"اللفظية") المعنية بـــ "حقائق وأحداث وأشخاص وأفكـــار"؛ "الذاكرة الضمنية" (المعروفة أيضًا باسم "ذاكرة بدون سجل" أو "الذاكرة غير المعلنة" التى تشمل "الذاكرة الإجرائية") من أجل "الفعل" الذاكرة العاملة المتصلة بـــ "الذاكرة قصيرة المدى" وتلاحظ أنها تطرح طريقة مختلفة تمامًا للتفكير فى الذاكرة على أساس تسلسل زمنى، ما يدفع بعض العلماء للإحالة أيضًا إلى "الذاكرة طويلة

المدى" و"الذاكرة الحسية" (انظر Assmann, 2006 : 212; 13) حول الذاكرة "الإجرائية" و"اللفظية" و"الفقارية".

١٥- استرشد هنا، إلى حد ما، بأعمال زور(١٩٩٨ : ١٩) "الكونى" بمعنى أن "كل الكائنـــات البشرية لديها الدينـــاميـــات النفسية ذاتها ومن المنطقى أن هذه الديناميات تتبع نماذج يمكن توقعها فى مواجهة محفزات خارجية معينة (مثل العنف البالغ).

١٦- أوجه الشكر إلى هارالد ويدرا لإشارته إلى هذا.

١٧- مواصلاً الأخذ عن فينترس وويكهام (٢٦ : ١٩٩٢) فإن لى (١٤٢:٢٠٠٧) يلاحظ أنه، وكما قلنا هنا مرارًا فـــ "مسألة ما إذا كنا نعتبر هذه الذكريات صحيحة تاريخيًا سوف يتبين غالبًا أنها أقل أهمية من مسألة ما إذا كانوا يعتبرون أن ذكرياتهم كانت صحيحة".

١٨- "دراسة للنصوص الثقافية باعتبارها مخزونات للمشاعر والعواطف المرموز إليها ليس فقط فى محتوى النصوص ولكن أيضًا فى الممارسات التى تحيط بإنتاجها واستقبالها" .(Cvetkovitch , 2003 : 7)

١٩- الحل، برأيها، هو استبدال ذلك بمصطلحات أكثر تحديدًا مثل "الذاكرة الثقافية" و"السياسية" و"الاجتماعية". (Assmann, 2006 : 222).

٢٠- من أقدم عصور التاريخ المدون فإن الناس، برأى بلامب (١٩٧٠ : ١١) "استخدموا الماضى بطرائق متباينة لتفسير أصول الحياة البشرية وأغراضها، ولإضفاء الشرعية على المؤسسات الحكومية، ولإعطاء صلاحية للبنية الطبقية، ولضرب المثل الأخلاقى، ولبعث الحياة فى عملياتهم الثقافية والتعليمية، ولتوضيح المستقبل، ولإضفاء شعور بالمصير على كل من الحياة الفردية والوطنية".

٢١- السطر المشهور عن أورويل والذى عادة ما يستشهد به فى غير محله هو: "من يتحكم بالماضى يتحكم بالمستقبل، ومن يتحكم بالحاضر يتحكم بالماضي" (١٩٩٢ : ٢٦٠) انظر أيضا فكرة أن "التاريخ تعاد كتابته دون انقطاع" وأن "أحداث الماضي" تفتقد أى وجود موضوعى، لكنها تعيش فقط فى السجلات المكتوبة وفى الذاكرة البشرية (١٩٩٢ : ٢٢٢) .

٢٢- ما أصبح يعرف باسم حالة ستول - مينكى هو ما نتذكر هنا فمن ناحية هناك شهادة ريغوبرتا مينكى الآسرة "أنا ريغوبرتا مينكي" (١٩٧٨) ومن جهة أخرى محاولات ستول المثيرة للجدل (٢٠٠١) لاستكشاف - ويقول البعض لفضح - تجاربها الشخصية. ويبدو هذا آسرا ومقلقا بدرجة أكبر لأن الشهادة تعرف بأنها، بالأساس، وصف شخصى كثيف يعكس خبرات مجتمعية؛ وكما كتبت هي فإن "هذه هى شهادتى. لم أتعلم من كتاب ولم أتعلم وحدى.. خبرتى الشخصية هى واقع شعب بأكمله" (Menchu, 1987 : 1) .

٢٣- يبقى أحد أهم استخدامات الذاكرة هو عمل بروست الروائى والذكريات التى تستعيدها واحدة تدعى مادلين، انظر بروست (١٩٨١). والعنوان الأصلى بالفرنسية، والذى شاعت ترجمته إلى "البحث عن الزمن الضائع" هو أكثر إلهاما؛ انظر بروست (١٩٥٤).

٢٤- هذا يتناقض مع مخاوف أسمان المعقولة من هيمنة الإمبريالية على (ذاكرة جمعية) إقصائية واحدة (٢١٠ : ٢٠٠٦).

٢٥- تضفى السياقات المختلفة على أى حالة معنى، وفى أى حالة محددة تكمن سياقات عديدة محتملة، والعبارة النسوية "السياق هو الكل" تستحق أن نتذكرها، إذا شئتم، بخصوص الذاكرة.

٢٦- زير يستشهد بليفيت (٢٢ : ١٩٨٩): تصاغ التعبيرات عن العاطفة، وعن النفس وعن الذاتية، صياغة ثقافية وهى ضاربة بجذورها فى المخزون اللغوى، كما يستشهد بأعمالها السابقة.

٢٧- إضافة إلى ذلك، يلاحظ ديليوز وغواتارى (١١ : ١٩٨٧) أن "المماثلة Mimcry"(*) هو مفهوم بالغ السوء، لأنه يعتمد على المنطق الثنائى لوصف الظواهر ذات الطبيعة المختلفة تمامًا.

٢٨- يستعير غينز (مسترشدًا بتوسيغ ١٩٩٣) من فوكو (١٩٢٣) لإعادة القبول بالمحاكاة "كطريق للمعرفة".

٢٩- قد يكون الشكل الثالث هو المحاكاة فى الثورة المضادة: وانظر بعين الاعتبار إلى ما يلى، مما يحمل شبهًا محيّرًا بحكاية الباستيل الكلاسيكية التى وردت فى الفصل الأول. فى ١٩٠٥ يفترض أن وزير داخلية روسيا بوليجين "اقترح تقديم تنازلات سياسية بهدف تهدئة البلاد. ودهش [القيصر] نيقولا ورد على الوزير قائلا: قد يخيل للمرء أنك خائف من احتمال اندلاع ثورة "ورد الوزير" يا صاحب الجلالة.. الثورة بدأت بالفعل (**Figes , 1996 : 186**)".

٣٠- يطرح كوهين خمسة أشكال لما يشير إليه بمصطلح "الأسطرة" وذلك هو "اليومى"، وينبع من احتياطى الصور عن الماضى التى يعيش معها الناس، و"أسطرة السيرة الذاتية" و"الأسطرة فى الفنون". التى تتجسد عادة فى الأعمال الفنية والأضرحة والجداريات والنصب التذكارية وما شابه ذلك، و"الأسطرة التى نجدها فى الصحف والدوريات والكتب".

(*) هو تقليد ساخر يندرج تحت التمثيل الإيمائى – المترجم.

الفصل الرابع

١- كما لاحظنا فى الفصل الأول فهذا التلخيص الممتاز للطروحات الثورية الأساسية يرتبط بحركة مايكل مانلى شبه الراديكالية والابتكارية (فى ظروف شرق الكاريبى) فى أوائل سبعينيات القرن العشرين فى جامايكا، التى بلغت ذروتها فى الفوز الانتخابى فى ١٩٧٢ لحزب الشعب الوطنى. وبعد ذلك بعامين أعلن مانلى أن جامايكا دولة "اشتراكية ديمقراطية" ملتزمة بإعادة توزيع الثروة والاستقلال عن السيطرة الأجنبية. ويبدو من نافلة القول وصف ما جرى باعتباره ثورة، ولكن انظر فوران (٢٠٠٥ : ١٦٩)؛ وفوران وآخرين – تحت الطبع، وإذا كان رد فعل الولايات المتحدة المبالغ فيه يوحى بأن الموقف كان ثوريًا، فالقراءة الأكثر تعقلاً تعتبره تمردا أو "هوجة" شعبية ممن عزموا على تحسين ظروف حياتهم الاجتماعية فى مواجهة نظام سياسى قمعى على نحو متصاعد. انظر بانتون (١٩٩٣ : ٤١) والتحليل العميق عند فيرغسون (٢٩٥ : ١٩٩٩).

٢- ربما كان فى الأمر عنصر "سحرى" وفقًا للعبارة الساخرة والذكية من كابريرا إنفانتى أما العنصر المتطاير والشبحى فيبدو جديرًا بالاهتمام. ويبدو أن بنجامين (١٩٩٩ c : 479) يؤيد ذلك إذ يرى أن كتابة التاريخ تعنى أن نعطى الأيام بدنًا" بمعنى أن نعطيها أهميتها السطحية ومعناها العميق، معًا.

٣- ولكن انظر رفض ماركس (١٩٧٨ a : 595) الشهير للمستعار من "أسماء، وشعارات للمعارك، وأزياء" لأن "تقاليد كل الأجيال التى ماتت تلقى بثقلها كالكابوس على عقول الأحياء".

٤- لا أقصد هنا ما كان يقوله فوكو عن الأنساب وصياغاتها (الموروثة) للمقاومة بقدر ما أقصد فكرة هوكس عن توثيق "علم أنساب ثقافى للمقاومة" يساعدنا على أن نتعلم ونبنى "على أساس الإستراتيجيات الراهنة للمعارضة والمقاومة التى كانت فعالة فى الماضى وتساعد على التمكين فى الحاضر" (١٩٩٥ : ١٤٨) وهذا يتناغم مع ما تطرحه فيليب (١٩٩٨) التى تبدأ بشجرة أسرتها، ثم بالاعتماد على التراث الشفاهى، تنطلق سريعا ودون تسلسل زمنى، إلى الخارج لتلامس أنسابا أخرى مثل أسماء الأماكن، وموروثات الإمبراطوريات والفاتحين، وأعراق الشعوب وحركاتهم عبر الزمن، تراث المقاومة، تراث الصمت والتواريخ المضيعة، تراث الانتماء، والتاريخ الأفريقى.

٥- المصطلحات تستحق التعليق. كان يشار بـــ "الطريق الثالث" فى الفترة من الخمسينيات حتى السبعينيات فى القرن الماضي، إلى مركب الاشتراكية والرأسمالية الذى وقف بين ما كان يقرأ باعتباره الأيديولوجيتين الأمريكية والسوفييتية؛ وبعكس مصطلح القارات الثلاث فكرة التضامن بين شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والكاريبى. وقد نشأت حركة عدم الانحياز، بشكل غير مباشر، فى ١٩٥٥ عن قمة باندونغ المناهضة للكولونيالية وكانت قمة أفرو آسيوية.

٦- نار فى عقول الرجال هو عنوان دراسة بيلينغتون (١٩٨٠) كما يشير إليه باعتباره "أصول العقيدة الثورية" وهو ضرب من الكتابة يمكن تشخيصه على أنه تحليل للثورة مضاد لها، يركز على التالى: يعد زامويسكى ٢٠٠٠، ودير شميد ٢٠٠١ من الأفضل. ويبدو أنهما مشتركان فى الولع بما يتصورانه العقيدة الثورية التى يؤمن بها الأفراد الذين تسلطت على أفكارهم، أو الجماعات الصغيرة التى تتوارثها فى "تتابع رسولى" وإلى جانب ولعهما

بهذا فهما يتعاليان عليه ويشفقان على المؤمنين به (billington, 2000 : 3) وبرأيهما فهذا لا يسفر عن شيء سوى المذابح والاغتيالات والخيانة والموت والدمار. ومن يسلكون هذا السبيل هم بالأساس حمقى.

٧- خذ فى اعتبارك بيلينغتون: "جوهر العقيدة الثورية، وأى عقيدة أخرى، هو النار: تحول المادة العادية إلى شكل غير عادى، مقادير من الحرارة تغير فجأة ماهية المادة. إذا كنا لا نعرف ما هى النار، فنحن نعرف ماذا تفعل، إنها تحرق. تدمر الحياة وإن كانت تساندها أيضا كمصدر للحرارة والضوء – وفوق كل ذلك – الإبهار والإنسان الذى يشتغل بالنار من المحتم أن يلعب بها" (٥ : ١٩٨٠).

٨- المألوف هنا يرتبط بعقيدة كثير من البشر فى أماكن كثيرة الذين يتقون أنهم "يعرفون" الخطوط العريضة للحكاية. ويمكن أن تجد تفسيرا مقنعا لحكاية الخروج العبرانية كقصة ثورية عند والزر ١٩٨٥ وانظر أيضا دوفلو ٢٠٠٢.

٩- هذه الكلمة اللطيفة المنحوتة من كلمتين تلحم جماعة بالإنجليزية Group مع خلية (Miniscule, corpuscle) مشيرة بذلك إلى طائفة صغيرة جدًا، تكون سياسية فى العادة. وأول استخدام للفظ فى حدود علمى كان أثناء المسيرة الاحتجاجية فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ (Azenstarck, 2008).

١٠- هذا مقتطف من خطاب بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٦٠ نشر أصلاً بعنوان (مثل ملاك يهبط من السماء كالصاعقة: مسيرة ثورتنا"). ويشمل مقتطف آخر ما سبق مع "هذا هو السبب فى أنى.. لا أمل أبدا من مطالبتكم وحثكم.. على أن تجعلوا الروح الثورية تواصل تأججها، اعملوا على أن لا تخبو نار ثورتنا، أو تموت، ولو للحظة واحدة. تعالوا إذن وواصلوا النفخ فى النار المتوهجة للثورة، أيها الإخوة والأخوات، لنضج الحطب الذى يغذى شعلة

الثورة!!" انظر هيغنز (١١٥ : ١٩٦٣) وهذه هى النسخة التى استشهد بها ميردال (١٩٦٨ : ٣٧٥ n4)

١١- حتى ثورة ١٧٨٩ تكتسب جانبا كبيرًا من الأصالة المحيطة بما لحق بها، مما تلاها من أحداث شبه ثورية فى فرنسا فى ١٨٣٠ - ١٨٤٨ و ١٨٧١ ومن أحداث بقية أوروبا فى ١٨٤٨ وروسيا فى ١٩١٧.

١٢- يسأل الشاعر التحريضى آندريه كوندريسكو (١٩٩٦ : ٦) ماذا لو أن "تشى" بدلاً من أن يكون طويل الشعر ورومانسيًا بدرجة حادة، كان قبيحًا كما كان عندما أرسلت به الاستخبارات الكوبية ليبدأ ثورة جديدة فى بوليفيا؟ ماذا لو أن تشى كان مقرفا من الناحية البدنية؟ هل "الجثة الجميلة" ضرورية؟

١٣- يضيف المرء إلى هذا وصيته لأطفاله أن "أجمل خصال الثورى قدرته على الشعور بأى ظلم ارتكب بحق أى أحد، فى أى مكان فى العالم (Guevara, 1987; 371)

١٤- مفهوم "الممكنية" الجميل يعود إلى دارنتون (١٩٩٠)؛ وقد حاول استخدامه سيلبين ٢٠٠٩ b؛ فى حين يعتبر راباس ١٩٩٧ أن الإمكانات متأصلة فى المستحيل.

١٥- هنا إشارة إلى ليوبولد فون رانكه وزعمه بأن واجب المؤرخ هو تقديم الماضى "كما كان حقًا" (١٨٨٧) وهو زعم له تأثير قوى. وليس كل واحد مسلمًا بهذا الرأى ويشعر البعض أنه أسيئ فهمه، انظر مثلاً إيفرز ١٩٦٢.

١٦- يمكن أن يقول دانييل "توحيدى" (٥٣ : ١٩٩٦) وهو يبدى ملاحظة ذكية بقوله إن "التاريخ خطاب نظرى هو بالأساس.. تبسيطى. فالتسلسل الزمنى ومنطق العلة والمعلول يعتمدانه. وأكثر من ذلك فهذا النوع من التاريخ. نبت ثقافى وحضارى أوروبى على نحو وإلى درجة لا تتوفران فى جنوب

آسيا، خاصة جنوب آسيا الهندى" ثم يقول "إذا كانت الخرافة، كطريقة للوجود فى العالم تعددية فعلى أسس بنيوية فقط يكون احتمال دخولها فى علاقة تنافر مع التاريخ التبسيطى "الواضح التوجه" احتمالا أكبر من تنافرها مع تاريخ تعددى. فالتواريخ التعددية تجد من الأسهل عليها العيش داخل تعددية الخبرة المعيشية. والتاريخ التبسيطى أكثر ميلاً للتأكيد على استقلاله بكثير من الصخب، معلنا فى صوت عال ادعاءه الحصرى بامتلاك الحقيقة. وتنتهى حكايته بأن يصبح توحيديا (١٩٩٦ : ٥٢ ، ٥٣).

١٧- مواضينا – حواضرنا – مستقبلاتنا هى كلها سائلة على نحو مذهل (ومشحونة) بطرق نفضل غالبا ألاّ نفكر فيها. ورغم أفضل جهود ما بعد التنوير التى بذلها أولئك الموجودون فى الشمال / الغرب بمراكزهم المتقدمة الإمبريالية / النيوإمبريالية لقياسها وتقنينها، فالزمن يتميز بتمعجه وهو ينسج خيوطه داخلها وخارجها (كأن بعدين يكفيان للإمساك بالدينامية)، خاصة للأغلبية الساحقة التى لا "تروى" الزمن بذات الطريقة المتبعة فى الشمال / الغرب. فعلى سبيل المثال يعيش الملايين فى زمن ليس معينًا (نسبيا) بالكرونولوجى (Chronolgoical) المحسوب بالساعة وبالتقويم – المترجم) بقدر ما هو مدين بشكل عميق للميثولوجى (Mythological الأسطورى – المترجم).

١٨- هناك آراء ذكية بعد حداثية تؤكد العكس. ومن أكثرها تحريضا على التفكير آراء بودريارد (١٩٩٤ : ٢٣ – ٤) الذى يزعم أن "الحقيقة أننا لم نعد نصنع التاريخ، لقد تصالحنا معه وصرنا نحميه كأنه تحفة فى خطر. تغير الزمن. واليوم عندنا رؤية للثورة هى دينية تماما فى طريقة إشارتها إلى حقوق الإنسان – ليست حتى رؤية حنين إلى ماض، وبدلا من ذلك فهى رؤية أعيد تدويرها بألفاظ بعد حداثية تدعو للراحة. رؤية تسمح باستئصال

سان جوست من قاموس الثورة، إنها (بلاغة بولغ فى تقديرها) برأى فرانسوا فيوريه، المؤرخ الكامل لتوبة الإرهاب والمجد".

١٩- رغم قلة الملاحظات بشأنه فى الغرب (وفى روسيا) فقد كان التدخل من قبل الحلفاء إبان الحرب الأولى واحدًا من أهم صور العمليات العسكرية متعددة الجنسية فى المائة سنة الأخيرة. إذ ظلت قوات مؤلفة من عشرات الآلاف من الجنود من كندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وإيطاليا واليابان وبولندا وغيرها تساند جهود الجيوش البيضاء العديدة لمدة ثلاث سنوات لوقف الثورة. انظر ويليت ٢٠٠٣ أو مور ٢٠٠٢ أو ساول ٢٠٠١ أو برادلى ١٩٨٤ أو غولدهين ست ١٩٧٨ أو سوتنيهام ١٩٦٧.

٢٠- يبدو أن هنا إشارة إلى أن المفهوم يبدأ مع ماكيافيللى ١٩٨٥ ويظهر عند سبينوزا ١٩٥٥ وهوبز ١٩٩٨. ويعد كالينيكوس (٢٠٠٧، ١٥٩ – ٦٢) انعكاسا يستحق الاهتمام.

٢١- مصطلح "الأمد الطويل" الذى صاغه فيردناند بروديل (وغيره فى مدرسة الحوليات) كان يقصد به الإشارة إلى موجة تاريخية ذات طول عظيم، قد يمتد قرونا، أو يزيد. وقد دعا بروديل إلى دراسة مظاهر الحياة اليومية التى اعتقد أنها تنشئ إمكانية التحول الاجتماعى – السياسى – وهذا يشمل الطقس، والجغرافيا، والبيولوجيا، والتكنولوجيا، ويتمشى مع ذلك ما يأكله الناس وما يكتبونه، وأين وكيف يسافرون (ولماذا). و"الأمد الطويل" عند بروديل هو واحد من ثلاث زمانيات تتفاعل ديناميكيا مع تشكل أحداث التاريخ؛ أما الأخريان فهما "الوقائع" أو الأحداث الدراماتيكية القصيرة العمر مع أفعال "عظماء الرجال" وترتبط بكل هذا "الدورات" الكبرى والطولى التى قد تستمر إلى ما يصل خمسين عاما، بروديل ١٩٧٩ موجز لأعماله.

١

٢٢- هذه الجمل القليلة الأخيرة تسخّر تيللى (١٩٨٤) وهنت (١٩٨٤) لأغراضى لأن هنت يتحدث بلغة الثورة الفرنسية فى حين أن تيللى يسعى لشرح نظريات التحول الاجتماعى.

٢٣- أكون مخطئا إن لم أسجل أن أوهاما "استشراقية" كهذه يمكن أن تجد نقيضها فى إضفاء الطابع الفتيشى (Fetish البدّى، وهو الشىء الذى ينسب إليه البدائى قدرة سحرية -- المترجم) والغرائبى على "الغرب" الأسطورى والموحد. وقد دفع إدوارد سعيد نفسه فى مقدمة تالية لكتابه بأنه لا مصطلح الشرق ولا مفهوم الغرب يتمتعان بأى استقرار معرفى؛ فكلاهما نتاج جهد إنسانى، جزء منه تأكيد للآخر، وجزء منه اعتراف به (٢٠٠٣ : xii)

٢٤- هناك، كما هو الحال دائما، طرق أخرى لتفسير هذا؛ فبالنظر إلى التحيزات الثقافية والتحليلية المتباينة والتى لا شك أنها تفعل فعلها، فهناك ما يشير إلى أن الشعوب المقموعة والمقهورة سوف تناضل لتحسين أحوالها.

٢٥- وهكذا فنحن نعيش فى زمن يطلب منا فيه أن نؤمن بأن هناك شعوبا لا تبالى أو أنها مستعدة للقبول بإتعاسها (Immesiration) لتكون لديهم الفرصة ليكونوا "مثلنا" (انظر، على سبيل المثال جونسون ١٩٩٢ وفيرغسون ٢٠٠٤ وفريدمان ٢٠٠٠) وبأن بعض الجماعات الدينية أو العرقية تبدو حياتهم أو حياة أطفالهم أرخص عندهم مما هى عند المسيحيين أو اليهود أو الهندوويين. ومن أبشع البدع ما أشاعه الأمريكيون أيام حرب فيتنام عن صناع السياسات ثم ترجموه وبثوه باقتدار بين السكان عبر الميديا (وفق دورهم باعتبارهم حراس الشعوب الأكثر قوة وحماتها) أن المحليين والمحرومين "يسترخصون الحياة". وهكذا فلا يجب أن نعتبر أن الموت عندهم هو مثل ما عندنا فى الشمال / الغرب فهو لا يجب أن يشغل أحدا، بنفس الطريقة، والحياة "هناك" شىء يتعين احتماله، فهى سلسلة من الصعاب

لا تعترضها، فى الغالب، نوبات عالية من البهجة أو سقوط فى أعماق اليأس. وقد وجدنا ذلك، مرة أخرى، فى الولايات المتحدة ومناطق أخرى بالنسبة، مثلاً، إلى أفغانستان والشرق الأوسط.

٢٦- يعلن هيغونيه أن "هذه ليست وجهة النظر التى أعتنقها" (٨ : ١٩٩٨).

٢٧- تستفيد هذه الفقرة من أعمال تامى بوغريبينسكى، والتى لا يوجد إلا القليل منها، حتى الآن، بالإنجليزية، (انظر بوغريبينسكى ٢٠٠٧ a, 2007 b).

الفصل الخامس

١- تشير السابقة إلى "البدائى" أو "الأصلى" فيما تشير اللاحقة إلى "الصحيح".

٢- الحالات الأبرز خارج أوروبا كانت هبة "البرارى" فى ١٨٤٨ فى البرازيل فى ولاية بيرنامبوكو، وفى بعض الحالات كما فى تمرد ماتالى فى سرى لانكا، تبدو الصلات أقل وضوحًا ويقول هوبزبوم (١٩٩٦ a : 10) إن "التأثير المباشر يمكن تبينه.. بعد ذلك بعدة سنوات فى كولومبيا". وقد يكون المقصود بهذه الإحالة الحرب الأهلية الكولومبية (١٨٦٠ – ١٩٦٢) التى أسفرت عن قيام الولايات المتحدة الكولومبية لفترة وجيزة (١٨٦٣ – ١٨٨٦).

٣- يمكن اعتبار الاثنتين ومعهما مصر فى ١٩٥٢ وبيرو ١٩٦٨ على أساس أنهما "ثورتان من أعلى" وفقًا للصياغة المفيدة عند تريمبرغر (١٩٧٨).

٤- جاء هذا الوصف المحكم من ثيوسيديديس (١٠٤ – ١٩٥١): "تراعى إدارتها الكثرة وليست القلة؛ ولهذا سميت الديمقراطية، وإذا نظرنا إلى القوانين، فهى تؤمن المساواة العدلية للجميع فى منازعاتهم الخاصة، ولأنه ليس للموقع الاجتماعى اعتبار فالتقدم فى الحياة العامة يرجع إلى اشتهار الفرد بالقدرة؛ فالاعتبارات الطبقية غير مسموح لها بالتداخل مع الجدارة، ولا الفقر بدوره يقطع الطريق؛ إذا كان الرجل قادرًا على أن يخدم الدولة، فلن يحول دون ذلك أنه من النكرات. والحرية التى نتمتع بها فى نظام الحكومة تمتد أيضًا إلى حياتنا العادية.

٥- يضيف والزر (٧ : ١٩٨٥) أنه "لن يكون معنى يعتد به إذا حاول المرء أن يؤسس نظرية بناء على ما جاء فى الكتاب المقدس".

٦- مع استبعاد مسألة ما إذا كانت تستحق لقب "ثورة" أم لا فهناك مسألة "أمريكية" ففى حين أن اللفظ يمكن أن يشير إلى كل من يعيشون فى أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية، وهو يشير إلى ذلك بالفعل، فالقضية هى أنه طوال المئات القليلة الماضية من التاريخ فإن كلمتى "أمريكا" و"أمريكى" ارتبطتا بالولايات المتحدة وبمواطنيها. وبرغم شعورى العميق بعدم الارتياح فإنى سوف أنحنى أمام هذا الاستخدام هنا.

٧- يمكن أن يقال الأمر ذاته عن أماكن أخرى فى أوروبا وفى المستعمرات الإسبانية فى الأمريكتين .

٨- كما ذكرتنى زميلتى ليساليف، بكل لطف. فإن المصطلح "ليبرالى" لم يكن مستخدمًا آنذاك.

٩- ينسب برينتون (١٢١ : ١٩٦٥) هذه العبارة إلى "المعتدل الفرنسى فيرنيو" وينقل العبارة على النحو التالى: "الثورة مثل ساتورن (Saturn زحل أو ساتورن، إله الزراعة الرومانى -المترجم) تأكل أطفالها" والمقتطف كاملاً من الخطيب الجيروندى والقائد بين فيرنيو هو "أيها المواطنون، لدينا ما يجعلنا نخشى أن تكون الثورة، مثل ساتورن، سوف تأكل أطفالها واحدًا بعد الآخر، ولا يكون منها إلا ترسيخ الاستبداد والكوارث التى تأتى معه" . (Bowers, 1950; 340)

١٠- انظر هامش رقم ٢ بأعلاه.

١١- مصطلح Refolution الذى شاع ارتباطه بغارتون آشى (١٩٨٩ ; a . 1 1989 b: a) ويقصد به الإشارة إلى "الثورة اللا ثورية"؛ وهو أيضا الذى روج كلمة "Revorm" وحاول فى عدة مقالات ترويج "Revelection" و"Telerevolution" أيضا وأشار دين (١٩٩٠ : ٤٨) إلى العبارة بوصفها

"تعبير غارتون الجديد" المستخدم فى كل أعماله. وقبل حوالى عشرين عاماً، فى مايو ١٩٨٨، بعد أن تقابلا فى لقاء جمع مجدداً بين أعضاء لجنة التنسيق اللا عنفية كتب كوامى تيور(الذى ولد باسم ستوكلى كار مايكل) إلى مايك ميللر: "بالنسبة للثورة كنقيض للإصلاح فأنا مأخوذ بصياغتين جديدتين Refolution, ReVorm وكلاهما يشير ضمناً إلى الحاجة إلى تغير أساسى فى علاقات السلطة والملكية، لكنى لا أريد أن استبعد كل شىء. لأن بول بوت والطريق المضيء تركانى فى البرد (١٩٩٨ : ٣١).

١٢- أعطه قبلة عظيمة وكبيرة كتبها جورج "شاندو" مورتون، وأداها شانغرى لا، ١٩٦٥ تسجيلات العصفور الأحمر.

الفصل السادس

١- بالنسبة لهذه العبارة التى برزت بعد زمن من إطلاقها، انظر (روبرتس ١٩٧٦) ومن أجل بحث شيق يستكشف الأسباب التى تجعل من المرجح أنها قد لا تكون كل ما تبدو عليه، انظر (أوزوف ١٩٩٨).

٢- يشير دون إلى أنه "لم يكن يمارس الحكمة المبهرة، فما أراد التأكيد عليه كان الطبيعة الهائلة المتجاوزة للبشرى، أساسًا، والتى لا يمكن السيطرة عليها للقوى الفاعلة. الرجال، فحسب يصنعون تمردًا. أما الثورة فيجب أن نبحث عن أصولها على مستوى أوثق اتصالاً بالكون (٣ : ١٩٨٩) وبغض النظر عما يثيره هذا المقترب الطبيعى من عدم ارتياح، فهذا يبدو صحيحًا.

٣- صياغة سكوكبول المنظومية للثورة الاجتماعية هى أنها تحول سريع وجوهرى لحالة مجتمع وللأبنية الطبقية.. المصاحبة، وتساعد على هذا التحول، جزئيًا، تمردات ذات أساس طبقى من أسفل (٤ : ١٩٧٩).

٤- تذكر أن ماليا تنزل بثورة الصين إلى "إعادة" ولو "على المستوى المفهومى على الأقل" لثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا (٢٨٨ : ٢٠٠٦) رغم أن دون (٣٨٩ : ١٩٩٥) يشير إلى أنه برغم صعوبة "التشخيص المقنع (وبالتالى فالشرح أصعب) من أى ثورة تاريخية أخرى.. فهى تلوح على نحو شاحب باعتبارها ذات أهمية تاريخية وسياسية هائلة - ومن الممكن جدًا، بعد أن انتهت الحرب الباردة دون تفجير حرب نووية شاملة، أن تكون أهم حدث تاريخى مفرد فى القرن العشرين".

٥- السابق يشير إلى "البدائى" أو "الأصلى" فيما يشير اللاحق إلى "الصحيح".

٦- تتبع أى مصدر موثوق لهذا فهو أمر مراوغ، ربما لأنه لم يحدث أبدًا. انظر (جيتنغر ٢٠٠٧ : ٦١) وينسب أغلب الروايات هذه الملاحظة إلى شواين لاى، وبعضها إلى ماوتسى تونغ؛ ومعظم الروايات يشمل وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنغر وإن كان البعض يذكر السفير الفرنسى أندريه مالرو. والتقارير التى لا تذكر لنفسها مصادر هى تقارير كثيرة بينها تقارير من باحثين محترمين. انظر مثلاً ، (فيتيكيوتيس ٢٠٠٥ / ٠٦ : ٢٧؛ فيشير ٢٠٠٦ : ٣٤٠؛ أو آرون ٢٠٠٦ : ٤٤٣).

٧- يبدو الشعار الثورى المبكر "ملك واحد، قانون واحد، ميزان واحد، مقياس واحد" إشارة واضحة إلى الرغبة فى قواعد ونظم أبسط وأوضح.

٨- يشير برينتون (١٩٦٥ : ١٧٩٧) إلى أنه برغم ادعاءاتهم العولمية المتعلقة بتقويم جديد فإن هذا التقويم يصعب اعتباره ملائما فى كل مكان، وهو يقدم النمسا باعتبارها الدليل الأول.

٩- وفقًا لدارنتون "الآباء خاطبوا الأطفال بصيغة المفرد ورد هؤلاء بصيغة الجمع فصيغة المفرد استخدمها الأعلى فى مخاطبة الأدنى، والإنسان وهو يأمر الحيوان، والعشاق بعد القبلة الأولى، أو حصريًا تحت الملاءة. وعندما يبلغ متسلقو الجبال الفرنسيون ارتفاعا معينا، ينتقلون من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، كأن كل البشر يتساوون أمام ضخامة الطبيعة (١٩٩٠ : ٨).

١٠- فرانسوا - نويل غراشى بابوف، اتخذ اسمه المستعار تحية للمصلح الرومانى غراشى، ومؤامرة الأنداد هى أحد الهوامش القوية للثورة الفرنسية، وسوف تأتى مجددًا فى قصة الثورات المضيعة والمنسية (الفصل الثامن). ومانيفستو الأنداد "الذى كتبه سيلفان ماريشال هو وثيقة آسرة. وقد طرح بابوف مفهوم "الحزب الطليعى" قبل لينين بفترة طويلة، ولينين هو أشهر

الدعاة إليه (Pilbeam, 2001 : 34) ويمكن القول إنه حاول أن يكون أبا أول ثورة "شيوعية" فى العالم (انظر مثلاً: Dunn, 1989: 6).

١١- نسخة أشهر من "رأيت المستقبل.. وهو يعمل" غالبا ما استخدمها ستيفنز وتنسبها إليه وينتر (١٩٣٣) التى تزوجها.

١٢- كما يلاحظ على نطاق واسع، فإن هذه الأشهر تعكس التقويم اليوليوى الذى جاء نتيجة إصلاح يوليوس قيصر للتقويم الرومانى. وبعد الثورة عاد العمل بتقويم البابا غريغورى الثالث عشر، وهو التقويم الغريغورى، الصورة المعدلة من تقويم يوليوس قيصر، وكان معمولاً بتقويم غريغورى لفترة طويلة فى أوروبا.

١٣- يشير لينين هذه النقطة فى عديد من المواضع؛ وهى واضحة على نحو خاص فى "الشيوعية اليسارية -- مرض طفولى" وليست أوضح فى أى موضع منها هنا: القانون الأساسى للثورة، الذى أكدته كل الثورات، وخاصة الثورات الروسية الثلاث معًا فى القرن العشرين (١٩٨٠ b : 566).

١٤- يستفيد تيللى (١٩٧، ١٩٩٥، ٢٠٠٢) من لينين فى نسخته القوية عن الحالات الثورية. وفى تجاوب مع فكرة الإمكانات هنا يشير هوبزبوم إلى أن "الحالات الثورية" هى بالتالى تتعلق بالإمكانات وتحليلها ليس توقعيا، ويمضى إلى وصفها بأنها "أزمة قصيرة المدى داخل نظام ذى توترات طويلة المدى، وهو ما يطرح فرصًا مواتية لمحصلة ثورية" (Hobsbawm, 1986: 19).

١٥- يشير إلى أندرسون ١٩٩١ الذى بدوره يشير إلى هوبزبوم.

١٦- يمضى بيلينغتون (١٩٨٠ : ٣٤٦) إلى حد أن يزعم أن "الكومونة.. أمدت الثورة الروسية بذخائرها المقدسة".

١٧- كانت قيادة الثورة رسميا هى اللجنة الثورية لسوفييت بيتروغراد.

١٨- انظر الفصل الرابع حول التدخل الكبير المتعدد الجنسيات من قبل الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في الحرب الأهلية الروسية لصالح القوى المعادية للثورة.

١٩-النقطة الحرجة هنا هي القمع الوحشي لتمرد كروندشتات في ١٩٢١ (نوقش في الفصل الثامن) وهزيمة "المعارضة العمالية" وحظر الانقسامات في المؤتمر العاشر للحزب "بيج ٢٦ : ٢٠٠٣" الذي يستشهد بفيوريه (٩٠ : ١٩٩٩).

٢٠- شكرًا لهارالد ويدرا على هذه التذكرة المفيدة (اتصال شخصي في ٢٠٠٩).

٢١- ترسم أرندت صورة تشير، إذا كانت دقيقة، إلى أن أمورًا أقرب للحياة اليومية كانت تضغط على فكره أيضا: "عندما طلب منه أن يعبر في جملة واحدة عن جوهر ثورة أكتوبر وعن أهدافها أعطى [لينين] المعادلة الغريبة والتي طالما نسيت "الكهربة إضافة إلى السوفييتات" (١٩٦٥ : ٦) .

٢٢- يعتمد هذا القسم إلى حد كبير على سيلبين (a ٢٠٠٩) يدور جدل ساخن حول نجاحات وخيبات الثورة الكوبية، وربما بدرجة تفوق أي جدل حول أي حدث ثوري اجتماعي آخر ويعتمد جانب كبير من الكيفية التي ينظر بها المرء إلى الثورة الكوبية وإلى أحداثها، على امتداد خمسين عامًا، على نقطة البداية التي يتخذها والموقف الذي يقفه. ويمكن أن يبسط الأمر على أنه الفارق بين أن تكون نقطة الانطلاق هي ميامي أو مانغوا. لكن الأمر معقد أيضا ويعكس ما هو أكثر بكثير فيما يتصل بمصالح واهتمامات واستثمارات المحلل. وأنا مدرك تماما لتعقيدات موقفي (مواقفي) وللتفسيرات الكثيرة الممكنة للحقائق الكثيرة التي صنعت منها التجربة الثورية الكوبية.

٢٣- في الصياغة الأسرة التي طرحها تروتسكي، والمشار إليها في الفصل الأول، يختار الناس الثورة، فقط، عندما "لا يكون هناك مخرج آخر" (١٩٥٧: ١٦٧) انظر أيضا غودوين ٢٠٠١.

٢٤- على سبيل المثال، أرسل كاسترو فى ١٩٥٨ شقيقه راؤول من معقليهم فى سييرا مايسترا ليفتح جبهة ثانية فى سييرا كريستال. وبعد تأمين المنطقة عسكريا سارع الثوريون بمحو الأمية وبالبرامج الصحية وبرامج التعليم وتنظيم النقابات والإدارة المدنية والميليشيا والإصلاح الزراعى وكانوا حريصين على أن يبقوا متسقين مع المعايير الاجتماعية، وكان الوصول إليهم متاحا لحد كبير. وولّدوا لدى السكان درجة عالية من الالتزام. انظر (سيلبين ٨٢ : ١٩٩٩) الذى يعتمد على واحد من أفضل التقارير الوصفية الموجزة نيذه الجيود. جودسون (١٩٨٤ : ١٣٩ - ٤٩).

٢٥- أثناء الصراع على السلطة بدا أن المجتمع القديم مصمم على تدمير ذاته. وفى وقت الثورة، وكما يشير بيريز (٢٣٩ : ١٩٩٠) كانت البنى الاجتماعية فى حالة اضطراب، والنظام السياسى فى أزمة، والاقتصاد فى حالة كساد. وكانت المؤسسات القومية على مستويات متفاوتة من التفكك وسوء السمعة، ولأنها لم تكن تخدم كوبا على نحو جيد، إن كانت خدمتها أصلاً، فقد كانت "هشة" وعندما هزم الثوريون النظام القمعى القائم على المجتمع القديم، تهاوت أسس ذلك المجتمع، ببساطة، وما بقى من المؤسسات والناس المنتمين إليه كانوا موصومين ومتهمين بالتواطؤ.

٢٦- حسب بيريز ستيبل فإن فيديل كاسترو فى أول يناير ١٩٥٩ كان هو والجيش الثورى وحركة ٢٦ يوليو، بلا نزاع، محررى كوبا، وكل الكوبيين، تقريبًا، يساندونهم (٦٢ : ١٩٩٩).

٢٧- بينو ١٩٧٥ يقدم مناقشة تستحق الاهتمام لتأثير الثورة على اللغة الإسبانية فى كوبا.

٢٨- على سبيل المثال، ما أن حل عام ١٩٥٨ حتى كانت فى كوبا قوة ثورية يعتد بها فى سييرا إسكامبراى الوسطى، قوة المتمردين المشكلة من الإدارة الثورية التى سيطر عليها الطلبة، وكانت حركة ٢٦ يوليو نفسها، إلى حد ما، مزيجا غير محكم يستقبل، دائما، جماعات صغيرة متفرقة، ولم يكن ذلك دائما دون قتال.

٢٩- رغم أن باركر يلاحظ فى ذكاء أن النموذج السوفييتى طرح "نسخة من الحداثة" بديلة ومهمة فإن كوبا، كما يلاحظ، "أبقت على نوع من الاستقلال عن الحداثة من النمط السوفييتى وبدائليا" (١٩٩٩ : ٨٥، he cites 1993 : 74).

٣٠- عند فوران (٢٠٠٥ : ٦٢ - ٣) موجز مفيد للكيفية التى تخلت بها الولايات المتحدة عن باتيستا.

٣١- فى المقابل، انظر، تصورات بيريز - ستيبل المحركة للفكر (والذكية) والتى ترى أن "الثورة الكوبية لم تكن كسوفا للشمس" بل كانت ارتباكا مروريا "فى الحقيقة" (١٨٠ : ١٩٩٨).

٣٢- بدرجة أقل من الطيبة يضيف قائلاً: "روجت لنوع من المهرجان الثورى المبتذل" (Dumm, 1989 : 200).

٣٣- لابد من ملاحظة أن ثلاثتهم استلهموا العملية الثورية فى الصين بعمق والدروس التى تعلموها من ثورة ١٧٨٩ باعتبارهم ممتلكات كولونيالية فرنسية.

الفصل السابع

١- يقول "برغم أن التحرر يتحقق بأشكال متنوعة من الحكم" ويضيف قائلاً "فإن الحرية تكون ممكنة فقط بالشكل الجمهورى للحكم". (١٩٧٢ - ٩٠).

٢- فينلى (١٩٨٦ : ٥٤) يزعم أن أكثر ما يلفت النظر فى تاريخ العبودية هو غياب التمرد، وأنه على الأقل منذ "تمردات العبيد فى الجمهورية الرومانية، وهى الأعظم فى الزمن القديم" لم يظهر أى نوع من النضال الدائم من أجل الحرية.

٣- المقتطف بالكامل يقول "السبارتاكوس - وأعنى به النار والروح، أعنى النفس والفؤاد، أعنى الإرادة والفعل من أجل ثورة البروليتاريا. وسبارتاكوس - الذى أعنى به كل الاحتياج والاشتياق إلى السعادة، كل التصميم على معركة البروليتاريا ذات الوعى الطبقى. السبارتاكوس، الذى أعنى به الاشتراكية والثورة العالمية". ويضيف فيوتريل (٢٠٠١ : ٩٠) إن "فشل رابطة سبارتاكوس ومقتل ليبنخت ولوكسمبورغ أضافا المزيد إلى قيمة سبارتاكوس الأيقونة".

٤- تمرد الزعيم القبلى المحلى إنريكويللو فى ١٥١٩ فى جزيرة هسبانيولا ضد السلطات الكولونيالية. انظر (كاسترو ١٩٩١ a : xv).

٥- يقدر شوارتز (١٢١ : ١٩٩٤) الرقم بحوالى ١١٠٠٠ وهو يبقى رقما هائلاً.

٦- كان اختيارهم ملهما ويربط المدافعين عن بالماريس مع الراديكاليين الآخرين حول العالم وعبر الزمن، من المسعدة فى إسرائيل القديمة، إلى وثبة كاريب فى غرينادا، وأولئك الذين اختاروا الموت فى باريس فى الكومونة مفضلين إياه على العودة إلى الحياة التى كانوا مجبرين عليها أو التى سيجبرون عليها إن استسلموا.

٧- قاد تمرد آندرى شارل ديلوند وهو عبد من هاييتى استلهم ثورة هاييتى؛ وكان آندرى هو اسم صاحب المزرعة التى شهدت التمرد.

٨- رغم أن تمرد سيبوى هو أشهر هذه المحاولات فقد سبقته محاولات أخرى لا تزال معروفة فى المنطقة: كيرالا ١٨٠٥ - ١٨٠٠ ، ١٧٩٧ - ١٧٩٣ وفى ١٨٠٩ - ١٨٠٨ فى ترافنكور التى شهدت إعلان استقلال كوندارا وفى ١٨٣١ انتفاضة كول وفى ١٨٥٥ انتفاضة سانتال وتمرد كوتش ١٨٣٢ - ١٨١٦.

٩- يمثل تسمية الصراعات فى أيرلندا وتحديد تواريخ لها تحديا فانتفاضة عيد القيامة فى ١٩١٦ تشيع تسميتها تمردًا. وعصيان ١٩١٩ - ١٩٢١ غالبا ما يوصف بأنه حرب الاستقلال الأيرلندية. وقد شهدت فترة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ الحرب الأهلية الأيرلندية.

١٠- بالنظر إلى السابق، انظر (فاسر ستروم ٢٠٠٥ : ٥٩)، ضمن مراجع كثيرة، وهو يشبّه "مكانتها فى الميثولوجيا السياسية الصينية، تقريبًا، بما يماثل حزب الشاى فى بوسطن" وكذلك (بيرى ٢٠٠٥ : ٣٣). أما عن اللاحق فانظر (فاسر ستروم ٢٠٠٣ : ٢٦١).

١١- يبقى فانون ١٩٦٥ المرجع المؤكد بالنسبة للتحول السيكولوجى المتأصل فى نضالات التحرر القومى مثل هذا.

١٢- فى تقدير ماندا (٢٠٠١ : ١٠٠) فإنه "لوقت وجيز .. بدت لملايين من الناس فى أنحاء العالم بشيرًا بعالم جديد طالع يمنح فيه كل الناس الحق فى تقرير مصيرهم" وهو يعرف "هذه الفترة الصاخبة فى الشؤون الدولية" بأنها "تمتد تقريبا من إعلان النقاط الأربع عشرة فى يناير ١٩١٨ حتى توقيع معاهدة السلام فى فرساى فى يونيو ١٩١٩" "ويسميها "لحظة ويلسونية" باعتبار أن الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون مؤلف" النقاط الأربع عشرة

"جسد رؤية ووعدًا". ويضيف أن "رؤية نظام دولى يقوم على تقرير المصير صيغت من قبل زعماء عالميين آخرين أيضًا، أبرزهم رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج والزعيم السوفييتى فلاديمير لينين (٢٠٠١ : ١١٩).

١٣- فى حكاية مشهورة بين الناطقين بالإنجليزية فى الكاريبى وبين العسكريين البريطانيين (الغيركا، وهى قوات من كينيا وجنوب أفريقيا خاضوا كثيرًا من المعارك ومات كثيرون منهم من أجل بريطانيا) ففى ١٧ ديسمبر ١٩١٨ نظم ما يزيد عن خمسين من صف الضباط من الهند الغربية الذين كانوا ضمن القوات البريطانية "الرابطة الكاريبية". وكان الأعضاء من غوايانا البريطانية وحتى البهاما فى الشمال والشرق ومعظم المناطق الواقعة بينهما، وطالبت الرابطة بتقرير المصير للكاريبى وتعهدت بتنظيم إضراب عام واحد أو أكثر عند العودة إلى الأوطان. وفى ١٩١٩ فعل كثيرون منهم ذلك، خاصة فى ترينيداد وبيليز. انظر مراجع من بينها (جيمس ١٩٩٩ : ٦٣ – ٤).

١٤- وهذا يشمل المساواة الكاملة التى ترتبط بسان جوست، ورابو سانت إيتيان واليسار الراديكالى للثورة؛ وفى ١٧٩٥ وعند رئاسته للجمعية الوطنية الفرنسية الحديثة التكوين أصر سانت إيتيان على أن "كل المؤسسات الراسخة فى فرنسا ليست إلا تتويجًا لتعاسة الشعب؛ ولجعل الشعب سعيدًا لابد من التجديد، ومن تغيير الأفكار والقوانين والأخلاق.. وتغيير الناس والأشياء والكلمات، وتدمير كل شىء. نعم كل شىء، لأنه لابد أن يبدأ كل شىء من جديد (Almond, 1996: 31; Lasky, 004: 473) وهذا التوجه الذى يغذى بعد ذلك الثورة الثقافية فى الصين ١٩٧٦ – ١٩٦٦. وخاصة سنواتها الأولى؛ والخمير روج فى كمبوتشيا (كمبوديا) ١٩٧٩ – ١٩٧٥ ؛ وربما بشكل أكثر مباشرة رؤية "الطريق المضىء" فى بيرو ١٩٩٥ – ١٩٨٠.

١٥- ومجلد هاينه (١٩٩١) بعد تحريره يقدم رؤية ممتازة تصور الثورة على نحو مماثل باعتبارها انتهت قبل أوانها، ومن أجل وجهة نظر مقارنة وذات تحليل دقيق وذكى عن غرينادا، انظر (ميكس ٢٠٠١؛ سيلبين ١٩٩٩) يمثل محاولة مقارنة شبيهة.

١٦- هذا الشعار نفسه ظهر بعد ذلك خلال ثورة ١٩١٧ الروسية. ويبدو غير محتمل أن يكون الروس أخذوا العبارة من المكسيكيين - ومن المؤكد أن سكان الريف فى البلدين كانت لديهم رغبات متماثلة ومستقلة عن بعضها البعض. ورغم ذلك فإن الثوريين الروس لابد وأنهم كانوا على دراية بالأحداث فى المكسيك. وقد بذلت محاولات كثيرة فى الولايات المتحدة للربط بين الثورتين، خاصة الجهود التى سعت لإبراز المكسيك كخطر شيوعى، من نوع ما (انظر سبنسر ١٩٩٩) أو باعتبارهم (البلاشفة على الحدود).

١٧- ولكن انظر نايت الذى يخالف كل الباحثين ويذهب إلى أن "ثورة هاييتى تمثل حالة الدراسة الأكثر اكتمالاً للتغير الثورى فى التاريخ، فى أى مكان فى العالم (٢٠٠٠ : ١٠٣) ويعطى قائمة بأعمال تؤيد ذلك. وقد أدى الاحتفال بذكرى مائتى سنة إلى مزيد من الاهتمام، ولكن فى وقت أقرب إلينا استمر ديبو ٢٠٠٤ وبلاكبيرن ٢٠٠٦ وبوبكين ٢٠٠٧ وفورسديك ٢٠٠٨ فى طرح رؤية مخالفة.

١٨- فى تحوير يدعو للتفكير يشيد لاينبو وريديكر (٢٠٠٤ : ٥) إلى هاييتى باعتبارها "أول تمرد عمالى ناجح فى التاريخ الحديث".

١٩- يحذر ديبو (٢٠٠٤ : ٥) من السماح للأوصاف العنصرية بأن تمرر باعتبارها تفسيرات.

٢٠- وفى إشارة عابرة ومهمة إلى العالم القديم الذى وجد نفسه فيه هو ومواطنوه "يشير ديسالين إلى الإنكا باعتبارهم "إنكا الشمس"، لاينبو وريديكر (٣٣٠ – ٢٠٠٠).

٢١-يقرر نيسبيت (٢٥ : ٢٠٠٨) أنه بالنسبة إلى النخبة الجديدة "فالحرية كانت تعنى العالمى، الإلغاء الكامل للعبودية لأول مرة فى تاريخ الإنسانية، حرية تكرس بإنشاء آلية اجتماعية متسامية (دستورية وقانونية وعسكرية ودينية وأبوية وأخلاقية) لضمان فرض هذا التصور لدى أمة انقسمت بين نخبة مستنيرة "وفلاحين" غير مستنيرين"، فى حين كانت "الحرية" بالنسبة للآخرين "تعنى بناء حرية لا تعرف الدولة ولا التقسيمات، بما يصحب ذلك من عنف: القمع المنهجى للتعبير عن الفردية بين أعضائها لضمان إعادة إنتاج المساواة الاجتماعية".

٢٢- يشير لاينبو وريديكر، اللذان يندر أن تفوتهما الصلات بين مختلف الأشياء، إلى رحلة أقصر فى بعض الحالات، على الأقل، ملاحظين أن شخصيتين رئيسيتين فى العملية الثورية فى هاييتى وهما هنرى كريستوف وأندريه ريغو حاربا مع الكتائب الفرنسية فى أمريكا الشمالية وربما كانا ما يطلقان عليهما بذكاء "مرشدين" للثورة (٢٤١ : ٢٠٠٠).

٢٣- يستفيد هذا القسم بشكل كبير من (جيللى ٢٠٠٥ a) و(نايت ١٩٩٩ b 1990 : a).

٢٤- شملت فئة الملونين عند أوروزكو رعاة البقر وعمال المناجم والحطابين والهنود والمزارعين (Richards , 2004 : 26) .

٢٥- يربط جيللى (٢٠٠٥ 5 – 124 : a) بين كل من هذين الكيانين وبين نهج سياسى أيضا: زاباتا وجيش التحرير الجنوبى على اليسار، مطالبين بـــ "تعميق المحتوى الاجتماعى للثورة وتنفيذ خطة آيالا"؛ ويحدد فيللا وفيلق الشمال بأنهما "يتحركان باتجاه تحالف أوثق مع الزاباتية"؛ وكان كارانزا

"على اليمين"، وارتبط أوبريغون بكارانزا وفيلا ويشير دون (١٩٨٩ : ٥٧) إلى أن فيلا اقترن مع "نهج الإصلاح الزراعى الزاباتيستى على نحو حذر".

٢٦- يقول جيللى (٢٠٠٥ a : 154) "تناوبا الجلوس على كرسى الرئاسة". ويقول نيوويل (١٩٩٧ : ١١٢) إن زاباتا جلس "قلقاً". ويضع كاتز (١٩٩٨: ٤٣٧) زاباتا وفيلا متجاورين ويلاحظ تأثير الانتشار عالميا على هذه الصورة.

٢٧- يزعم كاتز (١٩٩٨ : ٤٣٦) أن زاباتا كان عسكريا إقليميا ولديه أجندة وطنية وإن كانت محدودة للإصلاح الاجتماعى - السياسي. أما فيلا فكان عسكريا قوميا ولديه أجندة هى فى أحسن الأحوال إقليمية تقوم على المجالس المحلية والإصلاح الزراعى.

٢٨- تجد عند نايت صدى هذه النقاط بالضبط، ورغم اعتقاده بأنها مشحونة بالمغزى إلى درجة كبيرة (١٩٩ b: 329) فهو يقر بأنها كانت "بين الأكثر راديكالية فى عصرها" (١٩٩٠ b: 470) ولكنها "رغم ما لقيته من إدانات على طبيعتها "البلشفية".. فهى لم تكن حتى اشتراكية (١٩٩٠ b: 471).

٢٩- يعترض نايت (١٩٩٠ b: 470) على "التقارير الكثيرة.. التى ترى فى دستور ١٩١٧ ذروة الطموحات الثورية" حيث إنه "لم يمثل الآمال الشعبية الثورية إلا على نحو ناقص: تم تصوره من غير مشاركة شعبية مباشرة؛ وصيغ وسط فوضى وتعجل، وليس فى هدوء وتدبر؛ وتناقضت بنوده الجافة مع الواقع المظلم".

٣٠- تتواصل الحكايات - كوبا، السلفادور، موزمبيق، نيكاراغوا وغيرها؛ وقد لاحظ مارتن غيفارا ذات مرة، أن أخاه كان "يشبه حصان زاباتا الأبيض. فى كل مكان (إشارة عند رايان ١٩٩٨ : ٣٦). ويحتفى بحصان زاباتا فى كتب الأطفال عن الشخصيات الثورية (Thomas, 1998 : 37) وقد سعت

الحكومة المكسيكية إلى احتواء صورة زاباتا: ويستحضر كثيرون شبح زاباتا" وبسبب هذه الصلات يعتقد كثيرون فى بونيافيستا أنهم حراس تراث زاباتا ومقاتليه. وهم معنيون بنحو خاص بأصالة الصور الخاصة به وبالمقاتلين الثوريين وهى التى تحاول الحكومة أن تستخدمها لتكسب الشرعية. وقد أصبحت مسألة الأصالة مهمة فى ولاية موريلوس عقب اغتيال زاباتا مباشرة. وفى ١٩٢٦ بعد وفاة زاباتا بست سنوات سجل روبرت ريدفيلد وجود أسطورة فى موريلوس تدعو للتساؤل حول ما إذا كانت قوات الحكومة قتلت "زاباتا الحقيقى". وتنتهى الأسطورة بالقول: "إنه يقين لا يرقى إليه شك، لكنهم انخدعوا فلم يدركوا حقيقة زاباتا، ليس بوسعهم قتل زاباتا (Martin, 1992: 181 – 2) وهنا نجد أننا عدنا إلى مملكة الخرافة والحكاية، حيث القص هو المفتاح.

٣١- لا يتعين التقليل من أهمية الأحداث فى تلاتيليكو والعملية المحيطة بحصادها: استغرقت ثلاثين سنة وكان لابد من هزيمة الحزب الذى صنع الثورة، فى المعركة الانتخابية، الحزب الثورى المؤسس، قبل أن يلقى من مارسوا القتل والتعذيب جزاءهم. وفى ١٩٦٨، ولأول مرة منذ جيل كامل، علت الأصوات مطالبة بالعدل الاجتماعى، مرة أخرى، فى المكسيك، أساسًا من الطلاب، نخبة المستقبل فى ذلك البلد وقادة الحزب الحاكم؛ ورغم أن الخلاف لا زال قائمًا حول أعداد من قتلوا ومن جرحوا، فلا شك أنه، وكأنه سيناريو فيلم ردىء، ففى المكان الذى كان يفترض أن يحتفى بالثقافات الثلاث التى يفترض أن هوية المكسيك تقوم عليها – المحلية (آزتيك / ميهيكا، مايا وغيرها) والاستعمارية (الإسبانية) والثقافة المخلطة (ميسيتزو) – فقد رد العسكريون المكسيكيون على مطالبة الطلاب بالعدل والديمقراطية بالمذابح التى طالت أعدادًا منهم، وسجنوا أعدادًا أكبر، واختفى البعض.

وتبقى تلاتيليكو محاطة بالسرية والغموض، جرحًا غائرًا فى المجتمع المكسيكى تلفه البكائيات. احتجاج بسيط تحول إلى استشهاد سياسى يذكر بما جرى قبل ستين عاما. وانضم شبح ١٩٦٨ إلى شبح زاباتا فى مشهد سياسى - ثقافى وسيكولوجى، فى ذاكرة جمعية، يتزايد أهلوها من الأشخاص والمواقع التى تجسد المطالبة بالعدل الاجتماعى.

٣٢- كما لاحظنا فى الفصل الرابع فهذه المأثورة الرومانسية الملهمة المرتبطة بزاباتا استعيدت، فيما يبدو، من حكاية شهيد ثورى من رفاقه هو براخيديس غويريدو، انظر (ألبرو ١٩٦٠).

٣٣- قد يكون الوصف الأدق شيئًا مثل "حركة اجتماعية مسلحة وذكية وذات دراية بالتكنولوجيا لديها حساسية متطورة للعلاقات العامة وميل إلى مسرح الشارع / الغابة. وهو ما تصادف أنه يشمل عرضًا غير منتظم للأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة (ومن بينها كلماتهم)".

الفصل الثامن

١- تكاد هذه الكلمات أن تكون بلا جدوى، وإن كان معناها واضحًا نسبيا ويجب أن يتضح أكثر ويمكن أن نجد قدرا من التفهم لهذه الكلمات عند سكوت ١٩٨٥ (المقاومة اليومية) وبشكل غير مباشر عند هادن (٢٠٠٣ : ٢٣) (التمرد اليومى) وبشكل متعال عند بيكر ١٩٩٦ : ١٩ (الثورة اليومية) ولا يقصد بالثورة اليومية ثورة الحياة اليومية (**Uaneigem, 2001**).

٢- لا يعنى هذا أبدًا تجاهل توالى النتائج غير المقصودة حتمًا التى لم يكن من المرجح أن يتخيلوها والظروف التى لا قبل لهم بالسيطرة عليها.

٣- هذا الأخير شرح لعنوان واحد من الأفلام "على طريق قلة من العابرين عبر وحدة زمنية وجيزة" (١٩٥٩) أخرجه غاى ديبور المنظر الرئيسى عند الموافقيين.

٤- هذا ما قاله قريب طبيب من غرينادا، وافق على أن أستجوبه، حول العملية الثورية هناك، عندما أشار بعدم الحديث إلى.

٥- مفهوم "الخيالى" هنا يعتمد على صياغة كاستور ياديس (١٩٩٨ : ٣) باعتباره "خلفًا راديكاليًا للأشكال / الهيئات / الصور "على المستويين الفردى والاجتماعى"؛ ومفهوم "المتخيل الثورى" مستعار من سينغر (١٩٨٦) ولينبز (٢٠٠٣) يطرح تحليلاً قويًا "لخيال الزاباتيستا عن العدل والعقاب" الذى يضرب بجذوره فى الأعمال السيكولوجية لدى لاكان، الذى غالبًا ما ينسب إليه الفضل فى صياغة المفهوم.

٦- يصفه إيغيرون (٢٠٠٢ : **xiii**) بأنه "تمرد هروبى" وهو ما يعتبره تمردًا "أقل اتساقًا" و"أقل وضوحًا فى طبيعته السياسية".

٧- مصطلح مركب ممتع يتزايد استخدامه وقد ركّبه توماس فاندروال وأصبح نوعا من التصنيف من تحت لأعلى على نحو غير تراتبى يتولد من قبل المستخدمين وذا طبيعة جمعية؛ انظر

http: / en.wikipedia. org/wiki/folksonomy

وجدير بالذكر أن فاندروال رفض هذا الاستخدام الشائع باعتباره "غير وثيق الصلة نهائيًا بشيء أعرفه"

www.vanderwal.net/random/entrysel.php/blog=1750

وتعريفه الأصلى الذى لا يبدو شديد البعد عن الاستخدام المعاصر يمكن أن تجده فى

www.vanderwal.net/random/entrysp/.php/bolg=1750

وكما يذكرنا بورخيس (١٩٧٥ : ١٠٤) فى مقالة رائعة تحذر من أخطار ومهاوى التصنيف، فإنه "من الواضح أنه لا يوجد تصنيف.. إلا وهو تعسفى وتخمينى".

٨- يعتمد هذا القسم اعتمادًا كبيرًا على هورن ١٩٦٥؛ وتومز ١٩٩٩؛ وشافر ٢٠٠٥. وأتوجه بالشكر إلى ليسلى هير.

٩- انظر، بشكل خاص، غاليكسن، ١٩٩٦ وآيكنر ٢٠٠٤.

١٠- انبهرت آرندت (١٩٦٥ : ٦٤) باحتضان ماركس للكومونة خاصة وأنها "ناقضت كل النظريات والتوقعات".

١١- اعتبر باز (١٩٧٥ : oix) أن المكسيك فى ١٩٦٨ كانت صورة مجازية لكوميونة باريس.

١٢- يعتمد هذا القسم، على نحو كبير، على (جيللى ٢٠٠٥ a)؛ (هارت ١٩٩٧)، و(نايت ١٩٩٠ b, 1990 a).

١٣- يشير نانت (١٩٨٤ : ٦٥) إليهم باعتبارهم "شبه بروليتاريين" وهو ما يبدو صحيحًا.

١٤- وهو ما يصفه بنجامين (٢٠٠٠ : ٥٤ - ٥) بأنه فصيل ثورى بأقل مما هو "صوت ثورى" أو (فوضوى).

١٥- فى أوائل مايو ١٩١١ انضم جيش من الثوريين المكسيكيين والأمميين (من الولايات المتحدة أساسًا) إلى ماغون وغزا الحزب الفوضوى - الاشتراكى المكسيكى الليبرالى تيهوانا، باجا كاليفورنيا، المكسيك من الولايات المتحدة، وهزم العسكريين المكسيكيين فى حاميتها وأقام الجمهورية، (انظر، على نحو خاص، بليزدبل ١٩٦٢ وهارت ١٩٩٧ : ٢٥٤ ٢٠٠٦ : ٣٦٤ وتايلور ١٩٩٩).

١٦- حوار مع عامل فى المتحف (٢٠٠٠) متحف الثورة، تشيواوا، المكسيك.

١٧- يعتمد هذا القسم على بيربانك ١٩٧٦ وبيسيت ١٩٩٩ ولبيست وماركس ٢٠٠١.

١٨- يبدو جديرًا بالملاحظة، فى ضوء الموضوعات التى غطيت فى هذا الفصل، أو الووبليز خلال هذه الفترة المفترض أن يلعبوا دور المنظمة الأممية للعمال، كانوا موجودين فى أوكلاهوما، وباجا كاليفورنيا، وتشيلى (Alba, 1968 : 47).

١٩- فكرة عتيقة نوعا لقيت نوعا من الاهتمام فى أوروبا الشرقية السابقة؛ (انظر، مثلاً، أوزمنت ١٩٨١ : ٢٧٢ وزاغورين ١٩٨٢ : ٣٨ وفولبروك ٢٠٠٤ : ٤٠).

٢٠- لكننا نرى وصف ويبر لها باعتبارها "كرنفال الدم" الذى لا يستحق اسم "الثورة" الشريف (Momsen, 19990 : 296) وأتوجه بالشكر إلى هارالد ويدرا على هذا التنبيه.

٢١- هذا القسم يعتمد كثيرًا على سيلبين (٢٠٠٨ : ١٤٢ -٣).

٢٢- عند هوبزبوم هى "die lander ofter wechselnd als die schue" وهذه ترجمتى.

٢٣- الحركة المعقدة والأكثر من مشحونة من جانب كينوت، وكذلك غالاد، إلى "العالم الجديد" يدرسها رايس ١٩٩٧ بشكل شيق.

٢٤- بالنسبة لسنكيلر (١٩٩٨ : ١١٣) كان غيفارا "غاريبالدى عصره" ويلاحظ ريال (٢٠٠٧ : ٨) أنه "فى الوعى الكونى، يمكن القول إن مكانا غاريبالدى، أخذه تشى غيفارا، وهو شخصية من نمط مختلف نوعا، لكنه يشترك مع "بطل العالمين" فى بعض الخواص المميزة".

٢٥- رغم أنه يبدو من غير المرجح، فالبعض يعتقد أنه قبل أن يرافق براون ماو بوقت طويل فى المسيرة الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٤ فى الصين، كان أيضًا فى "مسيرة كبرى" مع فيلق بريستس ١٩٢٧ - ١٩٢٤ فى البرازيل مع الرجل الذى سيصبح فيما بعد زوجًا لزوجته. ويبدو أن الأرجح أن شخصًا ما من الكومنتيرن كان مع البريستس وكان يستخدم اسم أوتو براون.

٢٦- يعتمد هذا القسم كثيرًا على سيلبين (٢٠٠٨ : ١٤٣ - ٤).

الفصل التاسع

١- يعتمد هذا القسم كثيرا على القسم الأخير فى سيلبين (٢٠٠٨ : ١٤٤ – ٦).

٢- أنا أمحو التمييز المفيد الذى وضعه آبتر بين "الفاعلين" الذين "يختلفون عن الرواة العاديين. عندما يصبحون صانعى نصوص" وبين "الرواة" (٢٠٠٦ : ٧٩١).

٣- برأى نيكولايزن فإنه "بدون حكايا لم يكن بوسعنا أن نبقى أحياء؛ بدون حكايا نفتقد الثقة فيمن نكون وفيما يمكن أن نكون (١٩٩٠ : ١٠).

٤- هذا مطروح كنوع من التصحيح لما ركز عليه سيلبين (١٩٩٩) بخصوص "التراث الباقى للفلسفات والممارسات الثورية فى أمريكا اللاتينية" (Rodgers 2009 : 86). وهو مقبول بكل عرفان.

٥- لكن لينين (١٩٦٤ : ١٤١) متبعا نصيحة ماركس حول ضرورة ألاّ ينظر الثوريون إلى الماضي، حذر من أن "الخطأ الرئيسى الذى يقع فيه الثوريون هو أن ينظروا وراءهم إلى الثورات السالفة، فيما تعطينا الحياة الكثير من الأشياء الجديدة التى لابد من إدخالها إلى النظام الجديد للأحداث".

٦- يمكن أن نجد تذكرة قوية ونافعة عند هايسليب (١٩٨٩: xv) الذى يلاحظ أن قليلين فى الولايات المتحدة هم الذين فهموا خلال حرب فيتنام "الحرب المختلفة التى يحاربها شعبى عندما نصل هنا". بالنسبة لك كان الأمر بسيطا: الديمقراطية ضد الشيوعية. بالنسبة لنا، فلم تكن هذه حربنا، على الإطلاق. كيف يمكن لها أن تكون؟ كنا نعرف القليل عن الديمقراطية وأقل عن الشيوعية. بالنسبة لمعظمنا كانت حربا من أجل الاستقلال. مثل الثورة

الأمريكية. وحارب كثيرون منا أيضا من أجل مثل دينية، كما حارب البوذيون الكاثوليك. ووراء الحرب الدينية جاءت الحرب بين أهل المدن وأهل الريف - الأغنياء ضد الفقراء - حرب خاضها من يريدون تغيير فيتنام ومن كانوا يريدون تركها على ما هى عليه منذ ألف عام، وتحت هذا كله كانت لدينا ثاراتنا بين الأهالى الفيتناميين والمهاجرين (ومعظمهم صينيون وخمير) الذين تصارعوا على الأرض طوال قرون. وكثير من هذه الحروب متواصل هذه الأيام. كيف لك أن تتمنى إنهاءها بأن تحارب معركة مختلفة لهذا الحد عن معركتنا؟

٧- رغم أنهم يرون الحكاية والسردية على أنهما مختلفتان، فانظر أيضا بيدغر وكينى (٢٠٠٥ a: 4) وبالمقابل فزن ديفيس (٢٠٠٢ b : 12 - 13) مثل معظم الآخرين يرى الحكايا باعتبارها مرتبة إلى حد بعيد.

٨- رغما أننا عادة ما لا نتصور العالم البيولوجى على أساس البنى التحتية فهذا ليس لأنها غير موجودة. فقد طورت النباتات والحيوانات والمعادن والعناصر ما يمكن أن يسمى بنية بيئية مشابهة، تقريبًا، للبنى التحتية ومساوية لها من حيث أهميتها الأساسية للحياة اليومية وهذا الرأى متأثر بوارشال (١٩٩٨) رغم أنى دفعت بأطروحاته فى اتجاهات جديدة.

٩- أنا مدين لجون فوران بهذه النقاط.

١٠- رغم أن العنوان الفرعى لكتاب هوليداى (٢٠٠٢) الذكى والمؤثر "غيروا العالم دون الاستيلاء على السلطة" هو "معنى الثورة اليوم" فقبل أن يقترح هذا بحوالى تسعين عامًا سعى زاباتا وفيللا إلى تغيير العالم دون الاستيلاء على السلطة فى المكسيك.

١١- انظر الفصل السادس وكما أوضحنا فيه فمن المرجح أن هذه حكاية مشكوك بصحتها.

١٢- الكلمة satisfice هي تركيب من Suffice، Satisfy نحتها هيربرت سايمون في ١٩٤٧، انظر سايمون ١٩٩٧.

١٣- استعرناها هنا من هيغونيه (١٩٩٨ : ٣٢٤) الذي يعيد صياغة ما ورد عند بارت.

١٤- كما أشار ليفي شتراوس "كل حضارة تميل إلى المبالغة في تثمين التوجه الموضوعي لفكرها" (١٩٦٦ : ٣).

١٥- انظر "النسب الثقافي للمقاومة" عند هوكس (١٩٩٥ : ١٤٨) الذي يساعدنا على أن نتعلم من "الإستراتيجيات الراهنة للمعارضة والمقاومة التي كانت فعالة في الماضي والتي تساعد على التمكين في الحاضر" وأن نبني عليها؛ انظر أيضا الفصل الرابع.

١٦- أشار آبتر (٢٠٠٦ : ٧٩١) مؤخرًا إلى أن الفاعلين يصوغون الحكايا ويعيدون تقديم "الآن" و"هنا". وهم يعطون شعورًا بإلحاح المستقبل. وبالنسبة لهم فهذه ذروة بلغها الماضي الذي يكون منطقه مشروعًا يبرر ذاته بذاته ويتخذ صورة سردية مهيمنة.

١٧- زوي كورديس سيلبين ١٩٩٥.

المــراجــع

Aarne, A. (1995) *The Types of the Folktale: A Classification and Bibliography*, trans. S. Thompson, 2nd edn, Bloomington: Indiana University Press.
Adorno, T., and M. Horkheimer (2002) *Dialectic of Enlightenment: Cultural Memory in the Present*, Stanford CA: Stanford University Press.
Aguilar, P. (2002) *Memory and Amnesia: The Role of the Spanish Civil War in the Transition to Democracy*, trans. M. Oakley, New York: Berghahn Books.
Alapuro, R. (1998) 'Artisans and Revolution in a Finnish Country Town,' in M. Hanagan, L. Moch, and W. TeBrake, eds, *Challenging Authority: The Historical Study of Contentious Politics*, Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 73–88.
Alba, V. (1968) *Politics and the Labor Movement in Latin America*, Stanford CA: Stanford University Press.
Albro, W. (1996) *To Die on Your Feet: The Life, Times, and Writings of Práxedis G. Guerrero*, Fort Worth: Texas Christian University.
Almond, M. (1996) *Revolution: 500 Years of Struggle for Change*, London: De Agostini.
Ameringer, C. (1974) *The Democratic Left in Exile: The Antidictatorial Struggle in the Caribbean, 1945–1959*, Coral Gables: University of Miami.
Amjad, M. (1989) *Iran: From Royal Dictatorship to Theocracy*, Westport CT: Greenwood Press.
Andean Oral History Workshop (THOA) and S. Rivera Cusicanqui (1990) 'Indigenous Women and Community Resistance: History and Memory,' in E. Jelin, ed., *Women and Social Change in Latin America*, London: Zed Books, pp. 151–83.
Anderson, B. (1991) *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Spread of Nationalism*, London: Verso.
Anderson, J. (1992) *Guerrillas: The Men and Women Fighting Today's Wars*, New York: Random House.

Anderson, W., and R. Dynes (1975) *Social Movements, Violence, and Change: The May Movement in Curaçao*, Columbus: Ohio State University Press.
Appiah, Kwame Anthony (2003) 'Into the Woods,' *New York Review of Books*, vol. 50, no. 20, pp. 46–51.
Appleby, J. (2001) *Inheriting the Revolution: The First Generation of Americans*, Cambridge MA: Belknap Press.
Apter, D. (2006) 'Duchamp's Urinal: Who Says What's Rational When Things Get Tough?' in R. Goodin and C. Tilly, eds, *The Oxford Handbook of Contextual Politics*, Oxford: Oxford University Press, pp. 767–96.
Arendt, H. (1965) *On Revolution*, New York: Penguin.
Armony, A., and Victor Armony (2005) 'Indictments, Myths, and Citizen Mobilization in Argentina: A Discourse Analysis,' *Latin American Politics and Society*, vol. 47, no. 4, pp. 27–54.
Aron, L. (2006) 'Ideas of Revolutions and Revolutionary Ideas,' *Demokratizatsiya* vol. 14, no. 3, pp. 435–59.
Ashliman, D. (1987) *A Guide to Folktales in the English Language: Based on the Aarne-Thompson Classification System*, New York: Greenwood Publishing.
Assmann, A. (2006) 'Memory, Individual and Collective,' in R. Goodin and C. Tilly, eds, *The Oxford Handbook of Contextual Political Analysis*. Oxford: Oxford University Press, pp. 210–24.
Auerbach, E. (2003) *Mimesis: The Representations of Reality in Western Literature*, trans. W. Trask, Princeton NJ: Princeton University Press.
Azenstarck, G. (2008), 'Le jour où j'ai assisté à la première occupation d'usine de Mai 68,' www.civismemoria.fr/contribution/?module=contrib&contrib=550.
Baker, K.M. (1990) *Inventing the French Revolution: Essays on French Political Culture in the Eighteenth Century*, Cambridge: Cambridge University Press.
Barbosa, F. (2005) 'July 23, 1959: Student Protest and State Violence as Myth and Memory in León, Nicaragua,' *Hispanic–American Historical Review*, vol. 85, no. 2, pp. 187–221.
Barthes, R. (1972) *Mythologies*, trans. A. Lavers. New York: Hill & Wang.
——— (1977) 'Introduction to the Structural Analysis of Narratives,' in *Image, Music, Text*, trans. Stephen Heath, New York: Hill & Wang.
——— (1982) 'Introduction to the Structural Analysis of Narratives,' in S. Sontag, ed., *A Barthes Reader*, New York: Hill & Wang, pp. 251–95.
——— (1996) 'Introduction to the Structural Analysis of Narratives,' in S. Onega and J. Landa, eds, *Narratology*, New York: Longman, pp. 45–60.
Bartlett, F. (1977) *Remembering: A Study in Experimental and Social Psychology*, Cambridge: Cambridge University Press.
Bates, M. (1996) *The Wars We Took to Vietnam: Cultural Conflict and Storytelling*, Berkeley: University of California Press.
Baudrillard, J. (1994) *The Illusion of the End*, trans. C. Turner, Stanford: Stanford University Press.
Beard, C. (2004) *An Economic Interpretation of the Constitution of the United States* [1913], New York: Dover.
——— (1965) *Economic Origins of Jeffersonian Democracy* [1915], New York: Free Press.

Becker, M. (1996) *Setting the Virgin on Fire: Lázaro Cárdenas, Michoacán Peasants, and the Redemption of the Mexican Revolution*, Berkeley: University of California Press.

Bell, J. (1976) *On Revolt: Strategies of National Liberation*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Bell, D., Jr (2001) *Liberation Theology after the End of History: The Refusal to Cease Suffering*, London: Routledge.

Benjamin, T. (2000) *'La Revolución': Mexico's Great Revolution as Memory, Myth, and History*, Austin: University of Texas Press.

Benjamin, W. (1968) 'Theses on the Philosophy of History,' in H. Arendt, ed., *Illuminations*, trans. Barry Zohn. New York: Schocken Books, pp. 253–64.

——— (1974) 'On the Concept of History,' *Gesammelten Schriften* I:2, Suhrkamp Verlag. Frankfurt am Main, 1974; translation by D. Redmond at www.efn.org/~dredmond/ThesesonHistory.html.

——— (1999a) 'The Task of the Translator,' in M. Bullock and M. Jennings, eds, *Walter Benjamin: Selected Writings*, Volume 1: *1913–26*, Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 253–63.

——— (1999b) 'First Sketches: Paris Arcades,' in *The Arcades Project*, trans. H. Eiland and K. McLaughlin, Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 827–68.

——— (1999c) 'N: On the Theory of Knowledge, Theory of Progress,' *The Arcades Project*, trans. H. Eiland and K. McLaughlin, Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 456–88.

——— (1999d) 'On the Mimetic Faculty,' in M. Jennings, H. Eiland, and G. Smith, eds, *Walter Benjamin: Selected Writings*, Volume 2: *1927–1934*, trans R. Livingstone et al., Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 720–22.

——— (2003a) 'On the Concept of History,' in H. Eiland and M. Jennings, eds, *Walter Benjamin: Selected Writings*, Volume 4: *1938–40*, trans. Edmund Jephcott, Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 389–400.

——— (2003b) 'Paralipomena to "On the Concept of History",' in H. Eiland and M. Jennings, eds, *Walter Benjamin: Selected Writings*, Volume 4: *1938–40*, trans. Edmund Jephcott, Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 401–11.

——— (2008) 'On the Concept of History,' trans. Lloyd Spencer, at www.sfu.ca/~andrewf/concept2.html.

Berger, R., and R. Quinney, eds (2005a) *Storytelling Sociology: Narrative as Social Inquiry*, Boulder CO: Lynne Reinner.

Berger, R., and R. Quinney (2005b) 'The Narrative Turn in Social Inquiry,' in R. Berger and R. Quinney., eds, *Storytelling Sociology: Narrative as Social Inquiry*, Boulder CO: Lynne Reinner, pp. 1–11.

Bertaux, D., ed. (1981), *Biography and Society: The Life History Approach in the Social Sciences*, London, Sage.

Bey. H. (1991) *T.A.Z. the Temporary Autonomous Zone, Ontological Anarchy, Poetic Terrorism*, New York: Autonomedia.

Biersack, A. (1989) 'Local Knowledge, Local History,' in L. Hunt, ed., *The New Cultural History*, Berkeley: University of California Press.

Billington, J. (1980) *Fire in the Minds of Men: Origins of the Revolutionary Faith*, New York: Basic Books.
——— (1966) 'Six Views of the Russian Revolution,' *World Politics*, vol. 18, no. 3, pp. 452–73.
Bishop, M. (1982) 'Line of March for the Party,' speech to General Party Meeting 13 September 1982, at www.thegrenadarevolutiononline.com/lineofmarchone.html.
Bissett, J (1999) *Agrarian Socialists in America: Marx, Jefferson, and Jesus in the Oklahoma Countryside, 1904–1920*, Norman: University of Oklahoma Press.
——— (n.d.) 'Socialist Party,' *Oklahoma Historical Society's Encyclopedia of Oklahoma History & Culture*, at http://digital.library.okstate.edu/encyclopedia/entries/S/SO001.html.
Blackburn, R. (1989) *The Overthrow of Colonial Slavery 1776–1848*, London: Verso.
——— (2006) 'Haiti, Slavery, and the Age of Democratic Revolution,' *William and Mary Quarterly*, vol. 63, no. 4, pp. 643–74.
Blaisdell, L. (1962) *The Desert Revolution: Baja California, 1911*, Madison: University of Wisconsin Press.
Borges, J. (1975) 'The Analytical Language of John Wilkins,' in *Other Inquisitions: 1937–1952*, trans. R. Simms, Austin: University of Texas Press, pp. 101–5.
Bottigheimer, R. (1989) *Grimm's Bad Girls and Bold Boys: The Moral and Social Vision of the Tales*, New Haven CT: Yale University Press.
——— (2002) *Fairy Godfather: Straparola, Venice, and the Fairy Tale Tradition*, Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
Bowers, C. (1950) *Pierre Vergniaud: Voice of the French Revolution*, New York: Macmillan.
Boyle, N. (2003) *Goethe: The Poet and the Age*, Volume II: *Revolution and Renunciation, 1790–1803*, New York: Oxford University Press.
Bozóki, A. (1992) 'The Hungarian Transition in a Comparative Perspective,' in A. Bozóki, A. Körösényi, and G. Schöpflin, eds, *Post-Communist Transition: Emerging Pluralism in Hungary*, London: Pinter, pp. 163–91.
Bradley, J. (1984) *Allied Intervention in Russia*, Lanham MD: University Press of America.
Braudel, F. (1979) *Afterthoughts on Material Civilization and Capitalism*, Baltimore: Johns Hopkins University Press.
Brinton, C. (1965) *The Anatomy of Revolution* [1938], New York: Vintage.
Britton, J. (1995) *Revolution and Ideology: Images of the Mexican Revolution in the United States*, Lexington: University of Kentucky Press.
Brown, D. (1997), 'Cinderella Stories,' www.acs.ucalgary.ca/~dkbrown/cinderella.html.
Brunk, S. (2008) *The Posthumous Career of Emiliano Zapata: Myth, Memory, and Mexico's Twentieth Century*, Austin: University of Texas Press.
Brunk, S., and B. Fallaw (2006) *Heroes and Hero Cults in Latin America*, Austin: University of Texas Press.
Buenfil, N. (2000) 'The Mexican Revolutionary Mystique,' in D. Howarth, A. Norval, and Y. Stavrakakis, *Discourse Theory and Political Analysis: Identities,*

Hegemonies and Social Change, Manchester: Manchester University Press, pp. 86–99.
Burbank, G. (1976) *When Farmers Voted Red: The Gospel of Socialism in the Oklahoma Countryside, 1910–1924*, London: Greenwood Press.
Burckhardt, J. (1958) *The Civilization of the Renaissance in Italy*, Volume I [1860], trans. S. Middlemore. New York: Harper.
——— (1979) *Reflections on History*, Indianapolis: Liberty Classics.
Burns, G. (1996) 'Ideology, Culture, and Ambiguity: the Revolutionary Process in Iran,' *Theory and Society*, vol. 25, no. 3, pp. 349–88.
Büthe, T. (2002) 'Taking Temporality Seriously: Modeling History and the Use of Narratives as Evidence,' *American Political Science Review*, vol. 96, no. 3, pp. 481–93.
Byatt, A.S. (2001) *On Histories and Stories: Selected Essays*, Cambridge MA: Harvard University Press.
Cabezas, O. (1989) Interview, Poneloya, Nicaragua.
Cabrera Infante, G. (1994) 'Between History and Nothingness: Notes on an Ideology of Suicide,' in *Mea Cuba*, trans. K. Hall with G. Cabrera Infante, New York: Farrar, Straus & Giroux, pp. 138–171.
Callinicos, A. (2008) 'What Does Revolution Mean in the Twenty-first Century?' in J. Foran, D. Lane and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World*, New York: Routledge, pp. 151–64.
Cannon, B. (2004) 'Venezuela, April 2002: Coup or Popular Rebellion? The Myth of a United Venezuela,' *Bulletin of Latin American Research*, vol. 23, no. 3, pp. 285–302.
Cantwell, R. (1994), *Ethnomimesis: Folklife and the Representation of Culture*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.
Carr, E. (1961) *What Is History*, New York: Knopf.
Carroll, L. (1946) *Through the Looking Glass and What Alice Found There*, New York: Random House.
Casey, M. (2009) *Che's Afterlife: The Legacy of an Image*, New York: Vintage.
Castañeda, J. (1993) *Utopia Unarmed: The Latin American Left after the Cold War*, New York: Alfred A. Knopf.
Castoriadis, C. (1992) *Political and Social Writings: 1961–1979: Recommencing the Revolution: From Socialism to the Autonomous Society*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
——— (1998) *The Imaginary Institution of Society*, trans. K. Blamey, Cambridge MA: MIT Press.
Castro, D. (1999a) 'Introduction – The Interminable War: Guerrillas in Latin American History,' in D. Castro, ed., *Revolution and Revolutionaries: Guerrilla Movements in Latin America*, Lanham MD: SR Books, pp. xv–xxxvii.
——— (1999b) 'The Iron Legions,' in D. Castro, ed., *Revolution and Revolutionaries: Guerrilla Movements in Latin America*, Lanham MD: SR Books, pp. 191–200.
Chaliand, G., and A. Blin (2007) 'Manifestations of Terror through the Ages,' in G. Chaliand and A. Blin, eds, *The History of Terrorism: From Antiquity to Al Qaeda*, Berkeley: University of California Press, pp. 79–94.

Chartier, R. (1991) *The Cultural Origins of the French Revolution*, trans. Lydia Cochrane, Durham NC: Duke University Press.

Chissano, J. (1985) Personal conversation, University of Minnesota.

Clark, T. (1973) *Image of the People: Gustave Coubert and the 1848 Revolution*, London: Thames & Hudson.

Cleary, M. (2000) 'Democracy and Indigenous Rebellion in Latin America,' *Comparative Political Studies*, vol. 33, no. 9.

Cohen, N. (1970) *The Pursuit of the Millennium Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages*, rev. edn, New York: Oxford University Press.

Cohen, P. (1992) 'The Contested Past: The Boxers as History and Myth,' *Journal of Asian Studies*, vol. 51, no. 1, pp. 82–113.

——— (1997) *History in Three Keys: The Boxers as Event, Experience, and Myth*, New York: Columbia University Press.

Collier, G. (1999) 'Preface to the Revised Edition,' in G. Collier and E. Quaratiello, *Basta! Land and the Zapatista Rebellion in Chiapas*, rev. edn, Oakland: Food First Books.

Collier, R., and S. Mazzuca (2008) 'Does History Repeat?' in R. Goodin and C. Tilly, eds, *The Oxford Handbook of Contextual Politics*, Oxford: Oxford University Press, pp. 472–89.

Condrescu, A. (1999) *Ay Cuba! A Socio-Erotic Journey*, New York: St. Martin's Press.

Cook, M. (2000) *The Koran: A Very Short Introduction*, Oxford: Oxford University Press.

Cordes Selbin, J. (2009) '*Sous Contrainte ou Sans Contrainte*: Competing Literary Visions of the Oulipo and Hélène Cixous,' thesis, Austin: University of Texas.

Corney, F. (2004) *Telling October: Memory and the Making of the Bolshevik Revolution*, Ithaca NY: Cornell University Press.

Crawford, N. (2000) 'The Passion of World Politics: Propositions on Emotion and Emotional Relationships,' *International Security*, vol. 24, no. 4, pp. 116–56.

Crews, H. (2005) 'Searching for The Wrong-Eyed Jesus,' www.bbc.co.uk/bbcfour/documentaries/features/wrong-eyed-jesus.shtml.

Cumberlege, G., ed. (1953) *The Oxford Dictionary of Quotations*, 2nd edn, Oxford: Oxford University Press.

Cunningham A., and G. Friesen (1999) *Red Dust and Broadsides: A Joint Autobiography*, Amherst: University of Massachusetts Press.

Cusicanqui, S. (2003) 'Oprimidos pero no vencidos,' *Luchas del campesinado aymara y qhechwa, 1900–1980*, 4th edn, La Paz: Ediciones Yachaywasi.

Cvetkovich, A. (2003) *An Archive of Feelings: Trauma, Sexuality, and Lesbian Public Cultures*, Durham NC: Duke University Press.

Czarniawska, B. (2004) *Narratives in Social Science Research*, Thousand Oaks CA: Sage.

Daniel, E. (1996) *Charred Lullabies: Chapters in an Anthropography of Violence*, Princeton NJ: Princeton University Press.

Darnton, R. (1984) *The Great Cat Massacre and Other Episodes in French Cultural History*, New York: Vintage.

——— (1990) 'The Kiss of Lamourette,' in *The Kiss of Lamourette: Reflections in Cultural History*. New York: W.W. Norton, pp. 3–20; originally appeared as 'What Was Revolutionary about the French Revolution?' *New York Review of Books*, vol. 35, no. 21/22, pp. 3–6, 10.

Davis, J., ed. (2002a) *Stories of Change: Narrative and Social Movements*, Albany NY: SUNY Press.

Davis, J. (2002b) 'Narrative and Social Movements: The Power of Story,' in J. Davis, ed., *Stories of Change: Narrative and Social Movements*, Albany: SUNY Press, pp. 3–29.

Davis, N. (1987) *Fiction in the Archives: Pardon Tales and Their Tellers in Sixteenth-Century France*, Stanford CA: Stanford University Press.

Deane, S. (1990) 'After the Bloc Party,' *Wilson Quarterly*, vol. 14, no. 2, p. 48.

Deleuze, G., and F. Guattari (1987) *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia*, trans. B. Massumi. Minneapolis: University of Minnesota Press.

——— and C. Parnet (1983) 'Politics,' in *On the Line*, trans. J. Johnson, New York: Semiotext(e), pp. 68–115.

Didion, J. (1979) *The White Album*, New York: Noonday Press.

Doniger, W. (2000) 'Can You Spot the Source? *Harry Potter and the Prisoner of Azkaban*,' *London Review of Books*, vol. 22, no. 4, pp. 26–7.

Dorsey, M. (2006) *Pachangas: Borderlands Music, U.S. Politics, and Transnational Marketing*, Austin: University of Texas Press.

Doty, M. (1996), 'Myth,' in T. Enos, ed., *Encyclopedia of Rhetoric and Composition: Communication from Ancient Times to the Information Age*, New York: Garland, pp. 449–52.

Dovlo, E. (2002) 'Rastafari, African Hebrews, and Black Muslims: Return "Home" Movements in Ghana,' *Exchange*, vol. 31, no. 1, pp. 2–22.

Dubois, L. (2004) *Avengers of the New World: The Story of the Haitian Revolution*, Cambridge MA: Belknap Press.

Duiker, W. (2001) *Ho Chi Minh: A Life*, New York: Hyperion.

Dunbar-Ortiz, R. (1997) *Red Dirt: Growing Up Okie*, London: Verso.

Dundes, A., ed. (1982) *Cinderella: A Folklore Casebook*, New York: Garland.

Dunér, B. (2005) 'Rebellion: The Ultimate Human Right?' *International Journal of Human Rights*, vol. 9, no. 2, pp. 247–69.

Dunn, J. (1989) *Modern Revolutions: An Introduction to the Analysis of a Political Phenomenon*, 2nd edn, Cambridge: Cambridge University Press.

——— (1995) 'Conclusion,' in T. Saich and H. Van De Ven, eds, *New Perspectives on the Chinese Communist Revolution*, Armonk: M.E. Sharpe, pp 388–99.

——— (2008) 'Understanding Revolution,' in J. Foran, D. Lane and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World*, New York: Routledge, pp. 17–26.

Durschmied, E. (2001) *Blood of Revolution: From the Reign of Terror to the Rise of Khomeini*, New York: Arcade.

Dyck, I. (1993) 'Local Attachments, National Identities and World Citizenship in the Thought of Thomas Paine,' *History Workshop Journal* 35, pp. 117–35.

Eckstein, S. (2001) 'Power and Popular Protest in Latin America,' in S. Eckstein, ed., *Power and Popular Protest: Latin American Social Movements*, Berkeley: University of California Press.
Egerton, D. (2002) *Rebels, Reformers, and Revolutionaries: Collected Essays and Second Thoughts*, New York: Routledge.
Eichner, C. (2004) *Surmounting the Barricades: Women in the Paris Commune*, Bloomington: Indiana University Press.
Eliade, M. (1953) *Myth and Reality*, trans. W. Trask, New York: Harper & Row.
Elliott, Jane (2005) *Using Narrative in Social Research: Qualitative and Quantitative Approaches*. Thousand Oaks: Sage Publications.
Emerson, R. (1994) 'Hymn,' *Ralph Waldo Emerson: Collected Poems and Translations* New York: Library of America, p. 125.
Engels, F. (1978) 'Introduction' to K. Marx, *The Civil War in France, March–May 1871*, in R. Tucker, ed., *The Marx–Engels Reader* 2nd edn, New York: W.W. Norton, pp. 618–52.
Evans, M. (1997), *The Memory of Resistance: French Opposition to the Algerian War (1954–1962)*, 2nd edn, Oxford: Berg.
Fanon, F. (1965) *The Wretched of the Earth*, New York: Grove Press.
Faulkner, W. (1951) *Requiem for a Nun*, New York: Random House.
Fauriol, G. (1996) 'Haiti: The Failures of Governance,' in H. Wiarda and H. Kline, eds, *Latin American Politics and Development*, 4th edn, Boulder CO: Westview Press, pp. 517–30.
Fentress, J., and C. Wickham (1992) *Social Memory*, Oxford: Blackwell.
Fejer, F. (1990) 'Introduction,' in F. Feher, ed., *The French Revolution and the Birth of Modernity*, Berkeley: University of California Press, pp. 1–10.
Ferguson, J. (1993) 'The Duvalier Dictatorship and Its Legacy of Crisis in Haiti,' in A. Payne and P. Sutton, eds, *Modern Caribbean Politics*, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 73–97.
——— (1999) *The Story of the Caribbean People*, Kingston: Ian Randle.
Ferguson, N. (2004) *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power* New York: Basic Books.
Figes, O. (1996) *A People's Tragedy: A History of the Russian Revolution*. New York: Viking.
Finley, M. (1986) 'Revolution in Antiquity,' in R. Porter and M. Teich, eds, *Revolution in History*, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 47–60.
Firchow, P. (2009) '¿Que se vayan todos? Revolutionary Changes and Changes in Revolution at the Dawn of the 21st Century in Buenos Aires, Argentina,' Ph.D. dissertation, Geneva: Graduate Institute of International and Development Studies.
Fischer, J. (2006) 'The Free Will Revolution (Continued),' *Journal of Ethics*, vol. 10, no. 3, pp. 315–45.
Foley, M. (1993) 'Organizing, Ideology, and Moral Suasion: Political Discourse and Action in a Mexican Town,' in D. Levine, ed., *Constructing Culture and Power in Latin America*, Ann Arbor: University of Michigan Press, pp. 227–66.
Foran, J. (1992) 'A Theory of Third World Social Revolutions: Iran, Nicaragua, and El Salvador Compared,' *Critical Sociology*, vol. 19, no. 2, pp. 3–27.

——— (1993a) 'Theories of Revolution Revisited: Toward a Fourth Generation?' *Sociological Theory*, vol. 11, no. 1, pp. 1–20.
——— (1993b) *Fragile Resistance: Social Transformation in Iran from 1500 to the Revolution*, Boulder CO: Westview.
——— (1997a) 'Discourses and Social Forces: The Role of Culture and Cultural Studies in Understanding Revolutions,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 203–06.
——— (1997b) 'The Comparative-Historical Sociology of Third World Social Revolutions: Why a Few Succeed, Why Most Fail,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 227–67.
——— (2005) *Taking Power: On the Origins of Third World Revolutions*, Cambridge: Cambridge University Press.
Foran, J., et al. (2003) 'How Might Revolutions of the Future Have Better Outcomes? Third Thematic Discussion,' in J. Foran, ed. *The Future of Revolutions in the Context of Globalization*, London: Zed Books, pp. 284–99.
Foran, J., J. Goldstone and E. Selbin (forthcoming) *Understanding Revolution*, Thousand Oaks: Pine Forge Press.
Foran, J., and J. Goodwin (1993) 'Revolutionary Outcomes in Iran and Nicaragua: Coalition Fragmentation, War, and the Limits of Social Transformation,' *Theory and Society*, vol. 22, no. 2, pp. 209–47.
Forsdick, C. (2008) 'Interpreting 2004: Politics, Memory, Scholarship,' *Small Axe* 27: 1–13.
Foucault, M. (1973) *The Order of Things*. New York: Random House.
——— (1977a) 'Nietzsche, Genealogy, History,' in D. Bouchard, ed. *Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews* Ithaca: Cornell University Press, pp. 139–64.
——— (1977b) 'Film and Popular Memory: Cahiers du Cinéma/Extracts' *Edinburgh '77 Magazine*, no. 2, pp. 20–5.
Freire, P. (1970) *Pedagogy of the Oppressed*, New York: Herder and Herder.
Friedman, T. (2000) *The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization*, rev. edn, New York: Farrar, Straus & Giroux.
Fritzsche, P. (2001) 'The Case of Modern Memory,' *Journal of Modern History*, vol. 73, no. 1, pp. 87–117.
Fuentes, C. (1996) *A New Time for Mexico*, trans. M. Castañeda and C. Fuentes, New York: Farrar, Straus & Giroux.
Fulbrook, M. (2004) *A Concise History of Germany*. Cambridge: Cambridge University Press.
Furet, F. (1981) *Interpreting the French Revolution*, Cambridge: Cambridge University Press.
——— (1999) *The Passing of an Illusion: The Idea of Communism in the Twentieth Century* Chicago: University of Chicago Press.
Futrell, A. (2001) 'Seeing Red: Spartacus as Domestic Economist,' in S. Joshel, M. Malamud, D. McGuire, Jr., eds, *Imperial Projections: Ancient Rome in Modern Popular Culture*, Baltimore MD: Johns Hopkins University Press, pp. 77–118.
Gaines, J. (1999) 'Political Mimesis,' in J. Gaines and M. Renov, eds, *Collecting Visible Evidence*, Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 84–102.

Galeano, E. (1985) *Memory of Fire I: Genesis*, New York: Pantheon Books.
Garton Ash, T. (1989a) 'Refolution: The Springtime of Two Nations,' *New York Review of Books*, vol. 36, no. 10, pp. 3–10.
——— (1989b) 'Refolution in Hungry and Poland,' *New York Review of Books*, vol. 36, no. 13, pp. 9–15.
——— (1990) *The Uses of Adversity: Essays on the Fate of Central Europe*, New York: Vintage.
Gauthier, F. (2007) 'The French Revolution: The Rights of Man and the Citizen,' in M. Haynes and J. Wolfrey, eds, *History and Revolution: Refuting Revisionism*, New York: Verso, pp. 71–92.
Geary, D. (1989) *Labour and Socialist Movements in Europe Before 1914*, Oxford: Berg.
Geertz, C. (2000) 'Indonesia: Starting Over,' *New York Review of Books*, vol. 47, no. 8, pp. 22–25.
Genovese, E. (1992) *From Rebellion to Revolution: Afro-American Slave Revolts in the Making of the Modern World*, Baton Rouge: Louisiana State University Press.
Getson, J. (2002) 'Western Fantasies of the East,' unpublished manuscript.
Gilbert, D. (2003) 'Emiliano Zapata: Textbook Hero,' *Mexican Studies/Estudios Mexicanos*, vol. 19, no. 1, pp. 127–59.
Gildea, R. (1994) *The Past in French History*, New Haven CT: Yale University Press.
Gilly, A. (2003) 'Globalization, Violence and Revolutions: Nine Theses,' in J. Foran, ed., *The Future of Revolutions: Rethinking Radical Change in the Age of Globalization*, London: Zed Books, pp. 107–24.
——— (2005a) *The Mexican Revolution: A People's History*, rev. edn, New York: New Press.
——— (2005b) 'Bolivia: A 21st-Century Revolution,' *Socialism and Democracy*, vol. 19, no. 3, pp. 41–54.
Girard, R. (1996) 'Mimesis and Violence,' in *The Girard Reader*, ed. J. Williams, New York: Crossroads Publishing, pp. 9–19.
Gittings, J. (2007) 'A Historical View of Western Reporting on China,' *China Media Research*, vol. 3, no. 1, pp. 61–4.
Glassie, H. (1982) *Passing the Time in Ballymenone: Culture and History of an Ulster Community*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
Goldhurst, R. (1978) *The Midnight War: The American Intervention in Russia*, New York: McGraw-Hill.
Goldstone, J. (1980) 'Theories of Revolution: The Third Generation,' *World Politics*, vol. 23. no. 3, pp. 425–53.
——— (1991) *Revolution and Rebellion in the Early Modern World*, Berkeley: University of California Press.
——— (2001) 'Revolutions: Toward a Fourth Generation of Revolutionary Theory,' *Annual Review of Political Science*, vol. 4, pp. 139–87.
——— (2003) 'Revolution in the U.S.S.R, 1989–1991,' in J. Goldstone, ed., *Revolutions: Theoretical, Comparative, and Historical Studies*, 3rd edn, Belmont: Thomson Wadsworth, pp. 262–71.

——— (2009) 'Revolution' *Handbook of Comparative Politics*, Beverly Hills: Sage.

Gonzales, M. (2002) *The Mexican Revolution, 1910–1940*, Albuquerque: University of New Mexico Press.

Goodwin, J. (2001) *No Other Way Out: States and Revolutionary Movements, 1945–1991*, Cambridge: Cambridge University Press.

Goodwin, J., and Skocpol, T. (1989) 'Explaining Revolutions in the Contemporary Third World,' *Politics and Society*, vol. 1, no. 4, pp. 489–509.

Gopnik, A. (2002) 'Magic Kingdoms: What is a Fairy Tale, Anyway?' *New Yorker*, 9 December, pp. 136–40.

Gottschalk, P. (2000) *Beyond Hindu and Muslim: Multiple Identity in Narratives from Village India*, Oxford: Oxford University Press.

Gould, S. (1981) *The Mismeasure of Man*, New York: W.W. Norton.

Gray, G. (1872) *The Children's Crusade: An Episode of the 13th Century* New York: Hurd & Houghton.

Gray, O. (2004) *Demeaned but Empowered: The Social Power of the Urban Poor in Jamaica*, Kingston: University of the West Indies Press.

Graziano, F. (1992) *Divine Violence: Spectacle, Psychosexuality, and Radical Christianity in the Argentine 'Dirty War'*. Boulder CO: Westview Press.

Griswold, W. (1998) 'Review of *Creating Country Music: Fabricating Authenticity*,' *Contemporary Sociology*, vol. 27, no. 3, pp. 274–5.

Groves, J., and K. Chang (1999) 'Romancing Resistance and Resisting Romance,' *Journal of Contemporary Ethnography*, vol. 28, no. 3, pp. 235–65.

Guevara, E. (1967a) 'Notes on Man and Socialism in Cuba,' in G. Levin, ed., *Che Guevara Speaks*, New York: Pathfinder Press, pp. 121–38.

——— (1967b) 'Farewell Letter to His Parents,' in G. Levin, ed., *Che Guevara Speaks*, New York: Pathfinder Press, pp. 142–3.

——— (1987) 'To His Children,' in *Che Guevara and the Cuban Revolution: Writings and Speeches of Ernesto Che Guevara*, New York: Pathfinder Press, p. 371.

——— (1997). *Guerrilla Warfare*, ed. B. Loveman and T. Davies, Jr, Wilmington: Scholarly Resources Book.

Gullickson, G. (1996) *Unruly Women of Paris: Images of the Commune*, Ithaca NY: Cornell University Press.

Gutiérrez, G. (1983) *The Power of the Poor in History: Selected Writings*, trans. R. Barr, Maryknoll: Orbis Books.

Hadden, S. (2001) *Slave Patrols: Law and Violence in Virginia and the Carolinas*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Halbwachs, M. (1980) *The Collective Memory*, New York: Harper Colophon.

——— (19[illegible]) *[illegible] Collective Memory*, trans. L. Coser, ed., Chicago: University of Chicago Press.

Halliday, F. (1999) *Revolution and World Politics: The Rise and Fall of the Sixth Great Power*, Durham: Duke University Press.

Halpern, M. (1971) 'A Redefinition of the Revolutionary Situation,' in N. Miller and R. Aya, eds, *A[illegible]onal Liberation: Revolution in the Third World* New York: Free Press, pp. 14–47.

Halpern, S. (2008) *Can't Remember What I Forgot: The Good News from the Front Lines of Memory Research*. New York: Harmony Books.

Haraway, D. (1991) 'A Cyborg Manifesto: Science, Technology, and Socialist-Feminism in the Late Twentieth Century,' in *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature*, New York: Routledge, pp. 149–181.

Hardt, M., and A. Negri (2000) *Empire*, Cambridge MA: Harvard University Press.

——— (2004) *Multitude: War and Democracy in the Age of Empire*. New York: Penguin Press.

Hart, J. (1997) *Revolutionary Mexico: The Coming and Process of the Mexican Revolution: Tenth Anniversary Edition*, Berkeley: University of California Press.

——— (2006) *Empire and Revolution: The Americans in Mexico since the Civil War*, Berkeley: University of California Press.

Harvey, A. (1994) *Collision of Empires: Britain in Three World Wars, 1793–1945*. London: Weidenfeld & Nicolson.

Harvey, D. (1979) 'Monument and Myth,' *Annals of the Association of American Geographers*, vol. 69, no. 3, pp. 362–81.

——— (2003) *Paris, Capital of Modernity*, London: Routledge.

Harvey, N. (1998) *The Chiapas Rebellion: The Struggle for Land and Democracy*, Durham NC: Duke University Press.

Hayslip, L. (1989) *When Heaven and Earth Changed Places*, New York: Doubleday.

Hegel, G. (2009) *The Philosophy of History*, Scotts Valley: IAP.

Heine, J., ed. (1991) *A Revolution Aborted: The Lessons of Grenada*. Pittsburgh: University of Pittsburg Press.

Heiner, H. (2007) 'History of Cinderella: Part of the SurLaLune Fairy Tales Pages,' at www.surlalunefairytales.com/cinderella/ history.html.

Higgins, B., and J. Higgins (1963) *Indonesia: The Crisis of the Millstones*, Princeton NJ: Van Nostrand.

Higgins, N. (2000) 'The Zapatista Uprising and the Poetics of Cultural Resistance,' *Alternatives*, vol. 25, no. 3, pp. 359–74.

Higonnet, P. (1990) 'Cultural Upheaval and Class Formation during the French Revolution,' in F. Feher, ed., *The French Revolution and the Birth of Modernity*. Berkeley: University of California Press, pp. 69–102.

——— (1998) *Goodness Beyond Virtue: Jacobins during the French Revolution*, Cambridge MA: Harvard University Press.

——— (2005) *Paris: Capital of the World*, trans. A. Goldhammer, Cambridge MA: Belknap Press.

Hill, C. (1940) *The English Revolution, 1640*, London: Lawrence & Wishart.

——— (1961) *The Century of Revolution, 1603–1714*, Edinburgh: T. Nelson.

——— (1984) *The World Turned Upside Down: Radical Ideas During the English Revolution* New York: Penguin.

——— (1985) 'Radical Pirates?' in *The Collected Essays of Christopher Hill*, Amherst: University of Massachusetts Press, pp. 161–87.

——— (1997a) *Intellectual Origins of the English Revolution*, rev. edn, New York: Oxford University Press.

——— (1997b) *Puritanism and Revolution: Studies in Interpretation of the English Revolution of the 17th Century*, Palgrave Macmillan.

Hinchman, L., and S. Hinchman (1997) 'Introduction,' in L.P. Hinchman and S.K. Hinchman, eds, *Memory, Identity, Community: The Idea of Narrative in the Human Sciences*, New York: State University of New York Press, pp. xiii–xxxii.

Hobbes, T. (1998) *On the Citizen*, Cambridge: Cambridge University Press.

——— (2008) *Leviathan: Or the Matter, Forme, and Power of a Commonwealth Ecclesiasticall and Civil*, ed. M. Oakeshott, New York: Touchstone Books.

Hobsbawm, E. (1965) *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movement in the 19th and 20th Centuries* New York: W.W. Norton.

——— (1983) 'Introduction: Inventing Traditions,' in E. Hobsbawm and T. Ranger, eds, *The Invention of Tradition*, Cambridge: Cambridge University Press, 1983, pp. 1–14.

——— (1986) 'Revolution,' in R. Porter and M. Teich, eds, *Revolution in History*, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 5–46.

——— (1988) 'Working-class Internationalism,' in F. Van Holthoon and M. Van Der Linden, eds, *Internationalism in the Labour Movement 1830–1940*, Leiden: E.J. Brill, pp. 3–16.

——— (1990) 'The Making of a 'Bourgeois Revolution,' in F. Feher, ed., *The French Revolution and the Birth of Modernity*, Berkeley: University of California Press, pp. 30–48.

——— (1993) 'The New Threat to History,' *New York Review*, vol. 40, no. 21, pp. 62–4.

——— (1996a) *The Age of Revolution, 1789–1848* New York: Vintage.

——— (1996b) *The Age of Capital, 1848–1875* New York: Vintage.

——— (2000) *Bandits*, rev. edn New York: New Press.

Hodges, D. (1986) *Intellectual Foundations of the Nicaraguan Revolution*, Austin: University of Texas.

Hodge, M., and C. Searle, eds (1981) *'Is Freedom We Making': The New Democracy in Grenada*, St. Georges: Government Information Service.

Hofstadter, R. (1948) *The American Political Tradition and the Men Who Made It*, New York: Knopf.

Hollander, J., and R. Einwohner (2004), 'Conceptualizing Resistance,' *Sociological Forum*, vol. 19, no. 4, pp. 533–54.

Holloway, J. (2002) *Change the World Without Taking Power: The Meaning of Revolution Today*, London: Pluto Press.

hooks, b. (1995) 'Black Vernacular: Architecture as Cultural Practice,' *Art on My Mind*, New York: New Press, pp. 145–51.

Horne, A. (1965) *The Fall of Paris: The Siege and the Commune 1870–71*, London, Macmillan.

Horowitz, I. (1972) *Foundations of Political Sociology*, New York: Harper & Row.

Horsley, R., and K. Stendahl (2000) *Paul and Politics: Ekklesia, Israel, Imperium, Interpretation*, Philadelphia: Trinity Press International.

Hughes, R. (2004) *Myths America Lives By*, Urbana: University of Illinois Press.
Hunt, L. (1984) *Politics, Culture and Class in the French Revolution*, Berkeley: University of California Press.
Huntington, S. (1968) *Political Order in Changing Societies*, New Haven CT: Yale University Press.
Hussey, A. (2005) '"Like a Pack of Bastard Dogs": Agitators, Rebels, and the Revolutionary Mentality in Paris,' *Parallax*, vol. 11, no. 4, pp. 23–30.
Huyssen, A. (2000) 'Of Mice and Mimesis: Reading Spiegelman with Adorno,' *New German Critique* 81, pp. 65–82.
Iggers, G. (1962) 'The Image of Ranke in American and German Historical Thought,' *History and Theory*, vol. 2, no. 1, pp. 17–40.
James, C.L.R. (1989) *The Black Jacobins: Toussaint L'Ouverture and the San Domingo Revolution*, 2nd edn, New York: Vintage.
James, W. (1999) *Holding Aloft the Banner of Ethiopia: Caribbean Radicalism in Early Twentieth Century America*, London: Verso.
Jameson, R. (1982) 'Cinderella in China,' in A. Dundes, ed., *Cinderella: A Folklore Casebook*, New York: Garland, pp. 71–97.
Jefferson, T. (1955a) 'Letter to James Madison 30 January 1787,' in J. Boyd, ed., *The Papers of Thomas Jefferson*, vol. 11, Princeton NJ: Princeton University Press, pp. 92–7.
——— (1955b) 'Letter to William Stephens Smith 13 November 1787,' in J. Boyd, ed., *The Papers of Thomas Jefferson*, vol. 12, Princeton NJ: Princeton University Press, pp. 355–7.
Jinadu, A. (1986) *Fanon: In Search of African Revolution*, London: Taylor & Francis.
Johnson, P. (1992) *Modern Times: The World from the Twenties to the Nineties*, New York: Harper Perennial.
Judson, C. (1984) *Cuba and the Revolutionary Myth: The Political Education of the Cuban Rebel Army, 1953–1963*, Boulder CO: Westview Press.
K'Meyer, T. (1996) 'Shared Memory in Community: Oral History, Community and Race Relations,' in V. Amit-Talai and C. Knowles, eds, *Resituating Identities: The Politics of Race, Ethnicity and Culture*, Ontario: Broadview Press, pp. 218–39.
Kampwirth, K. (2002) *Women and Guerrilla Movements: Nicaragua, El Salvador, Chiapas, Cuba*, University Park: Pennsylvania State University Press.
Kandel, E. (2006) *In Search of Memory: The Emergence of a New Science of the Mind*, New York: W.W. Norton.
Kaplan, S. (1995) *Farewell Revolution: The Historians Dispute, 1789/1989*, Ithaca NY: Cornell University Press.
Katz, F. (1998) *The Life and Times of Pancho Villa*, Stanford CA: Stanford University Press.
Keane, J. (1995) *Tom Paine: A Political Life*, New York: Little, Brown.
Khasnabish, A. (2007) 'Insurgent Imaginations,' *Ephemera*, vol. 7, no. 4, pp. 505–25.

Kimmel, M. (1990) *Revolution: A Sociological Interpretation*, Philadelphia: Temple University Press.
King, M.L., Jr (2004) 'I Have A Dream,' in *Ripples of Hope: Great American Civil Rights Speeches*, Josh Gottheimer, ed., New York: Basic Civitas Books.
King, S. (1998) 'International Reggae, Democratic Socialism, and the Secularization of the Rastafarian Movement, 1972–1980,' *Popular Music and Society*, vol. 22, no. 3, pp. 39–60.
Klíma, A. (1986) 'The Bourgeois Revolution of 1848–9 in Central Europe,' in R. Porter and M. Teich, eds, *Revolution in History*, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 74–100.
Knight, A. (1984) 'The Working Class and the Mexican Revolution, c. 1900–1920,' *Journal of Latin American Studies*, vol. 16, no. 1, pp. 51–79.
——— (1985) 'The Mexican Revolution: Bourgeois? Nationalist? Or just a "Great Rebellion"?' *Bulletin of Latin American Research*, vol. 4, no. 2, pp. 1–37.
——— (1990a) *The Mexican Revolution*, Volume 1: *Porfirians, Liberals, and Peasants* Lincoln: University of Nebraska Press.
——— (1990b) *The Mexican Revolution*, Volume 2: *Counter-revolution and Reconstruction*, Lincoln: University of Nebraska Press.
——— (2001) 'Democratic and Revolutionary Tradition in Latin America,' *Bulletin of Latin American Research*, vol. 20, no. 2, pp. 147–86.
Knight, F. (2000) 'The Haitian Revolution,' *The American Historical Review*, vol. 105, no. 1, pp. 103–15.
Kumar, K. (2001) *1989: Revolutionary Ideas and Ideals*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
——— (2008) 'The Future of Revolution: Imitation or Innovation?' in J. Foran, D. Lane and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World*, New York: Routledge, pp. 222–35.
Lachmann, R. (1997) 'Agents of Revolution; Elite Conflicts and Mass Mobilization From the Medici to Yeltsin,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 73–101.
Lahiri-Dutt, K. (2003) 'Unintended Collieries: People and Resources in Eastern India,' Resource Management in Asia-Pacific Working Paper no. 44, Canberra: Resource Management in Asia-Pacific Program, Research School for Pacific and Asian Studies, Australian National University, at rspas.anu.edu.au/papers/rmap/Wpapers/rmapwp44.rtf.
Landon, M. (1945) *Anna and the King of Siam*, Garden City: Garden City Publishing.
Landsberg, A. (2004) *Prosthetic Memory*, New York: Columbia University Press.
Lang, W. (1956) *The King and I*, Hollywood: 20th Century Fox.
Langley, S. (2004) 'Revisiting "Resistance": "The Peasantry" and Liberation/Development: The Case of Sandinismo in the 1980s,' *Social Analysis*, vol. 48, no. 1, pp. 179–95.
Lasky, M. (2004) *Utopia and Revolution: On the Origins of a Metaphor*, New Brunswick NJ: Transaction.
Lee, C. (2007) 'What Was Socialism to Chinese Workers? Collective Memories and Labor Politics in the Age of Reform,' in C. Lee and G Yang, eds, *Re-*

envisioning the Chinese Revolution: The Politics and Poetics of Collective Memories in Reform China, Washington DC: Woodrow Wilson Press, pp. 141–65.
Lee, C., and G. Yang (2007) 'Introduction: Memory, Power and Culture,' in C. Lee and G. Yang, eds, *Re-envisioning the Chinese Revolution: The Politics and Poetics of Collective Memories in Reform China*, Washington DC: Woodrow Wilson Press, pp. 1–20.
Lee, F. (2003) 'Once Upon a Time in Africa Updated: Folklore's Mythic Menagerie Finds a Wider Audience an the Americas,' *New York Times*, 16 July, pp. B1, 6.
Lenin, V.I. (1918a) 'The First Stage of the Revolution,' in V.I. Lenin and L. Trotsky, *The Proletarian Revolution in Russia*, ed. L. Farina, New York: Communist Press, pp. 3–61.
——— (1918b) 'The General Program of the Bolshviki,' in V.I. Lenin and L. Trotsky, *The Proletarian Revolution in Russia*, ed. L. Farina, New York: Communist Press, pp. 64–156.
——— (1964) 'Report on the Present Situation and the Attitude towards the Provisional Government April 14 (27),' from 'The Petrograd City Conference of the R.S.D.L.P. (Bolsheviks), April 14–22 (April 27–May 5), 1917,' in *Collected Works*, Moscow: Progress Publishers, pp. 139–66.
——— (1965) *The State and Revolution*, Peking: Foreign Languages Press.
——— (1980a) 'Two Tactics of Social Democracy in the Democratic Revolution,' in *V.I. Lenin: Selected Works in One Volume*, New York: International Publishers, pp. 50–147.
——— (1980b) '"Left-Wing" Communism – An Infantile Disorder,' in *V.I. Lenin: Selected Works in One Volume*, New York: International Publishers, pp. 516–91.
Levett, A. (1989), 'Psychological Trauma and Childhood,' *Psychology in Society* 12, pp. 19–32.
Lévi-Strauss, C. (1966) *The Savage Mind*, trans. J. and D. Weightman, Chicago: University of Chicago Press.
——— (1979) *Myth and Meaning*, New York: Schocken Books.
Lewis, B. (1975) *History: Remembered, Recovered, Invented*, Princeton NJ: Princeton University Press.
Lincoln, B. (1999) *Theorizing Myth: Narrative, Ideology, and Scholarship*, Chicago: University of Chicago Press.
Linebaugh, P., and M. Rediker (2000) *The Many-Headed Hydra: Sailors, Slaves, Commoners, and the Hidden History of the Revolutionary Atlantic*, Boston MA: Beacon Press.
Linstroth, J. (2000) 'The Basque Conflict Globally Speaking: Material Culture, Media and Basque Identity in the Wider World,' *Oxford Development Studies*, vol. 30, no. 2, pp. 205–22.
Lippens, R. (2003) 'The Imaginary of Zapatista Punishment and Justice: Speculations on the "First Postmodern Revolution",' *Punishment and Society*, vol. 5, no. 2, pp. 179–95.
Lipschutz, R. (2001) 'Because People Matter: Studying Global Political Economy,' *International Studies Perspectives*, vol. 2, no. 4, pp. 321–39.

Lipset, S., and G. Marks (2001) *It Didn't Happen Here: Why Socialism Failed in the United States*, New York: W.W. Norton.

Logan, R. (1971) *The Diplomatic Relations of the United States with Haiti, 1776–1891*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Lomparis, T. (1996) *From People's War to People's Rule: Insurgency, Intervention, and the Lessons of Vietnam*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Lowenthal, D. (1998) 'Fabricating Heritage' *History and Memory*, vol. 10, no. 1, pp. 5–24.

Lowenthal, I. (1976) 'Haiti: Behind Mountains, More Mountains,' *Reviews in Anthropology*, vol. 3, no. 6, pp. 656–69.

Lowy, M. (1973) *The Marxism of Che Guevara: Philosophy, Economics, and Revolutionary Warfare*, New York: Monthly Review Press.

Lynd, S., and A. Grubacic (2008) *Wobblies and Zapatistas: Conversations on Anarchism, Marxism and Radical History*, Oakland: PM Press.

McAdam, D., S. Tarrow and C. Tilly (1997) 'Towards an Integrated Perspective on Social Movements and Revolution,' in M. Lichbach, and A. Zuckerman, eds. *Comparative Politics: Rationality, Culture, and Structure*. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 142–73.

——— (2001) *Dynamics of Contention*. Cambridge: Cambridge University Press.

McAuley, C. (1997) 'Race and the Process of the American Revolution,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 168–202.

McFarland, D. (2004) 'Resistance as a Social Drama: A Study of Change-Oriented Encounters,' *American Journal of Sociology*, vol. 109, no. 6, pp. 1249–318.

Macfarlane, A. (1986) 'Socio-economic Revolution in England and the Origin of the Modern World,' in R. Porter and M. Teich, eds, *Revolution in History*. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 145–66.

McGranahan, C. (2005) 'Truth, Fear, and Lies: Exile Politics and Arrested Histories of the Tibetan Resistance,' *Cultural Anthropology*, vol. 20, no. 4, pp. 570–600.

Machiavelli, N. (1985) *The Prince*, ed. and trans. R. Adams, Chicago: University of Chicago Press.

Malia, M. (2006) *History's Locomotives: Revolutions and the Making of the Modern World*, New Haven CT: Yale University Press.

McLynn, F. (2001) *Villa and Zapata: A History of the Mexican Revolution*, New York: Carroll & Graff.

Manela, E. (2001) 'The Wilsonian Moment and the Rise of Anticolonial Nationalism: The Case of Egypt,' *Diplomacy and Statecraft*, vol. 12, no. 4, pp. 99–122.

McNeill, W. (2000) 'A Short History of Humanity,' *New York Review of Books*, vol. 47, no. 11, pp. 9–11.

Marcos, Subcomandante and Ejército Zapatista de Liberación Nacional (1998) *Zapatista Encuentro: Documents from the 1996 Encounter for Humanity and Against Neoliberalism, La Realidad, Mexico*, New York: Seven Stories Press.

Marcus, G. (1995) *The Dustbin of History*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Margalit, A. (2002) *The Ethics of Memory*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Markoff, J. (1997) 'Peasants Help Destroy an Old Regime and Defy a New One: Some Lessons from (and for) the Study of Social Movements,' *American Journal of Sociology*, vol. 102, no. 4, pp. 1113–42.

Marks, T. (2004) 'Ideology of Insurgency: New Ethnic Focus or Old Cold War Distortions?' *Small Wars and Insurgencies*, vol. 15, no. 1, pp. 107–28.

Marsh, D. (1992) *Louie Louie: The History and Mythology of the World's Most Famous Rock'n'Roll Song Including the Full Details of its Torture and Persecution at the Hands of the Kingsmen, J. Edgar Hoover's FBI, and a Cast of Millions and Introducing, For the First Time Anywhere, the Actual Dirty Lyrics*, New York: Hyperion.

Martin, J. (1992) 'When the People Were Strong and United: Stories of the Past and the Transformation of Politics in a Mexican Community,' in C. Nordstrom and J. Martin, eds, *The Paths to Domination, Resistance, and Terror*, Berkeley: University of California, pp. 177–89.

Marx, K. (1861) 'Marx to Engels in Manchester,' at www.marxists.org/archive/marx/works/1861/letters/61_02_27.htm.

——— (1871) 'Marx to Dr. Kugelmann Concerning the Paris Commune,' at www.marxists.org/archive/marx/works/1871/letters/71_04_17.htm.

——— (1978a) 'The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte,' in R. Tucker, ed., *The Marx–Engels Reader*, 2nd edn, New York: W.W. Norton, pp. 594–617.

——— (1978b) *The Civil War in France, March–May 1871*, in R. Tucker, ed., *The Marx–Engels Reader* 2nd edn, New York: W.W. Norton, pp. 618–52.

Marx, K., and F. Engels (1978) 'Manifesto of the Communist Party,' in R. Tucker, ed., *The Marx–Engels Reader*, 2nd edn, New York: W.W. Norton, pp. 469–500.

Massey, D. (1987) *Nicaragua: Some Urban and Regional Issues in a Society in Transition*, Philadelphia: Open University.

Masters, D. (2004) 'Support and Nonsupport for Nationalist Rebellion: A Prospect Theory Approach,' *Political Psychology*, vol. 25, no. 5, pp. 703–26.

Maxwell, K. (1983) *Bemba Myth and Ritual*, New York: Peter Lang.

Mayer, A. (2001) 'Response,' *French Historical Studies*, vol. 24, no. 4, pp. 589–600.

Meeks, B. (2001) *Caribbean Revolutions and Revolutionary Theory: An Assessment of Cuba, Nicaragua, and Grenada*, Kingston: University of the West Indies Press.

Meltzer, M. (1993) *Slavery: A World History*, vol. 2, updated edn, New York: Da Capo Press.

Menchú, R. (1987) *I Rigoberta Menchú*, ed. Elizabeth Burgos-Debray, trans. A. Wright, London: Verso.

Mendelsohn, D. (2008) 'Arms and the Man: What Was Herodotus Trying to Tell Us?' *New Yorker*, 28 April, pp. 72–78.

Merseyside Fairy Stories Collective (1989) 'Snow White,' in J. Zipes, ed., *Don't Bet on the Prince: Contemporary Feminist Fairy Tales in North America and England*, London: Routledge, pp. 74–80.

Merton, R. (1967) *On Theoretical Sociology*, New York: Free Press.

Meyer, D. (2006) 'Claiming Credit: Stories of Movement Influence as Outcomes.' *Mobilization*, vol. 11, no. 3, pp. 201–9.
Miller, M. (1998) 'Kwame Ture: Memories,' *Social Policy*, vol. 29, no. 2, pp. 31–40.
Mommsen, W. (1990) *Max Weber and German Politics, 1890–1920*, Chicago: University of Chicago Press.
Moore, B. (1966) *Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern* World Boston: Beacon Press.
Moore, P. (2002) *Stamping Out the Virus: Allied Intervention in Russia*, Atglen: Schiffer.
Mornet, D. (1933) *Les origines intellectuelles de la révolution française (1715–1787)* Paris: A. Colin.
Muir-Broaddus, J. (2005) Personal communication.
Mulholland, M. (2007) 'Mariachi, Myths and Mestizaje: Popular Culture and Mexican National Identity,' *National Identities*, vol. 9, no. 3, pp. 247–64.
Myrdal, G. (1968) *Asian Drama: An Inquiry Into the Poverty of Nations*, Volume I, New York: Pantheon.
Nash, G. (2005) *The Unknown American Revolution: The Unruly Birth of Democracy and the Struggle to Create America* New York: Viking.
Negri, A. (2008) 'Afterword: On the Concept of Revolution,' in J. Foran, D. Lane and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World*, New York: Routledge, pp. 252–60.
Nesbitt, N. (2008) 'Turning the Tide: The Problem of Popular Insurgency in Haitian Revolutionary Historiography,' *Small Axe* 27: 14–31.
Newell, P. (1997) *Zapata of Mexico*, Montreal: Black Rose Books.
Nicolaisen, W. (1990) 'Why Tell Stories?' *Fabula*, vol. 31, no. 1/2, pp. 5–10.
Niemi, L., and E. Ellis (2001) *Inviting the Wolf In: Thinking about Difficult Stories*, Little Rock: August House.
Nimtz, A. (2002) 'Marx and Engels: The Prototypical Transnational Actors,' in S. Khagram, J. Riker, and K. Sikkink, eds, *Restructuring World Politics: Transnational Social Movements, Networks, and Norms*, Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 245–68.
Nisbett, R., and T. Wilson (1977), 'Telling More Than We Can Know: Verbal Reports on Mental Processes,' *Psychological Review*, vol. 84, no. 3, pp. 231–59.
Nodia, G. (2000) 'The End of Revolution?' *Journal of Democracy* vol. 11, no. 1, pp. 164–71.
Obama, B. (2009) Inaugural address, transcript, at www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=99590481.
Okri, B. (1996) *The Birds of Heaven*, London: Phoenix.
Omved, G. (1992) *Reinventing Revolution: New Social Movements and the Socialist Tradition in India*, Armonk: M.E. Sharpe.
Orwell, G. (1938) *Homage to Catalonia*, London: Secker & Warburg.
——— (1992) *1984*, New York: Knopf Everyman's.
Ozment, S. (1981) *The Age of Reform, 1250–1550: An Intellectual and Religious History of Late Medieval and Reformation Europe*, New Haven CT: Yale University Press.

Ozouf, M. (1989) 'Fraternity,' in F. Furet and M. Ozouf, eds, *A Critical Dictionary of the French Revolution* Cambridge MA: Harvard University Press, pp. 694–703.
——— (1991) *Festivals and the French Revolution*, trans. A. Sheridan. Cambridge MA: Harvard University Press.
——— (1998) 'Liberty, Equality, Fraternity,' in P. Nora, ed., *Realms of Memory* New York: Columbia, pp. 77–116.
Paige, J. (1997) *Coffee and Power: Revolution and the Rise of Democracy in Central America*. Cambridge MA: Harvard University Press.
——— (2003) 'Finding the Revolutionary in the Revolution: Social Science Concepts and the Future of Revolution,' in John Foran, ed., *The Future of Revolutions*, London: Zed Books, pp. 19–29.
Paine, T. (2000) *Paine: Political Writings*, ed. B. Kuklick, 2nd edn. Cambridge: Cambridge University Press.
Palmer, R. (1959) *The Age of Democratic Revolution*, Volume I, Princeton NJ: Princeton University Press.
Panton, D. (1993) *Jamaica's Michael Manley: The Great Transformation (1972–94)*, Kingston: Kingston Press.
Parelli, C. (1989) 'The Use of Conservatism: Women's Democratic Politics in Uruguay,' in J. Jaquette, ed., *The Women's Movement in Latin America: Feminism and the Transition to Democracy*, Boston: Unwin, Hymin, pp. 95–113.
Parker, N. (1999) *Revolutions and History: An Essay in Interpretation*, Cambridge: Polity Press.
——— (2003) 'Parallaxes: Revolutions and 'Revolution' in Globalized Imaginary,' in J. Foran, ed., *The Future of Revolutions: Rethinking Radical Change in the Age of Globalization* London: Zed Books, pp. 42–56.
Parrington, A., ed. (1992) *The Oxford Dictionary of Quotations*, 4th edn. Oxford: Oxford University Press.
Parsa, M. (2000) *States, Ideologies, and Social Revolutions: A Comparative Analysis of Iran, Nicaragua, and the Philippines*, Cambridge: Cambridge University Press.
Passerini, L. (1989) 'Women's Personal Narratives: Myths, Experiences, and Emotions,' in Personal Narratives Group, eds, *Interpreting Women's Lives*, Bloomington: Indiana University Press.
Paz, O. (1975) 'Introduction' to Elena Poniatowski, *Massacre in Mexico*, trans. H. Lane, Columbia: University of Missouri, pp. vii–xvii.
Pellicani, L. (2002) 'Was Fascism Revolutionary?' *Telos* 122, pp. 59–79.
Pérez, L., Jr (1990) *Cuba and the United States: Ties of Singular Intimacy*, Athens: University of Georgia Press.
——— (1999) *On Becoming Cuban: Identity, Nationality, and Culture*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.
Pérez-Stable, M. (1998) 'Reflections on Historical Possibility,' in M. Hanagan, L. Moch, and W. TeBrake, eds, *Challenging Authority: The Historical Study of Contentious Politics*, Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 167–81.
——— (1999) *The Cuban Revolution: Origins, Course, and Legacy*, 2nd edn, New York: Oxford University Press.

Peris, D. (1995) 'Commissars in Red Cassocks: Former Priests in the League of the Militant Godless,' *Slavic Review*, vol. 54, no. 2, pp. 340–64.

——— (1998) *Storming the Heavens: The Soviet League of the Militant Godless*, Ithaca: Cornell University Press.

Perry, E. (1994) 'Casting a Chinese "Democracy" Movement: The Roles of Students, Workers, and Entrepreneurs,' in J. Wasserstrom and E. Perry, eds, *Popular Protest and Political Culture in Modern China*, 2nd edn, Boulder CO: Westview Press, pp. 74–92.

——— (2005) *Patrolling the Revolution: Worker Militias, Citizenship, and the Modern Chinese State*, Lanham MD: Rowman & Littlefield.

Philip, M. (1998) 'A Genealogy of Resistance,' Toronto: Mercury.

Pilbeam, P. (2001) 'Chasing Rainbows: The Nineteenth-Century Revolutionary Legacy,' in M. Donald and T. Rees, eds, *Reinterpreting Revolution in Twentieth-Century Europe* New York: St. Martin's Press, pp. 19–40.

Pino, O. (1975) 'The Influence of the Revolution on Cuban Spanish,' paper presented at the Annual Colloquium on Hispanic Linguistics, Tampa: University of South Florida.

Plumb, J. (1970) *The Death of the Past*, Boston: Houghton Mifflin.

Plummer, K. (1995) *Telling Sexual Stories: Power, Change, and Social Worlds*, London: Routledge.

Pogrebinschi, T. (2007a), 'Ordinary Democracy: Marx and Dewey on the Political Subject,' paper presented at the Annual Meeting of American Political Science Association.

——— (2007b), 'Democracy against the Law: A Marxian Standpoint,' paper presented at the Annual Meeting of American Political Science Association.

Polletta, F. (2006) *It Was Like a Fever: Storytelling in Protest and Politics*, Chicago: University of Chicago Press.

Polletta, F., and J. Lee (2006) 'Is Telling Stories Good for Democracy? Rhetoric in Public Deliberation After 9/11,' *American Sociological Review*, vol. 71, no. 5, pp. 699–723.

Popkin, J. (2007) *Facing Racial Revolution: Eyewitness Accounts of the Haitian Insurrection*, Chicago: University of Chicago Press.

Popkin, S. (1979) *The Rational Peasant: The Political Economy of Rural Society in Vietnam*, Berkeley: University of California Press.

Prins, G. (1998) 'The Four-stroke Cycle in Security Studies,' *International Affairs*, vol. 74, no. 4, pp. 781–808.

Protz, R. (1964) 'Millions of Britons See Malcolm X in TV Broadcast of Debate at Oxford,' *The Militant*, 14 December, p. 2.

Proust, M. (1981) *Remembrance of Things Past*, trans. C.K. Scott Moncrieff and T. Kilmartin, New York: Random House.

——— (1954) *À la recherche du temps perdu*, ed. Pierre Clarac and Andre Ferre, Paris: Gallimard.

Rabas, J. (1997) 'Of Zapatismo: Reflections on the Folkloric and the Impossible in a Subaltern Insurrection,' in L. Lowe and D. Lloyd, eds, *The Politics of Culture in the Shadow of Capital*, Durham: Duke University Press, pp. 399–431.

Ralston, W. (1982) 'Cinderella,' in Alan Dundes, ed., *Cinderella: A Folklore Casebook*, New York: Garland Publishing, pp. 30–56.
Reed, J. (1982) *Insurgent Mexico*, New York: International Publishers.
——— (1990) *Ten Days that Shook the World*, New York: Penguin.
Reed, J.P., and J. Foran (2002) 'Political Cultures of Opposition: Exploring Idioms, Ideologies, and Revolutionary Agency in the Case of Nicaragua,' *Critical Sociology* no. 28, no. 3, pp. 335–70.
Rees, T., and M. Donald (2001) 'The Dynamics and Meaning of Revolution in Twentieth-Century Europe,' in M. Donald and T. Rees, eds, *Reinterpreting Revolution in Twentieth-Century Europe* New York: St. Martin's Press, pp. 1–18.
Regis, L. (1999) *The Political Calypso: True Opposition in Trinidad and Tobago 1962–1987*, Gainesville: University Press of Florida.
Reiss, T. (1997) 'Caribbean Knights: Quijote, Galahad, and the Telling of History,' *Studies in the Novel*, vol. 29, no. 3, pp. 297–323.
Riall, L. (2007) *Garibaldi: Invention of a Hero*, New Haven CT: Yale University Press.
Richards, M. (2004) *Revolutions in World History*, New York: Routledge.
Roberts, J. (1976) 'Liberté, Egalité, Fraternité: Source and Development of a Slogan,' *Tijdschrift voor de Studie Van de Verlichting*, vol. 4, nos 3–4, pp. 329–69.
Rochefoucauld, F. de la (1896) *Maxims and Reflections Upon Man*, New York: Peter Eckler.
Rodgers, D. (2009) 'Searching for the Time of Beautiful Madness: Of Ruins and Revolution in Post-Sandinista Nicaragua,' in H. West and P. Raman, eds, *Enduring Socialism: Explorations of Revolution and Transformation, Restoration and Continuation*, Oxford: Berghahn Books, pp. 77–102.
Roman, P. (2003) *People's Power: Cuba's Experience with Representative Government*, Lanham MD: Rowman & Littlefield.
Romm, J. (1998) *Herodotus*, New Haven CT: Yale University Press.
Rooth, A. (1951) *Cinderella Cycle*, Lund: C.W.K. Gleerup.
——— (1982) 'Tradition Areas in Eurasia,' in A. Dundes, ed., *Cinderella: A Folklore Casebook*, New York: Garland, pp. 129–47.
Roseberry, W. (1989) 'Balinese Cockfights and the Seduction of Anthropology,' *Anthropologies and Histories: Essays in Culture, History, and Political Economy*, New Brunswick: Rutgers University Press, pp. 17–29.
Rosenau, J. (1980) 'Pre-theories and Theories of Foreign Policy,' in J. Rosenau, ed., *The Scientific Study of Foreign Policy: Essays on the Analysis of World Politics*, rev. edn, New York: Nichols, pp. 115–69.
Rosenberg, T. (1999) 'The Unfinished Revolution of 1989,' *Foreign Policy* 115, pp. 91–106.
Rosenberg, W., and M. Young (1982) *Transforming Russia and China: Revolutionary Struggle in the Twentieth Century*, New York: Oxford University Press.
Ross, R. (1996) *Storyteller*, 3rd rev. edn, Little Rock: August House.
Rowe, W., and V. Schelling (1991) *Memory and Modernity: Popular Culture in Latin America*, London: Verso.

Rueschemeyer, D. (2006) 'Why and How Ideas Matter,' in R. Goodin and C. Tilly, eds, *The Oxford Handbook of Contextual Political Analysis*. Oxford: Oxford University Press, pp. 227–51.

Russell, D.E.H. (1974) *Rebellion, Revolution and Armed Force: A Comparative Study of Fifteen Countries with Special Emphasis on Cuba and South Africa*, New York: Academic Press.

Ryan, H. (1998) *The Fall of Che Guevara: A Story of Soldiers, Spies, and Diplomats*, New York: Oxford University Press.

Said, E. (2003) *Orientalism: Western Conceptions of the Orient*, New York: Penguin Classics.

Sakwa, R. (2001) 'The Age of Paradox: The Anti-revolutionary Revolutions of 1989–91,' in M. Donald and T. Rees, eds, *Reinterpreting Revolution in Twentieth-Century Europe* New York: St. Martin's Press, pp. 150–76.

Saldaña-Portillo, M. (2003) *The Revolutionary Imagination in the Americas and the Age of Development*, Durham NC: Duke University Press.

Sánchez Lira, M., and R. Villarreal (1995) 'Mexico 1994: The Ruins of the Future,' in E. Katzenberger, ed., *First World, Ha, Ha, Ha! The Zapatista Challenge*, San Francisco: City Lights, pp. 223–34.

Saul, N. (2001) *War and Revolution: The United States and Russia, 1914–1921*, Lawrence: University of Kansas Press.

Saxton, G. (2005) 'Repression, Grievances, Mobilization, and Rebellion: A New Test of Gurr's Model of Ethnopolitical Rebellion,' *International Interactions*, vol. 31, no. 1, pp. 87–116.

Schacter, D. (2002) *The Seven Sins of Memory: How the Mind Forgets and Remembers*, New York: Houghton Mifflin.

Schatzman, C. (2005) 'Political Challenge in Latin America: Rebellion and Collective Protest in an Era of Democratization,' *Journal of Peace Research*, vol. 42, no. 3, pp. 291–310.

Schwartz, S. (1994) *Slaves, Peasants and Rebels: Reconsidering Brazilian Slavery*, Urbana: University of Illinois Press.

Scott, J. (1977) *The Moral Economy of the Peasant: Rebellion and Subsistence in Southeast Asia*, New Haven CT: Yale University Press.

——— (1985) *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance*, New Haven CT: Yale University Press.

——— (1990) *Domination and the Arts of Resistance: The Hidden Transcript of Subordinate Groups*, New Haven CT: Yale University Press.

Searle, C. (1984) *Words Unchained: Language and Revolution in Grenada*, London: Zed Books.

Selbin, E. (1994) Review of *State of the Peoples: A Global Human Rights Report on Societies in Danger*, in *Utne Reader* 61, pp. 117–18.

——— (1997a) 'Contentious Cartography: A Response to Contentious Politics,' *Mobilization*, vol. 2, no. 1, pp. 99–106.

——— (1997b) 'Revolution in the Real World: Bringing Agency Back In,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 123–36.

——— (1998) 'Ideology,' in J. Goldstone, ed., *The Encyclopedia of Political Revolutions*, Washington DC: Congressional Quarterly Press, pp. 229–31.

——— (1999) *Modern Latin American Revolutions*, 2nd edn, Boulder CO: Westview Press.

——— (2000) 'Same as It Ever Was: The Future of Revolution at the End of the Century,' in M. Katz, ed., *Revolution and International Relations: A Reader*, Washington DC: Congressional Quarterly Press, pp. 284–97.

——— (2003) 'Zapata's White Horse and Che's Beret: Theses on the Future of Revolution,' in J. Foran, ed. *The Future of Revolutions in the Context of Globalization*, London: Zed Books, pp. 83–94.

——— (2006) 'Elites, Intellectuals, and Revolutionary Leadership,' in J. DeFronzo, ed., *Revolutionary Movements in World History: From 1750 to the Present*, Santa Barbara: ABC-Clio, pp. 254–8.

——— (2008) 'Stories of Revolution in the Periphery,' in J. Foran, D. Lane, and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World: Social Identities, Globalization, and Modernity*, London: Routledge, pp. 130–47.

——— (2009a) 'Conjugating the Cuban Revolution: It Mattered, It Matters, It Will Matter,' *Latin American Perspectives*, vol. 36, no. 1, pp. 21–9.

——— (2009b) 'What Was Revolutionary About the Iranian Revolution? The Power of Possibility,' *Comparative Studies of South Asia, North Africa, and the Middle East*, vol. 29, no. 1, pp. 33–46.

Selbin, Marion Kilsheimer (2003) Personal communication.

Sellars, N. (1998) *Oil, Wheat and Wobblies: The Industrial Workers of the World in Oklahoma, 1905–1930*, Norman: University of Oklahoma Press.

Sewell, Jr., W. (1985) 'Ideologies and Social Revolutions: Reflections on the French Case,' *Journal of Modern History*, vol. 57, no. 1, pp. 57–85.

——— (1992) 'Introduction: Narratives and Social Identities,' *Social Science History*, vol. 16, no. 3, pp. 479–88.

——— (1996) 'Historical Events as Transformations of Structures: Inventing Revolution at the Bastille,' *Theory and Society*, vol. 25, no. 845, pp. 841–81.

——— (2004) 'The French Revolution and the Emergence of the Nation Form,' in M. Morrison and M. Zook, eds, *Revolutionary Currents: Nation Building in the Transatlantic World*, Lanham MD: Rowman & Littlefield, pp. 91–125.

——— (2005) *Logics of History: Social Theory and Social Transformation*, Chicago: University of Chicago Press.

Shafer, D. (2005) *The Paris Commune: French Politics, Culture, and Society at the Crossroads of the Revolutionary Tradition and Revolutionary Socialism*, London, Palgrave.

Shils, E. (2006), *Tradition*, Chicago: University of Chicago Press.

Sick, G. (1995) 'Iran: The Adolescent Revolution,' *Journal of International Affairs*, vol. 49, no. 1, pp. 145–66.

Simon, H. (1997) *Administrative Behavior*, 4th edn, New York: Free Press.

Sinclair, A. (1998) *Che Guevara*, Charleston: The History Press.

Singer, B. Jr (1986) *Society, Theory and the French Revolution: Studies in the Revolutionary Imaginary*, New York: Palgrave Macmillan.

Skocpol, T. (1979) *States and Social Revolutions: A Comparative Analysis of France, Russia and China*, Cambridge: Cambridge University Press.

——— (1982) 'Rentier State and Shi'a Islam in the Iranian Revolution,' *Theory and Society*, vol. 11, no. 3, pp. 265–83.
——— (1994) *Social Revolutions in the Modern World*, Cambridge: Cambridge University Press.
Skocpol, T., and M. Kestnbaum (1990) 'Mars Unshackled: Reconsidering the French Revolution in World-Historical Perspective,' in F. Feher, ed., *The French Revolution and the Birth of Modernity* Berkeley: University of California Press, pp. 13–29.
Smith, B.H. (1981) 'Afterthoughts on Narrative: Narrative Versions, Narrative Theories,' in W. Mitchell, ed., *On Narrative*, Chicago: University of Chicago Press, pp. 209–32.
Smith, R. (2003) *Stories of Peoplehood: The Politics and Morals of Political Membership*, Cambridge: Cambridge University Press.
Snuggs, C. (2007) 'Cinderella in Other Cultures: 3000 Varieties of Walt Disney's Princess around the World,' at http://childrens books.suite 101.com/article.cfm/cinderella_around_the_world.
Soboleva, N. (2008) 'From the History of Soviet Political Symbolism,' *Russian Studies in History*, vol. 47, no. 2, pp. 59–91.
Sohrabi, N. (2002) 'Global Waves, Local Actors: What the Young Turks Knew About Other Revolutions and Why It Mattered,' *Comparative Studies in Society and History*, vol. 44, no. 1, pp. 45–79.
Somers, M. (1992) 'Narrativity, Narrative Identity, and Social Action: Rethinking English Working-Class Formation,' *Social Science History*, vol. 16, no. 4, pp. 591–630.
Spenser, D. (1999) *The Impossible Triangle: Mexico, Soviet Russia, and the United States in the 1920s*, Durham NC: Duke University Press.
Spinoza, B. (1955) *A Theologico-Political Treatise, and A Political Treatise*. trans. R. Elwes, New York: Dover.
Steffens, L. (1931) *The Autobiography of Lincoln Steffens*, New York: Harcourt, Brace.
Steinmetz, G. (1992) 'Reflections on the Role of Social Narratives in Working-Class Formation: Narrative Theory in the Social Sciences,' *Social Science History*, vol. 16, no. 3, pp. 489–516.
Stephan, L. (2002) *Zapata Lives! Histories and Cultural Politics in Southern Mexico*, Berkeley: University of California Press.
Stigliano, T. (2002) 'Fascism's Mythologist: Mircea Eliade and the Politics of Myth,' *ReVision*, vol. 24, no. 3, pp. 32–8.
Stoff, L. (2006) *They Fought for the Motherland: Russia's Women Soldiers in World War I and the Revolution*, Lawrence: University Press of Kansas.
Stoll, D. (2000) *Rigoberta Menchú and the Story of All Poor Guatemalans*, Boulder CO: Westview.
Strassler, R., ed. (2007) *The Landmark Herodotus*, New York: Pantheon.
Sukarno (1970) 'The Dynamism of Revolution,' in H. Feith and L. Castles, eds, *Indonesian Political Thinking, 1945–1965*, Ithaca: Cornell University Press, pp. 111–16.

Sunshine, C. (1988) *The Caribbean: Survival, Struggle, and Sovereignty*, Boston: South End Press.
Sweig, J. (2004) *Inside the Cuban Revolution: Fidel Castro and the Urban Underground*, Cambridge MA: Harvard University Press.
Swettenham, J. (1967) *Allied Intervention in Russia, 1918–1919*, Toronto: Ryerson Press.
Swidler, A. (1986) 'Culture in Action: Symbols and Strategies,' *American Sociological Review*, vol. 51, no. 2, pp. 273–86.
Taheri, A. (1986) *The Spirit of Allah: Khomeini and the Iranian Revolution*, Bethesda: Adler & Adler.
Taibo II, P. (2000), *Just Passing Through*, trans. Martin Michael Roberts, El Paso: Cinco Puntos Press.
Tatar, M. (2002) *The Annotated Classic Fairy Tale*, New York: W.W. Norton.
Taussig, M. (1984) 'Culture of Terror – Space of Death: Roger Casement's Putumayo Report and the Explanation of Torture,' *Comparative Studies in Society and History*, vol. 26, no. 3, pp. 467–97.
——— (1993) *Mimesis and Alterity: A Particular History of the Senses*, New York: Routledge.
Taylor, L. (1999) 'The Magonista Revolt in Baja California: Capitalist Conspiracy or Rebelion de los Pobres?' *Journal of San Diego History*, vol. 45, no. 1, pp. 2–31.
Taylor, P., and H. Rebel (1981) 'Hessian Peasant Women, Their Families, and the Draft: A Socio-Historical Interpretation of Four Tales from the Rimm Collection,' *Journal of Family History*, vol. 6, pp. 347–78.
Thomas, P. (1998) *Revolutionaries*, Wilmington: Raintree Steck-Vaughn.
Thompson, N. (1996) *Herodotus and the Origins of the Political Community: Arion's Leap*, New Haven CT: Yale University Press.
Thompson, S. (1955–58) *Motif-Index of Folk Literature: A Classification of Narrative Elements in Folktales, Ballads, Myths, Fables, Mediaeval Romances, Exempla, Fabliaux, Jest Books, and Local Legends*, Vols 1–7, Bloomington: Indiana University Press.
Thucydides (1951) *The Complete Writings of Thucydides: History of the Peloponnesian War*, trans. J. Finley, New York: Modern Library.
Tilly, C. (1978) *From Mobilization to Revolution*, Reading: Addison-Wesley.
——— (1984) *Big Structures, Large Processes, Huge Comparisons*, Beverly Hills: Sage.
——— (1995) *European Revolutions, 1492–1992*, Oxford: Blackwell.
——— (1997) 'Kings in Beggar's Raiment,' *Mobilization*, vol. 2, no. 1, pp. 107–11.
——— (2002) 'The Trouble with Stories,' in *Stories, Identity, and Political Change*, Lanham: Rowman & Littlefield, pp. 25–42.
——— (2004) 'Afterword: Political Memories in Space and Time' in J. Boyarin, ed., *Remapping Memory: The Politics of TimeSpace*, Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 241–56.
——— (2006) *Regimes and Repertoires*, Chicago: University of Chicago Press.

——— (2007) *Why?*, Princeton NJ: Princeton University Press.
——— (2008) *Credit and Blame*, Princeton NJ: Princeton University Press.
Tombs, R. (1999) *The Paris Commune 1871*, London, Longman.
Toynbee, A. (1934a) *A Study of History*, Volume I, London: Oxford University Press.
——— (1934b) *A Study of History*, Volume III, London: Oxford University Press.
——— (1962) *America and the World Revolution* New York: Oxford University Press.
Trevelyan, G. (1922) *British History in the Nineteenth Century (1782–1901)*, New York: Longmans, Green.
Trimberger, E. (1978) *Revolution from Above: Military Bureaucrats and Development in Japan, Turkey, Egypt, and Peru*, New Brunswick: Transaction.
Trotsky, L. (1957) 'The Triumph of the Soviets,' *The History of the Russian Revolution*, Volume 3, trans. M. Eastman, Ann Arbor: University of Michigan Press.
Trouillot, M. (1995) *Silencing the Past: Power and the Production of History*, Boston MA: Beacon Press.
Turiel, E. (2003) 'Resistance and Subversion in Everyday Life,' *Journal of Moral Education*, vol. 32, no. 2, pp. 115–30.
Vaneigem, R. (2001) *The Revolution of Everyday Life*, trans. D. Nicholson-Smith, London: Rebel Press.
Vasconselos, J. (1997) *The Cosmic Race/La raza cosmica*, trans. D. Jaén, Baltimore: Johns Hopkins University Press.
Vatikiotis, M. (2005/06) 'The Architecture of China's Diplomatic Edge,' *Brown Journal of World Affairs*, vol. 12, no. 2, pp. 25–37.
Veyne, P. (1983) *Did the Greeks Believe in Their Myths? An Essay on the Constitutive Imagination*, trans. P. Wissing, Chicago: University of Chicago Press.
Virno, P. (1996) 'The Right to Resistance' (excerpt from 'Virtuosity and Revolution: The Political Theory of Exodus'), in P. Virno and M. Hardt, eds, *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
——— (2004) *A Grammar of the Multitude*, trans. I. Bertoletti, J. Cascaito and A. Casson, New York: Semiotext(e).
von Geldern, J. (1993) *Bolshevik Festivals, 1917–1920*, Berkeley: University of California Press.
Von Ranke, L. (1887) *History of the Latin and Teutonic Nations from 1494 to 1514*, trans. P. Ashworth, London: George Bell.
Wallerstein, I. (1990) 'The French Revolution as a World-Historical Event,' in F. Feher, ed., *The French Revolution and the Birth of Modernity* Berkeley: University of California Press, pp. 117–30.
Walt, S. (2000) 'Fads, Fevers, and Firestorms,' *Foreign Policy* 121, pp. 34–42.
Walton, J. (1984) *Reluctant Rebels: Comparative Studies of Revolution and Underdevelopment*, New York: Columbia.
Walzer, M. (1982) *The Revolution of the Saints: A Study in the Origins of Radical Politics* Cambridge MA: Harvard University Press.

——— (1985) *Exodus and Revolution*. New York: Basic Books.
——— (1998) 'Intellectuals, Social Classes, and Revolution,' in T. Skocpol, ed., *Democracy, Revolution, and History*. Ithaca: Cornell University Press, pp. 127–42.
Warshall, P. (1998) 'Modern Landscape Ecology: Patterns of Infrastructure, Patterns of Ecostructure, Visions of a Gentler Way,' *Whole Earth Review* 93, pp. 4–5, 8–9.
Wasserstrom, J. (2003) *Twentieth Century China: New Approaches*, London: Routledge.
——— (2005) 'Chinese Students and Anti-Japanese Protests, Past and Present,' *World Policy Journal*, vol. 22, no. 2, pp. 59–65.
Waterbury, R. (1975) 'Non-Revolutionary Peasants: Oaxaca Compared to Morelos in the Mexican Revolution,' *Comparative Studies in Society and History*, vol. 17, no. 4, pp. 410–44.
Waters, A. (1985) *Race, Class, and Political Symbols: Rastafari and Reggae in Jamaican Politics*, New Brunswick: Transaction.
Watson, R. (1994) 'Memory, History and Opposition under State Socialism: An Introduction,' in R. Watson, ed., *Memory, History and Opposition under State Socialism*. Santa Fe: School of American Research Press, pp. 1–20.
Weber, M. (2004) *The Vocation Lectures: Science as a Vocation, Politics as a Vocation*. Indianapolis: Hackett.
Weede, E., and Edward Muller (1998) 'Rebellion, Violence and Revolution: A Rational Choice Perspective,' *Journal of Peace Research*, vol. 35, no. 1, pp. 43–59.
Weeks, Jr., C. (1992) *An American Naval Diplomat in Revolutionary Russia: The Life and Times of Vice Admiral Newton A. McCully*, Annapolis: Naval Institute Press.
Weinberg, B. (2002) *Homage to Chiapas: The New Indigenous Struggles in Mexico*, London: Verso.
Weinstein, J. (2007), *Inside Rebellion: The Politics of Insurgent Violence*, Cambridge: Cambridge University Press.
Welch, C. (1980) *Anatomy of Rebellion*, Albany: State University of New York Press.
Whisnant, D. (1995) *Rascally Signs in Sacred Places: The Politics of Culture in Nicaragua*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.
White, H. (1973) *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe*, Baltimore: Johns Hopkins University Press
——— (1981) 'The Value of Narrativity in the Representation of Reality,' in W. Mitchell, ed., *On Narrative*, Chicago: University of Chicago Press, pp. 1–23.
——— (1984) 'The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory,' *History and Theory*, vol. 23, no. 1, pp. 1–33.
——— (1987) *The Content of Form: Narrative Discourse and Historical Representation*, Baltimore: Johns Hopkins University Press, pp. 1–25.
White, R. (1998) *Remembering Ahanagran: Storytelling in a Family's Past*, New York: Hill & Wang.
Wickham-Crowley, T. (1992) *Guerrillas and Revolution in Latin America: A*

Comparative Study of Insurgents and Regimes Since 1956, Princeton NJ: Princeton University Press.

——— (1997) 'Structural Theories of Revolution,' in J. Foran, ed., *Theorizing Revolutions*, New York: Routledge, pp. 38–72.

Willett, R., Jr (2003) *Russian Sideshow: America's Undeclared War in Russia, 1918–20* London: Brassey's.

Williams, E. (1944) *Capitalism and Slavery*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Windling, T. (1997) 'Cinderella: Ashes, Blood, and the Slipper of Glass,' *Realms of Fantasy*, at www.endicott-studio.com/rdrm/forashs.html.

Wine, A. (2008) 'Keep Your Eyes on the Prize,' in G. Carawan and J. Bond, eds, *Sing for Freedom: The Story of the Civil Rights Movement through Its Songs*. Montgomery: New South Books, pp. 99–100.

Winter, E. (1933) *Red Virtue*, New York: Harcourt Brace.

Wolf, E. (1969) *Peasant Wars of the Twentieth Century*, New York: Harper & Row.

——— (1975) 'Peasants and Political Mobilization,' *Comparative Studies in Society and History*, vol. 17, no. 4, pp. 385–8.

Wolfenstein, E. (1967) *The Revolutionary Personality*, Princeton NJ: Princeton University Press.

Womack, J. (1970) *Zapata and the Mexican Revolution*, New York: Vintage.

Wydra, H. (2008) 'Revolution and Democracy: The European Experience,' in J. Foran, D. Lane and A. Zivkovic, eds, *Revolution in the Making of the Modern World*, New York: Routledge, pp. 27–44.

Young, J. (1993) *The Texture of Memory: Holocaust Memorials and Meaning in Europe, Israel, and America*, New Haven CT: Yale University Press.

Zagorin, P. (1982) *Rebels and Rulers, 1500–1660*, Volume 1: *Agrarian and Urban Rebellions : Society, States and Early Modern Revolution*. Cambridge: Cambridge University Press.

Zamoyski, A. (2000) *Holy Madness: Romantics, Patriots, and Revolutionaries, 1776–1871*, New York: Viking.

Zibechi, R. (2005) 'Subterranean Echos (sic): Resistance and Politics "*desde el Sotano*",' *Socialism and Democracy*, vol. 19, no. 3, pp. 13–39.

Zinn, H. (2005) *A People's History of the United States: 1492 to Present*, New York: Harper Perennial.

Zipes, J., ed. (1989) *Don't Bet on the Prince: Contemporary Feminist Fairy Tales in North America and England*, London: Routledge.

——— (2000) *The Great Fairy Tale Tradition: From Straparola and Basile to the Brothers Grimm*, New York: Norton.

Zur, J. (1996) 'From PTSD to Voices in Context: From an "Experience-far" to an "Experience-near" Understanding of Responsiveness to War and Atrocity across Cultures,' *International Journal of Social Psychiatry*, vol. 42, no. 4, pp. 305–17.

——— (1998) *Violent Memories: Mayan War Widows in Guatemala*, Boulder CO: Westview Press.

أهم المصطلحات الواردة فى الكتاب

A-

Aarne-Thompson type index

فهرس آرنى - طومسون للتصنيف النمطي: هو الأشهر بين التصنيفات التى وضعها علماء الفولكلور. وقد وضع أساسه آنتى آرنى ثم ترجمه ووسعه ستيث طومسون. ويتحدد نمط الحكاية، وفق هذا التصنيف، وفقا للموتيفة التى تلحقها بمجموعة من الحكايا، وليس وفقا للحدث الرئيسى فيها. فهناك حكايا الحيوان، وحكايا الجنيات، والحكايا الواقعية، وغير ذلك.

absolute monarchy

الملكية المطلقة وهو نظام الحكم الذى ظل سائدا فى فرنسا، حتى القرن الثامن عشر ودخل مرحلة النهاية عندما وصلت الأزمة السياسية والاقتصادية إلى ذروتها فى عام ١٧٨٧ وعجز الملك و"مجلس الوجهاء" الممثل للتاج والأرستقراطية والكهنة عن الاتفاق على طريق للخروج منها، وعندئذ أصبح مطروحا على الملك أن يستدعى مجلس "السلطات العامة" الذى يمثل كافة طبقات الأمة الفرنسية. وكانت هذه بداية دخول الشعب فى وضع السياسات.

ووفقا لرؤية سيلبين فالثورة الفرنسية هى النموذج الأرقى لما يعنيه مصطلح الثورة باعتباره نبتا شماليا / غربيا ولهذا فنهاية الملكية فى فرنسا تمثل نقطة تحول فى التاريخ الإنسانى لا ترقى إلى مستواها، وفق منطق سيلبين "الثورة المجيدة" فى إنكلترا، وهو يشكك فى كونها ثورة، لأنها إحيائية ولا يرى ذلك حتى فى "اللحظة الليبرالية" فى التاريخ الإنكليزي، والتى يجدها سيلبين فى الحرب الأهلية الإنكليزية التى استمرت من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٩ وحصدت ثمارها البورجوازية.

Active listeners

المستمعون النشطون: ويقصد بها المستمعون الذين يقومون بدور فعال في سد الثغرات في حكاية الثورة، وفي خلق صلة منطقية بين الأحداث المتوالية وبين ما انتهت إليه.

Agrarian rebellions

التمردات الزراعية: وتشمل الهبات الفلاحية التي سنعرض لها فيما يلي وكذلك المشاعات الزراعية في المكسيك التي تبنت مطالبة الزعيم الفلاحي إيميليانو زاباتا بإجراء إصلاح زراعي في ثورة المكسيك في العقد الأول من القرن العشرين.

Appiah ،Kwame Anthony

كوامي أنطوني آبيا: فيلسوف وروائي ولد في غانا في ١٩٥٤ وتعلم في جامعة كيمبريدج البريطانية وقام بالتدريس فيها وحصل على الجنسية البريطانية، ثم هاجر للولايات المتحدة وحصل على جنسيتها ويعمل الآن أستاذًا للفلسفة في جامعة برنستون الأمريكية.

Apter ،D

دافيد آبتر: أستاذ العلوم السياسية الأمريكي الذي تخصص في دراسات التنمية السياسية والاجتماعية المقارنة؛ توفي في ٢٠١٠ عن ستة وثمانين عامًا؛ من أهم مؤلفاته "الخطاب السياسي في جمهورية ماو" و"تشريع العنف".

Arab Assassins

الحشاشون: هم أعضاء إخوانية سرية من الطائفة النزارية الإسماعيلية التي ناصبت الحكام السنة العداء بين عامي ١٠٩٢ و١٢٦٥. أنزل بهم المغول هزائم ساحقة وأحرقوا مكتبتهم الضخمة فبقيت أسرار جماعتهم مجهولة ليومنا هذا إلا ما

كتبه خصومهم. وقد حاربوا – وفق ما اقتضته مصالحهم – مع الصليبيين وضدهم. ويشير إليهم سيلبين باعتبارهم ثوارًا بثوا الرعب فى قلوب الطغاة، مستدركًا بالقول أنهم كانوا يروعون أيضًا كل من يخالفهم الرأي.

Arboreal model

النموذج الشجرى: يستخدم مؤلف هذا الكتاب إيريك سيلبين هذا المصطلح للإشارة إلى علاقة مفترضة بين حكاية أصلية وحكايا تتفرع عنها. وأصل هذا المصطلح موجود فى المفهومات الأساسية للهندووية (الهندوكية أو الهندوسية، كما يشار إليها فى كتابات مختلفة) وأنصح من يرغب فى معرفة المزيد عن هذا المفهوم بقراءة كتاب غافين فلود "مدخل إلى الهندووية" الذى صدر عن مطبعة جامعة كيمبريدج عام ١٩٩٦ أو مؤلفات رينيه غوينون (الشيخ عبد الواحد يحيى) وخاصة كتابه "مدخل إلى دراسة تعاليم الهندووية" (١٩٢١) فقد يكون أفضل تعبير عن أهمية النموذج الشجرى ما كتبه غوينون عن التراث الذى يتنزل علينا من الجيل الذى سبقنا، وتلقاه كل جيل سبق ممن سبقوه وسلمه لمن تلوه، بكل إخلاص والتزام. وتجد التأكيد على صعوبة – وربما استحالة – الإخلاص والالتزام فى نقل وتداول السرديات والحكايا فى كل فصول كتابنا هذا. ومن الغريب حقًا أن النموذج الشجرى الذى اعتمده غوينون (الشيخ يحيى) كمجاز أساسى للثقافة الشرقية الهندووية والمسلمة هو ذات النموذج الذى تعتمده الحضارة الغربية وهى تؤسس لأسطورة الأصول الخاصة بها.

ووفقًا لما يقوله سيلبين فإن "حكاية التحضر والمقرطة"، التى تتموضع فى قلب الأسطورة الغربية، طوال القرون الخمسة الأخيرة على الأقل، تعتمد "اعتمادًا كبيرًا على النموذج الشجرى وتضرب بجذورها فى الحضارة الشمالية – الغربية المرتبطة بالأساس اليونانى – الرومانى – اليهودى – المسيحى المعهود للثقافة

الغربية. والثقافة الغربية، كما تقول الحكاية، هى تكامل متميز بين الفنون والعلوم والممارسات السياسية والمبادئ الفلسفية والدينية، على نحو يميزها عن الحضارات الأخرى. وبغض النظر عن صحة الحكاية فقد شاعت لمئات السنين ونشرتها الإمبريالية والعولمة على أوسع نطاق. وفى هذه الحكاية تظهر الحضارة والديمقراطية، أولا، بين اليونانيين، ثم يعدلهما الرومانيون. ويضاف إليهما على نحو فارق من التوراة العبرانية، وخاصة عبر قراءات مسيحية فى وسط أوروبا"

Archives of feelings

أرشيفات المشاعر: الذاكرة الجماعية حسب تعبير آن سفيتكوفيتش الأستاذة بجامعة تكساس الأمريكية، والتى لها كتاب بعنوان "أرشيفات المشاعر" اعتبرت فيه الذاكرة الجماعية مخزونا تتشارك فيه كل الطبقات وتشيد به الحاضر وتتخيل المستقبل.

Arandt ،Hannah

حنا آرندت: أستاذة يهودية ألمانية فى العلوم السياسية ولدت فى ١٩٠٤ وتوفيت فى ١٩٥٧ ورفضت لقب فيلسوفة الذى استخدم للإشارة إليها على أساس أن الفلسفة معنية بالإنسان فى صيغة المفرد وهى معنية بالبشر الذى يعيشون معًا، وتركز دراساتها على طبيعة السلطة والسياسات الشمولية.

Arusha Declaration

إعلان آروشا: أصدره الرئيس التنزانى جوليوس نيريرى فى الخامس من فبراير ١٩٦٧ موضحا أسسا لإصلاح الاقتصاد فى البلاد وفق الرؤية التى صاغها نيريرى والتى عرفت باسم "الاشتراكية الأفريقية" التى تقوم على أساس التنمية الريفية من خلال الصعود بأهل الريف من مستوى التجمعات القبلية والعائلية إلى مستوى وحدات قروية.

atomistic individual

الفرد النووى: الفرد كوحدة أساسية فى التحليل فـــى المفهومـــات الليبراليـــة البورجوازية الشمالية / الغربية، وهذا أحد معوقين سعت العلوم الاجتماعيـــة إلـــى التخلص منهما فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية. وكان الثانى هو الارتباط بسير العظماء والإمبراطوريات والملاحم وما ارتبط بها من خرافات.

B-

Babeuf ،Conspiracy of Equals

مؤامرة الأنداد بقيادة بابوف: هى هبة ذات توجه يبشر بما سيظهر فيما بعـــد تحت مسمى الاشتراكية. حضر لها غراكوس بابوف وأتباعه، لحشد الجماهير ضد حكومة الإدارة البورجوازية، وبهدف تأسيس "ديكتاتورية البروليتاريـــا" كمرحلـــة انتقالية على الطريق إلى "الديمقراطية الخالصة". وقد اكتشفت وسحقت فـــى ١٧٧٦ قبل دخولها مرحلة التنفيذ.

Baja Anarchist republic

جمهورية باجا الفوضوية: الجمهورية القصيرة العمر التى قامت فى "باجـــا كاليفورنيا" بالمكسيك ضمن الأحداث الثورية التـــى شـــهدتها الـــبلاد فـــى ١٩١١ وحشرها المؤلف فى زمرة الثورات المنسية، ويعتبرها صورة مبكرة للجمهوريـــة الفوضوية التى قامت فى أوكرانيا بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢١.

Bandung Conference

مؤتمر باندونغ: انعقد فى الفترة من ١٨ إلى ٢٤ أبريل ١٩٥٥ فى بانـــدونغ بإندونيسيا، وكانت الدول المنظمة له هى إندونيسيا وبيرما وباكـــستان وســـريلانكا (سيلان آنذاك) كأول اجتماع واسع النطاق لدول لدول أفريقيا وآســـيا. ويعـــد هـــذا

المؤتمر نواة حركة عدم الانحياز، ويعتبر مؤلف هذا الكتاب أنه نـــشر حالـــة مـــن الإحساس بالتباهى بين شعوب القارتين مما أعطى مبدأ المحاكاة مزيدًا من الفعاليـــة فى تخليق الوعى بإمكانية الثورة فى بلد ما لمجرد أنها نشبت فى بلد آخر.

Barthes ،Roland

رولان بارت: هو المنظّر الأدبى والفيلسوف والناقد الفرنسى الذى توفى فى ١٩٨٠ عن خمسة وستين عاما وكان له تأثير قوى على تطور مدارس نظرية مثل البنيوية، والوجودية، والنظرية الاجتماعية، والماركسية، وما بعد البنيوية. وينقـــل عنه هذا الكتاب فكرة أن السرديات عابرة للتاريخ وللثقافات.

Bricoleur ،revolutionary

الملفق الثورى: رغم الإيحاءات السلبية لكلمة التلفيق فـــى اللغـــة العربيـــة فالمؤلف لا يصدر أحكاما قيمة لكنه يستخدم كلمة الملفق / التلفيق الثورى للإشـــارة إلى عملية هى فى الغالب نشاط جمعى يستعير مـــن حكايـــا الحاضـــر والماضـــى وأساطيرهما ورموزهما، ومن ثقافات الأمم الأخرى، بل ومن كل مصدر ممكن، ما يساعده على إعادة صياغة الماضى على نحو يلائم تصورًا ما للمستقبل المنشود.

Burckhardt ،J

جاكوب بيركهاردت: دبلوماسى ومؤرخ سويسرى لعب أدوارًا مهمـــة فـــى المجالين الدبلوماسى والأكاديمي. ولد بيركهاردت فى ١٨٩١، وتوفى فى ١٩٧٤، وتخصص كمؤرخ فى عصر النهضة فى إيطاليا.

C-

Cabral ،Amilcar

أميلكار كابرال: بطل أسطورى من أفريقيا السوداء (١٩٢٤-١٩٧٣) لقب بـ "جيفارا الأفريقى" تماما كما لقب "محمد الأسود" وهو ناشط فلسطيني "جيفارا غزة" بل وكما لقب توماس (توم) باين، وهو الثورى الأوروبى الشمال أمريكى الذى توفى مطلع القرن الثامن عشر "جيفارا عصره"، وهذه عملية تستعير فيها ثقافة ما رمزا من ثقافة أخرى لتعيد من خلاله صياغة رؤاها المتصلة بالثورة والمقاومة والتمرد، وإستراتيجياتها وتكتيكاتها على هذا الطريق.

Carnation Revolution

ثورة القرنفل: انقلاب عسكرى يسارى وقع فى لشبونة، عاصمة البرتغال، فى الخامس والعشرين من أبريل ١٩٧٤ فصار يعرف بـ "ثورة الخامس والعشرين من أبريل" كما يعرف باسم "ثورة القرنفل" لأن الجماهير راحت تضع زهرات القرنفل فى فوهات البنادق التى حملها الجند، تعبيرا عن تأييد تحول إلى مقاومة مدنية كاسحة وغير متوقعة، فسقطت الديكتاتورية، وتحولت البرتغال إلى قوة ديمقراطية منحت شعبها الحرية ومنحت مستعمراتها الأفريقية القديمة الاستقلال.

Carr ،E. H .

إدوارد هاليت كار: كثيرا ما يشار إليه باسم "تيد كار" وهو مؤرخ بريطانى ولد فى لندن فى ١٨٩٢ وتوفى فيها فى ١٩٨٣ واشتهر بمؤلفات من أهمها كتابه "ما هو التاريخ؟" ومؤلفه الضخم عن الاتحاد السوفييتى فى ١٤ مجلدا. يرى كار أن التحيز الوطنى والعرقى والدينى والخلقى والسياسى يكاد لا ينجو منه مؤرخ. وقد اعترف كار بعد أن تقدمت به السن بما وقع فيه من تحيز كمؤرخ أيام شبابه.

Casa del Obreros Mundial

الدار الدولية للعمال: منشأة ثورية قامت فى مكسيكو سيتى إبان الثورة على ديكتاتورية بورفيرو دياز (١٩١١-١٩١٣) ورغم أن سيلبين يذكر البعد العمالى فيها بصيغة الجمع فالإشارة الغالبة إليها هى بصيغة المفرد، خاصة فى كتاب "عمال وجيران ومواطنون" الذى ألفه جون لير ونشرته جامعة نبراسكا الأمريكية فى ٢٠٠١ حيث يشار إليها باسم "الدار الدولية للعامل". ولم تكن هذه الدار مؤسسة نقابية بل مكانا يدبر فيه الفوضويون خططهم للإطاحة بالديكتاتورية.

Cause-effect relations

علاقات السببية: وهى - فى حدود أغراض هذا الكتاب - العلاقات التى تحرك العمليات الاجتماعية على نحو غير مباشر، غير قصدى، تدرّجى، تفاعلى، جمعى، و / أو يتم إنتاجها بفعل عوامل غير بشرية، برأى العلماء الذين يتبنى هذا الكتاب وجهات نظرهم. ولأن الحكايا تعمد إلى التبسيط فهى تعجز عن الكشف عن علاقات السببية هذه حين تتصدى لتفسير العمليات الاجتماعية.

Chimera of origins

سراب الأصول: مصطلح استعاره إيريك سيلبين من روجر شارتييه الذى جعله عنوانا لفصل فى كتابه "الأصول الثقافية للثورة الفرنسية". وينتمى شارتييه إلى الجيل الأحدث من مدرسة الحوليات وهو جيل يسعى لإعادة صياغة توجهات هذه المدرسة المعادية للمنهج الطبقى الذى أرست الماركسية دعائمه. ويطرح شارتييه إمكانية أن يكون التاريخ علما يستفاد منه بمعرفة محددة، وهو ما يرمى إليه كل من يستخدم المصطلح "سراب الأصول" الذى يقصد به أن أصل السردية التاريخية غامض ومراوغ بل ومستحيل استحالة "الكمير" التى هى مخلوقة خرافية لها رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى. ولو ترجمنا المصطلح الذى نعرض له هنا

ترجمة حرفية، على نحو يقترب مما أصر عنيه وولتر بنجامين في "مهمة المترجم" لقلنا "كميرة الأصول" وهو ما ترفضه الذائقة العربية. أما لو أردنا أن نطبق تعليمات بنجامين تطبيقا دقيقا لتعين علينا أن نقول "كميرة أصول" لأن سيلبين، في الأصل الإنكليزى وكما يفعل عندما ينقل مصطلحات أخرى ينقلها بتصرف، نستفهم أسبابه فى هذه الحالة. فهو هنا يترجم مصطلح شارتييه عن الفرنسية، دون اعتداد بالترجمات الإنكليزية الشائعة لهذا المصطلح. ونتيجة لذلك فقد حذف الألف واللام اللذين سبقا المضاف إليه، واللذين نجدهما عند غيره ممن يستخدمون المصطلح.

Cindrella story

حكاية سندريللا: يستخدمها إيريك سيلبين كنموذج للتمدد الرأسي لحكاية واحدة، وفق النموذج الشجرى، بالإشارة إلى نسخة صينية منها فى الصين القديمة قبل عشرة آلاف سنة، كنموذج للتمدد الأفقى، وفق النموذج الجذمورى، بالإشارة إلى نسخ منها فى مختلف الثقافات.

Civilising and Democratizing Revolutions

ثورات التحضر والمقرطة: تنتمى هذه الثورة، وفق تصنيف إيريك سيلبين إلى نمط ثورات النخب، وهو النمط الذى تنتمى إليه أيضا الثورات الاجتماعية. ويرى سيلبين أن الثورتين، ثورة التحضر والمقرطة والثورة الاجتماعية، تتنافسان على وراثة الثورة الفرنسية. وفيما تعتبر الثورة الاجتماعية أن الثورة الفرنسية كانت بداية لحركة ثورية يتعين أن تتجدد بحركات ثورية تتتابع على مر الأزمان فإن ثورة التحضر والمقرطة، التى تركز على التحضر والتقدم والمقرطة والنبالة، تعتبر الثورة الفرنسية نموذجا اكتمل ثم أخل به التمادى فى السير على طرق الثورة.

Color/velvet revolutions

الثورات الملونة / المخملية: مصطلحان روج لهما الإعلام الامريكي واصفًا بهما الحركات السلمية التي غيرت الأوضاع السياسية في كومنولث الدول المستقلة (الدول السوفييتية السابقة) ودول حلف وارسو، فيما عرف بمقاومة مدنية أفضت الى ظهور نظم ديمقراطية في تلك الدول في مطلع القرن الحادي والعشرين.

Cvetkovitch ،A

آن سفيتكوفيتش: أستاذة الأدب الإنكليزي وأستاذة الدراسات النسوية والجندر بجامعة تكساس الأمريكية.

D-

Deleuze ،Gilles

جيل ديليوز: حسبما جاء في موسوعة ستانفورد الفلسفية، والذي توفي في ١٩٩٥عن سبعين عامًا، كان من أوسع الفلاسفة الفرنسيين المكثرين، في النصف الثاني من القرن العشرين، نفوذًا. وقد تصور ديلوز الفلسفة باعتبارها نتاجًا للمفهومات، وشخص نفسه باعتباره "ميتافيزيقيًا خالصًا". وهو يحاول في عمله العمدة "الاختلاف والتكرار" أن يطور ميتافيزيقا مكافئة للرياضيات والعلم – ميتافيزيقا يحل فيها مفهوم التعددية محل مفهوم المادة، بل ومحل مفهوم الجوهر، ويحل مفهوم الافتراضية محل مفهوم الإمكانية.

Darnton ،Robert

روبرت دارنتون: مؤرخ أمريكي معاصر من مواليد ١٩٣٩ ويعد من أهم المتخصصين في تاريخ فرنسا في القرن الثامن عشر. وينبهنا دارنتون إلى أن فهم الآخرين يحتاج منا أن نستوعب مفهوم المغايرة، ومن الضروري لفهم الماضي،

الذى يسكنه أسلافنا الذين يختلفون عنا، أن نتعرض لخضات تخرجنا من الشعور الزائف بالألفة إزاء هؤلاء الأغيار، أن نتعرض لجرعات من الصدمة الثقافية.

Dunn ،J

جون دون: مؤلف كتاب "الثورات الحديثة: مدخل إلى تحليل ظاهرة سياسية" وهو الكتاب الذى اقتطف منه إيريك سيلبين قوله عن ثوار ١٦٨٨ فى إنكلترا أن أحلامهم كانت ثورية بما يكفى نظرا لما اشتملت عليه من استشعار للمستقبل. وأهمية ذلك تعود إلى الربط بين أحداث ذلك العام فى إنكلترا التى يشار إليها باسم الثورة المجيدة وبين الزخم الثورى الذى أفضى إلى الثورة الفرنسية بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان.

E-

Egalitarianism

المساواتية: طرح مبدأ المساواة، وفقا لما ذكره إيريك سيلبين فى إطار حكاية ثورات الحرية والتحرر التى ارتبطت بالثورة المهدية فى السودان وبثورة ١٩١١ فى المكسيك وبثورات الشعوب ضد الطغاة فى كل العصور وبثورات التحرر الوطنى المناهضة للكولونيالية فى القرن الحادى والعشرين وبثورتى الصين وفيتنام.

Elite ،myths of

أساطير النخبة: يدفع إيريك سيلبين بأن الأساطير ليست مستقلة عن المجتمع وثقافته، فهى التى يعتمد عليها الناس وهم يحاولون إضفاء معنى على ما جرى وما يجرى من أحداث. وتعبر أساطير كثيرة عن مثل العدل والحرية والمساواة والديمقراطية. وتفرض النخبة أساطيرها لتفسر الأحداث القديمة والمعاصرة ولتعطى معنى لحركة التاريخ. وفى أبريل ٢٠٠٧ كتب تاكيس فوتوبولوس مقالة

فى "المجلة الدولية للديموقراطية الاستيعابية (عكس الإقصائية) بعنوان "أساطير النخب واليسار الإصلاحى حول الاتحاد الأوروبي" يسخر فيها من احتفال النخب باليوبيل الذهبى للاتحاد الأوروبى (على أساس أن معاهدة روما كان قد انقضى عليها خمسون عامًا آنذاك) مستخدمين الإعلام لإقناع الجماهير بخرافات منها أن وجودهم داخل الاتحاد حقق لهم درجة أعلى من الرفاهية، رغم أن أغنى دولتين فى أوروبا وهما النرويج وسويسرا ليستا ضمن الاتحاد. ومن الخرافات النخبوية الأخرى أن اتحاد رؤوس الأموال والأسواق الأوروبية هذا يسمى اتحاد الشعوب رغم أن الشعوب الأوروبية رفضت، عبر صناديق الاستفتاء، إصدار دستور أوروبى موحد.

F-

Fact-fiction mutability

قابلية تحول الحقيقة والوهم: يتبنى الكتاب وجهة النظر التى تقول إن التاريخ يقع بين ما جرى حقًا وصدقًا وبين العتمة المعرفية التى تغشى الذاكرة التاريخية. وبرأينا أنه فى هذه الهوة السحيقة الفاصلة بين الأمرين / هذا الجسر الخرافى الموصل بينهما يمكن أن تتحول الحقيقة إلى وهم، والوهم إلى حقيقة. ويمضى إيريك سيليين إلى أبعد من ذلك عندما يجزم بأن الدقة التى ينشدها العاملون فى حقول العلوم الاجتماعية هى مطلب وهمى ويمكن، ببساطة، أن يكون غير ضروري.

Finley ،Moses

السير موزيس فينلى: ولد فى مدينة نيويورك فى ١٩١٢ باسم باسم موزيس إسرائيل فينكلستاين ومات فى ١٩٨٦ مواطنًا بريطانيًا. وهو من أهم أساتذة التاريخ القديم وكتابه الأشهر هو "الاقتصاد القديم" الذى صدر عام ١٩٧٣ وهو يرى أن

الاقتصاد اليونانى والرومانى القديم على المركز والأيديولوجية المدنية وليس على المبادئ العقلانية. وينقل عنه إيريك سيلبين أن تمرد العبيد ضد الرومان بقيادة سبارتاكوس من سنة ٧٣ إلى سنة ٧١ قبل الميلاد، وإن كان حدثا دراماتيكيا ومخيفا فلم يكن فيه ما يدل على أنه ثورة. ويضيف سيلبين أن ذلك لا ينفى أن تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس يبقى حدثا ملهما، عبر الأجيال، رغم أن المعروف من ظروفه ووقائعه قليل للغاية. ودلالة ذلك أن كارل ماركس كتب إلى فريدريك إنغلز، فى القرن التاسع عشر، يقول له "إن سبارتاكوس يبرز فى مجمل التاريخ القديم باعتباره الشخص الأكثر أهمية. إنه جنرال عظيم ذو شخصية نبيلة، ممثل حقيقى لبروليتاريا العالم القديم.

Freedom and Liberation Revolution

ثورة الحرية والتحرر: وهى الثورة التى تشنها الطبقات الوسطى والدنيا ضد الطغاة من تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس ضد الرومان قبل الميلاد إلى الثورات المعادية للكولونيالية والإمبريالية والثورات الملونة فى العصر الحديث.

G-

Geertz ،Clifford

كليفورد غيرتس: باحث بارز فى حقل الأنثروبولوجيا الثقافية. عرف بأبحاثه الشمولية والمعمقة على الثقافة فى إندونيسيا والمغرب. ولد غيرتس عام ١٩٢٦ وتوفى فى ٢٠٠٦عمل غيرتس لستة وثلاثين عامًا أستاذًا فى مدرسة العلوم الاجتماعية بمهد الدراسات المتقدمة فى الولايات المتحدة. امتد تأثيره من مجال تخصصه إلى الجغرافيا والعلوم السياسية وعلوم البيئة والدراسات التاريخية. وانصب اهتمامه على دراسة الأديان، خاصة الإسلام، والاقتصاديات والنظم الاجتماعية والأسرية المرتبطة بها. وقد اهتم بدور ومكانة الحنين إلى الماضى

كإشكالية خاصة، يصورها غيرتس باعتبارها "حنينا قصديا - خطابيا، ومظهريًا، ومستهلكًا، ومكشوفًا" فى المجتمعات الشمالية / الغربية، التى قد تنظر إلى زيادة "الكتابية" **Literacy** بين مواطنيها (بالمعنى ما بعد التنويرى) و"تضجهم" باعتبارها أمرا مبهرًا ويوقظ الحنين إلى ماض أسبغ عليه طابع رومانسى بزعم أن الأحوال فيه كانت أفضل.

H-

Hobsbawm ،Eric

إيريك هوبزبوم: مصرى المولد وهو من أشهر المؤرخين الماركسيين البريطانيين. وأهم مؤلفاته هى ثلاثية تاريخ أوروبا: تاريخ الثورة ١٧٨٩-١٨٤٨، تاريخ رأس المال ١٨٤٨-١٨٧٥، تاريخ الإمبراطورية ١٨٧٥-١٩١٤. ولد هوبزبوم فى مدينة الإسكندرية فى يونيو ١٩١٧ أى قبل وفاة السلطان حسين كامل بحوالى أربعة أشهر، لكنه انتقل مع عائلته إلى أوروبا حيث قضى طفولته وبدايات شبابه بين ألمانيا والنمسا ثم انتقل إلى لندن - حيث لا يزال يعيش إلى الآن - عندما بلغ السادسة عشرة، مع خالته التى تبنته بعد أن توفيت أمه بسنتين، وهو ما صادف السنة الرابعة لوفاة أبيه. ورغم أنه عاش فى بلدين ناطقين بالألمانية فقد كانت الأسرة لا تتخاطب إلا بالإنكليزية. انضم هوبزبوم فى صباه إلى تنظيم للتلاميذ الشيوعيين تفرع عن منظمة الشبيبة الشيوعية الألمانية، وعندما انتقل إلى لندن انضم إلى الحزب الشيوعى لبريطانيا العظمى، الذى لا وجود له الآن.

وعندما غزا السوفييت هنغاريا فى ١٩٥٦ لم ينفصل عن الحزب كما فعل رفاقه فى مجموعة المؤرخين الشيوعيين و لكنه أعلن أن التمرد الذى سحقه السوفييت كان تمردًا على البيروقراطيين ومدعى الشيوعية.

وعندما ظهرت الشيوعية الأوروبية، المستقلة عن موسكو والتي اتخذت خطا مناوئا للحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى، مال إليها هوبزبوم. وفي ١٩٧٨ أعلن أن الطبقة العاملة فقدت دورها المركزي في المجتمع وأن قوى اليسار لا يجب أن تتوجه إلى هذه الطبقة دون غيرها من طبقات المجتمع. وهذا الموقف كان محيرا لأن التنظيمات العمالية كانت في ذروة نشاطها النضالي في بريطانيا آنذاك. وقد اتسمت مواقف هوبزبوم بالاعتدال منذ ستينيات القرن الماضي، وأعلن أنه يدرك أن أحلامه لن تتحقق وأنه لم يعد يدعو لمجتمعات على النسق السوفييتي، وأن مستقبل الإنسانية، على المدى البعيد لا يبشر بخير. لكنه ظل يكتب في مجلة "الماركسية اليوم" حتى توقفت عن الصدور في ١٩٩١. ولا يزال هوبزبوم محسوبا على اليسار.

ويعرض إيريك سيلبين لهوبزبوم عندما يوضح الموقف المعقد الناشئ عن صعوبة التسليم بثنائية "الحقيقة" و"الخرافة"، من ناحية، واستحالة القول بأن بوسعنا اختراع الحقائق من ناحية أخرى. فهو يسلم بصحة ما يقوله هوبزبوم من أن القول بأن ألفيس بريسلي حي أو ميت لا يثبت إلا بالبرهان، وكذلك فالحكم على موقف الحكومة التركية التي تنكر مذبحة الأرمن في ١٩١٥ بأنه موقف يقوم على أكاذيب أو على حقائق لا يكون إلا ببرهان.

وقد يبدو أن هذا كله من نافلة القول، لكنك تعاقب باعتبار أنك تروج لأكاذيب خطيرة – بغض النظر عما لديك من براهين – إذا أنكرت مذبحة الأرمن في فرنسا، وتعاقب – باعتبارك مروجا لأكاذيب خطيرة وبغض النظر عما لديك من براهين – إذا سلمت بصحتها في تركيا. بل وتتعرض لخطر فعلي إذا جادلت في الأرقام المعلنة لضحايا المحرقة النازية من اليهود في أي مكان في العالم. وربما لهذا يشير هوبزبوم وسيلبين إلى مذبحة الأرمن وليس إلى الهولوكوست.

Inevitability

الحتمية: تكريس فكرة الحتمية، وفقا لما يقوله سيلبين، هو الهدف الذى تسعى إلى تحقيقه الحيل البلاغية التى تتعمد إخفاء كثير من التناقضات فى حكاية يراد بها إضفاء الشرعية على حركة ثورية أو مضادة للثورة، على نظام قائم أو على محاولات هدمه.

J-

Jacobins

اليعاقبة: ظهر هذا المصطلح، فى الأصل، للإشارة إلى أعضاء النادى اليعقوبى الذى استمر قائما من ١٧٨٩حتى ١٧٩٤ وسمى بهذا الاسم لأن أعضاءه كانوا يجتمعون فى دير دومينيكانى فى شارع سان جاك (باللاتينية جاكوبوس). ثم أصبح يشار به، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى كل مناصر للثورة الفرنسية، لكن اللفظ يستخدم الآن للإشارة لكل نظام يعطى السلطة كلها للحكومة المركزية، دون مراعاة للظروف المحلية التى تحكم المجتمعات التابعة لها. وقد استخدم سيلبين هذا المصطلح فى معرض الكلام على أن الثورة السوفييتية فى ١٩١٧ امتداد للثورة الفرنسية فى ١٧٨٩، من حيث إن الفرنسية أعلنت ميلاد القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الإنسان والمواطن وبالتأكيد على الحرية والإخاء والمساواة، وأعلنت السوفييتية ميلاد القرن العشرين وبالتأكيد على حق الجميع فى نيل العدالة الاجتماعية وعلى الملكية الجمعية لوسائل الإنتاج، ثم انتهت الثورتان إلى الرعب وإلى حكم اليعاقبة، مشيرا إلى أن السوفييتية تتميز بأننا لا نستطيع أن نحدد لها، على نحو واضح، بداية ووسطا ونهاية.

Jaquerie

الجاكية: هبة فلاحية فى شمال فرنسا فى منتصف القرن الرابع عشر، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن النبلاء كانوا يشيرون إلى الفلاح باسم "جاك" أو "الرجل الطيب جاك".

K-

Khasnabish ،Alex

آليكس خاسنابش: أستاذ مساعد بقسم السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا بجامعة ماونت سان فينسنت الكندية. يركز فى دراساته، حاليا، على العلاقة بين الخيال الراديكالى والتحول الاجتماعى الراديكالى فى التجمعات الناشطة فى إقليم هاليفاكس الكندى حيث توجد جامعته. وقد اشتهر بدراساته عن الهبات الثورية الفلاحية فى المكسيك فى مطلع القرن الماضي. ويستشهد به سيلبين للتدليل على أهمية ما يصاغ من سرديات وحكايا إبان حركات التحول الاجتماعى لخلق قوة دفع باتجاه "الممكنات" باعتبارها كلمة السر فى كل ثورة.

L-

Lost and Forgotten Revolutions

الثورات المضيّعة والمنسيّة: هى ذاتها ثورات المضيعين والمنسيين الذين لا نعرف عنهم ولا عن ثوراتهم إلا أقل القليل. يذكر الكتاب من هذه الثورات ما شهدته المناطق الواقعة على ضفاف ساوث كناديان ريفر فى ريف أوكلاهوما الأمريكية، فى سنة ١٩١٧ التى شهدت الثورة السوفييتية فى الإمبراطورية الروسية، من تمرد اشتراكى متعدد العرقيات والطبقات، وقد عرف هذا التمرد باسم "تمرد الحنطة الخضراء". وكذلك يذكر الكتاب ما شهده الثلث الأول من القرن

السادس عشر من هبات فلاحية فى المناطق المعروفة لنا الآن باسم ألمانيا، والهبة النسائية ضد الكولونيالية فى نيجيريا فى ١٩٢٩، وتمتد القائمة لتشمل الاحتجاجات الشعبية التى شهدتها جمهورية إيران الإسلامية في ٢٠٠٩ ضد ما أسفرت عنه الانتخابات من نتائج، والتى عرفت باسم "الثورة الخضراء".

M-

Marcel ،Etienne

إيتيان مارسيل: كان شيخ التجار فى باريس فى منتصف القرن الرابع عشر. تجاوز انتماؤه إلى أعلى شرائح الطبقة البورجوازية ليصبح زعيمًا للطبقات الوسطى والدنيا وخاصة الحرفيين الذين كانوا المصدر الأول لنشوء المدن وازدهار البورجوازية على حساب الإقطاع فى فرنسا وفى مجمل أوروبا مع تصاعد النمو التقنى والفنى والسكانى فى القارة الأوروبية منذ القرن العاشر. خاض معارك الإصلاح إلى جانب العناصر الإصلاحية من الأرستقراطية التى تخلت عنه مع انقلابه على العرش. ويشير إليه مؤلف الكتاب باعتباره مدبر الإضراب العمالى فى ١٣٥٧ الذى كان بدوره جزءًا من انتفاضة فلاحية شاملة إبان حرب المائة عام، وتندرج كل هذه الحركات – عند سيلبين – ضمن الثورات المضيعة والمنسية.

Memory

الذاكرة: عنصر من العناصر الثلاثة المكونة للحكاية عند سيلبين. إنها "كيف نعرف العالم"، وهى ما نعتمد عليه لكى "نمشى ونحلم ونتكلم ونشم ونخطط ونخاف ونحب ونفكر ونتعلم" وأكثر وأكثر وأكثر" وهكذا فإنه لا غنى لنا عن ذاكراتنا. وبالتالى فإن الذاكرة، ولا غرو، أصبحت عنصرًا حرجًا فى عديد من المجالات. فنحن جميعا، فى كثير من المجتمعات والثقافات وعبر كثير من الأزمنة والأمكنة،

أكثر ميلاً الى تصوير الذاكرة كما لو أنها أقرب إلى "شريط سينمائى" أكثر مما هى"عملية لإعادة التركيب ذاتية وقابلة للوقوع فى الخطأ إلى حد بعيد".

Mimesis

المحاكاة: واحد من العناصر الثلاثة المكونة للحكاية عند سيلبين. وهو يرى أنه، بمعنى من المعانى، فقد لا يكون هناك فعل إنسانى جوهرى أكثر من المحاكاة، إذ يبدو أن تبنى وتكييف أفعال الآخرين هو لصيق بشبكة المخ لدينا – ونحن نتعلم اللغة، والحركة، وأشياء أخرى كثيرة، بهذه الكيفية لكن جانبا من إنسانيتنا قد يبدو أنه ذو طبيعة تجعل هذا النوع من التعلم أكثر كثيرًا من مجرد التقليد. وفى العملية الثورية، حسب سيلبين، فالخرافة والذاكرة تمتزجان وتعاودان الامتزاج فى أشكال قوية لتحدثا تأثير المحاكاة. ففى مكان أو أكثر يعرف أناس يتصورون أنهم مضطهدون بأن هناك أناسا يمكن أن يتماهوا معهم سعوا إلى تغيير الشروط المادية والأيديولوجية لحيواتهم اليومية. وبتأثير الاستلهام فإنهم يسعون هم أيضًا لإحداث تغيرات جوهرية وتحويلية مماثلة وتطرح حنا أرندت إطارًا أوسع للمحاكاة بقولها "إن هناك ثورة واحدة فحسب، هى ذاتها، وهى خالدة" فيما يمكن أن يصفه جيرار، من دون تقليل من شأن أى من الثورات بأنه "مماثلة استحواذية" إذ نفترض أن الثورات تستفيد كل واحدة منها من الأخريات وتنسخها.

Myth

الخرافة: واحد من العناصر الثلاثة المكونة للحكاية عند سيلبين، فالخرافة عنده تعمل على تزويد حياتنا المعاصرة بالمعنى بل وبالقيمة، وعلى إرشادنا إلى ما هو ممكن. ويمكن أن تؤدى الخرافة وظيفتها، وهى تفعل ذلك حقًا، على نحو محافظ، وهى تقوم بعملها أيضا على نحو يتمتع بالخيال. فالخرافة بالأساس هى معلومات يتعين أن يعرفها الناس وأن يعرفوها على نحو جمعى. فى الحقيقة. لأنها

مشبعة بـ "المعنى والغرض، وهى لهذا السبب تنطق بالحق لأولئك الذين يأخذونها مأخذ الجد".

N-

Narrative

السردية: والكتاب معنى بالسردية الثورية، متبنيا التعريف الذى يقول بأنها تتابع منظم للأحداث والأفعال المتموضعة فى نطاق زمنى خاص بها. وتؤمن السردية وفقا لتعريف باركر علاقة عابرة للزمن، وهو ما يمنحها تماسكا داخليا يضفى على تتابع الأحداث نوعا من الحتمية. من الواضح أن السردية – على وجه العموم – يمكن أن تعنى عددا من الأمور المختلفة. ومع التنبيه إلى مخاطر "تمييع المعنى فالسردية، رغم كل شيء، مقولة عالمية فى الثقافات الإنسانية وفى تقاليد القص، وفى الافتراضات الأبستمولوجية والأنطولوجية، وفى كل تقرير عن خبرات الحياة، وفى البنى الأيديولوجية المقصود بها تحريك القواعد الجماهيرية للحركات الاجتماعية. وربما بتعبيرات أقل فخامة يلخص تشارلز تيللى السردية باعتبار أنها تقوم على "ادعاءات بمعرفة تتمتع بدرجة معقولة من الصدقية بالفاعلين، وبالدافع، وبالأفكار، والحوافز، والأفعال، والنتائج.. (و) أيضا (١) افتراض أن الفاعلين والفعل يتمتعون بدرجة ما من الاستقلال بالذات، (٢) الفصل بين السبب والنتيجة داخل السياق التتابعى للسردية "ويدفع هنشمان بدرجة أقل من الشاعرية، بأن السرديات بالنسبة للعلوم الاجتماعية يجب أن تعرّف، على نحو مؤقت، بأنها خطابات ذات ترتيب متسلسل واضح يصل بين الأحداث بطريقة ذات مغزى من أجل جمهور محدد، وبذلك فهى تطرح فهما للعالم و / أو خبرات الناس به". ورغم ما تنطوى عليه هذه التصورات من مزالق، فهى تساعد على تأطير السردية باعتبارها مختلفة عن الحكاية.

N-

Other ،the

الآخر: يقرأ "الآخر" وفقا لما أورده سيلبين بطرائق متباينة وعلى مستويات عديدة، والنقطة المحورية فى كتابه هذا هى أن الآخرين الذين عاشوا قبلنا هم أناس غيرنا وهذا ما يشير إليه الموروث الإسلامى بعبارة عمر بن الخطاب "هم رجال ونحن رجال".

P-

Politics ،symbolic

السياسات الرمزية: وفقا لتعريف أرساه عالم السياسة الأمريكى موراى الدرمان؛ فالسياسات الرمزية تعنى الجانب الاتصالى فى السياسات التى يتبعها السياسيون للترويج لسياساتهم. ويقسم الدرمان السياسة إلى مكونين: مكون ذى قيمة رئيسية / استعمالية وهو الذى ينتج تحولات مادية أو أيديولوجية جديدة ويطور حياة الناس باتجاه غاية يرتضونها، ومكون تعبيرى ذى قيمة دراما تورجية رمزية. وهذا سبب رئيسى فى ازدواجية تشتد كلما اشتدت سطوة الإعلام. ويتزايد ضررها مع تزايد غلبة المكون التعبيرى على الجانب الرئيسى / الاستعمالى. ويضع سيلبين السياسات الرمزية فى مقدمة العناصر التى تساعدنا على فهم العملية الثورية، الذاكرة الجمعية والسياق الاجتماعى.

Q-

Quinney ،R

ريتشارد كوينى: هو الذى شارك رونالد بيرجر تحرير كتاب يضم أبحاثا متنوعة وصفت بأنها ارتفعت بالسوسيولوجيا من قيعان البحث الأكاديمى إلى ذرا

الحياة التى تنفجر حيوية ويحمل الكتاب عنوانا هو "سوسيولوجيا القص: السردية كاستقصاء سوسيولوجى" ويعده سيلبين من المصادر الأساسية التى استعان بها فى كتابه هذا.

R-

Rebellion

التمرد: يتخذ الكتاب من وجهة نظر الرئيس الثالث للولايات المتحدة توماس جيفرسون مدخلاً للكلام على التمرد، الذى يعتبر جيفرسون أن وقوعه بين الحين والحين هو بمثابة دواء ضرورى لصحة الحكم. ويرفض سيلبين ما ينطوى عليه كلام جيفرسون من اعتقاد بحتمية التمرد لكن ذلك لا يمنعه من تقدير وجهة نظر الرئيس. ويعتبر سيلبين أن التمرد هو هبة أو تمرد نادراً ما يسعى لتغيير كلى فى النظام، بل يوجه ضرباته إلى مواضع معينة فى المؤسسة الحاكمة، وربما سعى إلى إعادة تنظيم الحكم أو إلى وقف مظالم بعينها.

Repertoire of collective action

مخزون العمل الجمعى: وهو مصطلح صاغه عالم الاجتماع والمؤرخ الأمريكى تشارلز تيللي، ويعنى الخبرة المختزنة فى العقل الجمعى التى تعيد الحكايا إنتاجها كما أنها هى ذاتها تعيد إنتاج الحكايا، وهذا المصطلح مكافئ لمصطلح "شنطة العدّة" عند سويدلر. ويرى سيلبين أن أهم عناصر "مخزون العمل الجماعى" و"شنطة العدة" هى "أرشيفات المشاعر" كما حددتها سفيتكوفيتش و"الخيال الثورى" عند باركر، إضافة إلى ما يقوم على هذه العناصر من حكايا ورموز وطقوس ورؤى، ويتوج هذا كله، فى اللحظة الثورية بـ "إستراتيجيات العمل" التى تضيف إلى "مخزون العمل الجماعى".

Resistence

المقاومة: يشير سيلبين إلى المقاومة تلقى من التأييد أو الاعتراض أكثر مما تلقى من الاهتمام التحليلى، لكنه يرى أن المقاومة تقوم على عنصرين هما "الفعل" و"المعارضة"، ويجمع معظم الدارسين، برأيه، على أن الحركة التي تستحق أن توصف بأنها مقاومة يجب أن تكون جمعية ومنظمة لا فردية أو غير منظمة؛ ويتعين أن تكون مبدئية وتقوم على إنكار الذات لا انتهازية أنانية؛ ويتعين أن تترتب عليها نتائج ثورية وأن ترفض أكثر لا أن تنصاع للسيطرة.

Revolution

الثورة: لكل شعب من شعوب الأرض مفهومه عن الثورة. ويرتبط كل مفهوم، وفق ما يراه سيلبين بالحكايا التى يحكيها كل شعب عن الثورة. ولا يعنى هذا أن الناس لا يعرفون ما هى الثورة إلا عندما يرونها. ففى عقولهم وقلوبهم، دائمًا، مجموعة من المفاهيم المترابطة والمتسقة حول ما هى الثورة وكيف يمكن تمييزها عن غيرها من الظواهر. فهى ترتبط فى الأذهان بالنضالات من أجل الطعام والأرض والسلام والعدالة وتكافؤ الفرص. ورغم أن الكثيرين يخشونها فالثوريون هم من يرونها تقوم على مبدأ أنه لن يصح إلا الصحيح، ومن خلال حدث هائل ودراماتيكى تقدم عليه جماعة متحدة تسقط الحكم محدثة بذلك تحولاً عميقًا فى المجتمع. فالثورات – كما يقول سيلبين – ليست شيئًا يحدث تلقائيًا، وإن كانت الفكرة رومانسية ودراماتيكية، لكنها أمور قصدية يأتى بها أناس يسعون عامدين إلى تغيير العالم – وإن كان من المحتم أن يسفر ذلك عن نتائج ليس من المحتمل أن يتخيلها أحدهم وتحت ظروف لا سيطرة لهم عليها والأداة الأولية لذلك صوغ حكايا آسرة ذات حبكات جذابة.

والنقاط المرجعية التى يركز عليها الكتاب هى الثورة الأمريكية (١٧٧٦) والفرنسية (١٧٨٩) والمكسيك (١٩٢٠) وروسيا (١٩١٧) والصين (١٩٤٩) وكوبا (١٩٥٩).

S-

Sheherazade

شهرزاد: التى قد تكون أعظم تجسيد - برأينا - لقوة الحكايا كأداة للمقاومة، عبر العصور. فالحكايا هى الأداة التى استخدمتها شهرزاد لوقف سلسلة القتل المتواصل لبنات بلدها، ولتأسيس صورة جديدة للمرأة باعتبارها مخلوقًا يملك مخزونًا قويًا من الحكمة والخيال، ولتحويل الملك من سفاح تلوث قلبه وروحه بالشك إلى زوج وأب وملك رحيم. وهى هنا أرقى من الحسناء التى حولت الضفدع البشع إلى أمير جميل بقوة الحب، فى التراث الأوروبى.

Story

الحكاية: هذا المصطلح هو المفتاح فى كتاب إريك سيلبين "الثورة والتمرد والمقاومة: قوة الحكايا". فالناس، برأى سيلبين، يختارون المقاومة ويفجرون الثورات بوسائل من أهمها صياغة الحكايا. تقول لنا الحكايا من نحن، من أين جئنا، وإلى أين مضت بنا المسيرة، وإلى أين يتعين علينا أن نمضى؟. تقول لنا كيف جرى ما جرى، ومتى، ولماذا؟. وقد نحكى لغرض يتجاوز الحكى؛ قد نحكى بهدف الإعلام أو الإرشاد أو التوجيه أو ربما التحريض. قد تكون الحكاية طريقة لإعادة إنتاج الماضى و / أو الحاضر بهدف توجيه مسار جماعة أو أمة إلى نقطة تمضى بها إلى مستقبل أفضل. وقد تكون الحكاية وسيلة نطمس بها ماضيًا مؤلمًا أو مخجلا. وقد نحكى الحكاية لنعزى أنفسنا بعد أن خنقت المقاومة، أو بعد أن

انسدت سبل التمرد، أو بعد أن تحولت الثورة التى تحققت إلى كابوس نحلم بالخلاص منه.

ويرى سيلبين أن عقودا من البحث السوسيولوجى فشلت فى الكشف عن أسباب حدوث الثورات فى مكان دون الآخر وفى زمن دون الآخر، مضيفًا أن السبب فى بقاء وانتشار فكرة الثورة هى الحكايا التى نحكيها عن الثورة والتمرد والمقاومة.

T-

Triune

التريون أو المثلث: لفظ يعنى الثلاثة ويعنى الواحد، وهو مشتق من "ترينيتى" أو الثالوث المسيحى. ورغم أن كلمة الثالوث لا تظهر فى الإنجيل فالمسيحيون يؤمنون بإله واحد مؤلف من ثلاث قوى (يقول بعضهم ثلاثة أشخاص) متآلفة ومتناغمة ومتساوية وأيضا مختلفة. وقد عرفت الديانات القديمة الآلهة المثلثة، ويرى عالم الألسنية الفرنسى جورج ديموزيل أن المجتمعات الهندو – أوروبية القديمة كانت تتألف من ثلاث طبقات هى الكهنة والمحاربون والفلاحون وأن هذا كان سببًا رئيسيا لانتشار المسيحية، التى يعد الثالوث حجر الزاوية فيها، فى أوروبا.

ويستخدم سيلبين لفظ التريون للإشارة إلى وحدة العناصر الثلاثة المكونة للحكاية وهى الخرافة، الذاكرة، المحاكاة وهي، برأيه، عناصر متآلفة ومتناغمة ومتساوية وأيضًا مختلفة، داخل بنية الحكاية.

U-

Uprising of the anecdotes

هبة الحواديت أو انتفاضة الحكايا: مصطلح أخذه سيلبين عن المثقف اليهودى الألمانى وولتر بنجامين الذى مزج بين المادية التاريخية والمثالية الألمانية والصوفية اليهودية وكان له تأثير عميق على الفكر الماركسى فى أوروبا والولايات المتحدة.

ولأن سيلبين لا يميل إلى الرأى القائل بأن "الثـورات تحـدث" أى أنهـا لا تصنع بل تحدث، كما يحدث الزلزال أو الانفجار البركانى أو كما ينبثـق الربيـع الدافئ من قلب ثلوج الشتاء، فهو يرى أن الانتفاضة الثورية هى انتفاضة الحكايـا التى تفعّل "مخزون العمل الجماعى الثورى".

V-

Vanguardism

الطّليعية: المبدأ الذى يجعل من تفجير وقيادة الثورة مهمة فـرد طليعـى أو مجموعة من القادة أو حزب طليعى ووفقًا لما قاله دافيد غريير فهذه الفكرة لم تعـد تجد من يؤمن بها، فى المائة سنة الأخيرة، إلا فى حدود الحركات الطائفية. ويرى سيلبين أن الثورات الفرنسية والروسية والصينية والكوبيـة هـى ثـورات قادتهـا عناصر طليعية وبالتالى فهو يعتبرها ثورات من أعلى.

W-

Words ،maturing process of

عملية إنضاج الكلمات: هو مفهوم ولد بين سطور وولتر بنجـامين ويـرى سيلبين، من خلال قراءته لبنجامين، أن إنضاج الكلمات يكون عبر عمليات مختلفة تستهدف الكشف عن أعمق ما فيها، وأهم هذه العمليات هى الترجمة.

Z-

Zapata ،Emiliano

إيميليانو زاباتا: الثورى المكسيكى الذى ولد فى ١٨٧٩ ومات فـى ١٩١٩ وهو من الشخصيات القيادية فى الثورة المكسيكية التى تجمعـت عواصـفها منـذ ١٩٠٩-١٩١٠ ومات هو قبل نهايتها فى ١٩٢٠ بعام واحد.

المؤلف فى سطور:

إيريك سيلبين

- واحد من قيادات "الجيل الرابع" من منظرى الثورة. ويطلق هذا اللقب على مجموعة من المنظرين منهم سيلبين لكن أهمهم قد يكون جون فوران مؤلف كتاب: "إعادة النظر فى الثورة – باتجاه الجيل الرابع من المنظرين". وسيلبين أستاذ العلوم السياسية بجامعة ساوث ويستيرن بالولايات المتحدة، وعمل من ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٦ كأستاذ لدراسات السلام والصراع فى جامعة أوميا السويدية، إلى جانب عمله فى ساوث ويستيرن.

- ومن أهم أعمال سيلبين "الثورات الحديثة فى أمريكا اللاتينية" فى ١٩٩٣، وظهرت طبعته الثانية فى ١٩٩٩ و"إنهاء المركزية فى العلاقات الدولية" الذى ظهر فى أكتوبر ٢٠١٠ وشاركته فى تأليفه ميغانا نافاك، وأثناء إعداد هذه الترجمة كان سيلبين قد اقترب من إنهاء "فهم الثورات" الذى اشترك فيه سيلبين مع جون فوران وجاك غولدستون.

- لسيلبين مقالات عديدة فى المجلات والدوريات وفصول فى كتب مع مؤلفين آخرين وتدور كلها حول قضايا ثورية.

المترجم فى سطور:

أسامة الغزولى

- صحفى ومترجم.

- بدأ مترجمًا للغة الروسية بالقوات الجوية من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤. عمل محررا مترجمًا بعدد من الصحف في مصر وفرنسا والكويت وبريطانيا والبحرين ومع عدد من المنظمات الدولية.

- ترجم عن الروسية: أثر الجماعة فى تنمية الشخصية الفردية.

- ترجم عن الإنكليزية: السينما والأيديولوجية وشباك التذاكر؛ تدريب العاملين الطبيين؛ اعترافات قناع؛ أجساد ثقافية؛ الهلال وراء الغيوم؛ القاهرة الكوزموبوليتانية.

التصحيح اللغوى: رفيق الزهار
الإشـــراف الفنى: حســـن كامل